سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

القراءة المعاصرة تحت المجهر

الأجزاء الكاملة

قراءة في كتاب

الكتاب والقرآن ..قراءة معاصرة

للدكتور محمد شحرور

الجزء الأول .

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

في مقدّمة الردّ

فوجئت منذ عدّة أشهر، حين سألني بعض الشخصيات الرّسمية وشخصيات غير رسمية، عن رأيي فيما ورد في كتاب "القراءة المعاصرة" الذي ألّفه الدكتور محمد شحرور استاذ مادة ميكانيكية التربة في كلية الهندسة المدنية. ونفيت آنذاك علمي بصدور الكتاب المذكور.

وأرسل لي بعد أيام من ذلك دكتور صديق ومشهور نسخة منه لأوافيه برأيي أيضاً. فأقبلت على تصفّح الكتاب. فوجدت أن صاحبه مهّد بمنطلقات بحث أساسية ومصطلحات وتقسيمات جاء بها على غير المعروف حتى الآن. وأدركت أن الذي ينقض هذه المنطلقات والمصطلحات والتقسيمات، يكون قد نسف كل ماجاء في الكتاب من أبحاث.

ثم علمت بعدها بالضجّة التي أحدثها صدور هذه القراءة المعاصرة على صعيد رجال الدين. الذين خطبوا مندّدين بصاحبها في المساجد وعمقوا كراهيته في نفوس المُصلّين.. ثم جاء من حمل إليّ مجلّة اسلامية معروفة تضمنت مقالاً لعالم شهير. ينقد ويتهم. ولايصرّح بل يلمّح.

تمكنت من الحصول على رقم هاتف الدكتور شحرور نفسه، ولم اتمكن من مكالمته إلا بعد شهر من الزمان. اتفقنا على الاجتماع في مكتبه، وحضرت على الموعد. ودام اجتماعنا مدة ساعة من الزمان. عرّفته خلالها نفسي. أهديت اليه نسخة من مؤلف لي. وأهدى إليّ نسخة من قراءته المعاصرة. وانتهى اجتماعنا بالإتفاق فيما بيننا على أن نجتمع بعد شهر من الزمان. يكون هو قد قدّم ملاحظاته الخطية على كتابي وأكون حاملاً معي ملاحظاتي حول كتابه أيضاً.

لم يف الدكتور محمد شحرور بوعده الذي قطعه على نفسه. وظللت ألاحقه أكثر من شهرين حتى صادفته على الهاتف في أواخر شهر رمضان المبارك. صرّح بأنه لم يقرأ من

كتابي إلا صفحات. ولم يدون ملاحظات، ورجاني أن أمهله عشرة أيام أخرى نجتمع عنده "للدردشة" وليس لأستلم أو يستلم شيئاً مكتوباً. أنهيت المكالمة معه غير راضٍ عن سلوكه هذا. فاعتبرت نفسي في حلّ من اتفاقي معه. والتفت لإصدار كتاب في الردّ على قراءته المعاصرة، على مراحل وأجزاء.

والسؤال المطروح قبل كل شيء هو هل يصحّ قولنا "قراءة معاصرة" نسبة إلى كتاب الله تعالى؟ اجاب على هذا السؤال عالم مشهور في بلدنا وهو أنه لايصح ذلك، ذلك على اعتبار أن النص العربي لايحتمل أكثر من قراءة واحدة.

وأنا أخالفه الرأي وأقول: صحيح أن النص العربي لايحتمل أكثر من قراءة واحدة. إنما ينطبق هذا على الجملة الواحدة بسيطة التركيب، لكنه لاينطبق على ماوراء ذلك، على النصوص الأدبية والأشعار وكتاب الله العظيم. ذلك أن الكاتب والشاعر يتجاوزان التراكيب العادية. ويتفنّنون في الصّنعة ويتبارون في الحقيقة والمجاز والبديع والبيان والاستعارات والتشابيه. فما بالكم بكتاب الله وقد تحدّى العرب في جميع هذه الفنون اللغوية وجاء على مستوى الاعجاز لغة ومضموناً؟ وحُمّل من بحور العلوم والمعارف مالا ساحل له، ليعالج ويعجز أهل كل زمان ومكان؟ كما احتوى على أنباء غيبية لايجلّيها لوقتها إلاّ هو.

لهذه الأسباب جميعها اتفق أنا شخصياً أن تكتب في كل عصر من العصور وكل قرن من القرون "قراءة" جديدة لكتاب الله على ضوء مستجدات العصر نفسه. على أن يتم ذلك من قبل المختصين والعارفين بالله من جهة، وضمن الأصول التي الزمنا بها كتاب الله ووفقاً لمشيئة ربنا الذي أنزله. أما أن يتصدى لهذا غير متخصص، فلا يعتمد الأصول التي لابد من اعتمادها، وينطلق غير الانطلاقة التي ذكرناها، فذلك ماينبغي أن يتجنبه المثقفون، والعلماء منهم خاصة. إذ لابد من ربط حاضرنا بماضينا حتى لاينطبق علينا قوله سبحانه ﴿كلما جاءت أمة لعنت أختها﴾ الأعراف ٣٨ .

من هذا المنطلق لا أراني قد صدمت بخبر ظهور "قراءة معاصرة" بل وكنت مسروراً جداً مبدئياً، أن يأخذ الفكر طريقهُ إلى التعبير بصراحة وجرأة. لكني صُدمت حقاً بعد تصفّحي الأول لهذه "القراءة المعاصرة" فقد لاحظت عدم تخصّص صاحبها، وعدم التزامه

بالأصول التي وضعها ربنا من أجل فهم كتابه العظيم، خطأ الدكتور محمد شحرور قد سار في "قراءته المعاصرة" على اسلوب المنجمين متناسياً قول رسول الله ﷺ (كذب المنجمون ولو صدقوا).

ولا اعتقد أنني أظلم الدكتور محمد شحرور بهذا الأسلوب في التعبير فالذي يتابع ماكتبه في تمهيده واصطلاحاته، ويتابع اجوبتي وردودي عليها سيحكم في مصلحتي يقيناً، بل ربما أحس أني راعيت جانبه، فقصّرت في وصف اسلوبه بما هو أهل له.

وهناك من يسد باب الاجتهاد والبحث في أمور تفسير كتاب الله القرآن. على اساس أن اسلافنا رحمهم الله تعالى ماتركوا لنا أمراً لنجتهد فيه ونبحث. ولربما قصد أصحاب هذا الرأي البحث في الأمور الفقهية.

أما أنا فلا اتفق مع رأي هؤلاء. مالم أجد الأجوبة المقنعة على الأسئلة الخمسة التالية:

السؤال الأول: ماهي معاني الحروف المقطعة التي نلاحظها في أوائل بعض السور القرآنية؟ فإن قيل إن الله تعالى استأثر في علمه بمعانيها، نقول قد نسبتم إلى كتاب الله احتواءه مالايوصف بكلمة [قرآن مبين].

أو قيل إنها أسماء للسور. نقول قد حكمتم على أن كثيراً من سور القرآن نزلت من دون أسماء. من دون أن تقدّموا على ذكر سبب ذلك الدليل والبرهان.

أو قيل إنها أسماء الله الحسنى وحسب. نقول: لزم أن توضحوا لنا: كيف؟ ولماذا؟ أي كيف نفهم أنها أسماء الله الحسنى؟ ولماذا لم تبتدىء أكثر سور القرآن المجيد بأسماء الله الحسنى؟.

فإن اجبتم: نسلّم بقراءة وصلتنا. نسأل: ولم لاتتدبرون كتاب الله بأنفسكم، خصوصاً وانكم مأمورين بذلك من الله بارئكم. وإلا قال سبحانه عنكم إن على قلوب أقفالها. وفي اجابتكم اقرار أيضاً بأن قراءة الاجداد غير كافية أيضاً.

فإن قلتم: روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ قوله (ألم) تعني أن الله أعلم. توجب عليكم حينئذ تقديم تفسير لجميع أحرف المقطعات الباقية بقراءة من الصحابة والتابعين. حتى لانضطر للقول بضرورة "قراءة معاصرة".

فإن قيل إن الأحرف المقطعة قد نزلت لمجرّد التعبّد بها دون معنى لها. قُلنا: هذا مجرد إدعاء ولايدعمه دليل مقنع، فلابد من حكمة ومعنى للمقطعات.

فإن قلتم إن حروف المقطعات وضعت لتبكيت العرب واشعارهم من أن هذا الكتاب مؤلف من هذه الأحرف ومع ذلك فهو معجز لكم. نسألكم: فما هي حكمة وجود سور غير مبتدئة بمقطعات إذن؟ فهل نزلت ولاتحدي فيها؟ ونسألكم: ماحكمة افتتاح سورة بحرف مرة أو بحرفين مرة أخرى، أو بثلاثة أحرف أو أكثر مرة ثالثة. فما هي حكمة قلة عدد هذه الأحرف وكثرتها، فلا يُقْدم ربنا على فعل لغواً ومن دون حكمة بالغة. ونسألكم: هل يحق لإنسان ما أن يُقدم أو يؤخر في هذه الأحرف بصورة من الصور إن كانت قد وضعت لمجرد التبكيت، وليس لحكمة بالغة؟.

السؤال الثاني: لنفترض معكم وجود قراءة واحدة لكتاب الله، وعلى أنها قراءة الصحابة والتابعين فقط، فكيف تفسّرون لنا ظاهرة تعدُّد تفاسير ألمفسّرين؟ ومامنى أن يردّد أصحاب هذه التفاسير ضمن تفاسيرهم قولهم: قيل وقيل وقيل؟ ورُوي ورُوي ورُوي؟ فإذا انتهوا من تفسير الآية قالوا: والله أعلم؟ فأين القراءة الواحدة للنصوص القرآنية عند صحابة رسول الله والتابعين؟ ثم كيف ولم اختلفت فرق المسلمين في فهم هذه النصوص؟.

السؤال الثالث: هل اتفق الصحابة وتابعوهم على أصول موحّدة لقراءة النصوص القرآنية؟ فإن قلتم: نعم. نسألكم: ماهي هذه الأصول، وكم عددها، وأين مرجعها، ومن وضعها؟ أو قلتم: انهم اختلفوا في عدد هذه الأصول، نسألكم: لماذا، ومن أين استمدوا سلطتهم في جمع هذه الأصول؟ كما نسألكم: ماهو الطريق الأسلم لمعرفة أصول تفسير وقراءة القرآن المجيد، تفسيراً وقراءة لارجعة فيهما.

السؤال الرابع: هل تضمن كتاب الله في نظركم، نبوءات غيبية مستقبلية الوقوع، ولم تتحقق مضامينها حتى يومنا هذا؟ وافرضوا تحقق الانباء الغيبية على غير قراءة الصحابة والتابعين، أفلا يعتبر خطؤهم هذا دليلاً على ضرورة كتابه قراءة جديدة في كل قرن من القرون؟

السؤال الخامس: هل لديكم قراءة واحدة للصحابة وتابعيهم معتمدة من قبل جميع المسلمين في العالم بمختلف فرقهم وأقطارهم. وتشرح هذه القراءة الموحّدة كتاب الله على

صورة لاتخالف العقل والمنطق والأحداث والتطورات التاريخية؟ فإن أجبتم بالنفي. نسأل وهل بإمكان أحد القيام بهذه المهمة على الوجه المقبول؟ وأن يجيب كاتب القراءة على مختلف اسئلة السائلين أجوبة مقنعة مُدلّلة ومقبولة؟.

وأقول إضافة إلى مضمون هذه الأسئلة الخمسة. إننا إذا لم نتفق على اجابات صحيحة ومنطقية تتعلق بهذه التساؤلات، فلا يحق لنا أن نمنع ظهور قراءة معاصرة لكتاب الله العظيم.

هناك من المتّدينين وغير المتدينين، من يسارع إلى اتهام سواهم على اساس من الظنون، كما يسارعون إلى التكفير بدون مسوّغ شرعي. وأقول إنني بعيد عن هذا بُعد الأرض عن السماء. ذلك لمنافاة ذلك لتعاليم الإسلام. فالظن لايغني من الحق شيئاً. ولايجوز أن يُكفر إنسان يشهد بكلمة الشهادة، ويأكل من ذبيحة المسلمين. ويستقبل قبلتهم، وينبغي مقارعة الآراء بسلاح الحجة والبرهان. ولايجوز الحجر على العقول وكبتها.، فللّه الحجة البالغة. وإن العالم المتمكن من علمه لايخشى هذه المنازلة ولاهذه المواجهة. بل يخشاها الذي يكون بيته من زجاج، وإن فاقد الشيء لايُعطيه. وإضافة إلى ذلك فلاينبغي أن يكون البحث للّرفه العقلي، بل بحثاً عن الحقيقة، وسعياً للتطابق مابين النظرية والسلوك.

ومادام صاحب "القراءة المعاصرة" يدعي الإسلام فيها بصريح العبارة. ومادام يُبدي حماسته للدين الإسلامي بصريح العبارة أيضاً. فلايحق لأحد أن يشق صدره وينظر مافيه ويطعن في نيته، ذلك لأن هذه هي مهمة رب العالمين، ولايكون واجبنا في هذه الحالة إلا الردّ عليه بسلاح الحجة والبرهان والخلق الحسن. وأن يُترك للمراقب تحديد النظر إليه، غير متناسين حقيقة القانون الطبيعي الذي سنه الخالق نفسه، والقائل ﴿فأما الزبد فيذهب جُفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ الرعد ١٧ .

وانتقل للكلام على القراءة المعاصرة نفسها، وماورد فيها بقلم الدكتور محمد شحرور فأقول: إن مايّميز هذه القراءة اصطلاحاتها وتقسيماتها ومنطلقاتها. هذه التي انتهى الدكتور شحرور من ورائها، لتجزئة كتاب الله إلى مجموعة من عناوين كتب مختلفة، ماقال بها رسول الله واصحابه. ولاقال بها المسلمون على اختلاف أزمنتهم واختلاف اقطارهم.

وأضيف قائلاً: إن صحّت هذه الاصطلاحات والتقسيمات والمنطلقات التي فاجأنا بها الدكتور شحرور. فإنها تحطّ من مكانة كتاب الله وتنزله من عليائه. وتصيبه بالتقزّم والسطحية، فلايعود كتاباً معجزاً لالغة ولامضموناً، بل يعود تابعاً لمصطلحات الفكر الماركسي وفلسفته بِعجَرِ هذا الفكر وبُجَرِه.

والغريب في أمر صاحب القراءة المعاصرة أنّه لم يفطن لهذا الأمر. بل يزهو بما جاء به من منطلقات ومصطلحات وتقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، والأغرب من ذلك ألا يعتمد الأصول والقواعد الضرورية والمُسّلم بها في البحث. متجاوزاً ذلك إلى اسلوب "التنجيم" والحزر والتخمين. هذا الأسلوب الذي شَرّخَ التسلسل الموضوعي لكل سورة من سور كتاب الله، استشهد بإحدى آياتها، مما ستتبينون حقيقة أمره في هذا الكتاب.

ومايلاحظ على صاحب القراءة المعاصرة، ومايؤخذ عليه، هو أنه لايقدّم نفسه كباحث ومجتهد وحسب. بل يخطو خطوة خطرة جداً، وهي التهجم على السّلف الصالح، وتسفيه آرائهم، وبأقذع الألفاظ، كما أنه يقدم نفسه وكأنه المسلم الوحيد الذي تكشفت على يديه حقائق الإسلام وحقائق تعاليم كتابه العظيم. مُعتبراً "قراءته المعاصرة" القدوة على درب المستقبل والإمام في فهم الإسلام وتبنّيه.

إن هذا الأخ المسلم، لو كان وقف عند حدّ الإدعاء بالبحث وتقديم الرأي، لقلنا إنه يثاب على اجتهاده ولو اخطأ الرأي، أمّا وقد تجاوز هذا الحدّ، وسفّه آراء السلف الصالح بألفاظ ستلاحظون نماذج منها في هذا الكتاب، فإننا لانملك أنفسنا أن نشك في نياته ولانجزم في أمره، ونترك أمر محاسبته على اجترائه المشار اليها للمسؤولين وللتاريخ الذي لايرحم.

وإنني بروح الاعتدال هذه، هذه الروح التي غرستها فيّ تعاليم الإسلام، تناولت مصطلحات وتقسيمات ومنطلقات الدكتور محمد شحرور بالدراسة والتمحيص وكشف نواحي الزيف فيها. وقد حاذيت كل خطوة خطاها، ونقضت كل ماقدّمه من أدلة واستشهادات ومعاني منحوتة من عنده، وسلاحي هذا كله مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل. وتغاضيت عن سطحية الدكتور شحرور، وضعفه اللغوي والتواء أساليبه.

وأبرز ماحاوله صاحب القراءة المعاصرة في تمهيده المعنون (بالكتاب والقرآن) هو افهامنا أن النّبوة غير الرسالة، وأن في كتاب الله من الآيات مايقابل النبوة، ومن الآيات

مايقابل الرسالة، وأن آيات النبوة التي اصطلح الله سبحانة على تسميتها (الآيات المتشابهات) وأن آيات الرسالة هي التي اصطلح على تسميتها (الآيات المحكمات).

ولقد كتبت فصلاً مستقلاً في موضوع مفهوم نبي ونبوة. ونقضت فيه كل مازعم هذا من حيث اللغة ومن حيث النص. كما أني كتبت فصلاً مستقلاً آخر في موضوع مفهوم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، قطعت فيه جهيزة قول كل خطيب وكتبت فصلاً في نقض مصطلح (الذكر) وفصلاً آخر في نقض مصطلح (الفرقان). وإني لعلى يقين تام بأن من يطالع هذه الفصول ، لابد أن يتخلّص من كل ماعلق في ذهنه من آثار تركتها هذه القراءة المعاصرة فيه. وأن القارىء سيحكم بعد قراءتها على مصطلحات الدكتور شحرور بالبطلان الصريح.

وإن الدكتور شحرور، حينما فرّق بين النبوة والرسالة، إنما كان يهدف أصلاً إلى تشويه مفهوم الآية السابعة من سورة آل عمران التي تكلمت عن المحكمات والمتشابهات، فهو قد أعطى هذه الآية معنى منطلقاً من هذا التفريق بين النبوة والرسالة، وزاعماً أن الآيات المتشابهات لاسبيل للأخذ بها إلا "بالتأويل"، ووضع أسساً لهذا التأويل ما أنزل الله بها من سلطان.

وهو حينما أفرغ آية سورة آل عمران المذكورة من محتواها، وحملّها مالاتحتمل، فقد احتاج إلى أدلة من خارجها تدعم لباسه "مسبق الصنع" الذي حاول الباسها إياه، فعمد إلى سورة البقرة، متناولاً ثالث آياتها ليزعم أنها تعني (كتاب الغيب) أو الآيات المتشابهات أو كتاب النبوة، وليزعم أن ﴿ ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ تعني الآيات المحكمات أو كتاب (السلوك والاخلاقيات) أو كتاب الرسالة. وسيرى قارىء كتابي وتتضح لعينيه أن هذا الذي زعمه عاد خراباً يباباً، وسيدرك أن ﴿ يؤمنون بالغيب﴾ ماهي إلا صفة للمتقين، ولاعلاقة لمعنى الغيب لغوياً بما زعم هذا وذهب إليه. وأن هذه الصفة متعلقة بالسّلوك وليس بالمتشابهات.

حيث تحمل صفة الغيب هنا، استناداً إلى المعاني اللغوية التي اوردها اللغويون، منهجاً لاصلاح النفس، وأسس التعامل الاخلاقي مع الآخرين، والتزام فكر علمي في البحث والدراسة بعيداً عن الأوهام والظنون. والالتزام بفكر نابع عن فلسفة حياتيه جاء بها كتاب

الله العظيم. والوصية بلابتعاد عن دروب النفاق وازدواج الشخصية على جميع صُعُد الحياة، مع التزام الخط الذي أشارت إليه الأنباء الغيبية التي تضمنها كتاب الله عز وجل. ومادام هذا كله أموراً سلوكية، فقد بطل زعم الدكتور شحرور أن يؤمنون بالغيب يعني النبوة والمتشابهات وسوى ذلك.

ومذهب الآخ المسلم هذا يبتر آية عن سباقها وسياقها، ويفرغها من محتواها، ويلبسها لباساً مزعوماً مسبق الصنع من عنده. فيشوّه بهذه العملية معاني الآيات افظع تشويه.

ولقد تصدّيت لخطواته المذكورة، خطوة خطوة، وآية آية، حتى بلغ عدد خطواته تلك تسعُ خطوات، حاول من خلالها ايهام القارى أن القرآن شيء وأن الكتاب شيء آخر. وانتهى إلى اتهام السلف الصالح بالضلال وتحجّر العقول. ولم يستثن حتى صحابة رسول الله الكرام من اتهامه البشع المذكور. ولا أريد اطالة عرض ماورد في "القراءة المعاصرة" من ترهات، لأن القارىء الكريم، إذا طالع كتابي هذا سيلاحظ كل شيء وتفنيده على كل حال.

ومن أبرز مايؤخذ على الدكتور شحرور أنه خصص لشرح كلمة (كتاب) مثلاً صفحتين ونصف صفحة، وبدا فيها وكأنه يلقي درساً على الأطفال في برنامج (افتح ياسمسم)، في الوقت الذي ماكان هذا اللفظ يحتاج إلى شرح يتجاوز الأسطر، ومن جهة ثانية أهمل شرح كلمات كثيرة ككلمة (الغيب) مثلاً من الوجهة اللغوية، فلم يخصص لمعناها أكثر من سطر ونصف سطر، وهذه الظاهرة جاءت تشكك القارىء العالم في زاد الدكتور شحرور اللغوي كباحث، هذا الزاد الذي خلف وراءه غيوماً سوداء على درب ماكان يهدف إليه.

والذي لاحظته أن هذا الأخ المسلم تبنى جميع مصطلحات الفلسفة الماركسية، بعُجَرها وبُجَرِها، بحيث يشعرنا أنه ماركسي في طويته، ولما كان هذا الأمر من قبيل الظن، ولايرقى إلى حدّ اليقين فإننا نسكت عليه على مضض، إلى أن يكشف لنا الله عز وجل حقيقة أمره بشكل لالُبس فيه.

ومهما كان الأمر، فإن الدكتور شحرور، أظهر في آخر كتابه أنه قدّم لأمته مالم يقدمه إنسان آخر سواه. فهو كتب على الصفحة (٧٣٠):

(إن العالم الآن على أبواب استقبال القرن الحادي والعشرين الميلادي ولا أعتقد أنه يوجد شيء عند العرب والمسلمين ليدخلوا به هذا القرن. فكأنه كتب عليها "حاشا الله" أن نعيش عالة على العالم في السّلع والأفكار. إن مانعيشه الآن ليس قدرُنا الإلهي، ولكنه قضاؤنا الذي اخترناه بأنفسنا نتيجة جهلنا، وعدم وجود نظرية معرفية إنسانية لدينا. إنني أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. وأن أكون من الناس الذي استطاعوا أن يقدّموا شيئاً لأمتهم وشعبهم، ولا أدعي الكمال في حياتي الشخصية، ولا أعيش حياة الناسكين...)

ومن خلال هذا النص يتضح أن الدكتور شحرور:

أولاً - يجرّد العرب والمسلمين قاطبة من أي شيء يدخلون به القرن الحادي والعشرين.

ثانياً - ويجرّد العرب والمسلمين من أن يكون لديهم نظرية معرفية إنسانية.

ثالثاً - ويعتبر نفسه أنه الإنسان العربي المسلم الوحيد الذي قدّم هذه النظرية المعرفية الإنسانية، ليدخل بواسطتها الأمتين العربية والإسلامية القرن الحادي والعشرين.

هذه الأمور، كما ترون، ماهي إلاّ سقطات قلمه نفسه.

ولاشك أنْ من يقرأ كتابي في الردّ عليه، وتفنيد ماجاء به، ستتضح لعينيه حقيقة مُرّة جداً، هي على عكس مازعمه الدكتور شحرور في هذا النص الأخير.

وللأسف الشديد، قد أخذت المادة والمواد، من عقل الدكتور شحرور مأخذها فيه. حتى أنسته دور القيم الروحية الحاسم في حياة الإنسانية والشعوب. فما تساءل: هل أفادت الفلسفة الماركسية المادية شعوب المعسكر الاشتراكي في شيء اللّهم إلا تجويع تلك الشعوب وتكديس آلات الحرب والدمار؟ وهل أفادت شعوب أوربا وأمريكا فلسفتها المادية وتكنولوجيتها المتفوقة في القضاء على الطبقية وروح العنصرية والفقر بين أبنائها؟ اللهم إلانشر الموبقات والإدمان على المخدرات؟ ألا إن جميع العقلاء باتوا يدركون أن المرض لايكمن في الفلسفات والمبادىء، إنما يكمن في انعدام الحياة الروحية وفقدان الأئمة الروحانيين.

وليسأل الدكتور شحرور نفسه بنفسه: هل أفادته ذاتياً نظريته المعرفية الإنسانية التي يقدمها لإصلاح العالمين العربي والإسلامي؟ هل تناسى أنّه مُدمن على التدخين؟ فهل تقر نظريته هذا الإدمان؟ فأين النظرية وأين التطبيق؟ ثم إنه أبرم معي عهداً أن يقدم ملاحظاته كتابياً على

كتابي الذي أهديته إليه بعد مطالعته وخلال شهر من الزمان، وإنه أخلف وعده. فهل تقرّ نظريته المعرفية الإخلاف بالوعد، ولاتفرض على صاحبها تقديم الاعتذار من فوره؟ أما أنا فقد وفيت بوعدي. وها أني نقضت له منطلقاته ومصطلحاته وتقسيماته المزعومة، وكما وعدته. وأن اخلافه بوعده اضطرني لنشر ردي عليه على شكل كتاب.

على كل حالٍ لاحاجة للتوسع في ضرب الأمثلة من واقعه، وعليه أن يعلم بأن مرض الأمتين العربية والإسلامية لايكمن في افتقارها إلى هذه النظرية المعرفية الإنسانية أو تلك. إنما يكمن في عدم تمسكها بقيمها الأخلاقية والروحية التي قدمتها لها تعاليم دينها. وإن وراء هذا الانحلال، هذه التيارات الفكرية المادية التي عرضها ويعرضها الملحدون والماركسيون وأمثالهم مشوبة بزخرف الحياة الدنيا ومباهج المادة. وإن على الدكتور شحرور أن يتذكر بأن رائد الأمة العربية محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، ماكان على ثقافة الدكتور شحرور "العلمية". وبالرغم من هذا فقد استطاع هو أصحابه والذين كانوا على شاكلته الروحية، توحيد أمتهم ورفعها إلى مصاف أعظم الأمم في الأرض. فلم يحققوا ذلك عن طريقة نظرية الدكتور شحرور المعرفية الإنسانية. خصوصاً وأنه اعترف بجهلهم لجميع جوانبها، بل استطاعوا ذلك باخلاقياتهم وروحانياتهم وصلاتهم بالله خالقهم. واليوم لايصلح أمر هذه الأمة إلا بما صَلُح به أولها.

وإنّه ليأخذني الأسف الشديد على الدكتور شحرور إنه لم يعط الأمور الأخلاقية والروحية وزناً في نظريته، بل إن كل من يتابع ماكتبه، من هذا المنظار، يوقن بأن الدكتور شحرور حاول المستحيل لقتل الأخلاقيات والروحانيات ومايمت إليها بصلة من الصّلات. والعجيب أن الدكتور شحرور، من خلال مانقلته لكم من كلماته الأخيرة يرجو الله سبحانه وتعالى، على حدّ قوله أن يتقبل عمله خالصاً لوجهه الكريم.

فلو كان متيقناً من وجود الله عز وجل لكان أبدى يقينه وليس رجاءه ولكان قال إني أفتخرُ أن وفقني ربي إلى هذا وكتب لي السعادة من عنده. أما وقد قال أرجو، فدلالة هذا اللفظ تعني أنه لاصلة له بربه أولاً، وأنه غير متيقن ممّا أقدم عليه ثانياً. وأنه يتهّم ربّه بأنه قد يتقبل عمله أو لايتقبله. أي أن ربّه يقيس الأمور بمقاييس غير ثابته. يتقبل عملاً صالحاً ولايتقبل عملاً صالحاً آخر (والعياذ بالله).

وأعقّب أنا بدوري على كلمات الدكتور شحرور المذكورة فأقول جازماً أن من أبسط البديهيات ألا يتقبل الله عز وجل عمل من سعى لتجزئة كتابه القرآن العظيم. والذي أجهد نفسه لتشويه معاني آياته. والذي انتقص من فهم رسول الله وصحابته وجميع المسلمين. هذه الأمور التي بدرت من الدكتور شحرور، من حيث يدري، ومن حيث لايدري. فهي أمور اضحت واضحة البطلان. وها أني أقدّم لقارئي العزيز بعضاً من نماذج مّما فعله الدكتور شحرور:

أولاً - هل يصّح قوله بأن جميع المسلمين على اختلاف أزمنتهم "بلا عقول ومتحجرون"؟؟

ثانياً - هل يصّح قوله بأن "دارون" هو من "الراسخين في العلم" الذي نص عليهم كتاب الله، أما محمد رسول الله وأصحابه فماهم من الراسخين في العلم؟؟

ثالثاً - هل يصّح قوله بأن الله عز وجل قد اصطلح صفة "أحسن الحديث" لأحرف المقطعات التي يتمتم بها المؤمن. بينما لم يصطلح إلا صفة (الحديث) لآيات القرآن العظيم؟ فهل جاءت المقاييس عند الله مقلوبة ومعكوسة والعياذ بالله؟؟

رابعاً - هل يصّح الاستشهاد بآية كريمة على شيئين متغايرين كما فعل هو بآية سورة الزخرف (٢٣) استشهد بها تارة على أنها تعني كتاب الآيات المتشابهات، واستشهد بها تارة أخرى على أنها تعني "سبع المثاني" أي أحرف المقطعات؟؟

خامساً - هل يصّح بتر كل آية قرآنية عن سباقها وسياقها، ليبدو كلام الله ووحيه وكأنه لارابطة تربط آياته، حتى احتاج إلى "تنجيم" الدكتور شحرور لفهم معانيه؟؟

وإني لأقسم بالله العظيم الذي لايفلح الظالم المفتري عليه. أنه أيدّني في هذا الرد الذي رددت به على الدكتور محمد شحرور، تأييداً عجيباً. وإني لعلى يقين من أنه سبحانه وتعالى أحبط مافعله الدكتور محمد شحرور. والأيام بيننا، ولكل حادث حديث. والحمد لله رب العالمين.

سليم الجابي

الفصل الأول

الآيات المحكمات والآيات المتشابهات

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول
الآيات المحكمات والآيات المتشابهات

مازال موضوع الآيات المحكمات والآيات المتشابهات مثار جَدَلٍ واختلاف في الرأي منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا، حتى طلع علينا كتاب "قراءة معاصرة" بمفهوم جديد للمحكمات والمتشابهات، لايستند لأساس لغوي، ويتنافى وسباق الآية وسياقها.

ولما كان من حق كل فرد من افراد البشرية أن يبدي رأيه واجتهاده، شريطة أن يكون متجرداً ومنزّهاً ومخلصاً ومتخصصاً. فقد وعد رسول الله ﷺ كل مجتهد بثواب من ربه إن أخطأ، أما إذا أصاب فله حسنتان. وقد حثنا ربنا عز وجل أن نتدبر كتابه الكريم، فلا نكون مع من على قلوب أقفالها.

ومنهجي الشخصي هو ألا أحكم على إنسان، مالم تجتمع عندي معطيات السمع والبصر والفؤاد لإدانة هذا الإنسان، لأن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان المؤمن عنه مسؤولا.

ولقد بحثت في هذا الفصل مفهومي للآيات المحكمات والمتشابهات مؤيداً إياه بمعطيات اللغة، والنصوص القرآنية، مع محاولة تبيان انسجام ذلك كله مع سباق الآية التي هي محل البحث وسياقها.

فاعلموا أن الآية السابعة من سورة آل عمران بحثت هذا الموضوع، موضوع المحكمات والمتشابهات. علماً بأن سورة آل عمران قد أنزلها الله عز وجل على رسوله في المدينة المنورة. ويبلغ عدد آياتها مائتي آية، عدا آية البسملة. وقبل أن أدخل في توضيح رأيي، أجد لزاماً عليّ أن أضعكم في الإطار العام لموضوع سورة آل عمران وتسلسله المنطقي حتى تتكون عندكم فكرة أولية عن هذا التسلسل الموضوعي. وحتى تدركوا مدى انسجام المعنى الذي سأشرحه لكم حول المحكمات والمتشابهات، مع تسلسل السورة الموضوعي.

لقد ابتدأ ربنا عز وجل هذه السورة بدعوى ذات منطلقين رئيسيين، فالدعوى هي وجود ذاته سبحانه، وأن ذاته تتصف بصفتي الحي والقيوم، عَبر عن هذا كله بقوله ﴿آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾.

وتلاحظون أن هذه الدعوى بمنطلقيها، قد جاء نصفها على أسلوب الاختزال، ونصفها الآخر على اسلوب انشائي.

وإن الاختزال منها أي [آلم] فسّر معناه رسول الله ﷺ رواية عن ابن عباس، من أن (ألم) تعني أنا الله أعلم، وإني ساتعرض لشرح مبدأ الاختزال وفنه كما كان يستعمل في الجاهلية في حينه.

أعود إلى الدعوى التي تضمنتها هذه الآية الكريمة ذات المنطلقين. إنها دعوى تقول بوجود خالق لهذا الكون. وإنها لدعوى فيها التلميح إلى من اختلف من الناس حول وجود هذا الخالق العظيم. التلميح إلى ماوضعوه من نظريات، وإلى ماقدموه من أدلة وآراء. والتصريح بأن أصحاب هذه النظريات جميعهم، والذين سلّموا بوجودي منهم خاصة. قد صوروني وكأني لاعين لي ولا أذن ولا لسان. ومن خلال هذا التلميح والتصريح انطلقت دعوى التحدي في هذه الآية الكريمة لتسفه جميع ماوضع من نظريات في هذا الموضوع، موضوع الذات الإلهية ووجودها وصفاتها.

ففي أحرف الاختزال [آلم] أعلن الله عز وجل أنّ علمه هو الغالب على علم جميع أصحاب هذه النظريات. بسبب أنه هو (الله) جامع الأسماء الحسنى من جهة، وبسبب أنه (لا إله إلا هو) أي لايستحق التأليه والمحبة سواه عز وجل.

ولما كان هناك سؤال يطرح نفسه وهو لماذا وكيف؟ فقد قدَم سبحانه الجواب في اسمي الحي القيّوم وكأنه سبحانه أجاب بقوله:

لايستحق التاليه والمحبة سواي لأنني مصدر الحياة في هذا الكون وعندي قوام كل شيء. وإلى هذا الاستغراق في الدلالة وردت صفتا الحي القيوم معرفتين بالألف واللام، ولاشك أن الاتصاف بالحي القيوم لمن سلمّ بهما وآمن، ينسف جميع النظريات التي وضعها الفلاسفة على مدى التاريخ. ذلك أن الله سبحانه بهاتين الصفتين اللتين نسبهما لنفسه هنا يكون قد افهمنا أموراً لم يفطن اليها أصحاب هذه النظريات، وهو أنه سبحانه وتعالى متدخّل عملياً

في شؤون عباده -وهو وراء كل مظاهر الحياة عند الأمم على الصعيدين الفردي والجماعي - وأن كل شيء هو مصدر وجوده، ودونه لاتقوم له قائمة.

هذه خلاصة الدعوى التي تضمنتها الآيتان الأوليتان من سورة آل عمران، وهي دعوى ذات أبعاد كبيرة جداً، وجاءت لنقض جميع ماتوصل إليه الفلاسفة من نظريات قائمة على التفكير المجرد عن أي عامل مساعد يدعمها.

ذلك العامل المساعد الذي نلاحظ ضرورة وجوده إلى جانب جميع حواسنا وأجهزتنا، فالعين لاتعمل دون الضوء، والأذن لاتعمل دون الهواء، والأنف لايعمل دون وجود الروائح، والعقل إذن لايستطيع اعطاء أحكام كاملة دون عامل مساعد له. وهو وحي الله الخالق نفسه. وهذه النظريات الفلسفية خالية من هذا العامل المساعد، فهي أحكام ترجيحية لا أقل ولا أكثر.

وإن عظمة وخطورة هذا الإدعاء الذي افتتح الله سورة آل عمران به، اقتضت ألاّ تُقدّم دون البرهنة عليها، ببراهين لاتقل عن الدعوى مكانة وأهمية وشأناً.

لذلك نلاحظ أنه سبحانه قدّم لنا، في مجال دعواه، دليلين هامين جداً، دليلاً تاريخياً من خلال آيتين فقط. ودليلاً علمياً من صلب واقعنا المادي ومن خلال آيتين تاليتين فقط أيضاً.

ومن ثم دخل سبحانه الموضوع الذي أراد بحثه ووضعه بين أيدينا وبعد أن شكلت دعواه ومنطلقاته ودليلاه التاريخي والعلمي مقدمة لهذا الموضوع.

وقد عرض الله عز وجل موضوع سورة آل عمران ضمن أربع عشرة آية فقط، فانتهى عند الآية العشرين. ثم عاد يتبسَّط في شرح وتوضيح ماهو ضروري ومتعلق بالدليل التاريخي، ليضع بين أيدينا الأبعاد الصحيحة لهذا الدليل، فانتهى من ذلك عند الآية المائة.

ومن ثم تبسّط في شرح وتوضيح ماهو ضروري ومتعلق بالدليل العلمي، وليضع بين أيدينا الأبعاد الصحيحة لهذا الدليل الثاني أيضاً، فانتهى إلى آخر سورة آل عمران. هذا هو الإطار العام لهذه السورة العظيمة، وهو كما تلاحظون إطار مدروس ومحكم التسلسل الموضوعي في أفكاره. وسأتناول في هذا المبحث الآيات الأولى من سورة آل عمران وحتى الآية الثانية عشرة فقط. شرحاً وتفصيلاً، وحتى تتمكنوا من الحكم على معنى الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، كما فهمناه، ومن خلاله ستتمكنون من الحكم على خطأ ماذهب

هذه النبوءات كانت تشغل أذهان أصحاب التوراة والأنجيل، ولذلك رأينا اليهود يهاجر بعضهم إلى أرض العرب، فيبنون الصّياصي والمستعمرات لتستقبل أجيالهم هذا النبي العظيم الذي تنبّأت عن بعثته أديانهم.

وحتى يتأكد لكم من أن (ال) العهدية الداخلة على كلمة (كتاب) هنا تعني لنا، أن هذا الكتاب جاء مصداقاً لتلك النبوءات فإني أورد لكم بعضاً من هذه النبوءات التي لازالت موجودة في بطون التوراة والأنجيل المعاصرتين بالرغم من عبث أصحابها بمحتوياتها. وحتى يتأكد لكم أن تعريف الكتاب في هذه الآية الكريمة يحمل هذه الدلالة المعهودة في أذهان أصحاب هذه الكتب السماوية.

في التوراة المعاصرة المحرّفة:

وعدّ الهيّ لإبراهيم عليه السلام، في تكوين ١٥/١٣: (إن جميع الأرض التي أنت ترى، لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد). فأين سكن إبراهيم وابنه اسماعيل؟ الجواب في تكوين ٢٠/٢٠: (وكان الله مع الغلام (أي اسماعيل) فكبُر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران. وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر). أي سكن مكة المكرمة. هذا الوعد الإلهي يعني أن أرض الحجاز ستكون لنسل إبراهيم على أقل تقدير، ولكن مامعنى هذا الوعد الإلهي؟ سنجد الجواب في النبوءة المتعلقة ببعثه محمد بن عبد الله القاطن في أرض فاران، أي الحجاز، والذي تنقّل في الأصلاب التي هي من نسل إبراهيم وابنه اسماعيل. ففي التثنيه ١٨/١٨-٢٠ وعدّ إلهي لموسى عليه السلام (يقيم لك الرب إلهُك نبياً من وسطك، من اخوتك، مثلي.... أقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغى، فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهةٍ أخرى، يُقتل ذلك النبي). هذا الوعد يعني ظهور نبي من بني اسماعيل، أخوة بني اسحاق ويكون صاحب شريعة مثل موسى، يجعل الله كلامه في فمه بمعنى لاينطق عن الهوى، وأن على جميع بني الإنسان أن يؤمنوا برسالته وإلاّ استحقوا العقاب الإلهي. وكان اليهود ينتظرون بعثة ثلاثة أنبياء على حسب نبوءات كتابهم. وهؤلاء هم: إيليا، والمسيح، والنبي. وقد بين عيسى عليه السلام أن إيليا الموعود هو يحيى عليه

السلام أي يوحنا المَعْمَدان، وبين أنه أي عيسى هو المسيح الموعود ظهوره أيضاً، وأن النبي الموعود ببعثته سيظهر من بعد موته. ففي يوحنا ٣٠/١ ورد سؤال موجه من اليهود إلى المسيح (فسألوه، وقالوا له: فما بالك تُعَمِد إن كنت لست المسيح ولا إيليا، ولا النبي؟) أجاب المسيح في متى ١٤/١١ (وإن أردتم أن تقبلوا، فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع.)

أشار بقوله إلى يوحنا المعمدان، على اعتبار أنه هو إيليّا الموعود. وقد صرّح بأن النبي الموعود ظهوره في أرض فاران، أي جزيرة العرب سيظهر من بعد موته، وذلك في يوحنا ١٦/٧-١٤ (لكني أقول لكم إنه خيرٌ لكم أن أنطلق. لأنه إن لم انطلق، لايأتيكم المُعَزي...).

هذه بعض نبوءات التوراة والأنجيل المعاصرة المحرفة، والتي يثبت من خلالها أن اتباع التوراة والإنجيل كانوا يتداولون فيما بينهم نبوءات عن ظهور نبي عظيم في بلاد العرب. على شاكلة ماتداوله المسلمون من نبوءات عن ظهور مهدي آخر الزمان. ولذلك استوطن كثير من اليهود مناطق قرب المدينة المنورة بانتظار ظهور هذا النبي العربي الموعود ببعثته وأنه ينزل عليه شرع جديد غير شريعة موسى التي يعرفونها. ولقد أورد سبحانه وتعالى لفظ (الكتاب) في آية المحكمات والمتشابهات، مُعَرّفاً بالألف واللام العهدية تنبيهاً لأذهان السّامع إلى ماهو معهود في أذهان اليهود والنصارى من نبوءات أوردتها التوراة والإنجيل متعلقة ببعثة نبي عربي من نسل اسماعيل عليه السلام وفي أرض مكة بالذات.

إن تعريف الكتاب هنا فيه الإشارة إلى نبوءات التوراة والإنجيل خاصة - لورود ذكرهما في سياق هذه الآية وفي سباقها أيضاً. ولم يفطن صاحب "القراءة المعاصرة" إلى هذا المعهود الذهني، بالرغم من أنه أحسّ بضرورة تعليل تعريف الكتاب بالألف واللام، ويبدو أنه لم يخطر له أي معهود ذهني، لذلك برّر هذا التعريف بقوله وضع ليعني أن الكتاب هذا مؤلف من عدّة كتب، وأنكم ستوقنون بخطل رأية هذا وتعليله المذكور من خلال ماستقرؤونه في هذا المبحث. أما لفظ (كتاب) فدلالته المعنى العام المتداول بين جميع أمم الأرض، إنه عبارة عن موضوع ذي معنى متكامل ومتسلسل، وقد دُوّن بين دفتين، يفتتح موضوعه بمقدمة، ويختتم بخاتمة، ويكون مابينهما تفصيل هذا الموضوع المتسلسل الأفكار ومتكاملها.

وإن سورة الفاتحة هي مقدمة (الكتاب) الوارد ذكره في هذه الآية الكريمة، وأن السّور المعوذات الثلاث الأخيرة هي خاتمته، ومابين الفاتحة والمعوذات موضوع هذا الكتاب وهو مؤلف من سور. كل سورة مقسمة إلى آيات.

وإذ وجد أن دلالة تعريف الكتاب هنا منحصرة في الإشارة إلى نبوءات التوراة والإنجيل، والمتعلقة بنزوله، وهي التي تشكل المعهود الذهني. لذلك وَجَبَ علينا اعتبار أن (الكتاب) قد استعمل في هذا المقام كناية عن الشريعة السماوية المنبأ عن نزولها مع بعثة النبي العربي المشّرع، المماثل لموسى نَبيٍّ بني اسرائيل.

نعود إلى الآية لنتفهم معنى المحكمات والمتشابهات وأم الكتاب. فالمحكم يعني المُتقن وعلى صورة لايحتمل التبديل والتغيير، والمتشابه يعني تشابه شيئين لابد من توفر عناصر ثلاثة فيه، مُشبه، ومُشبّه به، ووجه شبه.

ندرك من هذا إن المحكم لايجوز استعماله وفهمه على أنه في المعنى ضد المتشابه. ولا أن المتشابه ضد المحكم. ذلك أن معنى المتشابه كما رأينا لاينفي كونه مُحكماً، فالآيات المحكمات والآيات المتشابهات، جميعها محكمة بمعنى مُتقنة لاتقبل التبديل والتغيير. خصوصاً وأن الله عز وجل لفت انظارنا إلى هذه الحقيقة في سورة هود حيث افتتحها بقوله عز وجل: ﴿ألر، كتاب أُحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير.﴾ أي تبدو عظمة هذا الكتاب من كون جميع آياته (المحكمات والمتشابهات) منها مُحكمة فهي من ترتيب حكيم يعلم كيف يرتبها وخبير بكل فنون اللغة والعلوم لذلك يستحيل بقاء أي ثغرة في ألفاظها وجملها ومواضيعها.

إذن الإحكام حاصل في الآيات المحكمات والمتشابهات، وجاء الفرق في التسمية من حيث الجدّة والتمايز في التعاليم في الآيات المحكمات التى تشكل بمجموعها (أم الكتاب) أي أصل تعاليمه وأساسها وعمادها. أما الآيات المتشابهات في مضامينها مع تعاليم سابقة وردت في التوراة والإنجيل، فهي مع كونها آيات مُتقنات لاتقبل التبديل والتغيير، فهي من جهة مُشابهتها لتعاليمٍ سابقةٍ لاتصل إلى درجة الامتياز الحاصل لآيات أم الكتاب ولذلك لاتُعدّ من آيات الأحكام الأساسية، على اعتبار معنى (أم الكتاب) أساسه وأصله وعماده، كما بيّن اللغويون.

وانتقل إلى بيان قوله عز وجل ﴿ فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ماتشابه منه، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله،﴾

الزَّيغ: معناه الميل عن الصراط والحق، والعين الزائغة هي التي لاتنظر نظرة مستقيمة. والزّيغ: معناه الشّك أيضاً، كما يعني الجور، هذا مابينه اللغويون.

والقلب: هو العضو المودع أيسر الصدر، صنوبري الشكل. ويستعمل على سبيل الاستعارة تعبيراً بواسطته عن العقل الذي كان أسمى أجهزة جسم الإنسان، على شاكلة القلب أسمى الأجهزة الباطنية عند الإنسان، بهذه الاستعارة نزل قوله الله عز وجل في سورة ق ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ أي كان له عقل سليم.

واستناداً إلى هذه المعاني، يكون ربنا، وبعد أن ابتدأ موضوع سورة آل عمران أخذ ينبهنا إلى كون الكتاب جاء مصداقاً لنبوءات التوراة والإنجيل، وإنه كتاب مؤلف من مقدمة وموضوع وخاتمة، وإن من تعاليمه ماهو جديد كلية، وماهو مشابه لتعاليم التوراة والإنجيل، جاء يوضح لنا سبحانه أنّه بسبب وجود هذين النوعين من مضامين الآيات فسيُواجَهُ هذا الكتاب بفريق مستغل لهذا التمايز، ومن أتباع التوراة والإنجيل خاصة، تملؤ افئدتهم الشكوك، ولايبغون وجه الله والحقيقة. فلا يؤمنون بهذا الكتاب، ويقومون باستغلال هذا الامتياز الواقع بين تعاليم آيات هذا الكتاب بطريقة غير شريفة واضعين نصب أعينهم تحقيق هدفين رئيسيين: فتنة المؤمنين عن دينهم، وردهم عن إيمانهم، أو على الأقل تشكيكهم في حقائق دينهم عن طريق تأويل آياته وافراغها من معانيها الأُصلية.

وضح سبحانه كل هذا حينما قال ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله.﴾ بمعنى أن هذا الفريق من الناس الزائغ عن طلب الحق سيجعل الآيات المتشابهات مع تعاليم دينه، مادة تحركاته كما يفعل بعض القساوسة والمستشرقين في القرون الأخيرة، مما لايخفى على المتابعين لتحركات هؤلاء الزائغين.

وينتقل سبحانه خطوة أخرى، منبهاً المؤمنين إلى طريق الأمان للحفاظ على إيمان أنفسهم، وصيانه قلوبهم من شرور هذا الفريق الزائغ عن طريق الحق، فيقول: ﴿ومايعلم تأويله إلاّ الله، والراسخون في العلم يقولون كلٌ من عند ربنا﴾.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا استعمل الله عز وجل كلمة (التأويل) في هاتين الآيتين، ولم يستعمل كلمة (البيان) أو (التفسير)؟ الجواب نجده في معنى كلمة (تأويل) نفسها.

فالتأويل معناه احتمالات معنى لفظ من الألفاظ أو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي، فإذا كان ثمة دليل على النقل، كان التأويل مستبقى يحدد به المعنى، فيكون به، وإلا كان التأويل بالمعنى بين احتمالات لاسّد لها، على غير هدى. ولايقع في مجال الاحتمالات، إلا من سار على غير هدى دون الاستناد إلى أسس واضحة لأخذ معنى من دون معنى آخر.

والله سبحانه بين لنا أن التأويل بلا سند هو دأب من زاغ عن الحق ومال عنه. وأن الله منزه، من حيث المبدأ عن هذا النقص، لذلك يجوز استعمال لفظ التأويل منسوباً إليه، خصوصاً وأنه هو الذي صاغ هذا الكتاب، ومحيط بعلمه على صورة لايرقى إليها شك. هذا ما أشار إليه في قوله: ﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾. وإن الله عز وجل وضح هذه الحقيقة من أن علم القرآن فوق علم البشر جميعهم وحتى يوم الدين، وأنه بحرٌ خضمٌ زاخر لاحدود لعطائه. وأن بيان القرآن على الوجه الصحيح بيده مقاليده سبحانه وتعالى وأنه سيكشف على مافيه أوّل بأولّ وفقاً لمقتضيات الزمان والمكان. وضح سبحانه وتعالى هذه الحقيقة بجلال مابعده من جلال حينما قال في سورة القيامة ﴿ إن علينا جمعه وقُرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه.﴾ فلنلاحظ أن (ثُمّ) هنا تفيد الترتيب. وأن بيان القرآن بجميع معانيه مرتبط بمختلف عصور التاريخ. ولايمسّ معاني القرآن إلاّ المطهرون. فهذه الأمور جميعها تضمنها قوله تعالى ﴿ومايعلم تأويله إلاّ الله﴾.

ويتساءل المرء هنا وكيف يدرك المؤمنون علم هذا الكتاب مادام كامل علمه عند الله من جهة، وأنه سبحانه التزم بيانه في جميع العصور على قدر الحاجة الضرورة من جهة ثانية، وأنه لايمسّه إلا المطهرون من جهة ثالثة؟

ويجيب الله عز وجل على هذا بقوله: ﴿ والرَّاسخونَ في العلْمِ يقُولونَ كُلٌ من عند ربنا ، ومايذكّر إلاّ أولوا الألباب.﴾.

فالواو هنا تبيّن حال الراّسخين في العلم، لدخولها على هذه الجملة، وليست هي مجرد حرف عطف لفرد على مفرد فلا ينبغي عطف علم الراسخين في العلم على علم الله، لكون الواو قد دخلت على جملة المبتدأ والخبر (والراسخون... يقولون...)، وهذه الواو شبيهة بالواو في قوله تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.﴾ الواو في الآية للحال. أي والشيء خيرٌ لكم، ومنهم من جعل الجملة صفة، بالرغم من ثبوت (الواو) كما ذهب الزمخشري. ومايؤكد عدم عطف الواو هنا هو جواز الوقف عندها، ولإشارات الوقف دلالاتها عند المتفقهين.

قلت إن الله عز وجل يجيب على التساؤل المذكور أعلاه في ألفاظ هذا الشطر من الآية الكريمة، فهو يصف لنا حال فئة الراسخين في العلم القرآني. موضحاً لنا الأسس التي يعتمدونها في تحقيقاتهم القرآنية، والقائمة على منطلق آرائهم ومعتقداتهم هذه الأسس التي استحقوا معها اسم (الراسخين في العلم). هذا من منطلق أن رسخ معناه ثبت، وماعاد يتزلزل أو يتحرك عن مكانه، بمعنى أن محاولات فئة الزائغين لاتقدر أن تحقق في نفوس هذه الفئة المؤمنة أي هدف من أهدافها.

وقد ورد لفظ (العلم) معّرفاً هنا بالألف واللام تنبيهاً إلى أنّ علم الكتاب يشكل مدار موضوع سورة آل عمران، فهو علم الفرقان، وليس هو بعلم طبيعة أو فيزياء وكيمياء ورياضيات، كما ذهب إلى ذلك ذهن صاحب (القراءة المعاصرة) فاعتبر (دارون) من الراسخين في العلم، المشار إليهم في هذا المقام.

ذلك أن الكلام هنا عن فئة المؤمنين بالفرقان وبالله الذي أنزل الفرقان، بينما لايمت (دارون) وسواه إلى هذا الأمر بصلة من الصلات. فلا هو مؤمن بالله، ولايقدم إلاّ نظرية تحتمل الخطأ والصواب. ولايلتزم بالأسس الإيمانية التي عبّرت عنها آراء ومعتقدات الراسخين في العلم (كلٌّ من عند ربنا). فالألف واللام الداخلة هنا على كلمة (علم) عهدية ذهنية. ولامعهود ذهني في السياق إلا ذكر الكتاب المسمى (فرقان).

وبإمكاننا التخصيص أكثر فنقول أنّ تمييز المحكمات من المتشابهات لايقدر عليه من المؤمنين بالله إلا هذه الفئة الملتزمة بأسس (كلٌّ من عند ربنا).

كررت لكم القول إن الفاظ (كلٌ من عند ربنا) تضمنت الأسس التي يعتمدها الراسخون في العلم عند تدبرهم لكتاب الله الفرقان، ولتساعدهم في تمييز الآيات المحكمات عن المتشابهات خاصة.

وقبل الدخول في بيان ماكررت ذكره. ألفت نظركم إلى حقيقة يعرفها كل عالم ومفكر، وهي أن الانحراف الذي يقع في المنطلقات، يؤدي لا محالة إلى البعد عن الحقيقة بُعداً شاسعاً في نتائج مقولاته، وهذا الأمر شبيه بمن ينحرف درجة واحدة عن طريق مساره عند أول خطوة يخطوها. فمثل هذا يستحيل أن يبلغ المكان الذي يسعى إليه. أو يشبه المدفعّي الذي ينحرف تصويبه لمدفعه شعرة عن الهدف فيؤدي هذا الانحراف إلى عدم إصابته لهدفه.

وقد حدثت غفلة بعض المفسرين هنا، في أنهم لم يفطنوا إلى أن لفظ (**يقولون**) هنا، لم يكن المراد منه ترداد ألفاظ (آمنا به...) بل استعير هذا اللفظ للتعبير بواسطته عن الرأي والمنهج، فأنتم تقولون: هذا قول أبي حنيفة، وذاك قول الشافعي، وتريدون من قولكم وتعبيركم هذا بيان رأي هذا وذاك، وليس ترديد جُمَل مّما رُوي عنه من أقوال، وبصيغة الاستعارة هذه جاء لفظ (**يقولون**) في هذا المقام لم تأت الواو قبل الراسخون لتعطف المفرد على المفرد. بل جاءت تعطف الجملة على الجملة، كما يدل على ذلك السيّاق. فالراسخون في العلم، يقولون ﴿آمنا به، كلٌ من عند ربنا﴾. فيها بيان الأُسس المعتمدة في رأي الراسخين في العلم حول موضوع فهم واكتناه معاني آيات الكتاب العظيم.

هذه الأمور والملاحظات، وجّهني إليها ربي بفضل خاص منه. والله ذو الفضل العظيم، ويختص بفضله من يشاء من عباده، وقد كشف علّي أسساً ستة تضمنه قوله عز وجل ﴿آمنا به، كلٌ من عند ربنا﴾. وإليكم هذه الأُسس:

الأساس الأول:

تضمنه [آمنا به]. والإيمان لغةً يحتوي على عناصر ثلاث: هي الاعتراف أولاً والتصديق بالقلب ثانياً والعمل بالجوارح ثالثاً. هذا مابينه اللغويون. وعلى هذا الأساس تكون الفاظ (آمنا به) قد وضعت بين أيدينا الأساس الأول لفهم القرآن الكريم، على اعتبار أن ضمير (به) يعود إلى اسم الجلالة (الله) كما يعود إلى الكتاب أيضاً.

وهذا الأساس يتوافق مع قوله تعالى في مقام آخر [لايمسه إلا المطهرون] أي العاملون على تعاليم الكتاب والذين تزكت نفوسهم من جراء تطبيقهم لتعاليمه، فبلغوا مرتبة تؤهلم لفهم وتدبر هذا الكتاب.

وكأنه سبحانه وتعالى يؤكد لنا زيغ الكافرين بهذا الكتاب وبالذي أنزله عن جادة الصواب في جميع أحوالهم، ويؤكد شرط الإيمان بمعنى ضرورة اجتماع ماتقتضيه معادلة النظرية والتطبيق معاً في شخصيات من يريدون القيام (بقراءات) لهذا الكتاب، فمن كان غير مؤمن فلايستطيع أصلاً اكتناه مافي هذا الكتاب كذلك فإن المؤمن بهذا الكتاب نظرياً لايؤهله الإيمان النظري لاكتناه مافي هذا الكتاب مالم يكن من العاملين بأحكامه، ومن المُنتهين عن منهياته، هذا أساس أول في نظر الله عز وجل يؤهل المؤمن ليكون من الراسخين في علم القرآن المجيد.

الأساس الثاني:

تضمن قولهم [كلٌّ] الأساس الثاني الذي يتطلبه فهم القرآن و (كلٌّ) ضدّ جزء أو بعض. بمعني أنه ينبغي أن يؤخذ القرآن عند محاولة فهمه على صورة متكاملة، فلا تُفهم آية منه على صورة تتضارب مع معاني آيات أخرى من آياته، فهو كتابٌ كُلٌّ من سورة الفاتحة وهي مقدمته، وحتى السين في سورة الناس وهي ضمن خاتمته، وهو كُلٌّ محكم المعاني ومتسلسلها ويفسر بعضه بعضاً.

وكأنه سبحانه ينبهنا، عند بيانه لهذا الأساس إلى الأسلوب الذي ينتهجه من في عقولهم زيغ، وهو القطع والوصل، وافراغ الألفاظ والآيات من محتوياتها، والأخذ ببعض احتمالات لمعاني ألفاظها بغاية الفتنة والتشكيك.

هذا **الأساس الثاني** يفرض على كل إنسان الالتزام والتقيد بأمرين هامين الأول التقيد بالمعنى الذي يفرضه سياق الآية وسباقها، والثاني عدم تبني أي معنى يتناقض ومعنى آخر تفيده أية آية أخرى في هذا الكتاب.

فهل اعتمد صاحب "القراءة المعاصرة" هذا الأساس الثاني الذي تضمنه لفظ (كلٌّ) ، مأظن ذلك فمن يطالع كتابه ستتراءى له ظاهرة بُعده عن التقيد بمقتضيات السياق والسباق المعنوية.

الأساس الثالث:

ووردت كلمة (كلٍّ) مُنَوَّنَةً في آخرها، وماجاء هذا التنوين من باب اللغو والعبث ودون أية حكمة عظيمة.

والمعلوم أن اللغويين درجوا على اعتبار التنوين أداة تعبير عن عظمة شيء ما وكماله، وقد جيء بالتنوين هنا لبيان أساس ثالث من أسس فهم القرآن، وهو الأخذ بمبدأ عظمة القرآن وكماله في تعاليمه وأحكامه وصياغته.

ومن تنوين [كلٍّ] نستنبط كون هذا الكتاب الفرقان آخر الكتب السماوية لأنها دونه عظمة وكمالاً، وهو جاء على ذروة الكمال، وهذا يؤيده قول الله عز وجل في مقام آخر ﴿اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾. ومعلوم أن الكامل هو غني عن أن يكمله شيء آخر.

وهكذا، ومن جرّاء تنوين [كلٍّ] يكون الله عز وجل قد وضع أمامنا **أساساً ثالثاً** لفهم كتابه الفرقان، ويلتزم به من كان من الراسخين في العلم، ويتلخص في كلمتين :لاشرع بعد نزول شريعة القرآن. ولانبي مشّرع من بعد بعثة محمد بن عبد الله.

الأساس الرابع:

ووضح لنا الله عز وجل الأساس الرابع لننتهجه عند محاولتنا تدّبر كتابه، وهو نهج الراسخين في علمه، وذلك من خلال [كلٌّ من عند ربنا] ويتلخص هذا الأساس على أن يؤخذ بجميع آياته نصاً وحكماً، وهذا الأساس، هو بتعبير آخر نفيٌ كلي لوجود مبدأ الناسخ والمنسوخ فيه. وهذا الأساس الرابع يحثنا على تفهم آيات كل موضوع من مواضيع الأحكام الشرعية بشكل لاوجه لأي تناقض بينها، فلا ننسخ حُكم أحدها بحكم آية أخرى منها.

هذا الأساس الرابع عبّرت عن مضمونه كثير من الآيات، كقوله تعالى في هود ﴿كتاب أحكمت آياته، ثم فُصلّت من لدن حكيم خبير﴾. ونعلم أن معنى (أحكمت) هو (أتقنت)، فمن أتقنها؟ الجواب [من لدن حكيم خبير]، ومن أبسط البديهيات أن يُراعي (الحكيم) الموقع والمحل وفائدة عباده، خصوصاً وأنه (خبير) أي واقف على حقائق الأشياء وأحوالها وعالم ببواطنها.

الأساس الخامس:

ومعطيات هذا الأساس الخامس تفيدها نفس **ألفاظ قوله تعالى [كلٌ من عند ربنا]** وكأنه يبيّن لنا سّر عظمة القرآن وكماله من خلال كلمة (ربنا)، لأن الرب **لُغةً** هو الذي يطور الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرحلة الكمال، ومن هنا جاءت تسمية رب المنزل ورب العالمين، فمن أسس عائلة، وكان سبباً في وجود أبناء وبنات واشرف على تربيتهم وتطوير قواهم وملكاتهم يكون قد استحق اسم رب منزل أو رب عائلة أو اسرة، أما إذا لم يقم بهذه المهمة وترك أولاده في حالة تشرد وجهل، فلا يستحق هذا اللقب بحال من الأحوال.

على ضوء هذا ندرك معالم **الأساس الخامس** الذي اشارت إليه كلمة (ربنا) وهو النظر إلى اعتبار هذا الكتاب حلقة أخيرة من **حلقات الربوبية التي طورت الأمم** عن طريق الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، ويعتبر هذا الأساس تعريض بفئة الزائغة قلوبهم، الذّين يلاحظون النقص والتناقض والتحريف في كتبهم السماوية، وحتى انهم يقرؤون ما احتوته من أنباء ونبوءات عن هذا الكتاب وضرورته. وبالرغم من ذلك كله لايستقبلون هذا الكتاب على اعتباره حلقة أخيرة من حلقات ربوبية الله لعباده، ويقومون مستغلين مافي هذا الكتاب من آيات متشابهات مع تعاليم كتبهم، فيما احتوته من تعاليم وأحكام، مستغلين هذه المشابهة لصد المؤمنين بهذا الكتاب عن دينهم وتشكيكهم في تعاليمه وأحكامه.

هذا الأساس أن ننظر إلى الكتب السماوية نظرة احترام وإيمان وأن نربط مابينها ومابين مانزل في هذا الكتاب، على أنها **حلقات مترابطة** ، وليس على أن بعضها مأخوذ أو مسروق من بعضها الآخر كما تفعل زمرة من الرهبان والمستشرقين ومن سار على شاكلتهم. أي أن هذا الأساس يعلمنا كيف نتناول تعاليم هذا الكتاب على أساس أنه الفرقان الذي انزله ربنا ليوضح لنا بواسطة ما أنزل فيه الحق من الباطل مما وصلنا من التوراة والإنجيل، لأن هذا الكتاب [من عند ربنا] الذي أنزله لتطويرنا وانقاذنا من الآثار السيئة التي تكمن وراء تعاليم التوراة والإنجيل المعاصرة، فيما لو اكتفينا بها وحدها منهجاً لحياتنا.

الأساس السادس:

ونفس الفاظ [كلٍّ من عند ربنا] وضعت لنا **الأساس السادس** لتدبر كتاب الله الفرقان. وهو صلاح هذا الكتاب لكل زمان ومكان. ذلك أن هذا الكتاب يتسم بمرونة فائقة ومعجزة تكسبه صلاحيته لكل زمان ومكان.

فمهما تقدمت الأيام، ومهما تقادمت عصور نزول هذا الكتاب فسيظل هناك من يفهمون هذا الكتاب ويقرؤونه على مستوى عصورهم وضروراتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الفكرية.

هذا **الأساس السادس** يسمح بوجود "قراءة معاصرة" في كل عصر إنما شريطة التقيد بالأسس الخمسة السابقة نصاً وروحاً إلى جانب التقيد بهذا الأساس السادس الذي يجيز لهم "قراءتهم" من منطلق مرونة هذا الكتاب وصلاحيته لكل زمان ومكان.

فمن التزم بهذه الأسس الستة، اعتُبر في نظر ربه من الراسخين في علم هذا الكتاب، وإن الله عز وجل **يكشف لهذه الفئات من الراسخين خفايا كتابه الفرقان وكنوزه على قدر مكانتهم وعلى قدر الحاجة الزمانية والمكانية التي تقتضي الكشف عن هذه الخفايا وتلك الكنوز، وهؤلاء هم الذين دخلوا في زمرة المطهرين من خلال قوله تعالى [لايسمه إلاّ المطهرون].**

إن استنباط هذه الأسسَ الستة من قوله تعالى [آمنا به، كلٌّ من عند ربنا.] ماكان فيه تحميل للألفاظ أكثر من دلالاتها. خصوصاً وأن الله تعالى جاء ينبهنا إليها من خلال لفظ (يقولون) بمعنى يرتؤون وينتهجون، وليس يرددون ألفاظاً معينة. ذلك أن القول المجرد يحتمل النقص أو الكمال من حيث معناه. الأمر الذي يتنافى مع معنى الرسوخ والثبات الذي تضمنه معنى (الراسخون في العلم). فمن اتصف بالرسوخ والثبات لايقول قولاً يحتمل بعض النقص والخطأ أحياناً. والرسوخ قرينة تمنع المعنى المتبادر من يقولون. للانتقال منه إلى معنى أعظم دلالة، وهو الرأي والمنهج. وبهذه الصورة لايعود يفيد قول الراسخين في العلم إلا الخير المحض، فتدبر.

وكيف لانأخذ بهذا المعنى هنا، مراعاة منا لمقام الراسخين في العلم. والعلم يفيد اليقين أيضاً. إلى جانب وصف الرسول ﷺ للراسخين في العلم، كما رواه أبو الدرداء رضي الله

عنه (إنهم مَنْ بَرَّتْ يمينُه، وصدَقَ لسانه، واستقام قلبه، ومن عفّ بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم)؟

برّ اليمين تعني حسن المعاملة، **وصدق اللسان** تعني الأمانة والصدق في الرأي والمُعتقد والمنهج. **واستقامة القلب** تعني صفاءَه وشفافيته وتوجهه نحو ربه. **وعفة البطن والفرج** تعني لجم النّفس عن هواها وميولها الفاسدة وشهواتها. ولاريب أنّ من اجتمعت فيه هذه الأوصاف، لابد أن يكون من المُطَهَّرين، الذين أشار إليهم قوله تعالى [**لايمسه إلا المطهرون**].

ولقد أنهى الله عز وجل آية المحكمات والمتشابهات بقوله [ومايذكّر إلا أولوا الألباب.] وبهذه الألفاظ حسم ربنا الأمر. حيث نبه هنا إلى ماصرح به في مقام آخر من الكتاب حيث قال: ﴿ **يضلّ به كثيراً، ويهدي به كثيراً، ومايضلّ به إلا الفاسقين.**﴾ البقرة ٢٦. أي أن هذا الكتاب (مكنون) بمعنى مغلق المعاني، لذلك يحتاج من يتدبره إلى طهارة العقيدة والسلوك والاستعانة بالله منزل هذا الكتاب ليسدّد خطاه، فلا يزيغ عقله، كحال الفئة الفاسقة التي قال عنها ﴿ **وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه**﴾.

نبه إلى أن هذا الكتاب (المكنون) [لايذكّر] به أي لاينتفع منه أو لايهتدي إلى معانيه الحقيقية إلا [**أولوا الألباب**]. فما قال هنا [أولوا العقول]. لماذا؟ تنبيهاً إلى أن العقل المجرد عن عامل الوحي المساعد، وهو هداية الله للمعنى المقصود، لايكفي الإنسان للكشف عن أسرار وخفايا معارف هذا الكتاب، فالله هو الهادي، والله يضل عن سبيل فهم كتابه من كان بعيداً عن نهج أولي الألباب. وتعلمون أن كل ثمرٍ يكون مكوّناً من قشر ولُبّ، ولايبلغ لُب حقيقة هذا الكتاب (إلا أولوا الألباب) فهو سبحانه نبهنا هنا فحسم الأمر وذكرنا إلى أنه لايهدي غير هؤلاء.

والآن، وبعد أن شرحت لكم المعاني التي تضمنتها آية المحكمات والمتشابهات، أعود لأشرح لكم سورة آل عمران من أولها، حتى تلاحظوا ارتباط ماشرحته لكم بسياق الآية ارتباطاً عضوياً، وحتى يبدو لكم عدول صاحب "القراءة المعاصرة" عن سبيل معطيات هذه الآية الكريمة. هذا الأخ المسلم المحترم الذي لم يتبحر في معنى كلمتي (المحكمات والمتشابهات) كما أنه لم يتقيد بسياق الآية وسباقها.

ابتدأ الله عز وجل سورة آل عمران بقوله [ألم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم.] وسترون كيف أن هاتين الآيتين تضمنتا دعوى إلهيه على غاية الأهمية، وقد اتخذ سبحانه وتعالى هذه الدعوى منطلقة إلى الدخول في الموضوع الذي شاء أن يبحثه ويعرضه لنا في سورة آل عمران العظيمة.

فما معنى (آلم)؟ روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ فسّرها وقال أن معناها (أنا الله أعلم). وهذا هو المعنى الذي تبيّناه .

فاعلموا أن [آلم] أحرف تدخل في فن الاختزال اللغوي الذي عرفه العرب فناً من فنون لغتهم في الجاهلية، كانوا يقتطعون حرفاً من أول كلمة. أو حرفاً من منتصف كلمة أو حرفاً من آخر كلمة، ويضمنون أشعارهم هذه الحروف على أن يفيد مصرع بيت الشعر الذي يتضمن حرفاً، معنى الكلمة التي اختزلوا منها هذا الحرف، واليكم بعض الأشعار الجاهلية، كما رواها ابن كثير في تفسيره.

بالخير خيراتٌ، وإن شراً (ف) ولا أريدُ الشرّ إلاّ أن (ت)

الفاء مختزلة من كلمة (فشّر)، والتاء مختزلة من كلمة (تبدؤه). بمعنى انك إذا عاملتني بالخير ، ضاعفت لك الخير. أما إذا عاملتني بالشّر، فلا أردّ على الشّر إلا بمثله. وإنّ من خلقي إنني اتجنب الشّر، فلا ابادئك به إلا أن تبدؤه أنت،

وقال شاعر : **قُلنا لها قفي فقالت (ق)**

القاف مختزلة من كلمة (وقفت) أي أنها استجابت لطلبهم.

ولما كان دارس القرآن ومتدبره يعلم بتحدي ربنا بلغاء اللغة العربية أن يأتوا ولو بسورة مثله. وكان هذا التحدي يشمل الصياغة والمضمون. فقد كان ضرورياً أن نجد معالم هذا التحدي حتى في فن الاختزال الذي تفنن فيه الجاهليون.

ومن هذا المنطلق نحاول ربط [ألم] بالآية [الله لا إلا إلا هو الحي القيوم] على ضوء ماقدمه لنا رسول الله ﷺ من معنى.

ولنلاحظ أن تفسير رسول الله تضمن ثلاث كلمات في مقابل ثلاثة أحرف، وكأنه يفهمنا أن الألف أختُزلت من كلمة (أنا) من أول الكلمة وأن اللام اختُزلت من كلمة (الله). من منتصف الكلمة ،إن الميم اختُزلت من كلمة (أعلم) من آخر الكلمة، فأصبح معنى (ألم) (أنا الله

أعلم). وعلى هذه الصورة يكونَ منزل الكتاب عز وجل قد طرق الأبواب الثلاث لفن الاختزال في آن واحد، وهذا اعجاز منه سبحانه مابلغنا مثيلاً له في تراث الجاهليّين.

والآن لنتدبر ماتضمنه قوله تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ من معاني، لننظُر هل بالإمكان أن تفيد جملة (أنا الله أعلم) التي جاءت بصيغة التفضيل. أي أنه يستحيل أنْ يظهر أي عالم ينقض علمي، أو يثبت من خلال علمه أنه يفوقني علماً. هل يثبت هذا المعنى من خلال هذه الآية الكريمة؟

جملة [الله لا إله إلا هو الحي القيوم] صيغت على مبتدأ و خبر فالله مبتدأ، و (الحي القيوم) خبر ثاني لهذا المبتدأ. ومابينهما (لا إله إلا هو) نتيجة حتمية لهذا المبتدأ وخبره. بمعنى أنّ الذات الإلهية المتصفة (بالحي القيوم) لايستحق سواها التأليه والمحبة. على هذه الصورة تحمل هذه الآية الكريمة دعوى هامة جداً كما ذكرت. خلاصتها أن هناك خالقاً لهذا ألكون وهو (الله). وأن هذا الخالق يتصف بصفتين بارزتين يستحيل أن يتصف بهما وجود سواه وهما (الحي والقيوم). ولنحاول فهم أبعاد معاني هاتين الصفتين.

(الحَي) يأتي ضدّ الميت. كما يكوَن الاحياء مادياً ومعنوياً أيضاً. (والقيّوم) اشتق من قام ضد قعد. وقام بأمره: تولاه، وقام عليه: راقبه، وقوّم الشيء: عدله فجعله قائماً. منه ندرك معنى القيوم الذي هو اسم من اسماء الله الحسنى. فهو يعني يقظة الله عز وجل لكل أمر، وتولي الله لكل أمر، ومراقبة الله لكل أمر. وتعديل الله كل أمر معوج من الأمور، وجعله قائماً.

ولما لاحظنا ايراد هاتين الصفتين (الحي القيوم) مُعَرّفتين بالألف واللام، فقد أضفى تعريفهما على مَعْنييهما أبعاداً في منتهى العظمة والكمال. وبالاختصار، فمن خلال هذا التعريف جاء تذكيرنا بجميع ماتوصل إليه الفلاسفة والمفكرون من نظريات حول وجول الله وصفاته، تذكيرٌ لنا ببطلان جميع النظريات المتعارضة مع كون الله موجوداً، وكونه متصفاً بصفتي (الحي القيوم) وعلى أوسع دلالاتهما.

فمن الفلاسفة من زعم أزلية المادة وأبديتها، ومنهم من زعم خلق الله لهذا الكون، وتركه إياه يجري لنفسه دون أي تدخل منه سبحانه. ومنهم من زعم خلق الله لهذا الكون وأنه أسمى من أن يتدخل في شؤون مخلوقاته أو أن يحاسبهم على أعمالهم.

وقد جاء في مضمون هذه الآية الكريمة الإعلان عن بطلان جميع هذه النظريات، لأنها تتناقى مع كون الله هو الحي القيوم. جاء الإعلان عن وجود خالق لهذا الكون ومافيه يتصف بجميع مظاهر الحياة، ويحمل جميع مقومات الإحياء سواء على صعيد الأفراد وسواء على صعيد الشعوب، وإحيائهم مادياً ومعنوياً، وحتى يملك قوة تأديبهم إن هم مالوا عن طريق مشيئته. كما جاء الإعلان عن أن هذا الخالق يتصف بضفة القيوم الكاملة. بمعنى أنه سبحانه وتعالى هو قوام كل شيء، وأنه لايقوم شيء من دونه، فهو يتدخل في شؤون عباده صغيرها وكبيرها، لأنه لاتأخذه سنة ولانوم، فهو متولي كل أمر من أمور عباده، وهو مراقب كل أمر من أمور عباده، وهو المعدّل عوج كل أمر من أمور عباده. وإنه مما لاشك فيه هو أن جميع نظريات الفلاسفة تتنافى مع هذه الدعوى التي جاء الكشف عنها من خلال الفاظ هذه الآية الكريمة. فإن صّح مضمون هذه الدعوى، فالنتيجة الحتمية لها هي أن يستحق هذا الإله وحده التأليه والمحبة، من دون سائر الموجودات وهو ماعبرت عنه الفاظ [لا إله إلا هو] ذلك أن الإله مشتق من الوله أي المحبة، فالله محبوب الأشياء كلها، أو من ألِهَ فلان يأله، بمعنى عبد. فالإله هو المعبود. وتألّه معناه تعبّد. ومن التأليه أي العبادة لمن كان إلهاً.

الآية إذن حملت دعوى ونتيجة مترتبة عليها. فإذا صحت هذه الدعوى وتلك النتيجة، وبطلت بسببها جميع نظريات الفلاسفة والمفكرين. فقد ثبت بالتالي أن صاحب هذه الدعوى ونتيجتها كونه أعلم الفلاسفة والمفكرين. وهذا ماعبّر عنه قول رسول الله ﷺ من أن (ألم) معناها (أنا الله أعلم).

إلى هنا نكون قد أحطنا بإطار دعوى ومنطلق سورة آل عمران. والتي قدمها ربنا من خلال آيتين كريمتين فقط. الآية الأولى بأسلوب الاختزال، والآية الثانية بأسلوب الاخبار.

وقد علمنا إمام زماننا أصلاً ذهبياً في تفسير القرآن الكريم. وهو أن نفتش عند كل دعوى في كتاب الله، عن أدلتها وأن هذه الأدلة تأتي بعد الدعوى مباشرة. إذ أن هذا هو دأب من كان عالماً، فما بالنا بمن كان عليماً؟.

والحق الذي لاريب فيه هو أن الله عز وجل قدمّ بعد هذا الإدعاء لا دليلاً واحداً؛ بل قدمّ دليلين. قدم كُلّ دليل من خلال آيتين فقط. الدليل الأول تاريخي، والدليل الثاني علمي واقعي.

الدليل التاريخي:

دلّل الله عز وجل على صحة مدّعاه بقوله ﴿نزّلَ عليك الكتاب بالحق، مصدّقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل. من قبلُ هُدىً للناس، وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام.﴾.

عرض سبحانه وتعالى دليله التاريخي من خلال هاتين الآيتين الكريمتين، وضمنه الأمور التالية:

الأول: كون هذا الكتاب مصداق نبوءات التوراة والإنجيل. عبّر عن هذا في قوله ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق،﴾، ودلّنا على هذا تعريف الكتاب بالألف واللام المخصوصتين بالعهد. رجوعاً بنا إلى ماهو معهود في أذهان اتباع التوراة والإنجيل من نبوءات تبشّر ببعثة نبيّ عربي من نسل اسماعيل، يظهر في أرض (فاران) وهي مكة المكرمة، وينزل معه كتاب تشريعي سماوي جديد، على شاكلة ما أنزل على موسى، ولقد سبق أن ذكرت لكم بعضاً من هذه النبوءات السماوية المعهودة.

ونبهّتكم إلى أن اليهود لم يؤسسوا مستعمرات خيبر وغيرها حول المدينة المنورة إلا بسبب انتظارهم لبعثة هذا النبي من أرض فاران.

كما دلنا على هذا العنصر الأول الذي ارتكز إليه هذا **الدليل التاريخي** كلمة [بالحق]. فالحق معناه: الأمر المقضي، والعدل والصدق، والموجود الثابت. وهو يستعمل ضد الباطل، هذه المعاني تضمنتها كتب اللغويين. واستناداً إلى هذه المعاني فإن كلمة [نزَّل... بالحق] تعني أن نزول هذا الكتاب من عند الله شيء ثابت، وأمر قضى الله به ويتضمن حقائق صادقة لاغبار عليها، وهذه الحقائق والتعاليم والأحكام تجسّم العدل بأوسع معانية، وهو دائمي لايُنسخ.

ومن خلال قوله تعالى [نزّل عليك..] دلنا سبحانه على أن محمد بن عبد الله العربي، الذي هو من نسل اسماعيل، هو النبي الذي بشّر موسى وعيسى عن بعثته بصورة خاصة. ودلت عليه الفاظ نبوءاتهم.

الثاني: كون هذا الكتاب قد نزل للشهادة على صدق التوراة والإنجيل، إذ دونه يفقد هذان الكتابان مصداقيتهما، لعبث أيدي أصحابهما بضامينهما وتحريفهم لكثير من دلالاتهما،

وبسبب أن رقي البشرية وتطور مجتمعاتها، قد جعلت تعاليم التوراة والإنجيل ناقصة وغير كافية للعمل على منهاجها، وهذا الأمر يستدعي الشهادة على كونهما من عند الله من جهة، مع تبيان عدم صلاحيتهما المطلقة لكونهما قد نزلا لمعالجة أقوام معيّنين فقط وفي أزمنة معينة. ودلّنا على هذا الأمر قوله تعالى [مُصدِّقاً لما بين يديه،]. أي مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

وكأنه سبحانه وتعالى يلفت نظرنا للاهتمام بهذا الكتاب من ناحية كونه نزل لأداء مهمة تاريخية عظيمة تربط مابين سلسلة الكتب السّماوية، وتنفي كونها أساطير، أو من تأليف أصحابها.

كما أنه سبحانه وتعالى نبهنا في قوله ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ إلى أن نزول هذا الكتاب بمهمة جليلة مثل هذه المهمة، يدل على أنه لم ينزل دون ضرورة أو حاجة إليه، بل اقتضت نزوله كون الله تعالى هو (الحي) بمعنى أنه أساس حياة الشعوب وأساس وتطورها.

الثالث: ومن خلال قوله تعالى ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل﴾ نبهنا إلى وحدة مصدر الكتب السماوية، فما دام قد نزل هذا الكتاب [مصدقاً لما بين يديه] من التوراة والإنجيل، هذا الاهتمام بصدق هذين الكتابين يعني بألفاظ أخرى أن الله تعالى هو الذي أنزلهما يقيناً، وإلا فما هي حاجته لتصديقهما، لوكانا من وضع أشخاص؟ خصوصاً وأن هذا الكتاب بغنىً عن تعاليمهما، من حيث محتوياته وكمال أحكامه.

الرابع: والأمر الرابع الذي تضمنه هذا **الدليل التاريخي**، عبّر عنه سبحانه بقوله ﴿من قبلُ هدى للناس،﴾ بمعنى أن التوراة والإنجيل لم يُنزلهما الله عبثاً في وقتيهما، بل أنزلهما لتحقيق هدف معين. وهذا الهدف هو [هدى للناس]. أي أن أقوام منطقتهما كانت قد خيم عليها ظلام دامس، وانحدرت إلى هاوية الشرك والظلم، وأضحت بحاجة إلى من يهديها سبيل الرشاد. ولما كان الله هو (الحي) (القيوم)، فما كان باستطاعة وجود سواه أن يمدّ يد المساعدة لأقوام هذه المنطقة سوى الله الحي القيوم. ولذلك فهو كان قد أنزل التوراة والإنجيل وسيلة هداية وإنقاذ لهم. فالمراد من (الناس) هنا، أناس تلك الفترة الزمنية، وقد حقق الله أهدافه.

الخامس: وأضاف سبحانه قوله ﴿ وأنزل الفرقان﴾ أي أن نفس تلك الضرورة الزمنية قد ظهرت من جديد، واحتاجت البشرية للأخذ بأيديها، بعدما عمّ الفساد في البر والبحر، وهذه الضرورة لاتنحصر في أمر هداية الناس اليوم فقط، بل تحتاج إلى الفصل في أمر جميع مااوصل إلى أيدينا من هدايات، وتصحيح وقائعها، وبيان مواقع العبث الذي اعتراها، إلى جانب تمحيص كل ماذهب إليه الفلاسفة والمفكرون من آراء ونظريات باسلوب الحجة والبرهان.

هذه الضرورات جميعها اقتضت نزول [الكتاب] لأداء مهمتين رئيسيتين هما: هداية الناس بتقديم تعاليم كاملة وصالحة. وأن يكون في هذا [الكتاب] مايفصل به بين الحق والباطل فيما تعلّق بالكتب السماوية السابقة،وبجميع النظريات الفلسفية التي ضللت البشرية في عصر الحاجة إلى هذا الكتاب، وماسيوضح منها بعد نزوله، الأمر الذي يعطي هذا [الكتاب] صفة (الفرقان) عن جدارة واستحقاق.

السادس: وقال وعزّ من قائل ﴿إنّ الدين كفروا بآيات اله لهم عذاب شديد﴾ مجيباً بهذه الحقيقة التي تضمنتها هذه الألفاظ على سؤال يطرح نفسه، وهو: إننا نرى أن رب البيت يملك صلاحية معاقبة أبنائه، إن هم لم يلتزموا بنصحه وارشاده وأن رئيس الدولة يملك صلاحية ردع من يخالف قوانين دولته. فهل أنزلت هذه الهدايات السماوية، لهداية الناس، مجردة عن هذا الضوابط أم أنزلت مُعزّزة بالوسائل التأديبية أيضاً؟ إذ لاقيمة حقيقية لقانون غير معزّز بعقوبات.

أجاب الله تعالى على هذا التساؤل هنا بصورة آلية، إذ لفت أنظارنا إلى ماحاق بالمخالفين والمكذبين من [عذاب شديد] وكأنه قال هاكم راجعوا تاريخ هؤلاء أفلا ترون كيف كان لهم عذاب شديد)؟

وجميعنا يدري ماحاق باليهود من عذاب شديد مازالوا يرزحون تحت سوطه، فقد جمعهم الله مرة أخيرة في الأرض المقدسة لتكون القاضية عليهم بإذن الله (الحي القيوم).

السابع: وأضاف سبحانه وتعالى ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾. نبهنا إلى أنه سبحانه لايتصف بصفتي (الحي القيوم) وحسب، بل يتصف بصفتي (عزيز) و (ذو انتقام). فالعزيز هو المنيع الذي لاتطوله قوة شيء في هذا الوجود. وذو انتقام هو الذي لايدع كافراً

بهداياته أو مخالفاً لتعاليمه إلا أن يطوله بعقاب على مستوي كونه عزيزاً، إشارة إلى أنه لا إمكانية ولامجال لأحد ليتمرد على مشيئته كما يحدث في الاسر أن يصبح أحد الأبناء عاقاً لأبيه مُنفصلاً عنه ويتمرد على ارشاداته، وكما يحدث في الدول أن يقوم قطاع من المواطنين بالعصيان والتمرد والانفصال.

هذه الأمور السبع تشكل بمجموعها عناصر الدليل التاريخي الذي قدمه ربنا للتدليل على كونه [الله لا إله إلا هو الحي القيوم].

وتتلخص عناصر هذا الدليل التاريخي، هذه التي ذكرناها في أن الإنسان إذا نظر نظرة تاريخية، واستعرض تاريخ شعوب هذه المنطقة بالذات، تتجلى لعينيه يد سماوية وقد امتدت إلى شعب كان مستعبداً، وقد انقذت هذه اليد السماوية هذا الشعب مما كان فيه من عبودية،وبطشت بكل من حاول وقف فعالية هذه المساعدة. واستخدم هذا الشعب ليصبح نموذجاً لمن حوله من الأقوام للتأثير في أوضاعها وتطويرها نحو الأفضل، ولما كانت الهداية التي انزلت لمساعدة هذا الشعب المستعبد مؤقتة وذات طابع قومي اقليمي وكان تطور الشعوب وتقاربها يقتضي نزول هداية كاملة، فقد تضمنت هذه الهداية السابقة نبوءات عن المستقبل، وعن النبي الذي سيُبعث بالهداية الكاملة، وهاهي تلك النبوءات قد تحققت، وإن في تحققها دليلاً قاطعاً تاريخياً يثبت وجود خالق هذه الشعوب جميعها، كما يثبت كون هذا الخالق مامات ومازال، بل مازال هو الحي القيوم، هو أداة احياء الشعوب وايقاظها وتطويرها، فهو الإله اليقظ لكل أمر والمتولي والمراقب والمعدل لكل أمر من أمور عباده، ولابد أن ينال كل كافر بهذا الكتاب جزاءه على قدر كفره، لأن الله عزيز ذو انتقام، وقد قضى الله أن يكون هذا الكتاب فرقاناً من جهة ، ودائماً لايُنسخ إلى أبد الآبدين من جهة أخرى، ويثبت من ذلك كله أنه لايستحق التأليه والمحبة سواه.

الدليل العلمي: ودلّل الله عز وجل على صحة مُدّعاه ماجاء به في هذه الآية:

« إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، هو الذي يُصوّركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . » عرض سبحانه وتعالى دليله العلمي الواقعي من خلال هاتين الآيتين الكريمتين على شكل مقدمة ونتيجة. المقدمة تضمنتها الآية الأولى، والنتيجة تضمنتها الآية الثانية، وهذه النتيجة مستخلصة من هذه المقدمة.

عبر سبحانه عن مقدمة دليله العلمي بقوله ﴿ إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .﴾ بمعنى أن الاكتشافات العلمية هي أساس كل تقدم تقني، وعلى قدر مايبلغه الإنسان من اكتشافات علمية، على قدر مايساعده ذلك على التفوق تقنياً.

وهذه المعادلة يسلم بها جميع علماء العالم. فمن المعروف أن أدوات النقل المعاصرة كالباخرة والقطار والسيارة والطائرة، ماكانت لِتُخترع لولا أن اكتشفت قوانين البخار كقوة دافعة. هذه المعادلة العلمية. تضمنها قول الله عز وجل ﴿ إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .﴾. فهو سبحانه وتعالى استعمل لفظ (**الخفاء**) في مقابل لفظ (**الاكتشاف**)، لأن الخفاء يضاد الاكتشاف في المعنى، فإذا استبدلنا لايخفى بكلمة (مكتشف)، تصبح الآية [إن الله مكتشف كل شيء في الأرض وفي السماء] أي أنه مطلع على حقائقها وقوانينها اطلاعاً كاملاً غير ناقص في ناحية من نواحيه. ومادام على هذا المستوى من الكشف والإحاطة بالحقائق والقوانين، يلزم الإقرار بأن تقنياته تكون على مستوى لا تضارعه أية تقنيات كانت، **هذه مقدمة الدليل**، فإن ثبت ايجاده عز وجل لأشياء على هذا المستوى من التقنية فلزم استخلاص نتيجة من ذلك أنه سبحانه [لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جهة، وكونه سبحانه [الحي القيوم] الذي [لا إله إلا هو] من جهة ثانية].

وانتقل سبحانه وتعالى ليضع النتيجة المستندة إلى هذه المقدمة بين أيدينا، ومن واقع حياتنا، فقال ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .﴾. وقد تضمنت الفاظ هذه الآية الكريمة الأمور التالية:

الأول: تضمن قوله [هو الذي يصوركم في الأرحام] اشارة إلى الحيوان المنوي الذي يستحيل رؤيته إلا عن طريق المجهر لكونه بالغ الدقة، وهذا الحيوان المنوي بالرغم من دقته المتناهية، فهو يحمل صورة الإنسان: هيئته، وحواسه، وأجهزته الباطنية ودورته الدموية وأجهزته التناسلية ولون مورثه.

كما اشار إلى مافي هذا الحيوان المنوي من مورثات وصبغيات. وعلى احتوائها على (شيفرة) غاية في الابداع والدقة والاختراع، حير اكتشافها جميع علماء الوراثة، وقد سجلوا اكتشافهم هذا وحيرتهم تلك في كُتُبٍ ألفوها، وأضحت في متناول كل قارىء يتابع مثل هذه الاكتشافات.

وإن هؤلاء العلماء سلموا أنه يستحيل أن يتأتى مثل هذا التصوير البالغ الدقة من نفسه، أو من خلال تطور طويل الأمد. ورفضوا من خلال اكتشافهم هذا نظرية "دارون" أيضاً، إذ بينوا استحالة تصميم هذه "الشيفرة" للصبغيات والمورثات من خارجها، بدليل أن الصبغيات جاءت داخل النواة على شكلٍ لولبي ملفوف، بطول (١٥٠) مليون كم أي بطول المسافة الكائنة مابين الأرض والشمس هذا بالرغم من دقتها المتناهية التي يستحيل أن تُرى إلاّ بالمجهر. واستناداً إلى حسابات قاموا بها، قدروا للتفاعلات اللازمة لظهور هذه الشيفرة عن طريق قانون النشوء والارتقاء، قدروا زمناً يتجاوز عمر كوكبنا الأرضي، مما دفعهم للجزم بسقوط نظرية دارون، وأنه لامجال في تكوين هذه "الشيفرة" المورثة للتكوّن عن طريق المصادفة بأي شكل من الأشكال.

هذا هو الأمر الأول الذي يكون الدليل العلمي الذي قدمه لنا خالقنا من صلب واقعنا المادي، ومن خلال قوله عز وجل: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام﴾. بمعنى لاتتعجبوا من هذا الاكتشاف، ولاتكفروا بكون [الله الذي لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء] هو مصوركم في الأرحام، وهو الذي صوركم على هذا المستوى المعجز من التقنية المذهلة.

وكأنه سبحانه وتعالى يعود هنا بنا إلى دليله التاريخي وليقول لنا هاكم نموذجاً حياً على صدق هذا الدليل العلمي، وهو شخصية محمد بن عبد الله. فكيف كان بالإمكان الإنباء قبل عصور طويلة عن أنه سيمتد نسل اسماعيل إلى وقت يظهر من صلبه هذا النبي العظيم مصداقاً لتلك الأنباء، إلا أن يكون الذي أنبأ عن بعثته من نسل اسماعيل وفي أرض فاران ومعه هذه الشريعة السماوية الكاملة أن يكون [هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء] ؟؟؟

الثاني: والأمر الثاني اشار إليه كلمة (الأرحام) من حيث جاءت غير مقيدة بأمهات أو سواها، لينبهنا إلى النشأة الثانية من بعد الموت من أنها ستتم على شاكلة النشأة الأولى في هذه الحياة الدنيا، وهذه الحقيقة لفت سبحانه اذهاننا إليها في مقام آخر حيث قال ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال مَنْ يُحي العظام وهي رميم. قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم.﴾ يس ٧٨ .

فمن خلال ايراده سبحانه اسم الرحم على صيغة الجمع مطلقاً، نبهنا إلى حكمة دفن الميت، التي وضح أنها ظاهرة ماكانت لِتُوجَدْ لولا تعاليم الكتب السماوية. كما قال في مقام

آخر ﴿أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره﴾ بمعنى أن قبر الإنسان هو بمثابة رَحِمٍ آخر يكون أساس النشأة الثانية بعد الموت، والقائمة على مجموعة آثار أعمال الإنسان في حياته الدنيا التي تتشكل منها الحيوان الحياتي الذي سيتطور وتنشأ عنه حياة الآخرة. ولذلك رأيناه سبحانه يقول منذراً الكافرين [وأمه هاوية]. مشبهاً القبر ومايكون فيه بالأم ورحمها الذي يتكون فيه جنينها، فلا تعسر على الله هذه النشأة أيضاً.

الثالث: وبقوله [في الأرحام كيف يشاء] كأنه يحثنا على تقصي النبوءات السماوية والقيام بإحصائيات نتأكد من خلالها قوة تحدي [كيف يشاء]. وإني شاهد على صحة هذا التحدي، إذ أن الله عز وجل بشرني بأولادي قبل ولادتهم، وإنهم سيكونون شفاءً للناس أيضاً.

الرابع: وفي قوله عز وجل ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ تحدي عظيم في مجال دليله العلمي، فهو نبهنا إلى أن "شيفرة" المورثات التي يصوركم بواسطتها وصفها (**العزيز**) أي المنيع إشارة إلى عدم إمكانية اجراء أي تبديل فيها من قبل أية قوة أخرى سواه، وبدون موافقته ومشيئته. وإن الذي وضع هذه الشيفرة (الحكيم) الذي لايقدم على فعل أو عمل أي شيء بدون دراسة وتخطيط وهدف مرسوم. ومن هنا فلا إله إلا هو. بمعنى لايستحق التأليه والعبادة والمحبة أي وجود سواه، وإن هذه التقنية المذهلة تدل لامحالة على أنه لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. ولاشك أن هذا كله يشكل في حد ذاته دليل كون الله هو الحي القيوم، وأنه أعلم العالمين.

هذه **الأمور الأربع** شكلت بمجموعها **الدليل العلمي المادي**، والذي قدمه ربنا للتدليل بواسطته على كونه [لا إله إلا هو الحي القيوم.] وقد جاء هذا الدليل كنتيجة حتمية لمقدمة هذا الدليل والتي تضمنها قوله عز وجل ﴿ إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .﴾. وبإمكاننا تلخيص هذا الدليل العلمي على الشكل التالي:

يتألف الدليل من مُقدمة ونتيجة، وترتبط هذه المقدمة والنتيجة بمعادلة رياضية، إذا صح أحد طرفيها صح الطرف الآخر. وهذه المعادلة متعلقة بالاكتشافات العلمية والتقدم التقني، تقول هذه المعادلة إن التقدم التقني يتناسب طرداً مع الاكتشاف العلمي، فكلما ازدادت الاكتشافات العلمية، ازدادت الاكتشافات العلمية، ازدادت التقنيات تقدماً ورفعه وسُمّواً وكمال التقنيات مرتبط بكمال الاكتشاف وانتفاء الخفاء كلية.

واستناداً إلى هذه المعادلة، ومن منطلق هذه المقدمة وتلك النتيجة قدم الله عز وجل دليله العلمي، قدم كمال تَقَنِيّة خَلْقِهِ كنتيجة تثبت كمال علمه واكتشافه وانعدام كل خفاءٍ من أمام عينيه في الأرض والسماء. وقدم بتركيبة الحَيَوان المنوي مثالاً عملياً على ماله من كمال على المستوى التقني. هذه التركيبة التي اضطرت العلماء في مجال الوراثة، للاعتراف دون أي اكراه منه سبحانه، بعظمة هذه التقنية واستجاله تأتيها مصادفة، أو تأتيها بطريق التطور والارتقاء وفي الوقت نفسه قدم محمداً بن عبد الله شهادة علمية تثبت أنه سبحانه تنبأ عن ظهوره قبل عشرات القرون، مما يثبت أنه هو سبحانه الذي صوره في الأرحام كيف يشاء، وحتى حقق نبوءاته الغيبية على أجلى صورة واكمل وجه. واغتنم سبحانه وتعالى هذه الفرصة لينبهنا إلى أن النشأة الثانية من بعد موتنا، ستكون على شاكلة نشأتنا الأولى. وهي يقينية الحدوث لانتفاء الخفاء من كل شيء أمام أعين خالقنا ورب العالمين، وقد جعل أعمالنا أساساً تقنياً لإنشائنا النشأة الآخرة من منطلق أنه عزيز وحكيم.

على هذه الصورة ندرك ادراكاً عميقاً وواعياً بأن الدعوى التي تضمنها قوله تعالى في أول آيتين من آيات سورة آل عمران ﴿ الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾، إنما هي دعوى قائمة على أساس متين من الحقيقة ولايتطرق إليها الشك بأي حال من الأحوال، ذلك لأن الله تعالى قدم للتدليل على حقيقة هذه الدعوى دليلين: أحدهما تاريخي، والآخر علمي وواقعي، مما لامحال للطعن بهما بحال من الأحوال.

والآن، وبعدما فرغ ربنا من هذه المقدمة التي قدمها كمنطلق للدخول في موضوع سورة آل عمران. ابتدأ موضوع سورة آل عمران بآية المحكمات والمتشابهات التي شرحتها لكم باديء ذي بدء، ابتدأ هذه الآية بضمير (هو) ليعود بنا إلى الدعوى والمنطلق، ولينبهنا أن تقديم هذين الدليلين كان اعتراضياً بين دعواه، أي بين مقدمته وموضوعه.

فإن تساءل أحدنا هنا: لماذا قدم ربنا دليلين ولم يكتف بتقديم دليل واحد؟ أجيب بأن دعواه سبحانه تدور حول محورين اثنين هما (الحي القيوم). وقد اقتضى إثبات صفة الله (الحي) تقديم دليل تاريخي يثبت من خلاله صورة إحيائه للأمم والشعوب وانتشالها من وهدة الانحطاط. كما اقتضى إثبات صفة الله (القيوم) تقديم دليل تاريخي يثبت من خلاله صورة كون كل شيء لايقوم إلاّ به عز وجل.

وأن جميع مابينته لكم حتى اللحظة يشكل في حقيقته سباق آية المحكمات والمتشابهات، هذه الآية الكريمة التي تعتبر العمود الفقري لموضوع سورة آل عمران، وهي كما رأيتموها وبالمفاهيم التي عرفتكم عليها، ترتبط بهذا السباق المؤلف من مقدمة مؤلفة من دعوى ودليلين، أقول ترتبط ارتباطاً عضوياً موضوعياً لامجال لملاحظة أية ثغرة تفصل بينهما يقيناً.

فقد جاء في السباق الكلام عن التوراة والإنجيل، وكونهما حلقات مترابطة، كمظاهر لوجود الله الحي القيوم، كما جاء الكلام عن نزول هذا الكتاب كحلقة أخيرة تكمل تلك الحلقات وتُهيمن عليها من منطلق كون هذا الكتاب (فرقاناً).

وحتى يقوم هذا الكتاب **بمهمته الفرقانية** كان لابد من التعرض فيه لتعاليم التوراة والإنجيل نقداً وتمحيصاً، رفضاً وتثبيتاً، من هنا بات ضرورياً وجود آيات من هذا الكتاب متشابهات في مضامينها وأحكامها مع ماورد في التوراة والإنجيل من تعاليم وأحكام. كما بات ضرورياً وجود آيات في هذا الكتاب جديدة التعاليم، متقنة كل الاتقان وعلى مستوى الكمال.

وإلى نفس هذه الدلالات جاء قوله عز وجل ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات مُحكمات ، هن أم الكتاب، وأخر متشابهات...**﴾.

وانطلق سبحانه يشرح لنا انقسام الناس إلى فريقين تجاه هذا الكتاب، وكان هذا التشابه الواقع في بعض آياته مع بعض تعاليم التوراة والإنجيل يشكل السبب الرئيسي لهذا الانقسام، ولم يكن الخطأ، خطأ هذا الكتاب ومتشابهاته، بل هو خطأ الفريق الكافر بها، الزائغ عن الحق، والذي لايطلب الحقيقة بل يبغي الفتنة والتأويل. وعبر سبحانه عن ذلك بقوله ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ، فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.**﴾.

إن لمن البديهي أن يكون علم تأويل هذا الكتاب كاملاً عند الله الذي أنزله، هذه بديهية لاتحتاج للطرح والنقاش، لأن من المعروف أن كل كاتب يعلم مضمون مادونه وكتبه، لذلك يقولون (المعنى في قلب الشاعر). وهذا الأمر البديهي يعتبر قرينة تدفعنا لنفهم لهذه الجملة[**ومايعلم تأويله إلا الله**] معنى أعمق من معناها السطحي المتبادر لأذهاننا.

ويزيد تساؤلنا هذا تأكيداً الأسس الستة التي ينتهجها من كان من الراسخين في علم هذا الكتاب، فهل يعني هذا أن الكتاب قد نزل على صورة لاتفهمه إلا **فئة الراسخين في**

العلم، أم أنه قد نزل لجميع الناس كافة، وأنه بمتناول فهم كل إنسان مهما كانت طبقته ومنبته؟ ونظل نتساءل: ماالمعنى الحقيقي لقول الله عز وجل : ﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾.

وقد أجاب ربنا سبحانه وتعالى على هذا التساؤل، ذي الشعبتين بأسلوب رائع الأداء في الآيتين اللتين أعقبتا آية المحكمات والمتشابهات مباشرة، في قوله عز وجل ﴿ربنا لاتُزغ قلوبنا ، بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ، ربنا إنكَ جامعُ الناس ليومٍ لاريب فيه ، إن الله لايخلف الميعاد﴾.

أجاب سبحانه وتعالى على تساؤلنا المذكور من خلال آيتين فقط، لم يتجاوز عدد كلماتها عشرين كلمة، مُوضحاً لنا أن تأويل وفهم هذا الكتاب هو بمتناول كل إنسان، وإنه نزل لجميع طبقات الناس، لكنه من حيث عظمته وكونه (كتاباً مكنوناً) فهو متعلق بكل زمان ومكان.

وراح سبحانه يتكلم عن الفريق الثاني المؤمن بهذا الكتاب موضحاً بأنه فريق مؤمن يجمع بين النظرية والتطبيق في حياته ويلتزم بالأسس التي لابد من تبنيها للاستفادة من هذا الكتاب الفرقان، وعبر سبحانه عن ملامح هذا الفريق وعن الأسس التي يلتزم بها لفهم هذا الكتاب بقوله عز وجل:

﴿ ومايعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كُلٌّ من عند ربنا ، ومايذكّر إلا أولوا الألباب﴾.

أظنكم، قد تبينتم ملامح الارتباط العضوي الموضوعي مابين آية المحكمات والمتشابهات ومابين سباقها. هذا الارتباط الذي بَعُد بُعداً كبيراً عن تبينه وادراكه صاحب "القراءة المعاصرة" وهو الآخ المسلم الذي فرض عليه ربنا عدم التسرع وعدم إهمال السباق والسياق حفاظاً على التسلسل المعنوي لموضوع أية سورة من سور هذا الكتاب العظيم.

إن آية المحكمات والمتشابهات هذه والتي تعد في نظرنا العمود الفقري لموضوع سورة آل عمران وبداية له، ماكانت هذه الآية بمنفصلة عن سباقها بأي شكل من الأشكال، بل كان بينها وبين مقدمة السورة، كما بينت لكم، ارتباطاً عضوياً معنوياً مدهشاً.

واللافت للأنظار، من خلالها فقط قوله عز وجل: ﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾، فما هي مناسبة هذا الإعلان، وماهي الحكمة الكامنة وراءه؟

الحكمة هي في الحاجة إلى مفتاح يكشف عن مكنوناته التي لايحيط بعلمها إلاّ الله عز وجل.

قد يستغرب الإنسان هذا الأمر لأول وهلة حيث سيقول ماسمعنا أن أحداً كتب كتاباً، وجعل له مفتاحاً، لكن هذا الإنسان يزول عجبه هذا بعدما يطلع على ما امتاز به هذا الكتاب، ومن خلال المبادىء الستة التي جاءت في منهج الراسخين في العلم. هذا الامتيار الذي لم يحصل لأي كتاب سماوي سابق، بلهْ الكتب الأرضية الوضعية.

فما كانت الكتب السماوية تنزل إلا بمعايير قومية ومرحلية. ولمعالجة أقوام مُعّينين، لذلك فما كان هناك من داعٍ لدوام حفظها بحال من الأحوال، بينما أنزل الله عز وجل هذا الكتاب، كما تبين من خلال الأُسس الست المذكورة، لمعالجة جميع الناس وفي مختلف الأزمنة والأمكنة، ومهما تطورت الأحوال لذلك وعد الله سبحانه بحفظ هذا الكتاب وجعله على صورة (كتاب مكنون) وبحاجة إلى مفتاح، بإمكان كل إنسان تناوله، لفتحه والأخذ من مكنوناته على قدر ظرفه ووعائه وحاجته. كما نصّ على ذلك في سورة الواقعة ﴿لا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسمٌ لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون، لايمسه إلاّ المطهرون تنزيل من رب العالمين.﴾.

والقسم كما تعلمون، لايكون إلا عند استحاله تقديم شهادة مادية، فالمنكر يقسم بمعنى أنه يقدم الله عز وجل شاهداً على مايقول. أما إذا أقسم الله نفسه، فلا يختلف معنى القسم، إلا من جهة أن الله تعالى يكون في حالة تقديم دليلٍ حسي من مخلوقاته.

وهو هنا عندما أقسم سبحانه وتعالى بمواقع النجوم، فقد قدمها كدليل حسي للتدليل على عظمة تكوينه لهذه السماء ومابث فيها من أفلاك وسيارات ونجومٍ، ووفق قوانين محددة لايطولها التبديل والتغيير، وكيف أنها بمجموعها تهدي عابر الصحراء في الليالي الحالكات.

ولفت سبحانه وتعالى انظارنا بهذه الشهادة المادية المحسوسة إلى تكوين كتابه (القرآن الكريم)، وقد سماه هنا (قرآنا) كنبوءة عظيمة على أنّ أدوات النسخ والطباعة ستتطور إلى درجة، يُطبع هذا الكتاب من جّرائها بأعداد هائله، ويكون بذلك في متناول كل إنسان يتلوه ويقرؤه ويتفحصه، كما اعطاه سبحانه صفة (كريم) تنبيهاً إلى مكنونات هذا الكتاب وعطائه الذي لايعرف حدوداً من جراء كونه أنزل لهداية البشرية إلى يوم الدين.

وعندما قال سبحانه في هذه الآية [في كتاب مكنون]، نبهنا إلى ضرورة ومبررات وجود مفتاح ذهبي، يفتح هذا الكتاب بواسطته وليستفيد الإنسان من عطاء هذا الكتاب ومكنوناته برّر ربنا هذا الامتياز الذي جعله لكتابه من دون جميع الكتب السماوية المنزلة، بقوله[تنزيل من رب العالمين.] بمعنى أنه أنزل كتابه هذا لتربية جميع عوالم الناس في مختلف الأزمنة والعصور ومن جميع الطبقات والأجناس .وقد علمنا سابقاً معنى كلمة (ربّ). ولذلك وجدناه سبحانه وتعالى وقد افتتح سورة الفاتحة ، وهي خلاصة تعاليم هذا الكتاب بآية[الحمد لله ربالعالمين] بمعنى أن جميع أنواع الحمد لا يستحقها على سبيل الأصالة، إلا وجود واحد ، وذات واحدة ، وهي ذات[رب العالمين].

أجل، هذا هو الفارق العظيم مابين هذا الكتاب ومابين الكتب الوضعية الأرضية، وحتى الكتب السماوية السابقة، لذلك اقتضى الأمر أن يكون هذا الكتاب مكنوناً وبحاجة إلى مفتاح ذهبي، يتناسب مع عظمة هذا الكتاب ومكنوناته، شريطة أن يوضع هذا المفتاح الذهبي في متناول كل إنسان، ولاتكون الصعوبة إلا في استعمال هذا المفتاح إذ أن من حق صاحب الكتاب أن يجعل مفتاح كتابه المكنون كيفما شاء.

وقلت لكم إن معالم هذا المفتاح الذهبي تضمنته هاتان الآيتان اللتان صاغهما الله عز وجل على صيغة تضرّع ودعاء. فلماذا صاغهما سبحانه على صيغة دعاء؟ نجد جواب ذلك في قانون الاحتياج العام لعامل مساعد، ذلك أن الدعاء هو العامل المساعد على المستوى الروحي، ويتلخص هذا القانون إلى احتياج كل شيء إلى عامل مساعد يساعده على اداء وظيفته، دونكم عين الإنسان إنها بالرغم من عظمة تكوينها فلا تستطيع تأدية وظيفتها إلا بمساعدة الضوء، والأذن بالرغم من عظمة تركيبها فهي لاتؤدي وظيفتها إلا بمساعدة الهواء، والعقل لايعطي أحكاماً جازمة ويقينية إلا بمساعدة وحي السماء، على هذه الشاكلة، فإنكم مهما قلبتم الأنظار في مختلف الاتجاهات وعلى مختلف الصُعد، لابد ستلاحظون احتياج كل شيء إلى عامل مساعد، يعينه على اداء وظيفته، فالنقص والاحتياج ظاهرة طبيعية في جميع اشياء هذا الكون، ومن خلال قانون الاحتياج المذكور يثبت الكمال لله الخالق ، وكون كلّ شيء مخلوقاً، كما تثبت وحدانية الخالق بسبب ظاهرة وحدة عملية الخلق.

وعندما علمنا ربنا أن ندعو في سورة الفاتحة [إياك نعبد وإياك نستعين] علمنا هذا الدعاء من باب قانون الاحتياج العام الذي ذكرناه، ولم يستثنِ ربنا من هذا الدعاء أحداً من

عباده، حتى محمداً المصطفى سيد الرسل وخاتم النبيين ﷺ. فقد ورد في الصحاح من كتب الأحاديث، عن طريق عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان كثيراً مايدعو (يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) فسألته عائشة ذات مرة: ما أكثر ماتدعو بهذا الدعاء؟ فأجابها: (ليس من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمان، إذا شاء الله أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه. ويؤيد ذلك قوله [ربنا لاتُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.]؟ فانظروا من خلال هذه الرواية كيف استشهد رسول الله ﷺ بنفس الآية التي نحن بصدد تفسيرها والتي قلت أنها تضمنت معالم المفتاح الذهبي لفهم القرآن.

وتعالوا نتعرف على أوجه معالم مفتاح الكتاب المكنون:

الوجه الأول: أن ندعو [ربنا] بمعنى أن تقر بوجود الله وبكونه (ربنا)، وقد سبق أن فهمنا معني كلمة (رب)، فهي تعني الله الذي يطورنا من حال إلى حال، إلى أن يصل بنا مرتبة الكمال. فمن أقرّ بوجود الله، كما اعتقد بأن هذا الإله هو الذي يشرف على تربيتنا وتطويرنا، وتوجه إليه متضرعاً أن ياربنا، كما يتضرع الطفل بين يدي أبويه، يكون هذا الإنسان قد أمسك بطرف من اطراف هذا المفتاح الذهبي.

الوجه الثاني: أن يكون دعاؤنا [ربنا لاتزغ قلوبنا] بمعنى أن نكون معتقدين بكون قلب كلّ فرد منا بين اصبعين من أصابع الرحمان إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه. فلا هادي إلاّ الله، ولايُصيب العقل مكمن الحقيقة إلا بتحريكه والهامه الخفي، فمن أقر بهذه الحقيقة وأعتقد بصحتها، وتوجه إلى ربه متضرعاً إليه أن يصونه من سيئات أعماله وآثارها السيئة على فؤاده، يكون هذا الإنسان قد مسّ الوجه الثاني من أوجه المفتاح الذهبي.

الوجه الثالث: أن نعترف بفضل الله علينا أن هدانا للإيمان به وبكتابه وأن يُقِرّ بهذا الاعتراف بقوله متوسلاً [لاتُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا]. ،إن الذي يقدم على هذا الاعتراف، يقدم لربه دليلاً على أنه من طلاب الحقيقة، الذين لايبغون الفتنة والتأويل دون وجه حق، ويكون قد أمسك بالوجه الثالث من أوجه المفتاح الذهبي.

الوجه الرابع: أن يعتقد بكون خزائن هذا الكتاب هبة من الله ورحمة، فلا يحاول فهم آياته من منطلق الشك والنقد، بل من منطلق كونها جميعها تحمل للإنسانية الهبات والرحمة، متوسلاً أن يخصه ربه بما يلائم ظرفه ووعاءه وحاجته من هبات هذا الكتاب ورحمته قائلاً

[وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.] على اعتبار أن بعثة محمد بن عبد الله ﷺ كانت رحمة للعالمين، وعلى اعتبار أن الله تعالى قد كتب على نفسه الرحمة لعباده المؤمنين لقوله « ورحمتي وسعت كل شيء ،فسأكتبها للذين يتقون....»الأعراف ١٥٦علماً بأن الهبة هي عطاء بلا عوض، وأن الرحمة رقةٌ وعطفٌ وغفرانٌ وعطاءٌ زيادة عن الاستحقاق، كما بَيَّنَ اللغويون.

فمن توسل من ربه طالباً هباته من هذا الكتاب على اعتباره رحمة للعالمين، يكون قد أمسك بالوجه الرابع لهذا المفتاح الذهبي.

الوجه الخامس: وعلى المرء الذي يريد الاستفادة من مكنونات هذا الكتاب ألاّ يتوسل ويتواضع فقط بين يدي ربه، بل وأن يبرر توسله وتواضعه بأن يبدي اعتقاده بالحياة الآخرة، ومايت إليها، وأنه آخذها بعين الاعتبار عند كل خطوة يخطوها. أن يقدم لربه هذا المبرر لطلبه بقوله: [ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه] فإن أقدم على توسله هذا، متواضعاً ومعتقداً بنتائج أعماله التي ستظهر آثارها في الحياة الآخرة، نوراً أو ناراً، ومبرراً توسله بهذا الاعتقاد، يكون قد لامس الوجه الخامس للمفتاح الذهبي الذي يمكنه من فتح الكتاب المكنون، والاستزادة منه على قدر ظرفه ووعائه وحاجته، هبة من ربّه ورحمة.

الوجه السادس: وعلى المرء أن ينطلق من هذه الأوجه جميعها ومن اعتقاد جازم ويقين راسخ بوعود الله التي وعدها المتقين من عباده المؤمنين، يخاطبه مستيقناً بوعوده [إن الله لايخلف الميعاد]، وهذا التذكير من منطلق التوسل والرجاء يثير حمية الله وغيرته، فيلتفت إلى هذا الداعي بفتح كنوزه التي أودعها كتابه بالمفتاح الذهبي الذي وضعه بين يديه ويهبه على قدر ظرفه ووعائه وحاجته، غير آخذ سبحانه وتعالى بعين الاعتبار طبقة هذا الداعي ولامنبته ولا لونه ولأي اعتبار آخر إلا ماسلف.

على هذه الصورة يكون الله عز وجل حينما قال ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه، إنك لاتخلف الميعاد﴾. يكون قد وضع بين يدي كل فرد من بني نوع الإنسان مفتاحاً ذهبياً، يفتح به هذا الكتاب المكنون ليستزيد من هباته ورحمته شريطة أن يستوفي أوجه هذا المفتاح الذهبي، مستعملاً إياه استعمالاً صحيحاً.

ويكون قد برر قوله عز وجل[ومايعلم تأويله إلا الله] على اعتبار أنه كتاب مكنون غير محدود العطاء، ومتعلق بجميع الناس ومن مختلف الأزمنة والأمكنة، وإلى يوم الدين. ومثل هذه الخزائن يستحيل أن يحيط بها تأويلاً إلا الله الذي أودعها هذا الكتاب.

وبعد أن قطع الله عز وجل هذا الشوط من موضوع سورة آل عمران، لم يشأ أن يترك فئة المكذبين بكتابه وبرسوله دون أي تحذير أو انذار، بل توجه بالخطاب نحوهم محذراً ومنذراً بسوء العاقبة قائلاً ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أولئك هم وقود النار.﴾ أي لن تفيدهم أموالهم ولا أعدادهم في تحقيق أمانيهم وأهدافهم الدنيئة، وذكرهم بالمكذبين من آل فرعون ومن سبقهم من المكذبين بكتب الله ورسله، وكيف أخذهم الله بذنوبهم واشتد في معاقبتهم، معبراً عن هذا بقوله ﴿كدأب آل فرعون، والذين مِن قبلهم كذبوا بآياتنا، فأخذهم الله بذنوبهم، والله شديد العقاب.﴾.

ثم تحدى سبحانه وتعالى هؤلاء المكذبين وتنبأ جازماً باندحارهم قائلاً ﴿قل للّذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.﴾.

واكتفي بهذا القدر من الآيات لأنني لست بصدد تفسير هذه السورة، بل أنا بصدد مبحث أوضح من خلاله سباق وسياق آية المحكمات والمتشابهات مع بيان معناها الحقيقي المرتبط بهذا السباق والسياق ارتباطاً موضوعياً يستحيل معه الموافقة على معنى المحكمات والمتشابهات هذا التسلسل المنطقي الذي تجلّى في الخطوات والمراحل التالية:

أولاً - تضمنت الآيتان الأولى والثانية دعوي ومنطلقات، وهي بحاجة للإثبات.

ثانياً - تضمنت الآيات الثالثة والرابعة دليل إثبات تاريخي لتلك الدعوى ومنطلقاتها.

ثالثاً - تضمنت الايات الخامسة والسادسة دليل إثبات ثانٍ علمي واقعي، لإثبات تلك الدعوى ومنطلقاتها.

رابعاً - ودخل الموضوع في الآية السابعة حيث اشار إلى أن تعاليم هذا الكتاب ليست جديدة كلّها، بل منها ماهو جديد لم ينزل في أي كتاب سماوي سابق، ومنها ماهو مشابه لتعاليم الكتب السماوية السابقة.

خامساً - وفي نفس هذه الآية السابعة أخبر عن انقسام الناس تجاه هذا الكتاب إلى فريقين، فريق كافر اساليبه مبتذلة دنيئة، وفريق مؤمن يحترم هذا الكتاب، ويعطيه مكانته مّنطلقين من أسس ستة واضحة.

سادساً - وتضمنت الآيتان الثامنة والتاسعة مفتاحاً ذهبياً خاصاً بهذا الكتاب المكنون، يثبت من خلاله أنه لايعلم تأويل هذا الكتاب إلا الله وحده، ومن استعمل هذا المفتاح الذهبي استعمالاً صحيحاً فإنه يأخذ من كنوز ومعارف هذا الكتاب على قدر ظرفه ووعائه وحاجته هبة ورحمة.

سابعاً - وتضمنت الآية العاشرة انذاراً للمكذبين من أن عَدَدَهَم وعُدَدَهَم لن تغنيهم شيئاً.

ثامناً - وتضمنت الآية الحادية عشرة منطقاً تاريخياً من خلال ماوقفه آل فرعون والذين من قبلهم، من مواقف تكذيب لكتب الله ورسله، وكيف اخذهم الله جميعهم بذنوبهم بعذاب شديد.

تاسعاً - وتضمنت الآية الثانية عشرة تحدياً إلهياً على شكل نبوءة تؤكد أن مكذبي هذا الكتاب سيُغلبون ويُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.

عاشراً - ووضح سبحانه وتعالى في الآية الثالثة عشرة أن المكذبين لاقِبَلَ لهم بمقاتلة المؤمنين قتالاً ناجحاً بسبب أن المؤمنين مزودين بأسلحة غير متوفرة للمكذبين.

أما بعد للقارىء أن يقتنع بما قدمته له من رأي وبيان، أو أن يسير وراء رأي صاحب "القراءة المعاصرة" فيفتح باب التأويل بلا سند ولادليل، والله ولي المتقين.

الفصل الثاني

بطـــــلان

منطلقات ومصطلحات وتقسيمات

القـراءة المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني

بطلان منطلقات ومصطلحات وتقسيمات القراءة المعاصرة

فرّق صاحب "القراءة المعاصرة" بين الكتاب والقرآن. فزعم أن الكتاب شيء، والقرآن شيء آخر. ففي رأيه تعتبر كلمة (الكتاب) مصطلح لقسم من آيات كتاب الله العظيم. وتدور مواضيعها حول السلوك الإنساني فيما تعلق بالحلال والحرام، وتوازي "الرسالة"، وإن كلمة (قرآن) مصطلح لقسم من آيات الله، تدور مواضعها حول الحق والباطل، وهي توازي "النبوة"، وأفرد لهذا التفريق مابين الكتاب والقرآن فصلاً خاصاً يدور حول مصطلحات مزعومة استجدثها من دون المسلمين جميعهم، مضيفاً وجود آيات "تفصيل الكتاب" معتبراً إياها مستقلة عن القرآن والكتاب. مضيفاً أن جميع هذه الأقسام تشكل بمجموعها المصحف الشريف.

لاشك أن مثل هذه المصطلحات والتقسيمات، لم يذهب إليها المسلمون بمختلف أزمنتهم وطوائفهم ومدارسهم الفكرية. ويتساءل أحدنا أول مايتساءل: كيف لم ينتبه أحد من المسلمين إلى ذلك التقسيم؟ أو أن يكون هذا التقسيم بدعة لاتثمر غير التشكيك، ولاتلقّح غير الريبة، الالتباس، والإشكال. كما يتساءل أحدنا: من هي هذه الشخصية "الروحية" التي جاءتنا بهذا الفهم الجديد؟ وماهي ثقافتها ومكانتها العلمية؟؟

ويتساءل: هل تكون هذه "القراءة المعاصرة" أول القراءات وآخرها، في تاريخ الإسلام. أم أن علينا، وعلى أجيالنا أن تنتظر ظهور (المصحف الشريف) بأمثال، من هذا اللباس الجديد "المسبق الصنع" حتى ويأتي يومٌ لايعود يرى المسلم نفسه مشابهاً فيه لمسلمي صدر الإسلام لا في فكرهم، ولا في سلوكهم، ولا في تطلّعاتهم؟؟؟

ولقد أدّبنا ربنا في مواجهة هذه الأمور، فأحسن تأديبنا، علمنا ألاّ نسارع إلى تكذيب كل جديد، وأن نتبين، فلا نتهم على اساسٍ من الظنون وبلا دليل وبرهان ساطع، وأمرنا ألاّ نصفّد العقول فلا نحجرها؛ بل أن نشجعها لتتفتح زهورها وتتعاظم قواها، على اعتبارها جوهرة اختص الله الإنسان بها من دون سائر مخلوقاته. وحثنا على رفع شعار: إذا اخطأ المجتهد فله حسنه، وإذا أصاب فله حسنتان.

من منطلق هذا الأدب القرآني، وضرورة الالتزام بحدوده وإطاره كتبت هذا الفصل من هذا الكتاب، حاولت نقض ماجاء به صاحب "القراءة المعاصرة" من اصطلاحات وتقسيمات، بسلاح الحجة والبرهان معتبراً في النهاية أن الدكتور محمد شحرور لم يأت بشيء يصح قبوله وتبنيه، وأرجح أن تكون هذه "القراءة المعاصرة" غير سليمة الأصول والجذور. وها أني أتمشى خطوة خطوة مع خطواته، مفنداً، ومعرياً، ومبرهناً.

١- وكانت أولى خطواته بحثه لفظ (كتاب) على صفحة (٥١)، استغرق منه صفحتين ونصف صفحة لخصه بقوله (إن الكتاب هو جمع أشياء بعضها مع بعض، لإخراج معنى مفيد، أو لإخراج موضوع ذي معني متكامل).

وأدهشني أن يخصص صفحتين ونصف صفحة لبحث كلمة (كتاب) وهي التي لاتحتاج لشرحها أكثر من سطرين ونصف سطر، وتساءلت بداهة:

هل فعل هذا لدى تناوله كل لفظ من مصطلحاته؟ فأجريت القاء نظرة سريعة، من هذه الزاوية، على جميع ماتناوله في فصل مصطلحاته فلم أجد نظيراً لهذا التطويل بشكل من الأشكال، فضمرت في نفسي أن أتتبع هذا الأمر في كل خطوة من خطواته، لعلي اكتنه سر إسهابه.

٢- وثاني خطوة خطاها هي قولة ص ٥٣ (عندما نقول كتاباً ونقف. يبقى المعنى ناقصاً، حتى نقول كتاب ماذا؟ وهذا بديهي، فإذا ورد كتاب نكرة، كان المعنى ناقصاً حتى يُعرف أو يُخصص بإضافةٍ أو وصف. أما إذا كان مُعَرفاً بأل، فإن (أل) هذه تُعَرفه، وقد يتطلب المعني الزيادة في تعريفه بالوصف، وقد لايتطلب، فيكتفى بتعريفه باللام. واستدل هنا بآية كريمة من سورة هود، لم يقدم منها سوى الألفاظ [كتابٌ أحكمت آياته]؛ للتدليل على ضرورة أن نقول "كتاب ماذا؟" أي تبيان موضوع الكتاب، وإلا

يبقى المعنى ناقصاً على حدّ قوله. أمعنت النظر في[كتاب أحكمت آياته] التي اجتزأها من كامل الآية . فلم أطمئن لاستدلاله . لأننا بحاجه إلى صيغة مضاف ومضاف إليه لنؤدي فحوى (كتاب ماذا) كأن نقول كتاب المحكمات مثلاً . ثم إن جملة [أحكمت آياته] هي جملة تصف الكتاب، ولاتبين موضوعه فنحن عندما نقول (ذَكَرٌ أبيضّ شعرُه) لانكون قد وضحنا جنسه أذكر إنسان هو أم ذكر سواه، كما أن موضوع ابيضاض شعره، هو وصف، وليس هو تعيين جنس أو تعيين موضوع.

وخرجت بنتيجة، وهي أن استدلال هذا الأخ المسلم خاطىء في هذا المقام، فما الذي أداه إلى الخطأ؟ أعن قصد وسابق تصميم؟.

لنعد نستعرض كامل الآية الكريمة ﴿الر، كتاب أحكمت آياته ثم فصلّت، من لدن حكيم خبير، ألا تعبدوا إلا الله، إنني لكم منه نذير وبشير...﴾. (الر) أحرف مقطّعات تعني (أنا الله أرى)، هذا فنّ اختزال عربي، أفضت في شرحه في مبحث (المحكمات والمتشابهات) في هذا الكتاب، فليرجع إليه، الألف مختزلة من (أنا)، واللام مختزلة من (الله) والراء مختزلة من (أرى). على نسق (الم) التي فسرها رسول الله ﷺ أنها تعني أنا الله أعلم.

و(كتابٌ) هنا هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذا كتاب)، ونُوّن إشارة إلى مكانته وعظمته، ولانجد إشارة وقف جائز على آخره دلالة على أنه لايحق لمرتل القرآن الوقوف على هذا اللفظ (كتابٌ) كيلا يحرمه تنوينه ودلالته.

ثم أن[أحكمت آياته ثم فُصلت] تعني أن هذا الكتاب قد صيغ على أسلوب خاص، فمنه آيات هي بمثابة مواد دستورية، ومنها آيات هي بمثابة مواد قانونية، (آيات محكمة، وآيات تفصيل المحكم).

هذه حقيقة غابت عن اذهان بعض من اعتبروا (ثم) هنا مجرد حرف عطف أريد بها بيان الترتيب الموضوعي، بينما الحقيقة في نظري أنه اريد بها هنا الترقي في الإخبار والترتيب معاً: الترقي في الإخبار تنبيهاً إلى ماشرحته وهو كونها آيات مجملة دستورية، وآيات مفصلة قانونية، إلى جانب الترتيب الموضوعي. وإن الذي يؤيد وجهة نظري هذه قوله عز وجل في آخر الآية: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ كقرينة اشعار لنا بأن الذي قام بهذه الصياغة إنما هو [حكيم خبير]، إشارة إلى أن مثل هذه الصياغة

تقتضي توفر عنصرين رئيسيين: أولهما الإحاطة بفلسفة جميع الأشياء وبطرق معالجتها، ولايتوفر هذا العنصر إلا عند (حكيم). وثانيهما الإحاطة بشؤون الناس فمن تُسن لأجلهم القوانين، من حيث مستويات تفكيرهم واساليب معاشهم، وسوى ذلك على اختلاف الزمان والمكان، ولا يتوفر هذا العنصر إلا عند (خبير).

بهذا الفهم ندرك ارتباط الرؤية الإلهية التي تضمنتها أحرف (الر). بقوله تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.﴾، ففيها تنبيه إلى أن الذي أنزل هذا الكتاب العظيم، لاتغيب عن ناظره شاردة أو واردة، لا في السماء ولا في الأرض، وأنه من هذه الرؤية أدرك بلوغ البشرية مرحلة تطور فكري معينة، استلزمت سن مثل ماتضمنه كتابه هذا سواء من حيث الصياغة وسواءً من ومن حيث المضمون، حتى يكون ماسنّ في هذا الكتاب كافياً لإصلاح شؤون عباده على اختلاف الزمان والمكان.

وأضرب لكم مثالاً بسيطاً يوضح الإجمال والتفصيل الذي عَنَتْهُ هذه الآية الكريمة في هذا المقام. القصاص على سبيل المثال، بمختلف أشكاله، ينبع من دستور أساسي، وتعليم إجمالي، على كل مشّرع أخذه بعين الاعتبار. وهذا الحكم الأساس عبّر عنه قوله عز وجل: ﴿ وجزاء سيّئة، سيئة مثلها، ومن عفا وأصلح فأجره على الله.﴾ ففي هذه الآية المحكمة الدستورية توجيه للمؤمن والشارع معاً، ألا يتسّرع فينزل القصاص بالمذنب، قبل أن يوازن ويتحقق أي الأمرين أصلح وأكثر فائدة للمذنب: القصاص أو العفو.

هذا الإجمال والتفصيل في تعاليم الإسلام يشكل أساس مرونتها ومن منطلق هذه المرونة، خالف عمر بن الخطاب رضي الله عنه صريح نص آية قصاص السارق، فعفا عن السارق أيام القحط، آخذاً بعين الاعتبار روح النص، من منطلق فهم هذا الدستور.

نعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصددها، ومايؤكد المعني الذي بينته فيما يتعلق بمضمونها، هو قوله عز وجل بعدها مباشرة ﴿ ألاّ تعبدوا إلا الله، إنني لكم منه نذير وبشير..﴾، فهو سبحانه نبّه بذلك إلى أن محمداً قد بعثه الله لإصلاح شؤون العباد بدستور وقانون وضعه لخيرهم (حكيم خبير) من منطلق كونه لاتغيب عن رؤيته شاردة ولا واردة من أحوال عباده، محذراً سبحانه وتعالى العرب خاصة، والبشر عامة،

أنهم إذا رفضوا هذا التشريع، فإن عاقبتهم ستكون كمثل عاقبة الذّين سبقوهم من الأمم والشعوب الذّين نزلت سورة هود تقصّ قصص عذابهم، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ قوله إثر نزول هذه السورة (**شيبتني هود قبل المشيب**).

تدركون من كل ماذكرت، أن تنوين لفظ (كتابٌ) ماورد عبثاً بل إن وراء هذا التنوين، هذه الحكمة العظيمة التي شرحتها، وهي أن عظمة هذا الكتاب تنبع من حيث أن أحكامه صيغت على شكل دستور عام وقوانين مجمل ومفصل، عام وخاص.

كما تدركون من ذلك أن جملة[أحكمت آياتة ثم فصلت من لدن حكيم خبير] جاءت كجملة تصف ماتضمنه هذا الكتاب العظيم، وهذا كله يُبطل ماذهب إليه صاحب "القراءة المعاصرة" من أن[كتابٌ أحكمت آياته] يعني (كتاب المحكمات) أو بيان (كتاب ماذا؟) ويبطل استدلاله بهذا النص على هذه الصورة. وتزل قدمه من أول الطريق.

٣- **وثالث خطوة** خطاها هذا الأخ المسلم، هو استدلاله مجدداً على الصفحة (٥٣) بلفظين اجتزأهما من آية طويلة من سورة الزمر، على اسلوب القطع والوصل الذي لجأ إليه في خطوته الثانية، حيث كتب:

(وعندما قال [كتاباً متشابهاً] الزمر ٢٣، فإنه لايعني كُلّ المصحف، وإنما يعني مجموعة آيات متشابهات.) ويريد أن يصور لنا بأن هذين اللفظين لايعنيان كامل المصحف، بل (كتاب المتشابهات).

ولنستعرض الآية كاملة، قال تعالى ﴿ **الله أنزل أحسن الحدث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يُضْلل الله فما له من هاد** .﴾.

وتلاحظون أنه عندما اجتزأ من هذه الآية لفظين هما [كتاباً متشابهاً] أهمل كلمة [مثاني] التي تقوم بنفس عمل [متشابهاً] فلماذا صدر عن هذا الأخ المسلم هذا الإهمال لهذا اللفظ بالذات في هذا المقام، ثم إن استدلاله هذا خاطىء أيضاً، لايفيد ما أراد أن يقنعنا به، ذلك أن قوله عز وجل هنا: ﴿ **كتاباً متشابهاً مثانّي**﴾ هو على شاكلة قولك (زيداً أحمر أبيض) وتعني غلبة الحمرة في مكان، وغلبة البياض في مكان آخر. وبين هذا وذاك مابين اللازم والملزوم من علاقة، فلا يجوز بترهما بعضهما عن بعض بأي شكل من

الأشكال، إن (متشابهاً) تعد صفة (ومثاني) تعد صفة أخرى للكتاب، فكيف حقّ لهذا الرجل أن يزعم أن [كتاباً متشابهاً] وحدها تعني كتاب المتشابهات؟ أوليس هذا تحريفاً لمعنى الآية الكريمة؟

لقد وصفت آيات الكتاب في هذه الآية بصفتين رئيسيين هما (متشابهاً مثاني) ولاتدل هاتان الكلمتان على موضوع الكتاب حتى نقول أنها تعني "كتاب الآيات المتشابهات" ذلك ولأنها لم ترد أيضاً على صيغة مضاف ومضاف إليه حتى نقول عنها (كتاب كذا وكذا).

فأي خطأ أخطأه صاحبنا حين أغفل رُكناً من أركان الوصف في الجملة، لينتهي بالمعنى إلى مايريد هو دون ماتعنيه الجملة وتقتضيه اقتضاءً. فقد كان بإمكانه تقديم شاهد أجدى إن كان عالماً وباحثاً كما يقدم نفسه للناس.

ولنتناول كلمة [مثاني] التي أهملها، فماذا تعني؟ وماهو المعني الذي يستقيم لها في هذه الآية الكريمة.

لهذه الكلمة عدة معاني منها: المثاني من الوادي معاطفه والمثاني من الدّابة ركبتاها ومرفقاها، ومثاني الشيء قواه وطاقاته، والمثاني هي أوتار الألة الموسيقية (العود) من بعد الأول فيها، ومفردها مثنى. والسؤال أي معنى من هذه المعاني يستقيم هنا؟ وحتى نحدد ذلك علينا مراجعة الآية من أولها. حيث أن في كلام الله تسلسل منطقي عجيب.

قال تعالى: ﴿ الله أنزل أحسن الحديث كتاباً ...﴾. فما معنى (أحسن الحديث)؟ إذا قيل: حدث فلان بكذا معناه أخبر خبراً جديداً، والحادث، والحديث هو كل جديد من الأمور، وعليه فإن معنى [أحسن الجديث] أفضل ما أنزل الله ربنا من أخبار وكلام سابقين، ويكون معنى [أحسن الحديث كتاباً] أي انزل أفضل وأعظم ما أنزل الله من كتب سماوية سابقة، احتوت على كلام الله واخباره. وكُنّا علمنا أن التنوين يؤتى به على آخر الكلمة لتفخيم دلالتها، ولقد ورد لفظ (كتاباً) على هذه الصيغة بسبب أنه مفعول به لفعل (أنزل الله).

وسؤال يطرح نفسه هنا تلقائياً وهو أنه مادام قد كان هذا الكتاب أحسن وأفضل ماأنزل من كتب سماوية سابقة، فبماذا يمتاز عن تلك الكتب من صفات تجعله أفضلها وأعظمها؟ وجاءنا الجواب تلقائياً أيضاً من خلال قوله عز وجل [متشابهاً مثاني] بمعنى أنه إلى

جانب كون بعض تعاليمه مشابهة لتعاليم الكتب السماوية السابقة، فإنه كتاب قد أتى بتعاليم جديدة بكل ما للكلمة من معنى، وهذه الآيات التي حملت هذه التعاليم الجديدة، كأنها نغمات آلة موسيقية مطربة. فهي مؤثرة إلى درجة أنها [مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم] أي توقظ إحساسات الإنسان وتوجهها باتجاه ربها. [ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله] وهذه كناية تعبر عما تحمله هذه التعاليم من جاذبية خارقة على نسق جاذبية النغمات الموسيقية المؤثرة في افئدة أقسى العتاة من الناس، على هذه الصورة نكون قد أخذنا بهذا المعنى لكلمة [مثاني] بصورة طبيعية غير متكلفة. هذا المعنى الذي ينفي عن تعاليم هذا الكتاب العظيم أحسن الحديث كل نقص أو نشاز.

وهكذا ترون كيف ظهرت معاني هذه الآية الكريمة وتسلسلها الموضوعي المنطقي، وماتضمنهما لفظا [متشابها مثاني] من مكنون الدلالات، وعليه فكيف أجاز صاحب القراءة المعاصرة لنفسه أن يفصل بين هذين اللفظين، ليأتي بمعنى غير مُستْساغ لغوياً، ولا يربط معاني الآية بعضها مع بعض؟ أفما كان يُحسن أن يأخذ بعين الحسبان سياق الآية وكيف جاء سبحانه وتعالى يباهي بكتابه هذا بقوله ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾. فما رأيناه قد قال: ﴿هذا هدى الله﴾ بل قال: ﴿ذلك هدى الله﴾، وقد سبق أن علمنا دلالة استبدال اسم الإشارة القريب بالبعيد، ولماذا لم يراع هذا التسلسل المعنوي المنطقي، الذي عبّر عنه سبحانه وتعالى بانذاره كلّ منكر لعظمة هذا الكتاب بقوله: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

٤- ورابع خطوة خطاها هذا الأخ المسلم قوله على الصفحة (٥٣) مانصه:

(من الخطأ الفاحش أن نظن أنه عندما ترد كلمة كتاب في المصحف، فإنها تعني كل المصحف، عندما تأتي كلمة كتاب معّرفة بأل التعريف (الكتاب) فأصبح مُعرّفاً، عندما قال تعالى[ذلك الكتاب] في ثاني آية، في سورة البقرة، بعد (الم) [ذلك الكتاب لاريب فيه]، قالها مُعّرفة، ولم يقل [كتاب لاريب فيه]. لأنه لو قالها، لوجب تعريف هذا الكتاب،ويؤيد ذلك أن سورة الفاتحة تسمى فاتحة الكتاب).

خلاصة هذا النص هو أن كلمة (كتاب) لاتدل على كامل المصحف، مالم ترد مُعّرفة، بدليل تسمية سورة الفاتحة (فاتحة الكتاب)، وكأن التعريف هنا معهود ذهني يعود على المصحف

الشريف. وهو قد اخطأ هنا أيضاً، لأن هذه الآية التي استدل بها هي ثاني آية من سورة البقرة، ولم يرد قبلها أي ذكر للمصحف الشريف، حتى يعتبر معهوداً ذهنياً، وكان من الواجب عليه بحث هذا الأمر والتدليل عليه، ومادام لم يبحثه بأسلوب الباحث، فقد عُدَّ ماذكره إدّعاءً غير مسند، ولا علاقة لتسمية سورة الفاتحة هنا باسم فاتحة الكتاب، بادعائه، من قريب أو من بعيد.

وإني ساستعرض لكم هذه الآية، وصياغتها،ودلالاتها لتستوثقوا من خطأ ما استدل به صاحب القراءة المعاصرة منها لجانبه ومصلحته.

ابتدأت الآية الكريمة بـ[ذلك] وهو اسم إشارة للبعيد، وسؤال يطرح نفسه هنا وهو: ما الداعي لذلك، أفما كان يكفي أن يقول سبحانه {هذا الكتاب لاريب فيه}؟ أي أن يبتدىء الآية بـ (هو) وهو اسم إشارة للقريب. فالكتاب قريب في متناول كل يد؟ ويستحيل أن يعمد سبحانه وتعالى إلى مثل هذا الاستبدال دون حكمة منظورة.

نعود إلى بلغاء لغة الضاد. عندما يقولون: هذا رجل أسد. ويريدون تعظيمه، يستبدلون (هذا) بـ (ذلك) فيقولون: ذلك الرجل الأسد، على اعتباره أكثر شجاعة ورجولة.

وعلى هذا الأساس نفهم مدلول استبدال (هذا) بـ (ذلك) في أول هذه الآية الكريمة، فقد حملت [ذلك] هنا حقيقة عظيمة من الله عز وجل وهو أن كتابه المنزل هذا، وإن شابه الكتب السماوية السابقة من حيث كونه منزلاً وموحى به من الله تعالى، إلاّ أنه أعظم ماأنزل الله من كتب وحي حتى تلك الساعة. ومادامت هذه الحقيقة جاءت مطلقة فقد شمل الصياغة والمضمون لكتاب الله. وكانت دلالة[ذلك] أن هذا الكتاب المنزل هو كتاب منقطع النظير صياغة ومضموناً.

وننتقل خطوة أخرى، فهو سبحانه وتعالى قال: [ذلك الكتاب]، وسؤال آخر يطرح نفسه ثانية هنا وهو: لماذا أورد سبحانه وتعالى لفظ (كتاب) مُعَرفاً بالألف واللام؟ هل عُرِفَ (كتاب) هنا أصطلاحاً على حسب ادعاء صاحب "القراءة المعاصرة" ودون أي مبرر لهذا التعريف، فمازلنا في ثاني آية من كتاب الله، ولايوجد عندنا في سياق الكلام أي معهود ذهني؟ ولايصح ادعاء هذا الرجل من دون أن يقدم لنا دليلاً مُقنعاً.

نعود إلى كتب اللغويين، قسموا المعهود الذي يؤتى بأل التعريف للدلالة عليه إلى ثلاث:

الأول: معهودٌ ذكري، نحو اشتريت فرساً ثم بعت الفرس، والفرس في هذه الجملة هي المعهود الذكري.

الثاني: معهودٌ ذهني، نحو جاء القاضي، والقاضي هنا هو نفسه معهود ذهني سواء في ذهن المتكلم وسواء في ذهن المخاطب.

الثالث: معهودٌ حضوري. نحو جاءني هذا الرجل، إشارة إلى أن هذا الرجل قد حضر عندي.

وفي الحالات الثلاث، لابد من مصاحبة (معهود) بـ (أل) التعريف: ذكري أو ذهني أو حضوري، حتى يسد هذا مسد المحذوف في الجملة، ذلك أننا حينما قلنا اشتريت فرساً ثم بعت (الفرس) نكون قد حذفنا مالابُدّ من تقديره (الفرس المذكور).

ولنعد الآن إلى الآية موضوع بحثنا. قال تعالى: ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين.﴾. فلنمعن نظرنا في الفاظها جيداً، فلن نجد أي معهود من الأنواع الثلاث المذكورة قد صاحب كلمة (كتاب) التي جاءت معرفة [الكتاب]، فهل نحمل عدم ورود هذا المصحوب هنا على أن تعريف (الكتاب) جاء اصطلاحاً كما زعم صاحب القراءة المعاصرة، الأمر الذي لايحق لنا ادعاؤه دون البرهنة عليه وهو لم يقدم عند ادعائه أي برهان مقبول؟

وأنا أقول إن تعريف [الكتاب] جاء أصولياً في هذه الآية الكريمة ولم يرد اصطلاحاً، إذ يوجد معهود ذهني، ومعهودٌ يعرفه أتباع الديانات السابقة، وهو نبوءات كتبهم التي كانت قد تنبأت عن ظهور هذا الكتاب العظيم منذ ألوف السنوات. وقد كان منطقياً أن يشار إلى تلك النبوءات وتحقق ماأنبأت عنه بظهور هذا (الكتاب) عند أول آيات هذا الكتاب العظيم، فما كان ينبغي أن يهمل ذكر المعهود الذهني لتلك النبوءات وإلا اعتبر هذا الإهمال في هذا المقام نقصاً كبيراً، وحاشا أن يتطرق إلى كلام الله مثل هذا النقص.

والحق يقال أن خير الكلام ماقل ودل. ومصداقاً لهذه المقولة أشار ربنا إلى نبوءات الكتب السماوية السابقة المتعلقة بظهور هذا الكتاب، وذلك أنّه ضمن هذه الإشارة اسم كتابه معّرفاً بالألف واللام، وقائلاً (ذلك الكتاب)، والمعنى أن كتابي هذا الذي انزلته اليكم والذي أضحى بمتناول أيديكم، هو أعظم كتبي التي أنزلتها حتى الآن صياغة

ومضموناً وقد أنزلته لأصدق بواسطته نبوءاتي التي تنبأتها عنه في كتبي السابقة، حتى تعلموا أني أنا رب من سبقكم وربكم ورب الناس أجمعين، فما أعظم هذا الإيجاز، وماأعظم دلالاته، فسبحان الله والحمد لله رب العالمين.

ونقوا أنني فتشت عن مبرر لاصطلاح صاحب القراءة المعاصرة، فلم أعثر له على أي مبرر مقبول، وها أني أوضحت لكم الصورة، فلكلٍ منكم حق تمحيص رأيه، ورأيي، واختيار مايطمئن له فؤاده، علما بأن هذا الأخ المسلم توصل إلى اصطلاحه المزعوم عن طريق الحرز والتخمين والتنجيم كما ورد في مقدمة كتابه، وهو طريق لايصح لفهم كتاب الله العظيم.

وسؤال ثالث يطرح نفسه هنا وهو أن كل إدعاء لابد من الدليل عليه، ومادام اسم الإشارة [ذلك] حمل إلينا إدعاءً عظيماً كما رأينا، فقد كان واجباً أن يُتْبَعَ هذا الإدعاء بدليل عظيم على مستواه أيضاً.

واستناداً إلى هذا الأصل الذهبي للتفسير، نلاحظ أن ربنا قدم لنا بدلاً من الدليل الذي يثبت به إدعاءه المذكور دليلين تطميناً لنا وتأكيداً، دليله الأول تضمنه قوله عز وجل [لاريب فيه] ودليله الثاني تضمنه قوله عز وجل [هدى للمتقين].

وحتى نتبين معالم الدليل الأول لابد لنا من تفهم معنى (ريب)، قال اللغويون: إن الريب يعني الظنه والتهمة، والشك والحاجة كما تسمى الآفات ريب المنون. وإن جميع هذه المعاني مأخوذ بها في هذا الدليل. يؤكد لنا هذا ورود آيات قرآنية في مختلف سور القرآن بجميع المعاني المذكورة، كقوله تعالى في سورة البقرة، مستعملاً الريب بمعنى الظن والتهمة ﴿ **وإن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله.**﴾، واستعمل سبحانه الريب في سورة الحج بمعنى الشك ﴿ **ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث..**﴾ وبمعنى الآفات ﴿**أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون.**﴾، وحتى في حديث رسول الله ﷺ جاء [**دع مايريبك إلى مالايريبك**] الترمذي.

ويكون الدليل الأول بهذه المعاني لكلمة (ريب) قد تكون على الشكل الآتي:

وهو أنه مهما قلبنا هذا الكتاب، من حيث صياغته، أو من حيث مضمونه، فلن تقع أعيننا على أي شيء ينتقص من كماله، فهو كتاب لايقيم أحكامه على شك وظن، وهو كتاب

متكامل مع نفسه، ومستغن عما سواه، لذلك يفسر بعضه بعضاً، ثم إن العمل على أحكامه يقي الإنسان آفات الزمان، كما أن عطاء هذا الكتاب يتناسب مع عظمته ومكانته ومهمته التي نزل للقيام بها وتحقيقها.
ولقد صدّقت القرون الماضية هذا الدليل بكل وضوح، فنحن رأينا كيف أنه لم يستطع إنسان الطعن بهذا الكتاب العظيم، لاصياغة ولامضمونا، بشكل مقبول.
وحتى نتبين معالم الدليل الثاني الذي تضمنه قوله عز وجل [هدى للمتقين] والذي قدمه لنا ربنا تطمينا لنا وإثباتاً على عظمة كتابه كما جاء في ادعاء [ذلك الكتاب] علينا أن نتفهم معاني (هدى) و (المتقين).
قال اللغويون أن الهدى يعني الرشاد والبيان والدلالة بلطف. ولنلاحظ من خلال تدبرنا كتاب الله أنه نزل بهذه المعاني جميعها، فقد قال تعالى في سرة طه ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.﴾، أي وهب كل شيء قواه المناسبة وهداه للعمل بموجبها، إشارة إلى أن الحياة تقتضي توفر عنصرين اساسيين هما تكوين وتحريك كالسيارة لايكفي صنعها، بل لابد من جهاز ومفتاح لقيادتها، فهو سبحانه وتعالى ينبهنا إلى أن من مظاهر ربوبيته الكاملة توفير هذين العنصرين لكل شيء ولجميع مخلوقاته، وقال تعالى في سورة محمد ﴿الذين اهتدوا زادهم هدى.﴾ أي أنه وعد المؤمنين بفتح مزيد من أبواب نجاحاتهم التي يحققونها على صعيد الفكر والبحث العلمي، كما قال في السجدة ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا .﴾ أي يرسل من يساعد المؤمنين على تحقيق هذه الأهداف.
وقال اللغويون أن (المتقين) جمع المتقي اشتق من الاتقاء بمعنى محاذرة السقوط في الحفر أو التأذي بالأشواك. وسنرى كيف امتاز كتاب الله بتقديم نهج للتقوى ماسبق أن عرفته البشرية من قبل نزول هذا الكتاب العظيم.
ويتألف **الدليل الثاني** على ضوء المعاني التي ذكرناها على الشكل التالي:
ستثبت تجارب المؤمنين بهذا الكتاب من بعد اكتمال نزوله أن تعاليمه ستؤلف الحجر الأساس في تقدم هؤلاء وتجنبهم مواقع الزلل والأذى وتفتح لهم أبواب تقدم على صعيدي الفكر والعلم مافُتحت لمن سبقهم من الأمم والشعوب، وسيثبت لهؤلاء أن دلالات آيات هذا الكتاب ألطف من دلالات جميع ماسبقه من كتب سماوية.

ولقد صدقت القرون الماضية ابعاد هذا الدليل وحقائقه. فلايوجد من يجهل كيف كان العرب قبل تقبلهم للإسلام، وكيف أصبحوا بعد تقبلهم لهذا الدين الحنيف هم وجميع من تقبلوا الإسلام ديناً. لهذا علمنا ربنا دعاء الفاتحة لندعو به في كل ركعة من ركعات صلواتنا، فهو قد حثنا على التخلق بأخلاقه وطلب بركات هداه لنكون مصداقا لوعد ربنا الذي تضمنه قوله [هدى للمتقين].

والآن، وبعد هذا الشرح لقوله عز وجل [ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين] يتضح لكم معالم ترابط دلالاتها وتماسكها وعظمتها، فهي قد حملت حقيقة عظيمة متعلقة بكتاب الله المُنزل، وإنه جاء مصداقاً لنبوءات التوراة والإنجيل. وقدمت على صحة هذه الحقيقة دليلين لم يستطع المكذبون نقضهما علي مدى أربعة عشر قرن من الزمان.

فهل يصح والحال هذه، أن نغمض أعيننا عن هذه الدلالات جميعها، المترابطة المتماسكة، لنسلم مع صاحب القراءة المعاصرة بأن كلمة [الكتاب] هو اصطلاح مجرد ولا علاقة لتعريفه بالألف واللام بنبوءات كتب سماوية سابقة، ولايوجد هنا أي إدعاء وأدلة؟ ولا أظن أنه يوجد مسلم غيور على كتاب الله ويقبل هذا المصطلح الذي أشرنا إليه.

إن هذا الأخ المسلم قد اخطأ في زعمه هذا يقيناً، وقد نقضت بما قدمت مصطلحه المذكور.

والحق أن شكوكي تعاظمت حول مصطلحه، عندما عدت إلى كتابه نفسه، ولاحظت أن صاحب القراءة المعاصرة هذا لايتقيد نفسه بهذا المصطلح في كتاباته. فقد ورد في الصفحة (٥٦) (فالكتاب المتشابه هو كل آيات الكتاب ماعدا آيات الأحكام (الرسالة) وماعدا آيات تفصيل الكتاب...).

فلو كان صاحبنا متقيدا بمصطلحه نفسه، لتوجب عليه أن يقول:

(فكتاب المتشابه من الآيات هو كذا....) بينما لم يفعل ذلك أي لم يستعمل (كتاب كذا) على صيغة المضاف والمضاف إليه ومجرداً من أل التعريف، وهو يكون بذلك ناقض وباعد بين نظريته وتطبيقه.

وبعد مقدماته التي رأيناها من خلال خطواته الأربع السالفة الذكر. رأيت هذا الأخ المسلم ينتقل من المقدمات إلى نتائجها. انتقل فجأة إلى الجزم بأمور أثبت لكم أنها ماقامت على آراء صائبة، بل على مقدمات مهلهلة واهنة وعلى أرض رملية متحركة لاتصلح لإقامة أي بناء عليها، وما قام على باطل فهو باطل.

كتب على الصفحة (٥٤) مايلي:

«هذا الكتاب يحتوي على مواضيع رئيسية، هي:

١- [الذين يؤمنون بالغيب] البقرة ٣ (كتاب الغيب).

٢- [ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون] البقرة ٣ (كتاب العبادات والسلوك) (سلوك)»». وأضاف قوله:

«أي أن هناك نوعين من الكتب: النوع الأول هو الذي يتعلق بسلوك الإنسان ككتاب الصلاة الذي يتألف من الوضوء والقيام والركوع والسجود، وهذه الكتب غير مفروضة على الإنسان حتماً، بل له القدرة على اختيار الالتزام بها، أو عدم التقيد بها. ويعني ذلك أن الإنسان هو الذي يقضي «يختار» موقفه منها. وأطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح «القضاء»»، والنوع الثاني قوانين الكون وحياة الإنسان، ككتاب الموت وكتاب خلق الكون والتطور والساعة والبعث، وهذه الكتب مفروضة على الإنسان حتماً. وليست له القدرة على عدم الخضوع لها، واطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح (القدر)، وعلى الإنسان أن يكتشف هذه القوانين، ويتعلمها، ليستفيد من معرفته لها، ولما كان محمد ﷺ هو رسول الله، وهو نبيٌّ، فهذا الكتاب يحتوي على رسالته ونبوته. فالرسالة هي مجموعة التعليمات التي يجب على الإنسان التقيد بها «عبادات، معاملات، أخلاق»» «الحلال والحرام» وهي مناط التكليف، والنبوة من «نبأ» هي مجموعة المواضيع التي تحتوي على المعلومات الكونية والتاريخية «الحق والباطل»» إلى هنا ينتهي كلامه.

وخلاصة هذا الكلام:

١- يحتوي المصحف على كتابين أي موضوعين رئيسيين هما كتاب الغيب وكتاب السلوك.

٢- كتاب الغيب موضوعه الحق أو الباطل. ويمثل النبوة أو يوزيها. ويدور حول (القدر).

٣- كتاب السلوك موضوعه الحلال الحرام، ويمثل الرسالة أو يوازيها، ويدور حول (القضاء).

وإنه أوهمنا بأن أول سورة من سور القرآن وهي سورة البقرة تضمنت هذه الأمور في أوائل آياتها على زعمه. وجاء بهذا التقسيم والمصطلحات من ثالث آية من سورة البقرة. دون أن يربط هذه الآية بسباقها وسياقها، ودون أن يعطينا فكرة عن موضعها من تسلسل السورة الموضوعي، وكأن هذا الأمر لايحتل في نفسه أية أهمية كانت. وأن علينا التسليم بما قسّم واصطلح دونما جدال، وكأن الأمر على خطورته، ليس في حاجة إلى نقاش.

وهو البحّاثه الذي يُتوقع أن يعتمد في كل خطوة سلاح البرهان، وهو أعظم سلاح.
وإني سأثبت لكم بالدليل المقنع أن لاعلاقة [للذين يؤمنون بالغيب] بكتاب الغيب، ولابموضوع القدر أو النبوة، فإذا تمكنت من اقناعكم أكون قد اخللت بتقسيمه واصطلاحه اخلالاً لايُرجى إصلاحه، ويبطل من وراء ذلك تقسيمه واصطلاحه، وأكمل مهمتي حين أشرح لكم موقع الآية من تسلسل السورة الموضوعي بشكل مقنع لامجال لإحداث أي خرق فيه.

أولاً-أوهمنا صاحبنا بكلامه بادىء ذي بدء أنه استشهد بآيتين من أول سورة البقرة.
والواقع هو أنه قسم الآية إلى قسمين، دون أن يحق له ذلك، فلايوجد على أيٍ من الفاظ الآية علامة وقف اجباري أو علامة وقف جائز. وهو بعمله هذا قد استهان بعلامات الوقف ومصطلحات الضبط الأساسية في كتاب الله العظيم. مستهيناً بمكانة دلالات علامات الوقف هذه التي تعود إلى صدر الإسلام فلا يجوز لمرتل القرآن، ولاللمفسّر إهمالها بأي شكل كان. وقد رأيتم حينما قلت عند تفسير [لاريب فيه هدى للمتقين] بأن هنا دليلين منفصلين. وماأقدمت على هذا التقسيم إلا اعتباراً لإشارة جواز الوقف الكائنة فوقهما. التي لولاها لما حق لي أصلاً مثل هذا التقسيم. فهل ألغت "القراءة المعاصرة" التي جاء بها هذا الأخ المسلم علامات الوقف ومصطلحات الضبط دون مبرر ودليل؟.

ثانياً- نسي هذا الأخ المسلم، أو تناسى أن الآية التي استدل بها، تشرح علامات المتقين الذين يستحقون هدى الله وانعاماته قد ابتدأت باسم الموصول [الذين] أي [للمتقين الذّين].

ثالثاً - وقطع هذا الأخ المسلم هذه الآية عن سباقها الذي يُكْمل علامات المتقين، وهو قوله تعالى بعدها ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾.
فلماذا أوهمنا بأنه استدل بآيتين؟ ولماذا تناسى أن الآية تتضمن علامات المتقين؟ ولماذا أهمل الآية التالية لها والتي تكمل العلامات التي ينبغي أن يتحلى بها المتقون؟ فكيف تأتي كلْ ذلك عفواً وسهواً؟
والآن أثبت لكم بالدليل القاطع أن لاعلاقة لقوله تعالى [يؤمنون بالغيب] بوجود كتاب للغيب يزعمه. وأن لاعلاقة له بموضوع القدر أو النبوة.

عندما قال تعالى [هدى للمتقين] يطرح سؤال نفسه وهو أي نوع من المتقين؟ أيقصد سبحانه المتقين الذين عرفتنا بهم تعاليم الأديان السابقة؟ أم أن الإسلام جاء بنهج تقوى جديد؟ له أسسه ومقوماته؟

وجواباً على هذا السؤال الذي طرح نفسه هنا جاء قول الله عز وجل ﴿والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾.

وأتناول من أسس ومقومات نهج التقوى الذي جاء به القرآن الكريم قوله تعالى [الذين يؤمنون بالغيب] ابطالاً لما ذهب إليه الدكتور شحرور منه.

لاشك أنه سبحانه نبهنا بكلمة [يؤمنون] هنا إلى ضرورة توفر عناصر ثلاثة كأرضية لدى المؤمن اساساً ومنطلقاً وهو الاعتراف والتصديق والعمل بالجوارح، أي يدعو لتوافق مابين النظرية والتطبيق. وهذا ماتضمنه قوله [الذين يؤمنون].

ولنتناول كلمة [بالغيب] فماذا يعني الغيب في لغة الضاد؟

لاشك أن هذا الأخ المسلم اغفل ضرورة الاستشهاد هنا بأقوال اللغويين الدائرة حول معاني الغيب. فلماذا أغفل ذلك سامحه الله؟ نترك الأمر لرب العالمين.

قال اللغويون: الغيب مصدر غاب يغيب، نقول غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، واستعمل الغيب في كل غائب عن الحاسة، وعما غاب عن علم الإنسان بمعنى الغائب سواء أكان محصلاً في القلب أو غير محصل. وأضافوا قولهم: إن كل مكان لايُدرى مافيه فهو غيب، كذلك يدل الغيب على مالايدري وراء موضع ما. كما نقول غاب الرجل غيباً: سافر وأبان. وبإمكاننا تلخيص ماقالوه بالآتي:

معنى الغيب:

١- كل مالايقع تحت الحواس، ولاتقتضيه بداية العقول.

٢- كل ماغاب عن علم الإنسان كأنباء الغيب السماوية.

٣- كل مكان لايُدرَى مافيه ولا ماوراءه.

٤- ويستعمل الغيب بمعنى الغياب، وعدم الحضور.

تلاحظون أن جميع معاني الغيب هذه لاعلاقة لها ببيان حقيقة الوجود الموضوعي أو التفريق بين الحق والباطل أو الحقيقة والوهم. وهذه الأمور التي سماها الدكتور شحرور كتاب الغيب وأدخلها في معنى الغيب خطأ، ودونما دليل لغوي.

فهو الذي قال على الصفحة (٥٥): (الكتاب الأول - ويقصد به كتاب الغيب على حسب تسميته - يحوي كتاب النبوة، ويشتمل على بيان حقيقة الوجود الموضوعي ويفرق بين الحق والباطل، أي الحقيقة والوهم.).

واتناول المعنى الأول الذي بينه لنا اللغويون وهو كل مالايقع تحت الحواس ولاتقتضيه بداية العقول، فأقول أن هناك حقائق ثابتة لاتقع تحت حواسنا ولاتقتضيها بداية عقولنا، وقد جعلها الله تعالى كذلك ليملك زمام المبادرة في أمرها. وهذه الحقائق الثابتة بالدليل والبرهان والتي لاتكفي حواسنا وعقولنا المجردة للإحاطة بموضوع وجودها هي (الفطرة) أو (النفس البشرية) و (القوانين القدرية) و (حياة ما بعد الموت). واشترط الإسلام على المؤمنين به الإيمان بهذه الحقائق الغيبية بعد أن سلحهم بأدلة وجودها. هذه الحقائق التي لايعرفها الماديون الملحدون إلا عن طريق الأديان.

الفطرة، هي هذه القوى الطبيعية التي يحملها الإنسان، والتي تكون نفسه والتي نزلت تعاليم الإسلام موافقة لقواها الفطرية. وموجهة إياها الوجهة السليمة على صعيد السلوك. الفطرة هي التي قال تعالى عنها [لاتبديل لخلق الله]، وهي نفس الإنسان التي قال تعالى عنها ﴿ ونفسٍ وماسواها فألهمها فجورها وتقواها، قد افلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾ الشمس ٨ .

وقد جعل ربنا عز وجل أمر الفطرة، أو النفس البشرية أمراً غيبياً، وأمر المؤمنين أن يؤمنوا بهذا الأمر الغيبي، حتى يثبت من خلال ذلك وجوده، وكونه لايخفى عليه غيب السماوات والأرض كما قال[إن الله يعلم غيب السماوات والأرض] الحجرات، فهو استعمل فعل (يعلم) من العلم ضد الجهل. أي أن هناك حقائق علمية لاتدرك بالحواس ولابداية العقول، ويحتاج الإنسان لإدراكها إلى الإيمان بوجودها إيماناً غيبياً عن طريق مانزل به وحي الله، واستناداً للأدلة التي قدمها كتاب الله. وهذا أمر يمتاز به المؤمنون بالإسلام عمن سواهم من الكافرين به. وقد وضع الإسلام هذا الامتياز للمؤمنين، لأن خالقهم بيده (مفاتح الغيب) فهو خالقهم، وهو مالكهم، وهو رب العالمين.

على هذه الصورة نفهم قول الله عز وجل [هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب..] فهو سبحانه اشترط على المؤمنين، وحتى يكونوا [متقين] أن يؤمنوا بالفطرة أي بأنهم ليسوا مجرد أجساد مادية ذات حياة كما يظن الماديون. بل أن وراء أجسادهم هذه فطرة هي نفسٌ ذات قوى طبيعية ظواهرها: الحب والكره، والشجاعة والجبن، والكرم والبخل وما إلى ذلك من قوى. وقد جُعل مابين أجسادهم وفطرتهم تبادلاً في التأثير، حيث يؤثر ظاهر الإنسان على باطنه وبالعكس. وقد جاءت تعاليم الإسلام تهذب هذه النفس مما علق بها عن طرق الوراثة والثقافة وغيرها لتعيدها إلى توازنها الطبيعي الذي يوازي الصفات الإلهية الخالقة، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ قوله (تخلقوا بأخلاق الله).

بهذا الفهم ليؤمنون بالغيب، يكون فيه دعوة عامة من الله لعباده. المؤمنين لإنتهاج سلوكية متميزة عما سواها من سلوكيات الماديين وغيرهم قائمة على أسس أخلاقية ذات منطلق روحي.

وهذا الفهم يكشف عن فلسفة روحية مستندة إلى حقائق ثابتة هي فطرة الإنسان ونفسه وقواه الطبيعية - فمن أراد التوسع في فهمالفطرة فليراجع كتابي وعنوانه (جذور الأخلاق).

وهذا النهج الغيبي التقووي هو الذي ميز المؤمنين به على صعيد الجهاد، والتضحيات المالية، وفعل الخيرات، ورعاية الفقراء، والانتظام في نظام الخلافة، وماحققه كل ذلك من سيادة لمسلمي صدر الإسلام.

ننتقل إلى ثاني الحقائق الثابتة التي دلّنا عليها لفظ (الغيب) في قوله تعالى **[يؤمنون بالغيب]** وهي ماقلت عنه أنه (القوانين القدرية). إن الماديين الملحدين لايعتقدون إلاّ بوجود (قوانين طبيعية) تنظم ظواهر الكون المادي.

أما الدين الإسلامي فقد زاد على هذا الفهم المادي، ونبه المؤمنين به إلى وجود (قوانين قدرية) مستقلة عن (القوانين الطبعية) والتي يمكن تعرفها عن طريق البحث العلمي المجرد. فمن هذه القوانين القدرية على سبيل المثال، ماتضمنه قوله تعالى **[لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز]** بمعنى أنني وضعت قانوناً قدرياً مرتكزاً إلى صفتين رئيسيتين من صفاتي هما (قوي وعزيز)، وهذا القانون يعمل في حقل بعث المرسلين، فمهما كان شأن الرسول الذي أرسله إلى عباده، لابدّ أن تكون له الغلبة أخيراً وفقاً لهذا القانون. -

فمن أراد التوسع في موضوع القدر والقوانين القدرية فليراجع كتابي الذي عنوانه (القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة).

وامتاز الإسلام بالكشف عن هذه القوانين القدرية، انطلاقاً من أن الله تعالى بيده (مفاتح الغيب) وأنه (عالم الغيب والشهادة)، وقد فرض على المؤمنين به من خلال قوله [يؤمنون بالغيب] الإيمان بهذه القوانين ووجودها كحقائق ثابتة شبيهة بوجود (القوانين الطبيعية) التي تنظم الكون المادي، على اعتبار أن (القوانين القدرية) تنظم العالم الروحي.

وبهذا المعنى لقوله [يؤمنون بالغيب] نتلمس دعوة عامة من الله لعباده المؤمنين لإنتاج نهج علمي في حياتهم اليومية علي صعيد روحي إلي جانب الصعيد المادي، نهج بعيد عن الخرافات والظنون والأوهام، ونابع من تعليم سماوي.

وننتقل إلى ثالث الحقائق الثابتة التي دلّنا عليها لفظ (الغيب) الذي تضمنه قوله تعالى [يؤمنون بالغيب]، هذه الحقيقة الثابتة الثالثة وهي: (حياة مابعد الموت)، الحياة التي تشمل حياة البرزخ والبعث والنشور، وهذه حقيقة لايؤمن بها الماديون الملحدون، ويلتزم بالإيمان بها المؤمنون بالدين الإسلامي وعن طريق ماقدمه لهم من حجج وبراهين قاطعة على وجودها.

وإن الاعتقاد بوجود حياة مابعد الموت كحقيقة ثابتة يشكل عند المؤمن معالم فلسفة تدور حول خلق الإنسان ومصيره، وهي فلسفة ذات أصول علمية تشدّ الإنسان إلى حقائقها شداً، وتدفعه لنبذ كل ماجاء به الفلاسفة الماديون من ترهات.

كما أن الباحث في هذا النهج الفلسفي الحياتي يستطيع أن يربط بينه وبين جميع ماجاء به الإسلام من تعاليم على صعيد العبادات.

هذه الأمور جميعها، هي مما لايقع تحت الحواس، ولاتقتضيه بداية العقول، وتؤلف جميعها المعنى الرئيسي لكلمة (الغيب) على حسب مابينه لنا أقطاب اللغويين. وقد لاحظتم لامحالة كيف أن هذه الأمور جميعها لاعلاقة لها ببيان (حقيقة الوجود الموضوعي أو التفريق بين الحق والباطل، أو الحقيقة والوهم) هذه الأمور التي حشرها الدكتور شحرور حشراً في معني (الغيب) رغماً عن أنوف اللغويين.

وإن المعنى الثاني والثالث للغيب أي انباء الغيب، وكل مكان لايُدرى ماوراءه، فهما معنيان شائعان لايحتاجان منا للشرح والتطويل.

أما المعنى الرابع والذي يستعمل بمعني الغياب وعدم الحضور فقد أخذ به كتاب الله أيضاً ففي سورة يوسف [أني لم أخنه بالغيب] أي لم أخنه في غيابه.

وبالنظر إلى هذا المعنى فإن قوله تعالى [الذين يؤمنون بالغيب] يطالب المؤمنين المتقين أن يكون حضورهم وغيابهم سيان. بمعنى أن يبتعدوا عن مظاهر النفاق وازدواج الشخصية. وأن يتحلوا بالصراحة والجرأة الإيمانية، ولاشك أن هذا المعني للغيب يشكل مَعلماً بارزاً من معالم أطر نهج التقوى الذي جاء به الدين الإسلامي.

هذه هي معاني [الذيّن يؤمنون بالغيب] ودلالاتها، التي تدخل في صلب إيمانيات المسلم، إيمانه بالفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، وأن معالجة نفس الإنسان لاتقوم إلا بتعاليم هذا الكتاب العظيم. الذي جاء يعلمنا نهجاً اخلاقياً واضحاً على هذا الطريق.

وإيمانه بالقوانين القدرية الموازية للقوانين الطبيعية وانتهاج نهج علمي نابع من وجود هذه القوانين.

وإيمانه بعالم مابعد الموت من برزخ وبعث ونشور على اعتباره مجسداً للآثار التي تتركها أعمال الإنسان في الحياة الدنيا ويؤلف هذا الأمر نهجاً حياتياً فلسفياً.

وابتعاده عن النفاق وازدواج الشخصية. واعتماده الصراحة وقول الحق مهما ترتب على ذلك من نتائج خطيرة.

فأين هذه الدلالات من التقسيمات والمزاعم التي جاء بها الدكتور شحرور؟ هل نُغفل دلالة [يؤمنون بالغيب] على أنها نهج تقووي اخلاقي وفكر علمي وفلسفة حياتيه وبعد عن النفاق، انطلاقاً من معاني كلمة (الغيب) لنستسلم لما زعمه هذا الأخ المسلم من أن [يؤمنون بالغيب] يعني (كتاب الغيب، وكتاب النبوة، ويشتمل على بيان حقيقة الوجود الموضوعي ويفرق بين الحق والباطل أي الحقيقة والوهم.) ص ٥٥ ؟؟؟

ألا إن نهج التقوى الذي بينه لنا قوله تعالى [للمتقين الذين يؤمنون بالغيب...] هو نهج سلوكي وليس هو تفريقاً بين الحقيقة والوهم أو تفريقاً بين الحق والباطل، أو أنه بيان لحقيقة الوجود الموضوعي.

ثم ماعلاقة هذا النهج التقووي بالقضاء والقدر؟ كيف يبيح هذا الأخ المسلم لنفسه أن يذهب إلى هذه المعاني دون الرجوع إلى معاني كلمة (الغيب) كما فهمها اللغويون؟ كيف

يستنفذ صفحتين ونصف صفحة من كتابه ليشرح لنا كلمة (كتاب)، ولايخصص ولاسطراً واحداً ليشرح لنا معني كلمة (غيب)؟ ليحكم القارىء في أمر هذه التناقضات والتجاوزات.

ويكفي أن كلمة (غيب) في [يؤمنون بالغيب] قد جاءت معّرفة بالألف واللام، لتستغرق جنس جميع ماغاب عن حواس الإنسان وبداية العقول. ولتعّرف لنا ماهية هذه الأمور وحقائقها.

قلت لكم إن الدكتور شحرور في خطوته هذه انتقل من مقدمات واهنة فجأة إلى نتائج لاعلاقة لها بتلك المقدمات. وقد أوضحت لكم حقائق ماذكرت. فهل تعني "القراءة المعاصرة" والحال هذه، افراغ النصوص من معانيها ودلالاتها، وإلباسها لباساً "مسبق الصنع"، وإن أدى هذا الأمر إلى تفكيك تسلسل السور القرآنية الموضوعي، وتقزيمه، وتشويهه ؟؟؟.

إنّ هذا الأخ المسلم حاد عن الأصل في نظري في خطوته التي بحثناها. وقد تبينتم أنتم هذا الحيد، وتعلمون أن انحراف درجة في أول الطريق يؤدي بصاحبه إلى البعد عن هدفه مئات بل ألوف الكيلومترات، وهذا أمر يوقن به الدكتور شحرور نفسه، خصوصاً وأنه مدرس هندسة مدنية، فإن أثبت لكم الآن بُعده عن هدفه هذه المسافة الشاسعة، أكون قد أيدت إمامكم ماأثبته لكم من أنه حاد في خطوته الحاضرة درجة أو أكثر، وهاكم الدليل:

لقد كتب في الصفحة (١٥٧) من كتابه مستخفاً بالتراث وقائلاً:

(إن سوء فهم هذا الموضوع - الانزال والتنزيل - وعلى رأسه عدم التفريق بين الرسالة والنبوة، وبين الكتاب والقرآن، جعل من المسلمين أناساً مُتحجرين ضيقي الأفق. وضاع العقل نهائياً، وضاع مفهوم القضاء والقدر، والحرية الإنسانية ومفهوم الثواب والعقاب (المسؤولية) وأعتقد - مشيراً إلى نفسه - أن ماكُتِبَ عن الحرية والمسؤولية الإنسانية والقضاء والقدر، ونظرية الدولة والمجتمع في الأدبيات الإسلامية، مُسقطاً هذا الفرق، لم يكن أكثر من عَبَثٍ ولفٍ ودوران.). هذه هي النتائج البعيدة لإنحراف صاحب القراءة المعاصرة درجة أو درجتين في أول طريقة كما أثبته لكم بالدليل القاطع، إن هذه الألفاظ سقطات قلمه، وأنتم ترون كيف انتهى به انحرافه إلى تسفيه كافة المسلمين من

أخوانه واجداده، وإلى الاستخفاف بهم، وإلى التعالي عليهم، وهذا أعظم برهان على انحرافه.

ومما لاحظته أن الدكتور شحرور لم يستوعب معنى (أنباء الغيب) لغوياً لأنه كتب على الصفحة (٥٦): (وميزة هذه الآيات أنها إخبارية، ولايوجد فيها أوامر ونواه، ولكنها آيات خبرية «أنباء» فمثلاً بعد سرد جزء من قصة نوح، في سورة هود، قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ هود ٤٩.

إنه يخلط في هذا النص مابين الخبر ومابين النبأ ويساوي بينهما، أفما لاحظتم قوله (ولكنها آيات خبرية «أنباء»). والحقيقة أن بين الخبر وبين النبأ الغيبي فرق كبير،ويكفي أن نقول بأن (النبأ) في اللغة العربية معناه خبر ذو شأن عظيم.

ولابأس أن أبين لهذا "الباحث" الفروق الكائنة مابين كلمتي (خبر ونبأ) لعلها تفيده في قراءة أخرى معاصرة، فليعلم أن الخبر في الأصل هو نبأ منقول بطريق ما، فإن كان الناقل قد نقله بأمانة يكون هذا الخبر كلمة صدق، ذلك لأن الخبر مجرداً يحتمل الصدق، كما يحتمل الكذب، هذا في الوقت الذي لايكون النبأ إلا خبرًا صادقاً خصوصاً إذا كان من أنباء الغيب الموحى بها، إضافة إلى كون مضمون النبأ الغيبي ذو شأن عظيم وفي حين لايتعلق الخبر المجرد إلا بالزمنين الماضي والحاضر، فإن مضمون النبأ مجرداً لايتعلق إلا بالزمن المستقبل، ثم أن الخبر لاشك أنه غيب نسبي أما النبأ فهو غيب كله خصوصا النبأ الغيبي.

وإن عدم احاطة الدكتور شحرور بهذه الفروق المعنوية الكائنة مابين لفظي (خبر ونبأ) دفعه هذا إلى أن يساوي بينهما كما لاحظتم ذلك من خلال قوله (كلها آيات خبرية «أنباء») وهو غير عالم أن الخبر يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب لذلك لايجوز مساواته مع كلمة (أنباء الغيب) التي ورد استعمالها في كتاب الله العظيم. وإننا إذا اضطررنا لاستعمال أخبار وخبر حكاية عن أنباء الغيب القرآنية فإن من واجبنا أن نأتي بها على صيغة مضاف ومضاف إليه، وقولنا (أخبار يقينية).

ولابد لي من الإشارة هنا إلى أن الدكتور شحرور استشهد في نصه المذكور أعلاه، بآية من سورة هود بدلالة خاطئة، وبفهم خاطىء لمضمون سورة هود نفسها، واليكم التفصيل:

أولاً- من قوله (فمثلاً بعد سرد جزء من قصة نوح في سورة هود قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين.﴾ لاحظ قوله أنباء وقوله غيب).

قوله هذا أنه فهم من[تلك من أنباء الغيب] أن قصة نوح هي المشار إليها على أنها (أنباء غيب)، خصوصاً وأنه أكد فهمه هذا على ماذكرت في أمكنة أخرى من كتابه.

إن كان هذا هو فهمه لهذا الأمر فقد أخطأ لأن قصة نوح تأتي قبل جملة[تلك من أنباء الغيب] فهي أمر قريب ويُشار إليه باسم الإشارة للقريب (هذا) وليس باسم الإشارة للبعيد (تلك). ولايعقل أن ننسب الخطأ في هذا إلى الله على هذا النحوالمشار إليه.

ثانياً -لقد ثبت من خلال أرقم أساطير مختلف الأمم، معرفة شعوبها بقصة طوفان نوح، فلو كان قوله تعالى متعلقاً بالقصة ذاتها لكان من الخطأ أن يقول سبحانه وتعالى عن هذه القصة [ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا] خصوصاً وأنه كان من بين العرب من يدين باليهودية والنصرانية، ممن اطلعوا على قصة نوح، وهي مدرجة في التوراة، ولاسبيل للزّعم بأن العرب ماكانوا يدرون عن قصة نوح هذه شيئاً.

ثالثاً - وإن الفاظ [من أنباء الغيب] لتؤكد أن الكلام غير متعلق بقصة نوح نفسها، لأن كلمة (أنباء) جمع (نبأ) ومعناه في اللغة خبر ذو شأن عظيم، وكلمة (الغيب) تعرفنا معانيها من قريب، فهي تتعلق بالمستقبل، وماغاب عن علم الإنسان. ومادام هذا اللفظ جاء مقترناً بكلمة أنباء (أنباء الغيب) فهو يعني خبراً مُستقبلياً ذا شأنٍ عظيم، وليس بقصة نوح الماضية.

رابعاً - لو كان الكلام في هذه الألفاظ متعلقاً بقصة نوح الماضية لكان هذا الكلام [تلك من أنباء الغيب] قد ورد بعد الفراغ من سرد قصص جميع من كلمتنا عنهم سورة هود، وليس بعد أول قصة من هذه القصص.

هذه الأمور جميعها تثبت خطأ فهم الدكتور شحرور لمضمون هذه الآية الكريمة، وتسألونني: وماذا تفهم منها أنت؟ أجيبكم: إنها نبوءة غيبية تنبأ الله عز وجل فيها عن طوفان المقاومة التي سيواجهها محمد واصحابه بعد نزول هذه السورة في أواخر سنوات الدعوة في مكة المكرمة، وقد تحققت هذه النبوءة الغيبية بشكل مدهش عجيب.

تعودون تسألونني: كيف عرفت هذا ومادليلك؟ وهل حدث بعد نزولها مثل طوفان نوح؟

رسول الله ينذرهم بها ويطالبهم بالعمل عليها [ولقد ارسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين، ألا تعبدوا .إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم.] فالإنذار .. والمطالبة واحدة في القصتين، والاختلاف واقع فقط في وصف (اليوم) في قصة نوح أنه (أليم) بينما وصف هذا اليوم في الإنذار الموجه لقوم رسول الله على أنه (يوم كبير). هذا الفارق في الوصف، تجلى في غرق قوم نوح وزوالهم، فكان يوماً أليماً، بينما لم يُقض على قوم محمد إلا من قضى نحبه خلال المعارك الكثيرة التي دارت بين محمد وأصحابه وبينهم خلال اثنتا عشرة سنة من بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وهدى الله سبحانه الباقين إلى الإسلام إلى هذا الفرق جاء الفرق في وصف اليومين المذكورين وإشارة إلى الإنذار باليوم الكبير جاءت النبوءة الغيبية التي تضمنها قوله تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب...﴾. هذه النبوءة التي أضحت معجزة عظيمة تجلت من خلال تحققها إحاطة الرؤية الإلهية بكل خفايا الأمور وبكل ماهو غائب عن علم الإنسان. فما كان يخطر ببال أهل مكة في يوم من الأيام أن محمداً سينجو من بين أيديهم، وأن أهل المدينة سيفتدونه، وأنهم سيضطرون لدفع جميع القبائل العربية للتصدي لمحمد وقوته التي ستبرز إلى حيز الوجود، كما أنه ماكان ليخطر ببالهم ولا للحظة من اللحظات إلى أن العاقبة ستكون إلى جانب محمد وأصحابه، هذه الحقائق جميعها تضمنتها هذه النبوءة العظيمة التي أمر الله فيها رسول الله ﷺ بالتحلي بالصبر لأن الأيام ستثبت صحتها وستكون العاقبة للمتقين، وهذا هو الأمر الذي دفع رسول الله ليقول (شيبتني هود قبل المشيب). على هذه الصورة يبدو لأعينكم التسلسل الموضوعي لسورة هود. وتدركون بالتالي خطأ فهم الدكتور شحرور لمضمون هذه السورة، وكيف أن فهمه كان سطحياً، فهو يتصور السورة على أنها مجرد سرد لقصص من قصص الأمم الخالية، كلاً ثم كلاً فما كان ربنا مغرماً بتكرار هذه القصص عبثاً في كثير من سور كتابه العظيم، والأسف ألاّ ينتبه هذا الباحث إلى حكمة استبدال هذا بتلك في آية النبوءة، وألا ينتبه إلى أن قصة نوح كانت معروفة لدى أكثر شعوب الأرض، وألا ينتبه إلى حكمة توصية رب محمد، محمداً بالصبر، وألا ينتبه إلى علاقة كل هذا بقوله عز وجل (والعاقبة للمتقين). بل الذي أعجب له حقاً كيف يلاحظ ورود [تلك من أنباء الغيب] بعد قصة نوح ولايتساءل عن ضرورة مجيئها بعد سرد القصص جميعها؟. وإنني كثيراً ماتأملت توالي هذه الأخطاء

وتواترها الصادر عن الدكتور شحرور في "قراءته المعاصرة" ولكم خالجني شعور بأنه كان يحمل أفكاراً قد أعدت سلفاً، فهي مسبقة الصنع، يحاول الباسها هذه الآيات كيفما اتفق. وهذا ما آل به الأمر إلى أن يستخف بآراء جميع المسلمين في مختلف حقبات التاريخ واصفاً اياهم على الصفحة (١٥٧) بكونهم "مُتحجرين" "ضيقي الأفق" "وضاع العقل" نهائياً عندهم حتى وضاع عندهم مفهوم "القضاء والقدر" ومفهوم "الحرية الإنسانية" ومفهوم "الثواب والعقاب"، وأن جميع ماكتبوه في هذه المواضيع - ويقصد جميع المسلمين ماضياً وحاضراً - (لم يكن أكثر من عَبَثٍ ولفٍ ودوران).

إلى هنا أكون قد أثبت أن [الذين يؤمنون بالغيب] لاتعني إلا (كتاب السلوك) على حدّ تعبيره، ولاتعني (كتاب الغيب) وما إليه من تقسيم ومزاعم.

ومادام قد ثبت أن [يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة] كلاهما (كتاب سلوك) بتعبيره، ينتفي معه بالبداهة تقسيمه المصطنع الذي يقول فيه إن المصحف يحتوي على كتابين أو موضوعين رئيسيين هما (كتاب الغيب) و (كتاب السلوك) كما ذكر ذلك على الصفحة (٥٤). كما يبطل من خلال ذلك علاقة هذا كله بموضوع القضاء والقدر أو موضوع الحق والباطل أو الحقيقة والوهم.كما يثبت أنه لم يتدبر معنى كلمة (غيب)، ولايعطي التسلسل الموضوعي لسور كتاب الله أية أهمية تذكر، هذه الأخطاء كلها اثبتت وقوع الدكتور شحرور فيها.

اشحذوا اذهانكم جيداً: هل يصح اطلاق اسم (كتاب الغيب) على نهج التقوى الذي تضمنته الآيات [هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.. إلى آخرها] ماعلاقة المعلومات الكونية والتاريخية بنهج التقوى؟ وماعلاقة الحقيقة والوهم أو الحق والباطل بنهج التقوى؟ إن نهج التقوى هو نهج سلوك، ولاعلاقة له بجميع هذه الأمور. اللهم إلاّ إذا جئنا بمعني "مسبق الصنع" وافرغنا هذه النصوص من محتواها، وحاولنا تحميلها هذا المعنى المغاير قسراً دونما رحمة أو خوف من الله عز وجل.

٥- والخطوة الخامسة التي خطاها هذا الأخ المسلم على صعيد تقسيماته واستنتاجاته، تضمنتها الصفحة (٥٥) من كتابه، حيث قسم هناك كتاب الله عز وجل إلى كتاب مُحكم، وكتاب متشابه الآيات. واستند في تقسيمه المذكور إلى نص الآية السابعة من سورة آل عمران. وهي قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنّ

أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، ومايذكّر إلا أولوا الألباب﴾.

وقد رأيت كيف أن صاحب القراءة المعاصرة،يحاول الاستدلال بمعاني "مُسبقة الصنع" من مختلف الآيات الكريمة التي يستدل بها، وقد حاول هنا في خطوته الخامسة نفس المحاولة. وإن طول هذه الآية من جهة، واختلاف المفسرين في فهمها من جهة ثانية، وضرورة وعي مضمون سورة آل عمران وموقع هذه الآية الكريمة من تسلسله الموضوعي من جهة ثالثة، كل هذه الأمور ألحت علي أن أخصها بفصل خاص بها. لذلك أفردت فصلاً خاصاً أسميته (مبحث في المحكمات والمتشابهات) بإمكانكم العودة إليه في كتابي هذا لتجدوا من خلاله أدلة قاطعة تثبت بطلان ماذهب إليه هذا الأخ المسلم من تقسيم لكتاب الله إلى كتاب المحكمات وكتاب المتشابهات. وإني لعلى يقين تام بأن هذا البحث سيفي بجميع تساؤلاتكم وسيجنبكم الفهم الخاطىء الذي ذهب إليه صاحب القراءة المعاصرة من خلال استدلاله بالآية السابعة من سورة آل عمران.

٦- **والذي حدث** هو أنّه لما كان قد استشعر في قرارة نفسه أنه ابتدع تقسيماً من خلال آية سورة آل عمران المذكورة، ماأنزل الله به من سلطان، فقد عمد في الفقرة الثانية من نفس الصفحة (٥٥) إلى الاستدلال بآية أخرى تأييداً لتقسيمه المزعوم، فاستدل بآية جوهرة من آيات سورة يونس (٣٧) زاعماً أن هذه الآية تدلّنا على مواضيع ثلاث هي:

١- القرآن، ٢- الذي بين يديه، ٣- تفصيل الكتاب، فهو يزعم أن هذه الآية الكريمة قسمت المصحف إلى نفس التقسيم: قرآن وكتاب. أو محكمات ومتشابهات، إنما زادت على ذلك تنبيهنا إلى وجود كتابين آخرين هما "الذي بين يديه" و"تفصيل الكتاب".هذه الخطوة السادسة التي خطاها صاحب القراءة المعاصرة في الفقرة الثانية المذكورة. أضحكتني وأبكتني. ضحكت لسذاجة فهمه البالغة في السطحية وبكيت رثاءً لحال عصرنا الذي تمخّض عن مثل هذه الآراء الواهنة يأتي بها باحث مجتهد كالدكتور محمد شحرور، ولا أحب أن استرسل في هذا الأمر. وكل رجائي أن تتابعوا معي ماحملته الينا جوهرة سورة يونس من كنوز. والأمر متروك لكم في النهاية للموازنة والمقارنة والرفض أو القبول.

وقبل أن أورد لكم نص الآية، آخذ بأيديكم إلى ماقبلها لتكونوا في الجو الموضوعي للآية المذكورة. فقد قال سبحانه وتعالى منددا بعقائد المشركين ﴿ومايتّبع أكثرهم إلاّ ظناً، إن الظن لايغني من الحق شيئاً، إن الله عليم بما يفعلون.﴾. وإنه سبحانه وتعالى قد شن على المشركين هجوماً صاعقاً بأن عرّى الأساس الذي تقوم عليه عقائدهم، وهو "الظن والوهم"، وكأنه سبحانه نبه بأن "الظن والوهم" رمال متحركة، لاتصلح كأساس يُبنى عليه. وأن العلم يقضي بضرورة قيام كل عقيدة على أساس علمي مُدعّم بالحجة والدليل، فلا تكون العقيدة "حقاً" إذا كان "الظن" أساسها، ولايغني الظنّ من الحق شيئاً.

وتعلمون أن لكل فعل ردة فعل. إن المشركين تجاه هذا التفنيد لعقائدهم لابد أن يطالبوا بنفس المطالبة، أن يطالبوا بكون القرآن غير مُفترى من محمد رسول الله، لابد لهم أن يطالبوا بما يثبت كون القرآن الكريم مُوحىً به من الخالق نفسه. هذه ردة فعل طبيعية وهذا حق شرعي ومنطقي.

بمثل هذه المحاكمات نتمكن من الانتقال خطوة خطوة على درب التسلسل الموضوعي لكل سورة من سور القرآن الكريم. إن المنطق السليم يقتضي بعد قراءة الآية التي ذكرتها، أن يُقدَّمَ الدليلُ القاطع على كون القرآن موحى به من الله عز وجل.

من هذا المُنطلق، وعلى أساس من هذا الفهم السليم، قال الله بعدها مباشرة، وهي الآية التي استدل بها صاحب القراءة المعاصرة، قال: ﴿وماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لاريب فيه، من رب العالمين.﴾ وهذه الآية تضمنت، ليس دليلاً واحداً فقط على كون القرآن منزلاً من الله عز وجل، بل أقول إنها تضمنت خمسة أدلة مجتمعة لإثبات ذلك، وهذه الأدلة جاءت مصوغة صياغةً لغويةً معجزة. وعلى هذا الأساس أطلقت أنا على هذه الآية الكريمة اسم (الآية الجوهرة)، وعلى هذا الأساس من التسلسل الموضوعي ورد التحدي الإلهي بعدها مباشرة ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾ وعلى هذا الأساس من الفهم قال سبحانه بعد هذا التحدي مباشرة ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله، كذلك كذّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين.﴾.

والآن اليكم تفصيل هذا الكلام:

الدليل الإلهي الأول: ورد الدليل الأول في قوله تعالى ﴿ **ماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله**﴾، والمعنى هو أن الإنسان العاقل الذي يتدبر هذا القرآن، تدبراً حقيقياً، سيلاحظ أنه يحتوي على علوم فوق إمكانيات الإنسان من حيث حقائقها، وهذا الأمر في حالة صحته، يجعل من المستحيل الزعم بإمكان أن يكون هذا القرآن مفترى على الله من قبل محمد رسول الله. وللقارىء أن يسألني: كيف عرفت أن هذا الشطر يشكل مثل هذا الدليل؟ أجيب: أنني توصلت إلى ذلك بدلاله اسم الإشارة (هذا) الذي ورد خلال هذه الألفاظ من الآية، ذلك أن وراء (هذا) هنا حكمة بالغة أرادها سبحانه منه، ليلفت بذلك أنظارنا إلى أنه يقدم على صدق القرآن أول دليل.

إنكم إذا رأيتم شخصاً يقول: أمِثْلُ زيد يكذب؟ فماذا يتبادر إلى ذهنكم أول مايتبادر؟ يتبادر لذهني أن القائل يعطي زيداً مقاماً من القداسة، فلا يمكن التسليم بما يُتَّهَمُ به من الكذب. وبألفاظ أخرى فإن طهارة زيد المعروفة تُقَدم في هذه الجملة. كدليل ينفي أن يكون زيد كاذباً، على نفس الشاكلة كوّن ربنا دليل هذا الشطر من الآية فهو قال: ﴿**ماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله**.﴾ أي يستحيل على هذا القرآن وهو محتوٍ على مثل هذه العلوم التي تفوق مقدرة الإنسان أن يكون مفترى على الله من قبل محمد رسول الله، فبواسطة إضافة اسم الإشارة (هذا) هنا قلب سبحانه وتعالى النفي إلى دليل، لأنه كان يكفي القول [ماكان القرآن أن يفترى من دون الله] فهو بإضافة (هذا) أدخل مضمون الدهشة والاستغراب إلى المعنى ليفيد الكلام دليلاً على كون القرآن منزلاً من قبل الله عزوجل.

الدليل الإلهي الثاني: وقدم سبحانه دليلاً ثانياً على كون القرآن غير مفترى على الله، وهو كون القرآن [تصديق الذي بين يديه] أي تصديق مابين يديه من أنباء تنبأت بها التوراة والإنجيل عن بعثة محمد رسول الله ومعه هذا القرآن العظيم، وبكلمة [تصديق] يُبكّت المشركين عامة وأهل الكتاب خاصة، قائلاً لهم إن نبوءات كتبكم لاتصح إلا بإيمانكم بالقرآن ورسوله، فأنتم إذا كذبتموه تكونون كمن كذب نفسه، جاء سبحانه وتعالى بهذا الدليل المنفصل عما سبقه من دليل، بحرف الاستدراك (ولكن) على اعتباره غير عاطف، قائلاً ﴿**ولكن تصديق الذي بين يديه**﴾.

الدليل الإلهي الثالث: والدليل الثالث الذي قدمه سبحانه وتعالى عبر عنه بقوله ﴿وتفصيل الكتاب﴾ عاطفاً هذا الدليل على الدليل الثاني الذي سبقه بالواو العاطفة لتجانس الدليلين. ومعّرفاً لفظ (كتاب) بالألف واللام على اعتبار التوراة ونبوءاتها معهوداً ذهنياً.

يقول الدليل إن التوراة عبثت بتعاليمها أيدي أصحابها حتى باتت مشوهة الوجه السماوي، وقد جاء هذا القرآن لإعطاء التوراة وجهها الحقيقي مفصلاً ماكان فيها على الوجه الصحيح، ومصححاً ماشوهه أصحابها من تعاليم.

وتتجلي قوة هذا الدليل من مراجعة التوراة المتداولة اليوم كيف تقص علينا قصص الأنبياء مشوهة، وتنسب إلى هؤلاء الاطهار الكذب والفساد في الأرض وسيء الأخلاق، وارتكاب الموبقات، والخداع ومعصية الله، مما يتنزه عن القيام به رجال أطهار، فلولا نزول القرآن وتفصيله للتوراة لالتبس على الناس صدق هؤلاء الأطهار.

وكلمة [تفصيل] ذات دلالات واسعة تفيدنا إطار هذا الدليل.

تقولون: فصل الشيء جعله فصولا متمايزة. وفصّل القماش قطعه بقصد خياطته ثوباً. كما تقولون: فصّل الكلام خلاف أجمله بمعنى بينه، وتقولون: سيف فصّال أي قاطع، والفصل هو القضاء بين الحق والباطل. والفصل مصدر: الحاجز بين الشيئين والحدّ بين الأرضين.

وبدلالات كلمة [**تفصيل الكتاب**] تكونت معاني هذا الدليل على اعتبار القرآن نزل بمعلومات وبينات وحدّ فاصل لقبول التوراة كما أنزلت على موسى أو رفضها كما هي متداولة اليوم بين أتباعها من اليهود والنصارى.

إن هذا الدليل الثالث والدليل الثاني الذي سبقه، هما من قبيل الأدلة الملزمة للخصم، لذلك ربط الله سبحانه بين هذين الدليلين بواو العطف تنبيهاً إلى ترابط الدليلين الموضوعي. أما فيما بعد فستلاحظون غياب هذه الواو العاطفة من وسط الأدلة. الأمر الذي يعطينا دلالات مابعدها من دلالات.

الدليل الإلهي الرابع: وحينما قال سبحانه وتعالى ﴿لاريب فيه﴾ يكون قد قدّم دليلاً رابعاً على كون القرآن مُنّزل من قبل الله عز وجل، وهذا الدليل رأينا أبعاده عندما شرحنا ثاني آية من سورة البقرة[**ذلك الكتاب لاريب فيه**].

ويعني هذا الدليل أن الذي يتدارس القرآن سيصل إلى مرحلة اليقين بأنه كتاب لايقيم أحكامه على أساس الأوهام والظنون كما يفعل المشركون، كلا، فهو كتاب مهما قلبتموه صياغةً ومضموناً، فلن تقع انظاركم على ماينتقص من كماله، وستجدونه متكامل المواضيع، مستغنياً عما سواه. ويفسّر بعضه بعضاً، وتقي تعاليمه ريب المنون، كما ستجدون أن عطاءات هذا الكتاب تتناسب مع عظمة الذي أوحى به، فهو كتاب ترتاح نفس الإنسان لتلاوته، وتستشعر أنه ليس من كلام بشر، وتثبت تجارب المؤمنين به، كونه هدى للمتقين.

الدليل الإلهي الخامس: وقدّم سبحانه وتعالى دليلاً خامساً يثبت من خلاله كون القرآن غير مفترى على الله وكون آياته من كلام رب العالمين، بقوله[**من رب العالمين**].

وفي هذه الصياغة، وبهذه الألفاظ حض سبحانه وتعالى قارىء القرآن على دراسة القرآن من زاوية كونه كتاباً عالي الصبغة في أحكامه، ويستحيل أن تتأتى هذه المزية فيه إلا أن يكون تنزيلاً من رب العالمين.

ينبه في ألفاظ هذا الدليل إلى القفزة النوعية التي حققها نزول هذا القرآن سواء من حيث الزمان وسواء من حيث المكان، فبينما كانت الكتب السماوية السابقة مرحلية التعاليم وقومية الصبغة، نزلت أحكام هذا القرآن صالحة لكل زمان ومكان ولكافة الناس في أرض الله، وإن مثل هذه القفزة يستحيل أن تتحقق على هذه الصورة إلا أن تكون صادرة[**من رب العالمين**].

هذا الرب الذي كان ومازال يشرف على تطوير وتربية مخلوقه الإنسان. على اختلاف قوميات هذا الإنسان، واختلاف ألسنته واختلاف مستويات فهمه، وهذا الرب الذي أنزل هذا القرآن هو الذي أوصل الإنسان إلى مستوى تلقي تعاليم هذا القرآن بقبول حسن. لأن هذا الإنسان سيجد في أحكام وتعاليم هذا القرآن كلّ مايساعده على مواجهة مشاكله، وإلى يوم الدين.

وكأنه سبحانه في قوله (**من رب العالمين**) ينبهنا إلى مرونة تعاليم القرآن من حيث كونها لاتتأثر بالمتغيرات الزمنية، لأنها أخذت بعين الاعتبار مراعاة مقتضيات الفطرة البشرية، ومختلف الطبائع والأحاسيس. والآن لابد أنكم تبينتم كيف تضمنت آية سورة يونس التي سميتها الآية الجوهرة وهي قوله تعالى ﴿ **ماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لاريب فيه، من رب**

العالمين﴾. أقول تضمنت تقديم خمسة أدلة عظيمة قاطعة الدلالة على أن الدين الإسلامي لايقيم عقائده وتعاليمه إلاّ على أساس علمي مُبرهن عليه وبعيد عن الظنون والأوهام.

فأين هذا الشرح لهذه الآية الكريمة، من فهم صاحب القراءة المعاصرة لها، التي قال فيها: (إن هذه الآية تدلّنا على مواضيع ثلاث هي: ١- القرآن، ٢- الذي بين يديه، ٣- تفصيل الكتاب)؟ فبدلاً من أن يربطها بتسلسل السورة الموضوعي، قطعها عن سباقها وسياقها، ليستدل بواسطتها على اصطلاحاته وتقسيماته التي تخيلها وابتدعها والتي لايسندها دليل.

إنه نسي أو تناسى أنه سبحانه وتعالى لفت أنظار المكذبين من أول السورة إلى ضرورة كون الله الخالق (هادياً) من الوجهة العقلية والمنطقية، ومن ثم بكّت المشركين بعد هذا بقوله: ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق، قل الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحقّ أن يُتَبَعَ، أمن لايهدي إلا أن يُهدى، فما لكم كيف تحكمون؟﴾ وكأنه قال لهم مالنا نرى احتياج معبوداتكم إلى معونتكم لنقلها من مكان إلى مكان، فأنتم تهدونها طريقها بدل أن تهديكم هي طريقكم.

وبعد هذا التبكيت لمعتقدات المشركين، اتهمهم إتهاماً صارماً بقوله: ﴿ومايتبع أكثرهم إلا ظنا، إن الظن لايغني من الحق شيئاً، إن الله عليم بما يفعلون﴾. وإثر هذا الهجوم الصاعق، قدم خمسة أدلة قاطعة على كون كتاب الله القرآن وحي الله وكلامه وغير مفترى على الله فأكمل بذلك بناء سدٍ فولاذي في وجوه هؤلاء، ماعاد بإمكانهم أن ينالوا منه شيئاً، ولا أن يتجاوزوه.

فكيف اغفل صاحب القراءة المعاصرة هذا التسلسل الموضوعي وعلاقة هذه الآية الجوهرة التي استدل بها، بهذا التسلسل الموضوعي، وموضعها منه؟؟؟ أفظن أن الخوض في تفسير الآي بلا سند ولادليل أمرٌ يسيرٌ هينٌ، لاتهتز له قلوب المسلمين؟.

وتعالوا إلى سياق هذه الآية أيضاً، فانظروه سبحانه كيف تحدى المشركين بعد تقديم هذه الأدلة، وقال: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله، إن كنتم صادقين.﴾ فما هي مناسبة هذا التحدي العظيم في هذا المقام؟ إلاّ أن يكون سبحانه قد أجمل تقديم خمسة أدلة مجتمعين في الآية الجوهرة التي سبقت هذا التحدي، ثم تحدى سبحانه أن يأتوا بمثل هذه الآية وعلى مستوى هذه الصياغة وبأبعاد الأدلة التي قدمّتها في مواجهة هؤلاء المكذبين.

أجل إن التحدي هنا ينحصر في طلب صياغة آية على مستوى آية الأدلة الخمسة صياغة ومضموناً. هذا مايفرضه منطق التسلسل الموضوعي. إذ المقصود من [فأتوا بسورة مثله] هنا تقديم مثيل لهذه الآية بالذات. لأن من معاني السورة: المنزلة والرفعه والفضل والشرف وماطال من البناء إلى جهة السماء وحسن، والقطعة المستقلة من القرآن، والعلامة. وإني أرجح معنى العلامة في هذا المقام الذي يعني الدليل، وليس كما ذهب ذهن المفسرين رحمهم الله إلى معنى القطعة المستقلة من القرآن، لأن التحدي في هذا المقام التحدي بالإتيان بآية مثيلة للآية الجوهرة التي ذكرناها، ولاعلاقة للتحدي هنا بالقطعة المستقلة من القرآن. وإن أمكن تجاوزا حدوث مثل هذا التحدي.

يؤيد وجهة نظري هذه أن الله عز وجل تحدى نفس التحدي في سورة البقرة وبنفس الألفاظ مع اختلاف بسيط، هنا قال: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ ، وفي سورة البقرة قال: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾، حيث أدخل (من) البعضية الدلالة إشارة إلى بعض الآيات التي أجمل سبحانه وتعالى فيها منهج التقوى الذي جاء به الدين الإسلامي، والذي تكلمنا عنه من قبل، لذلك كان التحدي هناك أن يأتوا بعدة علامات أي عدة آيات شبيه بآيات نهج التقوى وعلى نسقها إن استطاعوا. أما هنا فقد تحداهم أن يأتوا بعلامة واحدة مماثلة لهذه العلامة أي الآية التي تضمنت خمسة أدلة قاطعة وبصياغة معجزة كل الإعجاز.

إن التحدي في سورة البقرة لم يكن دائراً حول طلب تقديم أدلة، وإنما كان التحدي دائراً حول الإتيان بمنهج تقووي مثيل. ولو احتاج أمر تقديمه إلى صياغة عدة آيات.

إن التحدي هو واحد في سورة البقرة وفي سورة يونس، بدليل أن قال سبحانه في نهاية آيتي التحدي في السورتين [إن كنتم صادقين] وجاء الاختلاف فقط في النوعية والتعددية، وهذه الدقة لايمتاز بها سوى **كلام رب العالمين.**

ثم إن مايؤيد وجهة نظري هذه هو قوله سبحانه بعد هذا التحدي مباشرة: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولمآ يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾، إن الضمير في قوله (بعلمه) يعود إلى مضمون الآية الجوهرة، أي إلى ماتضمنته من أدلة مصوغة صياغة اعجازية، لم يحيطوا بعلمها، وحين لم يُحط صاحبنا بعلم هذه الآية، اندفع يستدل بها على مصطلحاته وتقسيماته غير المستساغة نقلاً أو عقلاً أو منطقاً.

ويكفي قارىء "القراءة المعاصرة" هنا أن يسائل نفسه، بعد أن استعرض معي هذا التسلسل الموضوعي للسورة، أن يسائل نفسه: لو صح استدلال صاحبنا فما مناسبة ذكر هذه التقسيمات من هذا التسلسل الموضوعي؟ وأتحدى أن يجد صاحب القراءة المعاصرة لنفسه مسوغاً هنا لمثل هذا التقسيم.

٧- وبمناسبة موضوع التحدي القرآني، اندفعت ألاحق ماكتبه هذا الآخ المسلم حوله، وذُهلت بما اطلعت عليه وقد تبين لي الأمور التالية:

أً- يزعم أن الكتاب شيء والقرآن شيء آخر، وإن الإعجاز والتحدي بهذا الإعجاز واقعٌ قابلاً للتأويل، وإن تأويله متحرك وفق الأرضية العلمية لأمةٍ ما، في عصر ما. على الرغم من ثبات صيغته، ولايتأتى اعجاز القرآن فقط من جماله البلاغي.

بً- وخلافاً لاتفاق الأمة واجماعها بمختلف فرقها ومدارسها الفكرية، فهو يحصر التحدي والإعجاز القرآني في أربع آيات فقط، بينما كانتا خمس آيات التي ورد فيها هذا التحدي والإعجاز، فهو أسقط من بينها التحدي القرآني الذي تضمنته سورة الطور.

إنه أورد الآيات الأربع: آية الاسراء، وآية يونس، وآية هود، وآية سورة البقرة. وأهمل آية سورة الطور وهي قوله عز وجل: ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين.﴾، مع أن الآية التي سبقتها قيل فيها ﴿ أم يقولون تقوّلة بل لايؤمنون﴾ وهو سبحانه وتعالى ردّ على اتهامهم رسوله بأنه تقول هذا الكتاب، فتحداهم أن يأتوا بحديث متقول مثله إن كانوا صادقين في اتهامهم، إن التحدي ومبرره كلاهما متوفر في هذا المقام.

أما الأمر الأول، وهو تقسيمه كتاب الله إلى الكتاب والقرآن، أو المحكمات والمتشابهات، فقد نقضته في (مبحثي حول المحكمات والمتشابهات) فليرجع إليه من أراد أن يستيقن ذلك.

وأما حَصْرُهُ أمر التحدي والإعجاز في القرآن من دون الكتاب. فهو أمر باطل، ويبدو بطلانه من جهة أن التحدي ورد منسوباً إلى لفظ (كتاب) في ثلاث سور هي البقرة والطور وهود، بينما لم يرد التحدي منسوباً إلى لفظ (قرآن) إلاّ في سورتين فقط هما سورة يونس والاسراء، فكيف أجاز لنفسه تجاهل هذا الأمر؟

وأما زعمه بأن التحدي ورد عن القرآن وحده، من حيث كون القرآن قابلاً للتأويل، وليس من جماله البلاغي فقط، فقد ورد في مبحثي حول (الآيات المحكمات والآيات المتشابهات) نقض كون القرآن قابلاً للتأويل، وأوضحت هناك من خلال معطيات الآية السابعة من سورة آل عمران أن التأويل لله وحده لكمال علمه، وأن نص الآية يقول بصراحة تامة: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾. وهل يَعْمى عن فحوى هذا النص إلاّ من كان ضل عن فهمه أو كان في قلبه زيغ؟ هذه معادلة: زيغ القلب = تأويل المتشابهات.

وأضيف قائلاً بأن التحدي القرآني، الذي ورد في خمس سور من سور كتاب الله، قد شمل الصياغة والمضمون معاً، وليس الصياغة البلاغية وحدها. ودليلي هو أن التحدي في جميع هذه المواضيع جاء مُطلقاً غير مقيد، مما يعني أن التحدي لم ينحصر في جهة الصياغة وحده، بل انحصر وشمل المضمون أيضاً، وأورد لكم هنا هذه الآيات لتلاحظوا من خلالها صحة ماذهبت إليه:

أولاً- ففي سورة البقرة (٢٣) قال تعالى متحدياً ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا، فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾. إن قوله [من مثله] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا (من مثله صياغة وبلاغة). وكنت ذكرت لكم أن التحدي يدور مضمونه حول نهج التقوى صياغة ومضموناً.

ثانياً- وفي سورة يونس (٣٨) قال تعالى متحدياً ﴿ أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾، إن قوله [فأتوا بسورة مثله] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا [بسورة مثله صياغة وبلاغة]، بل جاء تحديه مطلقاً غير مقيد.

وكنت ذكرت لكم أن التحدي يدور مضمونه حول الآية التي جمع فيها ربنا خمسة أدلة وبصياغة مُعجزة، هذه الآية التي قال تعالى فيها ﴿ ماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لاريب فيه، من رب العالمين.﴾.

ثالثاً- وفي سورة الاسراء (٨٨) قال تعالى متحدياً ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض

ظهيراً.﴾ إن قوله [بمثل هذا القرآن] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا (بمثل هذا القرآن صياغة وبلاغة) بل جاء تحديه دائراً حول الصياغة والمضمون معاً، ولايجوز لأحد أن يقصر هذا التحدي على الصياغة البلاغية وحدها. أو أن يزعم أن التحدي يدور هنا حول التشابه وإمكانية التأويل، لأن هذا زعم لايسنده برهان أو يقوم عليه دليل.

رابعاً– وفي سورة هود (١٣) قال تعالى متحدياً ﴿ **أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾.

إن قوله [فأتوا بعشر سورٍ مثله] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا (بعشر سورٍ مثله صياغة وبلاغة) بل جاء تحديه دائراً حول الصياغة والمضمون معاً، ولايجوز لأحد أن يحصر هذا التحدي في الصياغة من دون المضمون. وإن التحدي هنا شبيه بتحدي سورتي البقرة ويونس.

خامساً – وفي سورة الطور (٣٥) قال تعالى متحدياً ﴿ **فليأتوا بحديثٍ مثله، إن كانوا صادقين**.﴾، إن قوله تعالى [بحديثٍ مثله] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا (بحديث مثله صياغة وبلاغة) حتى تحصر التحدي في الصياغة البلاغية دون المضمون. بل جاء النص مطلقاً غير مقيد جاء مطلقاً ليشمل الصياغة والمضمون معاً.

على هذه الصورة تبين لكم خطأ الدكتور شحرور في زعمه أن إعجاز القرآن تأتي عن كونه قابلاً للتأويل، كلاّ فلا تفيد نصوص الآيات الخمس المتحديات آية إشارة إلى هذا الزعم أو إلى تأييده. وأتحدى الدكتور شحرور أن يقدّم على زعمه هذا دليلاً مقنعاً إذا كان على يقين راسخٍ مما يزعم ويقول، وهذا التحدي من جانبي جاء حمية لكتاب الله القرآن، وليس استهانة مني بمقام الدكتور شحرور نفسه.

- **وإن صاحب القراءة المعاصرة** خطا خطوة ثامنة تأوّل من خلالها الواو العاطفة في قوله عز وجل ﴿**الر تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين**﴾ الحجر. فقد كتب على الصفحة (٥٦): (لنرجع إلى قوله تعالى في أول سورة الحجر : [الر تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين.].. هنا نلاحظ كيف عطف القرآن على الكتاب. وفي اللسان العربي لاتُعطف إلا المُتغايرات، أو الخاص على العام، فهنا لدينا احتمالان:

- إن القرآن شيء، والكتاب شيء آخر، وعطفهما للتغاير..
- أن يكون القرآن جزء من الكتاب، وعطفهما من باب عطف الخاص على العام...

فأي الاحتمالين هو المقصود؟؟؟...).

ألاحظتم من أين ابتدأ؟ ابتدأ من الواو العاطفة، محاولاً تأويل عملها وفقاً للقاعدة العامة المتعلقة بذلك.

إن خطوته هذه لاغُبار عليها من حيث ظاهرها، ولكن تأويله يتضح هنا حين أوهم القارىء أن هذه الواو العاطفة واقعة بين اسمين وليس بين صفتين. ذلك أن عطف المتغايرات أو عطف الخاص على العام لايقع بين الصفات بسبب أن الصفات هي متغايرة أصلاً، والكلام على عطف المتغايرات، وعطف الخاص على العام يقع بين الأسماء خاصة، وإن الدكتور شحرور عندما بدأ يوجه ذهن القارىء إلى عمل الواو العاطفة، يكون قد لقن هذا القارىء بصورة غير مباشرة، أنها واو عاطفة في هذه الآية وقد عطفت اسمين احدهما على الآخر، وهذه عملية تأويلية إن هو استطاع أن يثبت أن الكتاب والقرآن قد استعملا هنا كصفتين وليس كإسمين. ومادام الدكتور شحرور يدعي أنه بحاثة فكان من واجبه أولاً إثبات كون الواو قد عطفت في هذه الآية اسمين ومن ثم ينتقل إلى عمل الواو المذكورة. فلماذا لم يفعل ذلك؟

وأقول على رُسْلك ياصاحب القراءة المعاصرة، إن الواو في آية سورة الحجر المذكورة عطفت صفتين وليس اسمين كما تصورت وتخيلت. ومن البديهيات المعروفة لدى كل إنسان أن الأسم قد يستعمل كإسم في مكان، وقد يستعمل كصفة في مكان آخر، وإن الكتاب والقرآن كلمتان وردتا في هذه الآية الكريمة كصفتين ولم تردا كإسمين.

ولا أنكر هنا وجود من تطرق لموضوع الواو العاطفة قبلك على شاكلتك ولكنك باحث ومبتدع قراءة جديدة لكتاب الله، وكان من واجبك ألاّ تجزم في هذا الأمر، قبل أن تقلبه على جميع الوجوه، ولاتأخذ إلا بما يتفق والتسلسل الموضوعي للسورة.

فلنعلم أن موضوع هذه الآية والسورة بكاملها دائراً حول الصفات وليس حول الأسماء أو حول تقسيم المصحف إلى كتاب وقرآن، وسأقدم لكم القرائن التالية التي ترجح لكم صحة ماذهبت إليه.

أولاً- أفلا تلاحظون كيف قال سبحانه وتعالى بعد هذه الآية مباشرة [ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين.]؟ إن الإنسان يتساءل: وماهو الدافع الذي يدفع الكافرين هنا ليتمنوا [لو كانوا مسلمين]؟ إلا أن تكون هذه الأمنية نابعة مما اتصف به كتاب الله من

صفات؟ هذه الصفات الجذابة التي جذبتهم نحو هذا التمني، أما إذا كانت الآية التي قبلها تتكلم عن تقسيم المصحف إلى كتاب وقرآن فهل يُعقل أن يُشكّل مثل هذا التقسيم قوة جذابة؟.

ثانياً- ونتساءل أيضاً: ولماذا نقل سبحانه وتعالى إلينا بعد هذه الآية قول المكذبين [وقالوا ياأيها الذي نُزّل عليه الذكّر إنك لمجنون.]؟ وهل يُعقل أن يصطفي سبحانه لفظ (الذكر) في هذه الآية عبثاً ودون دلالة عظيمة؟ أو أن نقول أنه سبحانه عبّر بهذا اللفظ عن الصفات؟ الذكر معناه الصيت والشرف والشهرة والرفعة. وإن المذكبين يتهمون رسول الله بالجنون على اعتبار أنه يدعي نزول كتاب عليه سيشكل أساس رفعة المسلمين وصيتهم وشهرتهم وشرفهم. وهذه كلها مجموعة صفات. وهذه قرينة ترجح كون لفظي الكتاب والقرآن وردا كصفتين.

ثالثاً- ونتساءل أيضاً: ومامعنى أن يعد الله سبحانه وتعالى بعد ذلك بحفظ كتابه مستعملاً له لفظ الذكر خاصة؟ أفلم يقل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾؟ فلو كان تسلسل الكلام دائراً حول الكتاب والقرآن، كان يلزم أن يقول سبحانه [إنا نحن نزلنا الكتاب والقرآن] أو يقول [إنا نحن نزلنا المصحف وإنا له لحافظون]، ومادام قد استعمل لفظ الذكر، وكان الذكر يعني الصيّت والشرف والشهرة والرفعة، وكان المشركون قد استعملوا هذا اللفظ بالذات لكتاب الله المصحف، فقد استعمل سبحانه وتعالى نفس اللفظ تعبيراً عن كتابه ومايحمله للناس من صفات.

وإننا بعد استعراضنا للقراءة المعاصرة نفسها لاحظنا أن صاحبها قد قال على الصفحة (٦٢) مانصه (ولاننسى أن الذكر ليس القرآن نفسه، بل هو أحد صفات القرآن..) وهذا اعتراف منه صريح بأن موضوع آيات سورة الحجر يدور حول الصفات خاصة، وليس حول الأسماء والتقسيمات التي زعم.

رابعاً- ورابع قرينة تستحق الاهتمام هي كون سورة الحجر قد نزلت في أواخر سنوات الدعوة في مكة، نزلت يوم لم يكن هذا الكتاب العظيم قد اكتمل نزوله بعد، ولم يتخذ شكل كتاب حتى ذاك التاريخ. إن هذه قرينة تؤكد أنّ آية [الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين.] جاءت تتكلم عن رؤية الله المستقبلية التي تحققت فيما بعد بإعجاز منقطع النظير، خصوصاً وأنها ابتدأت بأحرف المقطعات [الر] التي تعني أنا الله أرى.

هذه القرائن الأربعة ترجح رأيي وهو أن موضوع سورة الحجر يدور حول الصفات، ولايهتم بالتقسيمات والأسماء إلا من حيث دلالاتها الصفاتية ،إليكم بعد هذا تفسير قوله عز وجل[الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين].
[الر] أنا الله أرى. لذلك أنبئكم [تلك آيات الكتاب] إن هذه الآيات المنزلة العظيمة ستتخذ شكل كتاب كامل الخصائص، إضافة إلى أنه (وقرآن مبين) أي سيصبح مقروءاً من الناس بكثرة ظاهرة، إلى جانب أنه يحمل أدلة صدقه وبراهين مضامينه معه بحيث يكون في ذروة الفصاحة والدلالة، حتى إنه [ربما يود الذين كفرو لو كانوا مسلمين] من شدة تأثرهم بجميع خصائصه وتعاليمه.
وأضاف سبحانه قائلاً ومتبناً أيضاً عن حال المكذبين بأنهم بالرغم من تأثرهم الفاضح فإنهم سيظلون مكبين على ملاذهم وتحقيق اهوائهم وميولهم، غير عابئين بما أنزل الله رب العالمين لذلك ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون..﴾.
من هذه المعاني يتراءى لأعينكم تسلسلٌ موضوعيٌ مُحكمٌ ومنطقيٌ، هذا إذا أخذتم بوجهة نظري من أن لفظي (الكتاب والقرآن) قد استعملا في هذه الآية كصفتين، لكنكم إذا أخذتم بوجهة نظر صاحب القراءة المعاصرة فلا يعود يتراءى لأعينكم أي تسلسل موضوعي، لأن معنى الآية سيصبح الر هذه آيات المصحف المؤلف من الكتاب والقرآن المبين.
وكم كان بودي أن أقرأ بقلم صاحب القراءة المعاصرة نفسه تفسير هذه الآية ومابعدها، وبشكل مقبول ومنطقي.
وانتقل من الإيجاز إلى التفصيل المُدَعَّم بالأدلة والبراهين.
أقول إن كل كاتب من الكتاب يمتاز بأسلوب خاص به في كتابته، ويتميز كل كاتب عمن سواه من خلال هذا الأسلوب. والذي يطالع كتاب الله القرآن يلاحظ امتيازه بأسلوب خاص به يأخذ بالألباب، وماسبقه من أسلوب على شاكلته، وهذا أحد أوجه إعجازه.
إنه سبحانه طرق في جميع ماأنزل جميع فنون الكلام، ولما كان الاختزال أحد هذه الفنون. فلم يهمل هذا الفن في جميع ماأنزل.
وهو قد قسّم كتابه إلى مقدمة هي سورة الفاتحة التي سماها رسول الله فاتحة الكتاب.

وانهى كتابه بثلاث سور موجزات هي سور المعوذات كخاتمة لكتابه، ومابين هذا وذاك هو مضمون الكتاب.

وقسم سبحانه هذا المضمون إلى سور مستقلة بعنوان خاص بكل منها، ورفع على كل سورة شعاراً تضمنته البسملة التي تنبه كل قارىء إلى أن جميع ماأنزل من وحي في هذا الكتاب إنما ينبع من نبعي رحمانية الله ورحيمية. الرحمانية تعني عطاء دونما مقابل. والرحيمية تعني عطاء أزيد من الاستحقاق. هذا الشعار جاء ليشعرنا بأن محمداً ورسالته هي عطاء من دون أي مقابل منّا نحن عباد الله، وأنها رحمة للعالمين بمعنى أن من ينطوي تحت لواء محمد ورسالته يؤتى من الهُدى والخير أكثر من استحقاقه.

وكنت تكلمت في مبحثي عن (المحكمات والمتشابهات) عن فن الاختزال بشيء من التفصيل، فمن أراد الإحاطة به، فليرجع إلى ذلك المبحث ضمن هذا الكتاب.

وعلى ضوء تلك المعلومات ابتدأ ربنا عز وجل سورة الحجر، وعلى إسلوبه المذكور، على سبيل الجدّة والتحدي فيه، ابتدأ بقوله: ﴿الر﴾ بمعنى أنا الله أرى. ويواجهنا هنا سؤال يطرح نفسه وهو: هل الرؤية الإلهية في هذا المقام متعلقة بالماضي، لأن الكلام الذي يليها متعلق بالماضي أم إن هذه الرؤية حاضرة والكلام عن الحاضر، أم أنها رؤية مستقبلية تتعلق بأنباء غيب يعبر عنها ويحملها ماوراءها من كلام؟

الجواب نبهتنا إليه كلمة [تلك] التي حلّت محلّ (هذه) فقد كان يكفي القول [هذه آيات الكتاب وقرآن مبين]، فما حكمة هذا الاستبدال؟. ونعلم أن هذه تستبدل بتلك للتفخيم والتعظيم. وإن التعظيم هنا جاء لكلمة آيات وليس تعظيماً لكتاب أو قرآن كما هو واضح من صياغة الآية الكريمة[تلك آيات الكتاب]، والذي نعلمه من تاريخ الدعوة، يدلنا على أن الآيات القرآنية في الحياة المكية لم تكن قد اتخذت شكل كتاب. وكانت تنزل مُنجمة كما هو معروف. وإن كان جبريل يوصي رسول الله أن يرتبها غير الترتيب التي كانت تنزل عليه، وهذا التعظيم المتأتي عن استبدال هذه بتلك إلى جانب كون الآيات لم تتخذ شكل كتاب حتى تاريخ نزول سورة الحجر، يدفعنا دفعاً للاتجاه نحو اعتبار الرؤية الإلهية في (الر) هي رؤية مستقبلية وتحمل للمؤمنين وسواهم نبوءة غيبية. وهي أن عظمة هذه الآيات تنبع من كونها ستتخذ شكل كتاب له مقدمة وموضوع وخاتمة، إن في قوله عز وجل[تلك آيات الكتاب] هذا الإنباء المتعلق بالمستقبل بمعنى

أن هذه الآيات عظيمة لأنها آيلة لتصبح جزءاً من كتاب.
والسؤال الذي يطرح نفسه أيضاً هو: مادام الأمر كذلك فما هي دلالة تعريف الكتاب بالألف واللام، ولماذا لم يقل الله سبحانه [تلك آيات كتاب قادم] أو ماشاكل من ألفاظ وماهي دلالة هذا التعريف في هذا المقام؟
وجوابي أن تعريف الكتاب هنا بالألف واللام ماحدث للدلالة على معهود ذهني، بل للدلالة على كمال خصائص هذا الكتاب الذي ينبىء سبحانه عن أنه سيكتمل ويتخذ شكل كتاب، وأدلّتي على سداد رأيي بهذا الخصوص **أولاً**: أن الكلام في هذه الآية محمول على عمومه وليس على آيات مخصوصات. **ثانياً**: لكون سورة الحجر قد نزلت في مكة المكرمة قبل أن تتخذ الآيات شكل كتاب، **ثالثاً**: لإمكانية أن نُتبع كلمة (كتاب) بكلمة (كُلّ) مجازاً، فنقول [تلك آيات الكتاب كُلّه]. هذه الإضافة الممكنة التي تنقل المعهود الذهني إلى معنى جديد للتعريف في هذا المقام وهو (كمال الخصائص)، وهذا الأمر يفهمه اللغويون المتخصصون. ويصبح للنبوءة معنى بارزاً، وهو إنباؤنا عن ظهور كتاب غير عادي، إنباءنا عن ظهور كتاب كامل الخصائص، أي سيكون هذا الكتاب معجزة حية صياغة ومضموناً.
وجاء دور الواو العاطفة، وقد رأينا مما ذكرناه أن النبوءة متعلقة بظهور كتاب كامل الخصائص، أي متعلقة بالصفات التي ستبرز في ثوبها وحُلّتها هذه الآيات الكريمات، فالواو العاطفة هنا تؤدي دور عطف الصفات على بعضها، ولابد لنا من فهم قوله تعالى [وقرآن مبين] على حمله على الصفات، وعلى اعتبار كلمة [قرآن] هنا صفة جديدة ينبئنا بها ربنا إضافة إلى كمال الخصائص، ولذلك علينا أن نفهم أولاً معنى كلمة [قرآن] قبل أن نتقدم خطوة أخرى في هذا المقام.
القرآن: من قرأ الكتاب يقرؤه قراءة وقرآنا. منه اشتق اسم الفاعل القارىء والذي يجمع على قُرّاء وقارئون.
الذي يهمنا هنا هو وزن (فُعلان) وصفاً وليس إسماً، وإن قرآن على وزن فُعلان يفيد كثرة القراءة، وهذا المعنى يضيف إلى كمال خصائص الكتاب المُتنبأ عن ظهوره، صفة أخرى وهي أنه لن يتخذ شكل كتاب ويُنسى ويهمل، بل إن الله سبحانه وتعالى قدر لهذا الكتاب أن يُستنسخ ويطبع بكثرة ظاهرة، ويُقرأ بالتالي بكثرة ظاهرة أيضاً، فلا

تحول دون ظهور هذه الصفة أية قوة في الوجود، وحينما ننظر اليوم إلى حولنا نلاحظ تحقق هذه الصفة من النبوءة أيضاً بشكل مدهش وعجيب.

ونتساءل أيضاً، مامعنى أن يوصف القرآن بصفة (مبين)؟ وجوابي أن تنوين [قرآنٍ] كان لتفخيم هذه الصفة المتعلقة بالكتاب. وهو أن الكتاب سيُقرأ بكثرة ويطبع بكثرة شبيهة بالإعجاز، وكلمة (مبين) هنا جاءت لتضيف صفة ثالثة للكتاب، وليس للقرآن، لأن الكلام دائر حول الكتاب وصفاته، فمعنى [قرآنٍ مبين] هو أن هذا الكتاب كامل الخصائص، والذي سيُطبع ويُقرأ بكثرة مدهشة، سيحمل في طياته أسلحته وأدلته القاطعة على صدق كونه منزلاً من الله عزّ وجلّ وعلى صدق تحديه المتعلق بإعجاز صياغته ومضامينه، فهو كتاب مُستغن عما عداه، ويفسر بعضه بعضاً في جميع الأحوال، فهو كتاب (مُبين) أي واضح الدلالات من أبان، وفصيح، مما يتبين به الشيء من الدلالة، هذه دلالات كلمة مبين على حسب ماقاله سلفنا اللغويون رحمهم الله تعالى، وقد قال رسول الله ﷺ: إن من البيان لسحراً. وقال صاحب الكشاف: البيان هو المنطق الفصيح المعبر عما في الضمير، وقد يستعمل بمعى الإثبات بالدليل.

على هذه الصورة نفهم قول الله عزّ وجلّ الذي افتتح به سورة الحجر: ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ إني أنا الذي أوحى إلى محمد رسولي بهذه الآيات،أنبئكم أيها الناس مبشراً المؤمنين ومنذراً المكذبين الكافرين،بأن آياتي المنزلة ستتخذ شكل وهيئة كتاب كامل الخصائص،ومقروء بكثرة وحاملاً فصاحته وأدلّة إعجازه ضمن سوره وآياته.

تلقى محمد وأصحابه هذه النبوءة المبشره، فهان عليهم احتمال اضطهاد المشركين إياهم في مكة، وانتشر خبر نزول هذه النبوءة بين المكذبين فسخروا منها، واغرقوا في تكذيبهم واستهزائهم، بدل أن يتبصروا كلام الله وانذاره وعواقب الإنذار الوخيمة. فما كان ليخطر للمكذبين ببال أن يتمكن محمد رسول الله من مغادرة مكة سالماً، وماكان ليخطر ببالهم أن الله الهادي يهيء أهل المدينة المنورة لاستقبال محمد بالزغاريد والهتاف كمؤمنين به وبدعوته. وماكان يخطر لأحد منهم أن يتصور إمكان قيام دولة دستورها كتاب الله، ورأسها محمد بن عبد الله. لذلك نقل سبحانه إلينا صورة حالهم،وهو قولهم [ياأيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون]، إنهم استعملوا كلمة (الذكر) التي تشمل

معطيات آية [الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين] ودلالاتها الصفاتية، إذ أن كتاباً هذا وصفه إذا صح ظهوره لابد أن يصبح أداة عزة المؤمنين وشرفهم وصيتهم وشهرتهم. وهذه دلالات كلمة [الذكر] المُعّرف بالألف واللام كمعهود ذهني، ولامعهود ذهني قبلها سوى هذه النبوءة المتعلقة بظهور هذا الكتاب العظيم. إن المشركين استعملوا كلمة (الذكر) كناية عن تفهمهم لنبوءة آية سورة الحجر المذكورة، واستعملوا كلمة (مجنون) مؤكدة (بأنك) تعبيراً عن عدم قناعتهم بصدقها، متهمين رسول الله بفساد عقله، أي كيف تتنبأ بهذه النبوءة وأنت تحت رحمتنا، ونحن على وشك القضاء عليك؟

وبسبب موقف المشركين الذي أشرنا إليه، توجّه ربنا بخطابه إلى رسوله قائلاً: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾.

هذا هو فهمي لهذه الآية الكريمة [الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين] ومابعدها من آيات، بهذا التسلسل الموضوعي أفهم هذه الآيات الكريمات. وبعد هذا فإن للعاقل أن يتدبر هذا الفهم، وأن يوازنه بفهم صاحب القراءة المعاصرة التي سبق أن ذكرناه، وللعاقل أن يحكم على هذا وذاك بموازين العقل واللغة والمنطق السليم.

٩- لم يشأ صاحب القراءة المعاصرة أن ينهي تمهيده وتقسيماته واصطلاحاته بسلام، بل كان آخر ماكتبه على الصفحة (٦١): (وعندما قال - يقصد رسول الله ﷺ - القرآن ومثله معه، فإنه عنى شيئاً آخر متجانساً مع القرآن معطوفاً عليها، وهي مجموعةٌ من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية، لذا جاء القرآن معطوفاً عليها. وهي «سبع من المثاني» حيث عطف القرآن العظيم عليها في قوله [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] الحجر ٧٨).

والمعروف أن كل مسلم، على اختلاف مذهبه ومدرسته الفكرية، وحيثما كان، عندما يقرأ آية [وآتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] يذهب ذهنه في السبع المثاني إلى سورة الفاتحة لكونها مؤلفة من سبع آيات مستقلات، ولكونها تُثنى أي يكررها المصلي في كل ركعة من ركعات صلواته، ولكونها تشكل فاتحة القرآن العظيم وتوازيه من حيث كونها خلاصة، ومن حيث أنبأ الأنبياء السابقون عنها من قبل في الكتب السماوية السابقة.

وإن صاحب القراءة المعاصرة، أعرض عن جميع هذه الحيثيات التي دعت المسلمين لاعتبار سورة الفاتحة هي السبع المثاني، وجاء يزعم أن السبع المثاني هي (الم، المص، كهيعص، يس، طه، طسم، حم) على اعتبار أن أحرف المقطعات هذه هي وحدها أطراف المصحف، أما باقي أحرف المقطعات فلا تدخل في مفهوم السبع المثاني، وكيف توصل إلى هذا الاكتشاف "العظيم" فأمر ستلاحظونه لاحقاً.

وتتملك افئدتكم الدهشة والذهول أن كيف غاب هذا المفهوم عن المسلمين جميعهم، وإلى يومنا هذا؟ وكيف حقق الدكتور شحرور هذا "الكشف العظيم"؟ وإني أقول هنا إنه إن صحّ اكتشافه هذا، فإنه جدير بكل احترام وتقدير.

أنتم قرأتم مانقلته لكم آنفاً مما كتبه على آخر الصفحة (٦١)، وإليكم ماكتبه لاحقاً على الصفحة (٩٨) في نفس الموضوع: (فما هي إذن جوامع الكلم التي قال عنها النبي (ص) في قوله، إن صحّ، (أُعطيت جوامع الكَلِم) و (اختُصر لي الكلام اختصاراً)؟ لقد طغى علي الأذهان أن هذين التعبيرين يراد بهما البلاغة النبوية، ونقول أن الكلام في اللسان العربي يعني الأصوات، وأن كل كلام الناس قاطبة هو أصوات، وَأن نشأة الألسن هي نشأة صوتية، وأن السبع المثاني ماهي إلاّ حروف أي أصوات، هي جوامع الكلم، وهي (اختصار الكلام). إذ لو عنت (جوامع الكلم) البلاغة النبوية، كما يقول بعضهم. فيصبح القرآن هو بلاغة محمد (ص)، وعلينا أن نعلم أن النبي (ص) كان على بلاغته بشراً، وبلاغته فيهم بلاغة متميزة، مع أنها مألوفة، وحين ندعي أنه يفوق ببلاغته البشر، نفسح الطريق لمتهمٍ يظن أن القرآن من صُنعه [قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ] الكهف ١١٠، إن الذي اوقعنا في هذا الإشكال، هو أننا لم نفرق بين الكلام والقول، فالبلاغة في القول، لا في الكلام، فالكلام أصوات يصدرها الإنسان، والقول معنى هذه الأصوات في الذهن.). وأبتدىء من حيث انتهى قول صاحب القراءة المعاصرة.فأقول إنه استدل بالحديث الشريف (أوتيت جوامع الكلم) زاعماً أن جوامع الكلم هي أحرف مقطعات سبعة ذكرها من بين جميع أحرف المقطعات الواردة في القرآن الكريم. وجاء زعمه هذا على نقيض فهم المسلمين قاطبة من أن جوامع الكلم تعني البلاغة النبوية. وكان دليله في زعمه هذا هو أن القول غير الكلام، وأن الكلام يعني أحرفاً وأصواتاً ذات معاني، وأن القول هو معاني هذه الأصوات داخل الذهن البشري، هذه خلاصة ماكتب.

ولنوجه هنا إلى الدكتور شحرور سؤالاً ونقول له أن افرض أن رسول الله أراد أن يقول لنا (أوتيت البلاغة)، فهل كان يجب عليه حينئذٍ أن يعبر عن ذلك بقوله (أوتيت جوامع القول) عوضاً عن (جوامع الكلم)؟ نسألك هذا على اعتبار أنك لم تعترض على كلمة (جوامع) فيما نقلناه من كتابك.

فإن كان جوابك: أي نعم، نقول لك إن جملة (أوتيت جوامع القول) لاتعني في نظرنا، وبميزان اللغة (البلاغة) بأي حال من الأحوال، بل تعني أوتيت جميع ماقيل حتى تلك اللحظة سواء أكان ماقد قيل كلاماً صالحاً، أو كان كلاماً فاسداً، بدليل الألف واللام التي تستغرق جميع ماقيل، وهذا المعنى لايدل على بلاغة متميزة ولا على فضيلة تُذكر.

ثم إذا كان الكلام يعني الأصوات، ولايستدل بالكلام عن معنى هذه الأصوات في الذهن، نسأل الدكتور شحرور: ولماذا قال الله عز وجل عن نبيه موسى [وكلّم الله موسى تكليماً]؟ فهل يُستدل من هذه الآية عن أن الله تعالى صوّت لموسى أصواتاً، ولاتعني أنه سبحانه كلم موسى وقال له شيئاً؟ نسألك وكيف فهم موسى كلام ربه؟

نعود إلى ماكتبه اللغويون: كلّم: حدّث، والأسم الكلام، والكلام هو القول، يقال: أتى بكلام طيب: قيل هو في أصل اللغة عبارة عن أصوات متتابعة لمعنى مفهوم، وهو اسم جنس يُطلق على الكثير والقليل، أفاد واحدة أم لم يفد.

يتبين مما نقلناه، أن اللغويين مافرقوا بين الكلام والقول، كما رأيتم، ذلك أن الكلام يستعمل من جهة الأصوات، والقول يستعمل من جهة إفادة معانيها، لذا قيل: الكلام هو القول. وقال الأصفهاني: إن الكلام يقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعاني التي تحتها، وعند كثير من المتكلمين لايقع إلاّ علي الجملة المركبة المفيدة، وهو أخصّ من القول، فإن القول يقع عندهم على المفردات، والكلمة تقع عندهم على كل واحد من الأنواع الثلاثة (أي الأسم والفعل والحرف)... وقد تعني الكلمة معنى الكلام كقوله تعالى: ﴿كبرت كلمة تخرج من افواههم..﴾ و﴿ فتلقى آدم من ربّه كلمات..﴾.

ولكن الدكتور شحرور عاكس قول اللغويين زاعماً أن الكلام هو غير القول، وبدون دليلٍ يُذكر، وإننا إذا ناقشنا الأمر نلاحظ أن الكلام هو الأصل، وأن القول ماهو إلا تحصيل حاصل، وتبعاً لذلك تكون البلاغة في الكلام وليس في القول، فالبلاغة أن يصوّت الإنسان أي يتكلم أصواتاً ذات معاني بليغة في الذهن.

واستناداً إلى ذلك يعني قول رسول الله ﷺ (أوتيت جوامع الكلم) أي أوتيت (بلاغة الكلام)، وهذا هو المعنى الذي ذهبت إليه أذهان جميع المسلمين، ويبطل بذلك مازعمه الدكتور شحرور، فهو قال على عكس ماقاله اللغويون من جهة، وحصر البلاغة في القول من جهة أخرى، وهذان أمران باطلان كلاهما، لأن الكلام هو القول، وإن البلاغة في الكلام وليس في القول، من حيث الأصل.

وهكذا ترون أنني ابتدأت في الردّ عليه من حيث انتهى كلامه، وأثبت أن هذا الأخ المسلم اختلق إشكالاً، حيث لايوجد في الأمر إشكال، ووقع في نفس المصيدة التي نصبها، وأترك للقارىء مهمة التمييز بين الخبيث من الطيب من قوله وكلامه.

وأعود الآن إلى حيث ابتدأ في خطوته التاسعة التي نتكلم عنها، إن الدكتور شحرور انطلق هناك من حديث رسول الله ﷺ أيضاً وهو (أوتيت القرآن ومثله معه)، ففسر (ومثله معه) على أنها تعني (السبع المثاني) بألفاظ أخرى، فهو كتب على الصفحة (٦١): (القرآن ومثله معه، فإنه عنى شيئاً آخر متجانساً مع القرآن أي مثله، وهو مجموعة من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية، لذا جاء القرآن معطوفاً عليها، وهي (سبع من المثاني) حيث عطف القرآن العظيم عليها في قوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ الحجر).

ونلاحظ من خلال هذا النص أموراً ثلاثة:

أ- اعتمد الحديث الشريف بمعنى مغاير لإجماع المسلمين زاعماً أن (مثله معه) هو مجموعة من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية.

٢- تأوّل الواو العاطفة قاصراً إياها على معنى المتغايرات، ليساوي بين السبع المثاني وبين القرآن العظيم.

٣- وانتهى إلى الزعم بأن (مثله معه) الذي قال إنها مجموعة من الحقائق العلمية، انتهى إلى الزعم بأنها تشير إلى السبع المثاني التي ذكرها القرآن المجيد في سورة الحجر.

أما بما يتعلق بالأمر الأول، فندع الدكتور شحرور يفهم من حديث رسول الله ماشاء أن يفهمه، لأن الأمر يخصه وحده.

وأما مايتعلق بالأمر الثاني وهو تأوله واو العطف، فهو أمر موضع نقاش. وأتناوله بادىء ذي بدء من مسلّمات الدكتور شحرور نفسه. وانتهي ببحثه من مُسلماتي.

أولاً- من مسّلمات هذا الأخ المسلم أن الواو العاطفة إما أن تعطف المتغايرات وإما أن تعطف الخاص على العام. وهو قد أصّر في المقتبس من كلامه، على عطف المتغايرات من دون أن يقدم أي مبرر مقبول لإعراضه عن عطف الخاص على العام. فهو كتب ص ٩٦ (لقد عطف القرآن على السبع المثاني، فهذا يعني أن القرآن شيء والسبع المثاني شيء آخر) فهو يعني أن الواو العاطفة قد عطفت في آية [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] عطفت متغايرات، ولم تعطف الخاص على العام، وفعل هذا من دون تقديم أي مبرر معقول، إلا إذا كان قد اعتبر الحديث الشريف الذي أورده حجته في هذا المقام، فإن صحّ ظننا نقول إن الأمر المختلف فيه لايُقدم ولايُقبل عند التحكيم كدليل، فهو اعطى الحديث معنىً مغايراً للمعنى المتعارف عليه، وعليه فما عاد الحديث الشريف حجة بين يديه.

ثانياً- نلاحظ تناقضات في مُسلمات الدكتور شحرور وأقواله وعدم استقراره على قول محدد، فهو قد قال عن السبع المثاني على الصفحة (٦١) (إنها مجموعة من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية)، في وقت قال عن السبع المثاني على الصفحة (٩٦). وإن السبع المثاني ليست جزء من القرآن، وقد وضعها الله سبحانه وتعالى قبل القرآن، حيث ميزها عليه بالأفضلية من ناحية المعلومات)، إن الدكتور شحرور ساوى مابين السبع المثاني والقرآن في النص الأول من حيث القيمة العلمية، أما في النص الثاني فقد ميز السبع المثاني وفضلها على القرآن من ناحية المعلومات. وهذا اختلاف واضح بين النصين بحاجة إلى تبرير. لقد ساقه ظنه للاستدلال بحديث شريف على غير معناه، واضطر هناك للمساواة وفقاً لمنطوق الحديث، أما وقد واجه في الآية الكريمة واو العطف فقد اضطر للأخذ بمبدأ المتغايرات، ولما قدم سبحانه السبع المثاني على القرآن العظيم اضطر ثانية للتناقض مع نصه الأول، وأعلن أفضلية السبع المثاني على القرآن العظيم، على مبدأ أن الخطأ يجر الخطأ، ونقول: **هل هذا هو شأن من يجلس لكتابة قراءة معاصرة؟** ولم يقف الأمر عند هذا الحد من التناقض، لأنه عاد في نص ثالث يساوي بين السبع المثاني والقرآن العظيم دون أي تفضيل لأحد على الآخر. فهو كتب على الصفحة (٩٦): (بما أن القرآن العظيم هو نبوّة محمد (ص)، والنبوّة علوم، فهذا يعني أن السبع المثاني هي من النبوة وفيها علوم... فإذا كانت السبع المثاني هي مثل القرآن فهذا يعني أن

المعلومات الواردة فيها لاتنقل كماً ونوعاً عن المعلومات الواردة في القرآن، ولكن جاءت بطريقة تعبيرية مختلفة عن طريقة القرآن.).

ونقول إن في المساواة بين شيئين أولاً، ومن ثم تفضيل احدهما على الآخر، ومن ثم العودة للمساواة بينهما، إنما هو تردد وتخمين لايتأتى عن باحث رصين.

وقلت إن هذا تردد بسبب أنني لاحظت عودته إلى التفضيل ثانية أيضاً في قوله ص (٩٦) (٤- لقد ميز السبع المثاني عن القرآن، بأن أطلق عليها مُصطلح (أحسن الحديث) وذلك في قوله تعالى ﴿ الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد.﴾ الزمر ٢٣) ونستفتي قارئنا بما يتعلق بهذا التردد ونسأله على أي أمر نستقر، وهل يتأتى أن يصدر مثل هذا عن بحّاثه يكتب قراءة معاصرة لكتاب الله؟

ثالثاً- ولابد أنكم لاحظتم إدعاءه بأن كتاب الله اصطلح للسبع المثاني اسم (أحسن الحديث) بينما اصطلح للقرآن اسم حديث فقط، وأكد هذا الإدعاء على الصفحة (٩٧) حيث كتب: (فقد اطلق على القرآن مصطلح الحديث، واطلق على السبع المثاني مصطلح أحسن الحديث، إنّه تم تمييزها، وهذا التمييز بأن القرآن آيات متشابهات فقط، وأحسن الحديث يحمل بالإضافة إلى التشابه صفة المثاني (كتاباً متشابهاً مثاني) أما القرآن فكتاب متشابه فقط، فما هي المثاني؟).

وترون أن إدعاءه المذكور إنما هو مجرد ادعاء، ومعلوم أن الإدعاء يحتاج دوماً إلى دليل لينقلب إلى حقيقة، وإننا لانعثر فيما ادعاه على أي دليل قدمه لنا ليقنعنا به، ومادام لم يقدم أي دليل فيحق لنا اعتبار ادعاءه هذا تخرصاً ووهماً.

والحقيقة هي أن ادعاءه المذكور يحتوي على ادعائين فرعيين، أولاهما أن القرآن هو آيات متشابهات واصطلح على تسميته حديثاً، وثانيهما أن السبع المثاني آيات متشابهات أيضاً، لكنها تحمل صفة (المثاني) لذلك اصطلح على تسميتها (أحسن الحديث)، ولربما كان فيما كتب على الصفحة (٩٦) (أن السبع المثاني ليست جزءاً من القرآن، وقد وضعها الله سبحانه وتعالى قبل القرآن، حيث ميزها عليه بالأفضلية من ناحية المعلومات) قد أشار بهذا إلى الواو العاطفة وأنها قد عطفت المتغيرات في قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك

سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾، فإن صحّ نظرنا فقد أضاف الدكتور شحرور بذلك تناقضاً جديداً إلى تناقضاته التي كشفنا عنها.

وحتى لانذهب بعيداً، فإننا نسلم جدلاً بأن السبع المثاني هي مصطلح (أحسن الحديث). لنتقدم خطوة مع الدكتور شحرور لنتعرف على مفهومه لصفة (المثاني) التي ميزت وفضلت السبع المثاني على القرآن العظيم على حسب ادعائه، خصوصاً وأننا لاحظناه نفسه وقد تساءل: [فما هي المثاني؟]

ونتابع ماكتبه كجواب على سؤال قد طرحه بنفسه، إنه كتب على الصفحة (٩٧): (جاء في مقاييس اللغة مايلي: «الثاء والنون والياء أصل واحد، وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين»، وجاء فيه «المثناة طرف الزمام في الخشاش، وإنما يثن الشيء من أطرافه، فالمثاني هي الأطراف... ومن هنا كان لكل سورة مثناة أي طرف، فالمثاني إذاً اطراف السور، وهي إذاً فواتحها.)

فلنلاحظ أن الدكتور شحرور في نصه هذا الآنف الذكر:

أولاً - أخذ بمعنى الاطراف لكلمة (مثاني).

ثانياً - وقال (إنه كان لكل سورة مثناة، أي طرف.

ثالثاً - وزعم أن السبع المثاني هي اطراف السور.

رابعاً - وأضاف ادعاء جديداً على المسلمين وهو أن سورة الفاتحة ليست هي السبع المثاني، على اعتبار أنها فاتحة واحدة، وأن السبع المثاني هي سبع فواتح.

وأول مانلاحظه هو أن الدكتور شحرور أهمل معنى التكرار الذي أورده صاحب مقاييس اللغة لكلمة (مثاني) من دون أن يأتي بقرينة ترجح لنا المعنى الذي وجد هوى في نفسه. فلماذا رجحّ معنى الاطراف للمثاني ولم يرجحّ معنى التكرار؟ هذا مانطالبه بالإجابة عليه إجابة منطقية معقولة.

وننتقل إلى ماقاله من (أنه كان لكل سورة مثناة أي طرف) ثانياً، إنه كتب (كان أن توجّب أن يكون لكل سورة مثناة أي طرف)، ووفقاً لرأيه هذا فإنه يجب أن نعثر على (١١٤) طرفاً على عدد سور القرآن المجيد، ولكن الدكتور شحرور نفسه يقيد هذا العدد بسبع اطراف أي سبع مثاني. وهل يجوز لباحث مثله أن يمر على هذا التفاوت مرور الكرام؟ أم أنه لايخطر بباله مثل هذا السؤال؟

لنستمع إلى ماكتب: (بما أن الكتاب واحد، وبما أنه مؤلف من ١١٤ سورة فيلزم أن تكون السبع المثاني، هي سبع فواتح للسور، كلٌّ منها آية منفصلة في ذاتها).

ونسأله: ومن أين جاء (لزوم) أن تكون السبع المثاني هي سبع فواتح للسور؟ وماهو مبرر هذا (اللزوم)؟ مادام العدد ١١٤ سورة فاللزوم أن تكون هناك مائة وأربعة عشر مثاني إذا أخذنا بمعنى الأطراف على حد ترجيحك، أما أن يكون عدد السور ١١٤، ولايكون لها إلاّ سبع أطراف مثاني، ولاتوجد سواها أطراف غير مثاني لتساوي عدد ١١٤ فأمر مستغربٌ ولايستعمل له لفظ (لزوم)، ونترك للقارىء أن يتفكر ويتحزر لعله يتفق مع هذا (اللزوم).

ونسأله أيضاً: وماهو مبرر أن تقول: (كلٌّ منها آية منفصلة في ذاتها)؟ نسأله: ماهو مبرر هذه الإضافة وهي ضرورة كون كل طرف من السبع المثاني آية مستقلة بذاتها؟

إننا سلمنا معك جدلاً للمرة الأولى بأن المقصود من المثاني الأطراف، وسلمنا معك جدلاً للمرة الثانية بأن المقصود من هذه الأطراف فواتح السور. وتطالبنا أن نسلم معك للمرة الثالثة، وجدلاً، بلزوم أن تكون هذه الأطراف آيات مستقلات، ومن دون أن تقدم لنا أي مبرر مقنع في جميع الحالات. تضطرنا في هذه الحالة لرفض جميع مسلماتك المذكورة، لافتقارها إلى الاسناد والبراهين.

ويكفي أن نقول أن هذا الشرط الأخير يتنافى والوقائع الملموسة كلية، فانظر إلى أصابع يديك، هل تلاحظ أن أطرافها مستقلة عن يدك بحال من الأحوال. أم تراها جزء لايتجزأ من يدك الفاضلة؟ أم إنك ستزعم بأن أصابع يديك من دون أطراف؟ وبكل أدب نرجوك أن تتراجع عن شرطك الأخير. الذي يؤسفنا أن نراه باطلاً، فلا يجوز لك ولالسواك أن يفترض كون السبع المثاني آيات مستقلة، وفواتح للسور وتعني سبعة أطراف، ومن دون أن يؤكد فروضه التي افترضها بأدلة قاطعة تقلبها إلى حقائق ناصعة لاغبار عليها.

والحق أني تساءلت في نفسي طويلاً: كيف يحاول الدكتور شحرور هذه المحاولة ذات الشعب الثلاث، فهل هي مجرّد كبْوة. أوليس في ذلك تعجّل وتسرّع لايتّسع لهما هذا المقام؟.

ونتيجة لمتابعتي ماكتب تبين لي أن الدكتور شحرور قد حاول فرض هذه الفرضيات علينا ليصل بنا إلى شيء لاعلاقة له بالسبع المثاني من قريب ولامن بعيد. إنه فضح نفسه عندما كتب على الصفحة (٩٩) (تؤيد ماتوصل إليه المحدثون من علماء اللغويات واللسانيات، من أن العدد (١١) يشكل الحد الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم، وإنهم يمثلون لها بلغة البروتوكاس (Protekas) وهي لغة أهل سيشل.).

أرأيتم كيف أراد أن يربط مابين السبع المثاني ومابين العدد (١١) للحروف، ومابين لغة البروتوكاس، ليخرج من هذا كله إلى نتيجة وهي أن "قراءته المعاصرة" إنما تؤول السّبع المثاني، على أساس منهج علمي مدروس يوفق مابين كتاب الغيب، ومابين آخر ماتوصل إليه العلم من فرضيات حتى ولو كانت هذه الفرضيات اللسانية المعاصرة لم تكتسب حتى الآن صفة الحقائق العلمية، لأنه لربما تكتشف في المستقبل لُغات لأقوام قد بادت، وكانت ذات لغة لها حروف أقل من العدد (١١) وتكون إنسانية أيضاً.

ونقول إذا كان الدكتور شحرور، فيما يريد أن يوصلنا إليه، على حق فإنه يستحق منا ومن جميع مسلمي العالم الشكر والثناء، أما وأننا قد رأيناه ينتقي لكلمة [مثاني] معنى الأطراف، من دون أن يثبت صحة هذا المعنى وتوافقه مع تسلسل الآية الموضوعي، ومن دون أن يربطها بسباقها وسياقها من آيات، ومن دون أي تبرير مقبول لعدم وجود أطراف لجميع سور القرآن البالغة ١١٤، ومن دون تبرير قوله بلزوم كون طرف السورة آية مستقلة.

أما وقد رأيناه يحاول أن يفرض علينا "لزومياته"، من دون أية مناقشة لها من جانبنا، ومن دون أن يقدم لنا مايبررها ويثبت صحتها. إن هذه الأمور مجتمعة تستلزم منّا ألاّ نُسلّم بهذه اللزوميات مادامت لم تُبن على دعائم محكمة من لغة أو منطق. وتشكل مؤشرات غير صحية في نظرنا، وترسم في اذهاننا علامات استفهامات كبيرة حول "لزومياته" و "نهجه" في قراءته المعاصرة، فليتفضل، وليبرر "لزومياته" المذكورة بشكل معقول ومقبول.

لقد بينت لكم من قبل أن كلمة (مثاني) لاتحمل معنى واحداً ولامعنيين، بل إن لها معاني عديدة. كما بينت لكم المعنى الذي يتوافق مع الآية بطولها، ومع تسلسل السورة الموضوعي، وأن جميع معاني (مثاني) الأخرى غيرمقبولة في هذا المقام.

والمدهش الا يحاول الدكتور شحرور نفس محاولتي ونراه يذهب إلى معنى لايتوافق والتسلسل الموضوعي، بل يصبح معه معنى الآية نشازاً. إن معنى الأطراف الذي انتهى منه إلى اعتبار السبع المثاني، كأحرف مقطعات، هي مااصطلح الله تعالى على تسميته (أحسن الحديث)، وبسبب كونها تمتاز عن القرآن من حيث معلوماتها العلمية بالرغم من كونها سبع آيات، وكون القرآن مؤلفاً من مئات الآيات.

المدهش ألا يحاول الدكتور شحرور محاولتي كباحث، والأعجب من ذلك أنه بمزاعمه هذه قد أتى بعدة ادعاءات لابد من مناقشتها موضوعياً قبل اقرارها. ولابد من تقديم البراهين القاطعة على صحتها، حتى تعود مقبولة ومُسلّماً بها من الباحثين العقلاء، والمؤسف أنني لم اعثر فيما كتبه على مناقشة هذه الادعاءات ولا على أدلة اثباتها وبراهين منطقيتها. فلماذا هذا الإهمال؟

والاغرب من هذا وذاك أن يستدل حضرته بنفس الآية مرة على وجود كتاب القرآن، ومرة أخرى على وجود كتاب السبع المثاني، في وقت يعترف هو نفسه أن القرآن هو غير السبع المثاني، وأن السبع المثاني هي (أحسن الحديث).

وقد كنت شرحت لكم معنى هذه الآية الكريمة، ومن خلال مابينه اللغويون من معاني لكلمة (مثاني) تناولت المعنى الذي اعطى الآية وضوح معنى، وانزلها منزلة منسجمة مع تسلسل السورة الموضوعي. ولكل واحد أن يقارن مابين ماشرحته ومابين هذه الادعاءات التي أتى بها الدكتور شحرور، من دون تقديم أية مناقشة لها. ومن دون تقديم أي دليل يدعمها.

وأطرح على القارىء الكريم هنا سؤالاً وجيهاً وهو هل أنه إذا سُمع رجلٌ يتمتم بأحرف مصففة، ودون النطق بأية كلمة توضح معنى هذه الأحرف.

أتطاوعكم انفسكم على الزعم بأن هذا المتمتم بهذه الأحرف "يتحدث" أم انكم تقولون أننا نسمعه يتمتم؟

ان الحديث يتألف عادة من جُمل وكلمات واضحة. أما النطق بأحرف مجردة فلايدخل فيما نسميه حديثاً لا من قريب ولا من بعيد". أما كتاب القرآن العظيم هو في نظره مجرد "حديث" إنه خصص من كتابه صفحتين ونصف ليشرح لنا كلمة (كتاب)، وفي ادعائه الآنف الذكر لم يخصص أكثر من سطر واحد حيث قال (ولكن جاءت بطريقة تعبيرية

مختلفة عن طريقة القرآن) أي أن السبع المثاني هي طريقة تعبيرية مخصوصة ليس إلاّ، ولاحاجة لإثبات هذا القول بشكل من الأشكال، على هذا القياس قيسوا "قراءة الشحرور المعاصرة".

وكنت قلت لكم إن هذا الأخ المسلم، كان يهدف من جميع محاولاته هذه، أن يصل بنا إلى أن معلومات السبع المثاني أو المقطعات، علمية وتتوافق مع لغة أهل سيشل التي لاتتجاوز أحرفها أحد عشر حرفاً، وهاكم تفصيل ماذكرت.

زعم أولاً أن السبع المثاني هي (الم، المص، كهيعص، يس، طه، طسم، حم) زعم هذا من منطلق "لزومياته" التي لايسندها برهان ولادليل، وهي أن تكون (المثاني) آية مستقلة.

إنه لم يفسر لنا أمر انتخابه لأحرف المقطعات هذه، وإهماله جميع الآيات المستقلة التي ابتدأت بها سور القرآن المجيد. إذ المفروض أن تكون للسور أطراف بعددها أي (١١٤) طرفاً. كما أنه لم يقدم لنا مبرراً يبرر لزوم أن يكون طرف السورة آية مستقلة.

وواجه مشكلة وهي أن سورة الشورى ابتدأت بـ (حم، عسق) خلافاً لبقية السور. وأهمل (عسق) على اعتبار منه أنها جملة مستقلة غير (حم) التي هي جملة مستقلة أيضاً في نظره، أهمل (عسق) دون أن يبين لنا معنى كلا المقطعين (حم وعسق). فكيف تكونان جملتين وهما خمسة أحرف فقط؟ وهل يجوز لباحث أن يمر على هذا الأمر مرور الكرام من دون مناقشة وتقديم الدليل المقنع. أم إنه لاحظ التنقيط بين (حم) وبين (عسق)، فاعتبرهما جملتين من دون أي نقاش؟ سلّم بهما كجملتين لأن ذلك الأمر وافق ظناً أو حدساً أو هوى لديه.

وواجه مشلكة أعظم. مادامت السبع المثاني هي هذه الأحرف المقطعة السبعة التي ذكرها. فماذا يفعل ببقية أحرف المقطعات التي ابتدأت بها سور القرآن العظيم؟ إنها مقطعات على كل حال، ولايجوز إلا الكلام عنها وربطها بالسبع المثاني بشكل من الأشكال، وإلاّ فإنها تشكل ثغرة لديه ولايجوز السكوت عليها، وهذه الأحرف هي (الر، المر، طس، ن، ق، ص) بالإضافة إلى (عسق) التي أهملها.

أفادته "لزومياته" على اعتبار أن هذه الأحرف جزء من آيات، ولاتشكل آيات مستقلة في نظره، ومادام هو يريد أن يتوصل إلى سبعة أطراف فقط ليقول إنها السبع المثاني. ومادام قد نخّل المقطعات واكتفى بسبع منها، فليكن من أمر هذه مايكون.

هنا جلس صاحب "القراءة المعاصرة" يستريح من عناء معاناته الطويلة، وقد استفاد من استراحته هذه، حيث قلبها إلى "رياضة" وهذه "الرياضة" هي القيام بجملة استنتاجات أخيرة مما توصل إليه حتى تلك اللحظة.

وإليكم ماتوصل إليه من استنتاجات لاحظناها على الصفحة (٩٨):

(أول مانستنتجه من حروف (أصوات) السبع المثاني مايلي:

أ- أنها أعطت "مقاطع صوتية" يتألف منها أصل الكلام الإنساني، وليس اللغة العربية فقط).

ونتناول هذا الاستنتاج قبل الانتقال منه إلى سواه، فنقول ماشاء الله، إنه لاستنتاج عظيم ومدهش، ولايستطيع التوصل إليه سوى صاحب "القراءة المعاصرة" يقيناً. "السبع المثاني" كأصوات، أعطت "مقاطع صوتية"، ويتألف منها أصل الكلام الإنساني، وليس اللغة العربية فقط، كلام جميل ومنمق، لكنه غير مفهوم. كيف انقلبت "السبع المثاني" وهي "أحسن الحديث" إلى كونها أعطت "مقاطع صوتية" وأصل الكلام الإنساني؟ ولاحاجة لمناقشة هذا الاستنتاج، لأنه فوق فهمنا جميعنا، ولننتقل لنستمع إلى استنتاجه الثاني، قال:

٢- إن عدد الأصوات الأحد عشر، في الآيات السبع الفواتح، تشكل الحد الأدنى لأي كلام إنساني، أي أنه "لايمكن" أن توجد لغة إنسانية، يُقال عنها لغة، إلا إذا كانت أصواتها الأصلية من أحد عشر صوتاً على الأقل، و "يؤيد" هذا ماتوصل إليه المحدثون من علماء اللغويات واللسانيات من أن العدد (١١) يشكل الحد الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم ويمثلون لها بلغة البروتوكاس، وهي لغة أهل سيشل).

ونقول هنا أيضاً ماشاء الله، وهذا استنتاج ثانٍ عظيم ومدهش، ولايستطيع التوصل إليه سوى صاحب " القراءة المعاصرة" يقيناً، السبع المثاني كأصوات أعطت "مقاطع صوتية" أولاً، وأعطت "أحد عشر صوتاً" ثانياً، وهذا هو الحد الأدنى لأي كلام إنساني، وتوافق هذا مع ماتوصل إليه علماء اللغويات واللسانيات.

وتساءلت كيف توصل إلى رقم (١١) أحد عشر صوتاً. عددتُ أحرف السبع المثاني فكان عددها (٢١) إحدى وعشرين صوتاً، حذفت منها الأحرف المتكررة فبقي منها (١١) أحد عشر صوتاً.

وكأن السبع المثاني لغة مستقلة، احتوت على أحد عشر صوتاً، ولكن كيف خطر لهذا الأخ المسلم أن يعتبر (أحسن الحديث) لغة مستقلة، وركبت جميع "المثاني" فيها من أحد عشر صوتاً؟ أجبت نفسي بأنه لو لم يكن الدكتور شحرور بارعاً في فن "التخمين والحرز" وماهراً في حلّ "التمتمات والشيفرات" لما كان باستطاعته التوصل إلى هذه الاستنتاجات المدهشة "الأخاذة" بجامع القلوب، إنه ربط مابين السبع المثاني، كأطراف للسور، وكأحرف صوتية، بآخر ماتوصل إليه علماء اللغويات واللسانيات، ليثبت من ذلك كله أن السبع المثاني تحتوي على معلومات علمية تفضُل مايحتويه القرآن العظيم من معلومات علمية، على كثرة آياته وقلّة آيات السبع المثاني، وحتى نؤكد بذلك أن الواو العاطفة في آية [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] قد عطفت المتغايرات ولم تعطف الخاص علي العام، وحتي نؤكد من وراء ذلك كلّه ضرورة كتابة "قراءة معاصرة" في كل عصر من العصور، لنساير ركب العلم ومنجزاته.

شيء مذهل حقاً، لو نوقشت مفرداته من قبله، وأُيدّت كل واحدة فيها بدليل قاطع الدّلالة، وبرهانٍ ساطعٍ تراه الأعين العاقلة لكانت مقبولة مبدئياً، ولكني أقول بأسف شديد إن هذه الاستنتاجات ارتكزت كما رأينا جميعنا على "لزوميات" واهية، وافتراضات واهنة ولاتقوم على أساس، وعلى "لايمكن" و "يؤيد" وعلى "غربلة" ونتائج "مسبقة الصنع" ولاأدري كيف تقوم هذه كلها وتستقر على "رمال متحركة" ذات قراءة معاصرة تصدر عنها كل حين بإذن من الدكتور محمد شحرور.

واغمضت عيني، فلم تطاوعني نفسي لمتابعة هذه الاستنتاجات.

ذكرت لكم المشاكل التي واجهها صاحبنا، والطريقة التي حل بها معضلاتها، وهو الذي استثنى أحرف المقطعات (الر، المر، طس، ن، ق، ص) التي لم يعتبرها فواتح، بل أجزاء من آيات. وفكر حضرته بالإستفادة من هذه الأحرف ليغني قراءته المعاصرة، وتوصل إلى اكتشاف جديد، حيث شرح هذا الاكتشاف على الصفحة (٩٨) بقوله: (فنرى أن فيها ثلاثة حروف "أصوات" غير موجودة في آيات السبع الفواتح، وهي ١- القاف، ٢- الراء، ٣- النون... ومن هذه الأصول تتألف كلمة (القرآن) لأن كلمة القرآن مشتقة من قرأ. ومعني قرأ الجمع كما في المقاييس... فالقراءة والقرن جمع، وفيها استقراء ومقارنه).

علمية، وقد كان من الواجب عليه هنا، وعلى أقل تقدير أن يأتي بمعلومة قرآنية ومعلومته التي استخلصها من معنى سبع المثاني، وأن يقوم بمقارنتهما وموازنتهما،وإثبات علميتهما وأفضلية الواحدة على الأخرى، فهذا ماتقتضيه الروح العلمية على أقل تقدير، والعجيب أنه بالرغم من ادعاءاته العلمية في البحث، فإننا رأيناه يفتقر إلى الأدلة، ويعتمد اسلوب "اللزوم" وطريقة التخمين والحزْر.

أما وجهة نظري فهي وجهة نظر رسول الله ﷺ نفسها، والتي رواها لنا أبو هريرة رضي الله عنه (عن النبي ﷺ أنها - أي سورة الفاتحة - هي السبع المثاني، وأم القرآن، وفاتحة الكتاب، وسميت كذلك لأنها تثنى في كل ركعة)، وأيد وجهة النظر هذه، مما وصلنا، عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وجماعة من جمهرة علماء المسلمين.

وهناك من أضاف إلى معنى التكرار للمثاني، معنى الثناء على الله عز وجل، حيث أجازه الزجاج والنحوي، واعترض عليه ابن عطيه على اعتباره مخالفاً لقواعد الصرف، لكن أبا حيان ردّ على ابن عطيه معتبراً "مثاني" جمع مُثنى، وعلى وزن مُفعل، الرباعي من أثنى، وقال أنه يعني الثناء، وقد رأيتم كيف عَمَدَ صاحب كتاب المقاييس إلى عدم انكار معنى التكرار "للمثاني". في وقت رأينا صاحب القراءة المعاصرة يغمض عينيه عن هذا، مرجحاً معنى الأطراف للمثاني بدون قرينه ترجيحية مقبولة.

على هذه الصورة تكون وجهة نظر رسول الله ﷺ التي لاتُردّ بالنسبة إلى جميع الصحابة ومن على مسيرتهم، هي الصحيحة لغوياً، فقد اعتمدت معنى التكرار لكلمة "مثاني"، ولم تعتمد معنى الطرف بحال من الأحوال.

ولما كان ماطرحه صاحب القراءة المعاصرة، لم يُطرح على هذه الشاكلة في عهد رسول الله ﷺ فلا تكفينا المنقولات من النصوص لإثبات وجهة نظرنا بشكل مفصل. لذلك فسأحاول سد هذا النقص على قدر ماآتاني الله تعالى من علم واستطاعة تعبير، وتكون خطواتي كالتالي:

أولاً - اعطيكم ملخصاً عن موضوع سورة الحجر ومساره ومحل الآية موضع بحثنا فيه.

ثانياً - شرح آية سبع المثاني نفسها شرحاً يفيدنا في تأييد وجهة نظرنا.

ثالثاً - ربط معنى آية سبع المثاني بالتسلسل الموضوعي لسورة الحجر، حتى تطمْئن أفئدتكم

إلى صحة وجهة نظرنا، لإنسجامها مع هذا التسلسل الموضوعي.

رابعاً- إثبات أن معنى صاحب القراءة المعاصرة لاينسجم مع التسلسل الموضوعي بل يشرحه.

أولاً- ابتدأت سورة الحجر بالإنباء عن أن الآيات النازلة في مكة ستتخذ شكل كتاب، بالمفهوم العام، وإن هذا الكتاب سيكون مقروءاً بكثرة، لامتيازه بكمال الخصائص وقوة البينات.

وفي الآيات (٢-٩) شرح سبحانه وقع هذا النبأ الغيبي في نفوس المشركين، ووعد في الآية العاشرة بالمحافظة على هذا الكتاب بتيسير جميع الأمور التي تحقق ذلك.

وفي الآيات (١١-٢٦) توجه سبحانه وتعالى منذراً كل من سيحاول التصدي لهذا الكتاب من المشركين، من أنه سيواجه نفس ماواجهه المكذبون لكلام الله من قبلهم، على اعتبار أن الله تعالى غيور على كلامه الزاخر بما يفيد ترقية عباده المؤمنين، خصوصاً وأن بيده أسباب الإماته والإحياء.

وفي الآيات (٢٧-٨٧) ضرب عدة أمثلة من ماضي الأمم في هذه المنطقة ليتعظ من خلالها من شاء أن يتصدى لكتاب الله العظيم، فقد ضرب مثل بعثة آدم. وبعثات لوط، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر، لأن مناطق سكن هذه الأقوام واقعة على طرق مواصلات المشركين من أهل مكة، لأن أخبارهم غير بعيدة عنهم. ونبههم سبحانه وتعالى إلى أنه لايضره هلاك هؤلاء لأنه هو الخلاق العليم، لايهلك قوماً إلى ويخلق بدلاً عنهم (وعليم)، كيف يستبدلهم بأحسن منهم.

وبعد أن فرغ سبحانه من ذلك كله، عاد بالحديث إلى النبأ الغيبي الذي ابتدأ به سورة الحجر، وذلك في الآية (٨٨)، مبشراً الرسول وأصحابه أن اكتمال هذا الكتاب بات على الأبواب، وأنه في طريقه إلى الظهور، وأنه عطاء من الله لهم لايماثله مالدى مكذبيهم من متاع وعتاد، مضيفاً مزية خامسة لهذا الكتاب، ماامتاز بها كتاب كاتب من قبل، وهي أن مقدمة هذا الكتاب تتألف من سبعة آيات. وبالرغم من قلة عدد هذه الآيات، فإن هذه المقدمة تكاد توازي القرآن العظيم في خزائنها العلمية، فهي خلاصة تعاليم القرآن العظيم، وبسبب عظمتها هذه فقد أمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يكرروا تلاوتها في كل ركعة من صلواتهم لأنها فاتحة كتاب الله ومفتاح علومه وخلاصة بركاته الروحية.

وفي الآية (٨٩) أكد عز وجل شأن هذا العطاء الذي لايوازيه أي متاع لدى الكافرين.

وفي الآيات (٩٠-٩٧) حث سبحانه وتعالى رسوله والمؤمنين على الثبات على طريق الجاهرة بالدعوة، غير هيابين بين مايواجهونه من قبل مكذبيهم وأقسم عز وجل لرسوله أنه ليعاقب هؤلاء، آخذاً مسؤولية ذلك على نفسه.

وفي الآية (٩٨) رفع سبحانه وتعالى من معنويات رسوله، موصياً إياه ألاّ تؤثر فيه الوسائل الإعلامية التي يقودها مكذبوه ضده، كما أوصاه في بقية آيات السورة بالاعتماد دوماً على الدعاء كوسيلة أساسية وحتي النفس الأخير، وأن يهتم بتربية المؤمنين لتأهيلهم لحمل المسؤوليات القادمة.

على هذه الصورة تلاحظون وجود تسلسل موضوعي واضح في سورة الحجر، ابتدأت بإعلان نبوءة، وتعرضت لوقع النبأ في نفوس المكذبين، وأكدت أن النبوءة لابد واقعة وستتهيأ جميع وسائل المحافظة على الكتاب.

وضربت أمثلة تحذيرية من قصص أمم يعرفها المكذبون وتقع أمكنة أصحابها على طرق مواصلاتهم، من ثم عادت فأضافت ميزة للكتاب خاصة بفاتحته ملفتة أذهان المؤمنين إلى شأن هذه الفاتحة ومكانتها في عبادتهم، وأنها عطاء من الله عز وجل هي والقرآن العظيم لايوازيه عطاء، رافعة بذلك همم المؤمنين للمثابرة على تحمل كل ابتلاء للجهر بدعوة ربهم. منبهة إلى أن ربهم للمكذبين بالمرصاد، مؤكدة على رسول الله زيادة الدعاء لتحقيق هذه الأمور كلها في أقرب وقت ممكن بيقين كامل لاتزعزه الأعاصير.

ثانياً- ونتوجه الآن لتفهم مضمون قوله تعالى [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] وأول مانتساءله: لماذا التأكيد بحرف [ولقد]؟ وقبل الإجابة ننتقل إلى [آتيناك] فهي تعني وبصيغة الماضي، سُقْنا إليك. ولكننا نعلم أن اكتمال نزول القرآن حدث في المدينة وليس في مكة. وهذه الآية مكية، هذا الأمر يدلنا على الحكمة من ابراد حرف التأكيد (ولقد). فالله سبحانه شاء أن يفهم رسوله الكريم بأن اكتمال هذا الكتاب أضحى يقيناً، وهكذا يكون قد ورد التأكيد من ناحيتين: الناحية الأولى هي أن نبوءة ظهور الكتاب ماكانت خاصة ضرورية، والناحية الثانية هي أن سباق الكلام وسياقه اقتضى هذا التأكيد.

أما من حيث الناحية الأولي فصحيح أن نبوءة افتتاحية السورة اشتملت على جميع الصفات العامة البارزة للكتاب بدون الدخول في التفاصيل، ومعلوم أن الكتاب هو عبارة عن مقدمة وموضوع وفاتحة. ولمّا كانت هذه الصفة تدخل في خصوصيات الكتاب وليس في عموميات صفاته، لذلك اقتضى الأمر منه عز وجل أن يفرد لهذه الخصوصية آية كاملة يبرزها بواسطتها، ولذلك تدارك هذا في قوله [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم].

وأما من الناحية الثانية فإن سباق هذه الآية وسياقها اقتضيا ابراز هذه الصفة المتميزة لمقدمة الكتاب لتأكيد رجحان العطاء الإلهي على ماعند المشركين من متاع وعتاد، لذلك رأيناه سبحانه وتعالى، بعد هذه الآية يوصي رسوله ﴿ لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين.﴾. فهو أكد بوصيته رجحان ماأصبح لدى المؤمنين على مالدى الكافرين، لأن المال الحقيقي هو هذه التعاليم التي لايتحقق تقدم الأمة دونها.

وإن في قوله تعالى: ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين﴾ تنبيه إلى ضرورة تثقيف المؤمنين بما نزل من تعاليم حتى تلك اللحظة، وتحّمل كل مايساعدهم على هذا الأمر، إشارة إلى مكانة المرحلة المقبلة. وهي ماكان مقدراً في علم الله عز وجل من أمور الهجرة إلى المدينة وتأسيس أول دولة إسلامية في تاريخ الدعوة. ولايستطيع المؤمنون تحمل مسؤوليات هذه الدولة مالم يكونوا قد تثقفوا بعلوم الإسلام وتهذبوا بها تهذباً صحيحاً وكاملاً.

هذا كله فيما تعلق بقوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك﴾، وأضاف سبحانه قوله ﴿سبعاً من المثاني﴾؟ ويراودنا هناسؤال وهو: لماذا قال سبحانه [سبعاً من المثاني] ولم يقل (سبع مثاني)؟ فالسؤال: لماذا أورد (سبعاً) منونة؟ ولماذا أورد (المثاني) معرفة بالألف واللام؟ ولماذا فصل بينهما بحرف (من) البعضية؟ هذه نقاط ثلاث لابد من تفسيرها وبيان حكمها.

أما بالنسبة للنقطة الأولى، فالجواب أن التنوين أداة إظهار عظمة الشيء وفخامته، وجاء تنوين [سبعاً] في هذه الآية تنبيهاً إلى عظمتها وفخامتها.

وأما بالنسبة لكلمة (مثاني) وإضافة الألف واللام في أولها، فالجواب أنالألف واللام لم ترد هنا تعريفاً للمثاني، بل وردت زائدة ولتنكيرها.

فكانت الألف واللام لازمة هنا لغلبة المعنى لما هي له في الأصل. ذلك أننا نذكر سورة الزمر، والآية (٢٣) منها بالذات، والتي تكلمنا عنها من قبل، وكيف أنها استعملت صفة (مثاني) للآيات المحكمات التي تضمنهن كتاب الله العظيم. وقد جيء هنا في قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ بنفس الصفة المذكورة مضافاً إليها الألف واللام لتنكيرها كما قلت على أنها صفة غالبة على الآيات المحكمات.

وأما بالنسبة إلى (من) البعضية، فقد أوردها سبحانه وتعالى لغرضين اثنين، الغرض الأول لتنكير مجرورها وقد ذكرناه، والغرض الثاني التنبيه إلى أن العدد [سبعاً] يقصد به سبع آيات محكمات تشكل سورة الفاتحة ومقدمة الكتاب العظيم الذي تنبأت به آية سورة الافتتاحية، على اعتبارها أن جميعها آيات محكمات.

على هذا الأساس من الفهم نقول أن الواو العاطفة مابين [سبعاً من المثاني] ومابين [القرآن العظيم] قد عطفت متغايرات، ذلك أن فاتحة الكتاب بهذا المعنى الذي ذكرناه أضحت شيئاً، وأضحى القرآن العظيم شيئاً آخر، فالقرآن العظيم عُطف على مقدمته لاستقلال هذه الفاتحة من جهة ولكونها جميعها آيات محكمات من جهة ثانية، ولاحتوائها على معارف واسرار القرآن العظيم بصورة إجمالية من جهة ثالثة، ففاتحة الكتاب بهذه المزايا استحقت أن تُقدم في الآية التي نحن بصددها، على القرآن العظيم.

وهكذا، ومن خلال ماذكرت، نكون قد وجدنا جواباً شافياً على سؤالنا الذي طرحناه، وهو: لماذا قال تعالى [سبعاً من المثاني] ولم يقل (سبع مثاني)، فلو أنه عز وجل كان قد قال (سبع مثاني) لكان رأي الدكتور شحرور مقبولاً ومحتملاً، أما وقد قال سبحانه [آتيناك سبعاً من المثاني] فقد ضخم من منزلتها، واعتبرها آيات محكمات جميعها، ووازى علومها بعلوم القرآن العظيم.

واستناداً إلى هذه الأمور، رأينا كيف أن رسول الله ﷺ نفسه، ذهب إلى أن المقصود من السبع المثاني فاتحة الكتاب بالذات.

وإننا نأخذ بمعنى التكرار لكلمة مثاني أيضاً، لأنه معني يفسر لنا سر قول رسول الله ﷺ (لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب) فلابد من تكرار سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعات صلواتنا، فهي مثاني بهذا المعني.

وإننا إذا أخذنا لكلمة مثاني معنى الثناء، فاننا لانجد وسيلة أعظم من سورة الفاتحة للثناء على الله عز وجل، من هنا نفهم سر ورود نبوءات خاصة متعلقة بنزول سورة الفاتحة في الكتب السماوية السابقة أيضاً.

وننتقل إلى قوله تعالى: ﴿والقرآن العظيم﴾ متسائلين: وماهي حكمة وصف كتابه القرآن في هذه الآية بصفة [العظيم]؟ والجواب هو أن الله عز وجل لخص في هذين اللفظين [القرآن العظيم] الصفات الأربع العامة التي تضمنتها نبوءة آية الافتتاحية. فكلمة [القرآن] احتوت هنا صفتي الكتاب وإنه سيصبح مقروءاً بكثرة ظاهرة، وأن كلمة (العظيم) احتوت صفتي كمال الخصائص والبينات، حيث اشار تعريف القرآن إلى كتاب، واشار تعريف (العظيم) إلى كمال الخصائص.

وبهذه الصورة يكون الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ قد عاد يبحث نفس موضوع نبوءة آية الافتتاحية لينبه رسوله إلى أن هذا الكتاب الذي بشره بظهوره، تمتاز مقدمته وفاتحته بامتياز ما امتازت به مقدمة وفاتحة أي كتاب آخر. فهي بالرغم من كونها مؤلفة من سبع آيات فإنها أجملت جميع معارف القرآن، وجاءت على أسلوب محكم ماشابهه اسلوب، هذا مافتحه الله سبحانه عليّ من معاني هذه الآية، ولاهادي إلا الله.

ثالثاً- والآن لنربط معني هذه الآية الكريمة بسباقها وسياقها، وننظر مدى ارتباطها بهذا السّباق والسّياق موضوعياً. حتى إذا اطمأنينا إلى انسجامها نكون قد اطمأنينا في الوقت نفسه إلى ماقدمناه من معانٍ للآية المذكورة.

نلاحظ أنه سبحانه وتعالى قد ضرب عدة أمثلة من تاريخ أمم ماضية حتي يتّعظ المكذبون بما كان منها ومن عواقبها. ونلاحظ أنه سبحانه انتهى من ذلك ليقول ﴿فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴾ ثم اتبع ذلك قوله ﴿ وماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل، إن ربك هو الخلاق العليم، ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

وأول مانتساءله هنا: مامعنى كلمة (الحق)؟ وقد بين اللغويون لكلمة (الحق) معاني عديدة منها: الحق ضد الباطل. والحق هو الأمر المقضي، والعُدل، والملك، والموجود الثابت،

واليقين بعد الشك، والموت، والحزم. ولقد ضربوا لنا من آيات القرآن الكريم أمثلة على جميع هذه المعاني لامجال لذكرها.

ونتساءل مامعنى الصفح الجميل؟ وقد بين اللغويون أنك إذا قلت: صفح عنه معناه اعرض عنه وتركه وحقيقته وولاه صفحة وجهه وصدّ عنه، وأعرض عن ذنبه، وعندما تقول: صفح الناس: تعني نظر في أحوالهم، وصفح في الأمر نظر فيه، والصفح هو مصدر، ومعناه الجانب من الإنسان. وإننا، استناداً إلى معاني كلمتي الحق والصفح المذكورين ندرك معاني آيات السباق - التي أوردناها - فالله سبحانه وتعالى ينبه ويقول أفلا ينظر المكذبون إلى ماهو كائن مابين السماوات والأرض ومابينهما من ارتباط وثيق يستحيل فصمه وتفتيت عراه بأي شكل من الأشكال؟ أفلا يرون كيف أن الأرض بحاجة إلى السماء وامطارها ورياحها وشمسها وقمرها ونجومها وكل مافيها، وإن الأرض آيلة إلى الموت والزوال إذا انقطعت عنها السماوات بأشيائها هذه؟ فلم لايقيسون الأمور الروحية على الأمور المادية؟ ولم لايتعظون بهذا الأمر من خلال ماجرى للأمم التي سبقتهم؟ والتي ذكرناها، وتقع مساكنها على طرق مواصلاتهم؟ ألا فليعلموا أنه لاحياة للنفوس البشرية دون مدد وحي السماء. هذه حقيقة ثابتة من خلال تواريخ الأمم التي ذكرناها. فماثبت في النهاية إلا ماشاءت السماء أن يثبت في الأرض، هذا ماكان نتيجة صراع الكافرين مع رسل الله ورسالاته. فقد حاقت بهم عاقبة السوء و ﴿ما اغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴾. ومادام مشركوا مكة وسواهم يسيرون على نفس خطى هؤلاء فإن الساعة، ساعة زوالهم لآتية عليهم يقيناً، وإنه من الله عز وجل وعظ وانذار وإقامة للحجة عليهم أجمعين.وهنا لاحظنا كيف توجه الله عز وجل بعد هذا الوعظ والانذار بخطابه إلى رسوله الكريم بقوله ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ فإذا تذكرنا أن سورة الحجر قد نزلت في أواخر سنوات الحياة المكية، نزلت عندما بلغ اضطهاد المشركين للمؤمنين ذروته، ندرك حكمة هذا الخطاب الإلهي الموجه إلى رسوله الكريم، فهو يعني أنه ماعاد هناك من رجاء من مشركي مكة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى قدر لرسوله أن يهاجر من مكة. إذ أعدّ له أهل المدينة المنورة لقبول دعوته وتأسيس دولة اسلامية قوامها ماينزل عليه من تعاليم عظيمة، وهذه الأمور أثبتت صحتها الأحداث التاريخية المعروفة ولاحاجة للتدليل عليها بدليل اعظم من ذلك.

والمعلوم أن تأسيس دولة يتطلب جهازاً صالحاً ومثقفاً يتحمل مسؤوليات الحكم وهذا الأمر بالذات كان وراء قوله عز وجل ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ أي وفر أوقاتك بعد اليوم لإعداد هذا الجهاز الذي ستحتاج إليه بعد الهجرة، وقلل من نشاطك تجاه تبشير المشركين، وانتقل في هذه الخطوة باتزان وحكمة فائقين. وأنت معتقد بأن ساعة هؤلاء المكذبين قد أضحت على الأبواب. وإن ربك هو الخلاق العليم، فهولايأبه لزوال هؤلاء لأنه خلاق وعليم أيضاً.

وإن فكر الإنسان بعد سماعه لهذا التوجيه الإلهي، ينتقل آلياً إلى الدستور والقوانين التي يحتاج إليها تأسيس دولة من هذا النوع، لأن تأهيل الاجهزة الصالحة لبناء دولة لايتم ولايتحقق إلاّ بالإحاطة بمايتعلق بهذه التعاليم التي جاء بها هذا الدستور الإلهي.

ولقد جاءت الآيات منسجمة مع هذه الحركة الفكرية الطبيعية لذلك رأيناه عز وجل يعود بالذاكرة إلى ماافتتح به سورة الحجر من موضوع الإنباء عن ظهور كتاب كامل الخصائص ومقروء بكثرة ظاهرة ويحمل معه بيناته. أعاد إلى ذاكرة رسوله موضوع النبوءة المذكورة ليُعلمه بأن الكتاب العظيم المذكور قد حَمَلَ إليه الدستور الذي تقتضيه الدولة القادمة. واغتنمها سبحانه مناسبة ليزيد على مضمون تلك النبوءة شيئاً جديداً متعلقاً بمقدمة الكتاب المذكور، وليبين له أن فاتحة هذا الكتاب بالرغم من كونها مؤلفة من سبع آيات مُحكمات فإنها تمتاز بمزية ماسبق أن امتازت بها مقدمة أي كتاب آخر، وهذه المزية هي أن هذه الفاتحة تنفرد من القرآن العظيم بكونها آيات محكمات جميعها ولامثيل لها في تعاليم الأمم السابقة إلى جانب أنها تحتوي على كنوز ومعارف القرآن العظيم. وضرورة تلاوتها في كل ركعة من ركعات الصلوات، والتقيد بها بلا انقطاع، فلا صلاة دون تلاوتها في كل ركعة من ركعاتها، فهي مفتاح علوم القرآن العظيم للإشارة إلى هذه المزية التي تتمتع بها فاتحة القرآن العظيم نزل قوله عز وجل ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾.

ونلاحظ أنه سبحانه وتعالى، بعدما ذكّر رسوله بالدستور الذي أنزله ليكون قوام الدولة المقبلة، ومايمتاز به من مزايا عامة وخاصة، قال ﴿ لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

ومن خلال هذه الكلمات نلاحظه سبحانه وقد عاد إلى موضوع وعظه لرسوله ليصفح الصفح الجميل، وليتوجه إلى تأهيل الأجهزة التي هداها الله للإيمان به وبرسالته، تأهيلها بتعاليم هذا الدستور الذي سيأخذ شكل كتاب قريباً، مُبيناً لرسوله حقيقة علمية ثابتة تتلخص في أن المال والمتاع لايغنيان شيئاً إذا لم يقترنا بالمثل العليا وبالأخلاق، وبالإنسجام مع القوانين الكونية لافتاً نظر رسوله الكريم إلى أن بيئة المشركين خالية من هذه المثل العليا، وهذه الأخلاق وهذه المعرفة الكونية وقوانينها. لذلك عليه ألاّ يهتم بالفارق الكبير مابين جماعته ومابين مكذبيه، من الوجهة المادية، وعليه أن يتصرف من منطلق يقينه بأن ساعة هؤلاء وعاقبة السوء دائرة عليهم قريباً، فلايحزن عليهم لأنهم لايستحقون منه هذا الاحساس. وهذه اشارة إلى سمو أحاسيس رسوله الكريم الإنسانية بشكل لطيف. هذه معاني [لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم].

كما نبهه إلى أن تثقيف المؤمنين وتهيئة الأجهزة الصالحة يتطلب منه تحمل عناء ليس باليسير، فلايستطيع المربي النجاح في تربية تلاميذه وتأهيلهم إلا بتحمل مايصدر عنهم من ضعف، لذلك نصحه بقوله: ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

ومن خلال كل مابيناه يتجلى للقارىء الكريم التسلسل الموضوعي الكائن مابين سياق الآية التي نحن بصددها ومابين سياقها. وكيف هو منسجم إلى أبعد الحدود. ومن خلال هذا الإنسجام نوقن بأن مافهمناه من معاني ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ كان فهماً سليماً ومنطقياً، ومن روح التسلسل الموضوعي لسورة الحجر. وهكذا لايعود يخامرنا شك فيه، ويدفعنا هذا إلى رفض كل فهم مغاير له ومنافيه.

رابعاً- والآن فهيا نطابق مابين المعنى الذي تخيله الدكتور شحرور ومابين تسلسل السورة الموضوعي، وننظر هل بالإمكان أن يتطابقا وينسجما. أم أنه سيبدو معنىً ناشراً لاعلاقة له بهذا التسلسل الموضوعي من قريب أو بعيد.

إننا نفترض أن الدكتور شحرور لم يخالفنا إلا في معنى سبع المثاني والقرآن العظيم. فهو يقّر معنا بأن الله سبحانه ضرب أمثلة من أمم خالية تقع مساكنها على طرق مواصلات أهل مكة. وأنه قال في النهاية ﴿ فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴾. ولفت نظر هؤلاء إلى مابين السماوات والأرض ومابينهم من ارتباط وثيق. وأنبأ أن ساعة هؤلاء آتية أيضاً. ونصح رسوله بهجرهم بقوله: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ وبعد

ذلك قال الله عز وجل لرسوله - على حدّ ماذهب إليه الدكتور شحرور - [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] اي أننا سُقنا اليك سبع أطراف لسبع سور من أصل (١١٤) سورة من سور الكتاب. وهذه الأطراف سُقناها إليك بلغة تعبيرية مختلفة عن لغة القرآن العظيم. وقد احتوت على احد عشر صوتاً على عدد اصوات لغة أهل سيشل. ولقد اصطلحت على تسمية هذه الأطراف السبعة "أحسن الحديث" بالرغم من كونها أصواتاً وأحرفاً. بينما اصطلحت على تسمية القرآن العظيم اصطلاح "الحديث" فقط. هذا بسبب أن هذه المعلومات العلمية التي احتوت عليها هذه الإطراف السبعة تفوق وتفضل المعلومات التي احتوى عليها القرآن العظيم.

وعليك أن تعلم أن القرآن العظيم الذي سُقناه إليك أيضاً إنما هو مجموعة آيات متشابهات تشكل "كتاب الغيب" ولاعلاقة له بالأمور السلوكية والأخلاقية، ولايمكن فهم مضامينه إلا على أيدي الراسخين في علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك وعلم الأحياء وما إلى ذلك. وعليك ألا تعجب إذا قلنا لك أنك لاتقدر على فهم هذا القرآن العظيم لا أنت ولا أصحابك، لأنكم لستم من هؤلاء الراسخين في العلم، لذلك ﴿ فلا تمدن عينيك إلى ماامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

هاأني أنزلت لقارئي الكريم المعاني التي تخيلها الدكتور شحرور في تفسير الآية التي نحن بصددها، فهل شعر أحد من القراء بأي ارتباط كان مابين هذه المعاني، ومابين تسلسل سورة الحجر الموضوعي؟؟؟

وكنت قد ذكرت أن المؤمنين كانوا عند نزول هذه السورة مقبلين على مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية وهي الهجرة إلى المدينة وتأسيس دولة. فهل لما تخيّله الدكتور شحرور هذه أية علاقة بهذه المرحلة الحساسة من تاريخ الإسلام؟ ثم ماذا كانت هذه المعلومات تفيد الرسول ﷺ وصحابته إن كانت مجرد طلاسم بالنسبة لهم، ولايفهمها إلا "دارون" وأمثاله؟

فوا أسفاً على أن الدكتور شحرور أنه امضى قرابة عشرين عاماً على حدّ قوله، وقد اضاع هذه السنوات من عمره، ويحاول اقناع أمته أيضاً باخيلته التي لايدعمها منطق أو تسلسل موضوع، أو سندٌ صلب من لغة الضاد.

ما الذي حال بين الدكتور شحرور ومابين أن يطرح على نفسه سؤالاً وهو: لماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ سبعاً من المثاني﴾ ولم يقل ﴿ سبع مثاني﴾؟

ثم لماذا لم يطرح لنا الدكتور شحرور مثالين علميين احدهما من سبع المثاني وثانيهما من القرآن العظيم، ويوازن لنا بين أفضلية علمية الأولى على الثانية.

وأكثر من هذا وذاك لِمَ لَمْ ينظر الدكتور شحرور في موضوع إمكان انسجام معانيه المزعومة مع سباق الآية وسياقها ليؤكد لنا صحة مزاعمه؟

وتعالوا معي إلى ميزان آخر لتزنوا بواسطته ماجاء به الدكتور شحرور. فأنتم تعلمون أن سورة الزمر الآية (٢٣) وضعت لنا دليلاً وعياراً لتأثير الآيات (المثاني) فالله سبحانه وتعالى قال فيها: ﴿ الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشاباً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فماله من هاد.﴾ ففي قوله عز وجل [تقشعر منه جلود الذي يخشون ربهم ثم تلين جلودهم إلى ذكر الله] هذا الدليل وذاك المعيار الذي نميز بواسطته صحة معنى (مثاني) التي أرادها الله تعالى منها.

وإني اسأل قارئي العزيز أن يستذكر معاني (مثاني) كما بينها الدكتور شحرور، ويتحس جلد جسمه هل تقشعر من هذه المعاني ومن ثم تلين إلى ذكر الله؟ هل تؤثر فيه هذا الأثر "لزوميات" و "تخمينات" و "أصوات أهل سيشل" و "تمتمات أحسن الحديث" ؟؟؟ ألا إن هذا ميزان دليل وعيار توزن به هذه "القراءة المعاصرة" التي مزقت تسلسل سور كتاب الله الموضوعي، وفرقت معاني آياته وأفرغت نصوصه من معانيها ومحتواها، لتلبسها أفكاراً ومصطلحات "مسبقة الصنع". هذه "القراءة المعاصرة" التي سودت تاريخ أمتنا، وصورت عُظماء أجدادنا غاية في سذاجة الرأي وعجزه وسخفه لم يفهموا من القرآن العظيم إلا قشوراً وترهات. هذه "القراءة المعاصرة" التي لم تأتنا من مستشرق حاقد. بل جاءتنا وللأسف الشد يد من "عُصارة" أيدي أخ يعتنق الإسلام. من أيدي مهندس مدني ليس بحث آيات الله من ضمن اختصاصه المشهور به. ولكنه اختص سنوات طوال في دراسة الرياضيات وعلم الاستفادة منها في التعمير والبناء، جاءتنا من هذا الشخص الذي يدرك جيداً قيمة الاختصاص ودوره في العطاء، وهل نسي هذا الأخ المسلم ضرورة الاختصاص في اللغة العربية وعلوم الدين؟

الفصل الثالث

معنى كلمة نبوة ونبي
دراسة لغوية ونصوصيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث

مامعنى كلمة نبوة ونبي ؟

إذا أردنا الإحاطة بمعنى النبوة، وَجّب علينا فهم معنى كلمة «نبي» ولما كانت معاجم اللغة العربية هي مرجعنا في هذا المجال، وهي معاجم متكاملة في دلالاتها ومناهجها، فما كان يجوز لنا الاقتصار على معجم واحد منها.

وبالرجوع إلى جميع ماأوردته معاجم اللغة العربية بما يتعلق بكلمة «نبي»، ومصادر اشتقاقها، تبّين لنا أن اللغويين قد ذهبوا إلى إمكان اشتقاق هذه الكلمة من مصادر ثلاثة:

الأول - اشتقاقها من النبّو بمعنى الارتفاع والسّمو.

الثاني - اشتقاقها من النّبيء بمعني الطريق الواضح.

الثالث - واشتقاقها من النبأ وهو الخبر الصادق ذو الشأن العظيم.

وإننا لانرى مايمنع من الأخذ بهذه الاشتقاقات جميعها وفي آن واحد، وإن كان الاشتقاق الثالث جدير بالرعاية والعناية لسعة دلالته.

وعندما نعود إلى النصوص القرآنية، فإننا سنلاحظ أن جميع دلالات هذه الاشتقاقات قد اعتمدت فيها بصورة واضحة.

لنتناول اشتقاق كلمة «نبي» من مصدرها الأول وهو النبّو، فهي تدل على اكتساب مقام النبوة الروحي السامي والرفيع. الأمر الذي جعل صاحب هذا المقام يستحق عند بارئه لقب نبي.

وبألفاظ أخرى فإن هذا الاشتقاق متعلق بسيرة الشخص وأخلاقه لأنها الأساس لنيل هذا المقام الروحي السامي والرفيع، وإن مثال سيرة محمد بن عبد الله ﷺ قبل الرسالة لأكبر مثال يشرح هذا المعنى الذي يفيده هذا الاشتقاق.

ولنتناول اشتقاق كلمة «نبي» من مصدرها الثاني، وهو النبيء الذي يعني الطريق الواضح، فكلمة نبي من هذا المصدر تعني المنهج الحياتي الواضح الذي يسلكه كل شخص بلغ مقام النبوة. ويتلخص هذا المنهج بالإيمان بوجود خالق لهذا الكون. وبالسعي للتخلق بأخلاق هذا الخالق في الأرض، والمحافظة على إنسانية الإنسان وذلك بعدم مشابهة الأنعام وعدم اتباع الهوىٰ والشهوات والأطماع الشخصية. هذا المنهج الذي لابدّ من انتهاجه لبلوغ مقام النبوة السامي عند الله عز وجل، وبألفاظ أخرى فإن الأنبياء يمثلون في منهجيتهم طريقاً واضحاً في الحياة، والذي يراجع سيرة محمد قبل النبوة سيلاحظ حتماً معالم هذا الطريق الواضح الذي اختطه لحياته، وأبسط مايقال فيه هو أن محمداً كان ينزوي عن بقية شباب مكة، ليتعبد ربه في غار حراء. بينما كان بقية الشباب يلهون ويتفاخرون، ثم أن محمداً بعد أن تزوج خديجة، وهب عبيدها حريتهم دونما مقابل. ولم يتصرف بأموالها لإشباع اهوائه ونزواته، فعل هذا من منطلق قوة واقتدار، وهو الذي لم يوافق على الزواج من خديجة الثرية إلا بعد أن اشترط عليها أن تعطيه حق التصرف بأموالها، وفعلت ذلك.

ولنتناول اشتقاق كلمة «نبي» من مصدرها الثالث وهو النبأ، والذي يعني الخبر الصادق ذو الشأن العظيم، فكلمة «نبي» من هذا المصدر تشير إلى العلوم اللدنيه والأنباء اللّدنيه الهامة ذات الشأن العظيم التي يتلقاها الشخص الذي يبلغ مقام النبوة الروحي السامي.

ولقد نبهنا الراغب الاصفهاني في معجمه مفردات الراغب أن النبأ يعني الخبر ذا الفائدة العميمة، والذي يتحصل منه علم صادق حقيقي منزه عن الكذب والافتراء. كما نبهنا إلى أن لفظ نبي مشتق من النبأ ، لذلك يحتمل صاحبه احتواءه على العلوم الصادقة الحقيقية المنزهة عن الكذب والافتراء، والتي يتلقاها النبي من جانب ربه الذي شرفه بمقام النبوة ولقبها.

وإن مثال الكتاب والعلوم والأنباء الغيبية العظيمة الشأن التي تلقاها محمد بن عبد الله ﷺ لأكبر دليل يثبت صدق اشتقاق كلمة نبي من النبأ وبهذه المعاني المذكورة.

ويمكن تلخيص ماذكرناه من أن كلمة نبي لها اشتقاق من النبْو لتدل على السيرة الطاهرة التي أهلت صاحبها لبلوغ مقامٍ روحيٍ رفيع. ولها اشتقاق من النبيء، لتدل على المنهجية في حياة الشخص المذكور، وهو مايسمونه فَلْسَفَةُ الحياة. أي أن سيرته قبل النبوة

تتسم بخط فلسفي واضح لايتزعزع، ولها اشتقاق من النبأ. لتدل على الناحية العلمية والغيبية ومايتنزل على النبي من لدن ربه. وبالإمكان التلخيص أكثر بالقول أن كلمة نبي لقب يناله من الله عز وجل من تخلق باخلاق ربه القدوس على أساس من منهج حياتي واضح وفاز بتلقي بركاتِ مقام النبوةِ من علوم وأنباء غيبية عظيمة الشأن.

ونحن نضيف أن اجتماع هذه الأمور في شخص ما، وقد دلتنا عليها اشتقاقات كلمة نبي من النبّو والنبيء والنبأ، لاتكفينا لنطلق على هذا الشخص اسم «نبي»، وبالمفهوم الشرعي، مالم يخاطبه ربه في كلامه إليه بلقب نبي، ذلك لأننا لانعلم من الأمور إلاّ ظواهرها، لكن الله عز وجل هو المطلع على سرائر الأفئدة وخفاياها. لذلك فهو العليم المختص بمنح هذا اللقب أو عدم منحه إياه. ولابد من الإشارة هنا إلى أن كلمة «نبي» وردت صياغتها على وزن "فعيل" بمعنى فاعل. والذي نعلمه هو أن صيغة فعيل هذه ترد حين تدعو الحاجة إلى المبالغة في حقيقة شيء ما، كأن نقول (هذا عالم)، فإذا شئنا المبالغة في علمه نقول (هذا عليم) على صيغة "فعيل" وهذه الصياغة نلاحظها فيما وردت عليه اسماء الله الحسنى كعليم وسميع وبصير، وأن كلمة «نبي» وهي مصوغة على وزن "فعيل" تحثنا على الأخذ باشتقاقات هذه الكلمة من مصادرها الثلاثة، مؤكدة احتواء هذه الكلمة على جميع معطيات هذه المصادر المعنوية، أضف إلى ذلك أنها تؤكد لنا كمال معنى كل اشتقاق أيضاً، أي أنه لايستحق لقب نبي إلا من اتصف بكمال قداسة السيرة قبل الدعوة. وبكمال المنهج الحياتي، وبكمال المقام الروحي، وبكمال المكالمة مع ربه أي مكالمة ربه إياه وَحْياً، ومن وراء حجاب، وعن طريق ملك من ملائكة الله تعالى، هذه الطرق الثلاثة التي نص عليها قوله عز وجل ﴿ماكان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء﴾. ولاننس هنا أنه لايوجد تعريف آخر لكلمة «نبي» في تاريخ الإسلام، داخل كتب اللغويين، وخارجها، أشمل وأعم، وأصح، مما بينته من تعريف لكلمة «نبي» حتى الآن. وهو أن كلمة «نبي» تعني أنّ شخصاً ماحاز على:

١- مقام روحي رفيع كثمرة لسيرته المقدسة قبل النبوة.

٢- فلسفة للحياة متكاملة وواضحة قبل النبوة.

٣- علوم وأنباء غيبية عظيمة الشأن والأهمية بعد النبوة.

٤- وخاطبه ربه بلقب «نبي».

وعلينا ألاّ ننس أيضاً في هذا المقام أنّها لم تكن هناك من فلسفة حياتيه منذ وجود البشر إلا فلسفتان: الأولى فلسفة روحية ترتكز على فلسفة وجود خالق لهذا الكون، والثانية فلسفة مادية، ترتكز على أزلية المادة وعدم وجود خالق قد أوجدها، وأن سلسلة أنبياء الله الكرام يمثلون فئة الفلاسفة الروحيين التجريبيين، ولم يذكر لنا التاريخ أي نبي شذّ عن هذا الطريق الواضح إطلاقاً، بينما اختلف الفلاسفة الماديون في كل أجزاء فلسفتهم، وكانت المادية التاريخية التي يمثلها المعسكر الاشتراكي آخر هذه الفلسفات المادية والتي زعمت أنها تفلسفت بما هو أصح النظريات المادية من بين جميع من ظهر من الفلاسفة الماديين حتى اليوم.

توافق القرآن واللغة في معنى نبوة ونبي

ونتيجةً لتدبرنا كتاب الله، وجدنا توافقاً عجيباً بينهما.

فالله سبحانه وتعالى خاطب محمداً ﷺ بلقب نبي في سورٍ عديدةٍ من كتابه الذي أنزله على قلبه. في سورة الأنفال: ﴿ ياأيها النبي..﴾، وفي سورة الاحزاب: ﴿ياأيها النبي..﴾، وفي سورة التوبة: ﴿ ياأيها النبي...﴾، ويكون القرآن الكريم قد استوفى شرط مخاطبته بلقب نبي.

وحينما قال تعالى: ﴿فلايظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول﴾ يكون قد أخذ بشرط تلقي النبي علوماً وأنباءً غيبية ذات شأن كبير وبكثرة واضحة، وهذا الأمر دلّ عليه قوله: ﴿ لايظهر على غيبه..﴾ فالإظهار يعني الكثرة الظاهرة، وعندما نقول (ظهر الشيء) نعني بدا بكليته للعيان وبجميع أجزائه، ولايعني قوله تعالى [ظهر الفساد في البر والبحر..] إلاّ عم الفساد وغلب على أعمال الناس، ومنه ندرك أن قوله تعالى [لايُظهر على غيبه أحداً..] أي لايطلع على أمور غيبه بكثرة واضحة [إلا من ارتضى من رسول..] أي من استحق لقب نبي وتقرر تكليفه برسالة سماوية، هذا لأن مجرد اطلاع رجل صالح على أمور غيبية معينة ومعدودة يحدث للصالحين من عباد الله، إنما لايستحقون معها لقب «نبي» لأنها لاتدخل في باب الإظهار وهو الكثرة والغلبة، إذ أن مغيبات الأنبياء تختلف عن مغيبات سواهم كمّاً ونوعاً.

والقرآن الكريم اشترط قداسة سيرة من استحق اسم نبي حينما قال على لسان محمد في القرآن الكريم ﴿ فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون.﴾ ففي هذا النص تنبيه للأذهان إلى استيفاء شخصية محمد رسول الله عنصر قداسة السيرة قبل النبوة، حتى سماه

قومه "بالصادق الأمين" وماقول قوم صالح عليه السلام [لقد كنت مرجوّاً فينا] إلا اعتراف منهم بقداسة سيرة النبي صالح قبل أن آتاه النبوة، وحاز هو وجميع أنبياء الله الكرام مقام النبوة الروحي الرفيع.

كما أن القرآن الكريم اتفق مع اللغويين بأن جميع الأنبياء كانوا قبل نبوتهم ملتزمين بلفسفة حياتية واحدة، وكان نهجهم واضحاً وكان طريقهم مختلفاً مختلفاً عن فلسفات الماديين، فقد كان جميع الأنبياء قبل نيلهم مقام النبوة يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون، وأن المقصد من خلقهم أن يصبحوا عباداً للرحمان، وأن الإنسان يُحاسب على أعماله من بعد موته، حتى وكان كل واحد منهم يطبق ماوصل إليه من تعاليم سماوية سابقة لوجوده.

هناك من زعم غير هذا، مستدلاً علي زعمه بقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ وبقوله تعالى: ﴿ ماكنت تدري ماالكتاب وماالإيمان﴾. وزعمه هذا يضرب القرآن بعضه ببعض، ومادام الله تعالى قد قال عن رسوله محمد ﷺ ﴿ماضل صاحبكم وماغوى﴾، فلايجوز لنا والحال هذه أن نفسر قوله [ضالاً] بمعنى غير مُهتدي، بل يقصد من قوله [ضالاً] هنا مندفعاً بكليتك للاتصال بربك ومعرفته إذ يقال: هذا ضال في محبة فلانة أي مندفع بكليته للقائها والتعرف إليها، ثم إن قوله تعالى ﴿ماكنت تدري ما الكتاب وما الإيمان﴾ لاينفي ماذكرناه لأ القرآن ورسالته لم يكن رسول الله قد تلقاها قبل فوزه بمقام النبوة الرفيع.

وهكذا يتبين لنا مما ذكرناه من الشواهد القرآنية وجود توافق تام بين اللغة والقرآن الكريم فيما يتعلق بمعاني كلمة نبي المشتقة من مصادرها الثلاثة والتي ذكرناها سابقاً، وعلى ضوء هذا كله فإن النبوة أيضاً تحمل نفس عناصر كلمة نبي ومعانيها.

لاتتهافت هذه المعاني بميزان العقل والمنطق

وإننا بعد أن رأينا توافق اللغة والقرآن في موضوع معاني كلمة نبي، ننظر إليها بميزان العقل والمنطق، فنراها لاتتهافت بل تعظم في أعيننا، ونرى ضرورة اجتماعها في شخص من توسد إليه مهمة رسالة سماوية هامة تضطلع بدورٍ كبيرٍ جداً في تغيير مسار تاريخ الشعوب.

وبمنظار العقل والمنطق يرى المرء أنه لابد من اجتماع هذه الأمور الأربعة التي قررتها اللغة العربية لكلمة نبي في شخص من استحق مقام النبوة السامي، فلا يعقل أن تكون سيرته فاسدة ومن ثم يستحق نيل قرب الله القدوس، ولايعقل أن يكون في سيرته غير

متقيد بفلسفة محددة روحية ومنهجية واضحة توصله إلى لقاء الله وقربه، ولايعقل أن يحوز مقام القرب الإلهي ولايكلمه ربه ولايطلعه على مغيبات الأمور، كما لايعقل أن يكلمه ربه ويفوز بمقام قربه ولايمنحه لقب نبي في خطابه إياه.

وهذه الأمور الأربعة التي يقتضيها العقل تتفق والمنطق السليم أيضاً، فمن المنطق أن يثبت الله عز وجل وجوده بفضل أمثال هؤلاء الأنبياء، كما يثبت عظمة مايحمله من أسماء حسنى. فالمندوب والسفير والرسول يأتي على مستوى من انتدبه وجعله سفيراً ورسولاً.

التشريع من خصوصيات النبوة وليس من مستلزماتها

وبإمكاننا القول، بعد جميع ماعرفناه عن معاني كلمة نبي، إن التشريع لايدخل في هذه المعاني بحال من الأموال، فليس هو من مستلزمات النبوة ولكنه من خصوصياتها، بمعنى أن لله تعالى أن يَخُصّ أحد أنبيائه بتشريع معين ينسخ بواسطته تشريعاً سابقاً، وليس بضروري أن يكون كل نبي مخصوصاً بشرع سماوي.

إن النبوة بمفهومها المطلق، شبيهة بمفهوم المعلم خريج دار المعلمين والذي أصبح يحمل أهلية التعليم، فمن غير الضروري أن يكون هذا المعلم مختصاً بتدريس مادة معينة كالحساب مثلاً. وإن تخصص هذا المعلم يكون لاحقاً لأهلية التعليم وليس من صلبها.

وإن من زعم أن التشريع من مستلزمات النبوة، يتناسى أن أكثر أنبياء بني اسرائيل آتاهم الله النبوة دون تشريع. وكانت مهمتهم مقتصرة على تجديد شريعة موسى عليه السلام، نص على هذا الشيء قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا﴾، فهذه نصوص قرآنية تنقض زعم من قال بالتلازم مابين النبوة والتشريع.

فمن خلال هذه النصوص القرآنية ندرك الفرق مابين مستلزمات النبوة ومابين التشريع الذي لايعتبر من مستلزماتها بل من خصوصياتها. إن النبوة تعني هذا الإطار الذي يحتوي على أربعة أمور. بيّنها اللغويون،وأقرها القرآن الكريم، وماكان من بينها الإتيان بشريعة سماوية.

والنبوة لاتكتمل إلا بهده الأمور الأربعة، فإذا نقصت واحدة منها لاتكون هناك نبوية أما إن توفرت هذه الأمور الأربعة، ولم ينزل مع النبي تشريع، فلا تَنْتَقِصُ نبوة هذا النبي.

ثم إن الإنسان لايعثر على نبي واحد من خلال تاريخ الأنبياء لم يكن متوفراً في شخصه هذه الأمور الأربعة التي حددتها اللغة العربية لكلمة نبي، بينما يعثر على أسماء عشرات الأنبياء ممن لم تنزل عليهم شريعة سماوية، ولاكانوا مشرعين بل تابعين.

وبكلمة مختصرة فإن النبي هو إنسان قد بلغ ذروة الهرم الروحي في عصره، وعلّمه الله من علمه، وأظهره على كثير من أنباء غيبه، وشرفه بلقب نبي، فإذا شاء الله تعالى أنزل معه شريعة وجعله نبياً مشرعاً، وإن شاء أمره باتباع شرع نبي سابق.

على هذه الصورة ندرك الفرق مابين مستلزمات النبوة التي حددتها اللغة العربية، وأقرها القرآن الكريم. كما ندرك خصوصيات النبوة التي هي من قبيل اختصاص أي نبي، على شاكله معلم المدرسة فهو يُسمى مَعَلَّماً لحصوله على شهادة أهلية التعليم، وبعدها يختص إما بتعليم الحساب فيسمى معلم حساب، أو لغة فيسمى معلم لغة، وسوى ذلك من الاختصاصات.

كل نبي فهو رسول، وكل رسول فهو نبي

وهناك من يفرق بين النبي والرسول ودرجتهما ومهمتهما، وإن الذي فهمناه من كتاب الله القرآن الكريم يختلف عن ذلك، عرفنا أن النبي والرسول اسمان لشخصية روحية واحدة دون أي تفريق لا في الدرجة ولا في المهمة.

سُمّي النبي نبياً نظراً إلى توفر الأمور الأربعة التي أتينا على شرحها سابقاً، فهو نبي بالنسبة إلى ربه وصلته به، وسُمّي النبي نفسه رسولاً بالنظر إلى مهمته تجاه بني جنسه، فالتسمية نسبية ليس إلاّ.

وعليه كل نبي رسول، وكل رسول لايكون رسولاً إلا إذا كان نبياً، وإن نفس خصوصيات النبي هي نفس خصوصيات الرسول، لكونهما اسمان لشخصية واحدة يقيناً.

يؤكد مفهومنا هذا نصوص قرآنية واضحة الدلالة، فقد قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن وأصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده.. رسلاً مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيما﴾ ، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾.

في آية سورة الأنعام حدد مهمة الرسل أنهم مبشرون ومنذرون، وفي سورة البقرة حدد مهمة النبيين أنهم مبشرون ومنذرون أيضاً. ومادامت المهمة واحدة، فلا يعود هناك من فرق بين نبي ورسول، وإن الفرق في التسمية جاء كما قلت من حيث العلاقة والنسبة.

وضع اسم النبي من حيث علاقته بالله تعالى وسُمّي النبي رسولاً، من حيث علاقته بالناس وقيامه بتبليغهم ماأنزل عليه من ربه، لذلك فالنبي بوصفه مقرباً من الله هو مبشر ومنذر، والنبي هو رسول مبشر ونذير بحكم كونه مكلفاً بهذا التبشير والانذار.

وإن ماورد في آية سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ فَلأنَّ موضوع الآية جاء عاماً، ولينبه بأن انزال الكتاب من خصوصيات النبوة، وليس من مستلزماتها، فهي مهمةٌ مُضافة إلى مهمة التبشير والانذار.

والدليل على ماذكرت هو أن الكتب المعروفة أربعة، وهو تعالى قد قال في الآية [وأنزل معهم الكتاب] فهل أنزل الله مع لوط أو صالح أو شعيب أو سليمان على سبيل المثال كتاباً سماوياً مع كل واحد من هؤلاء الأنبياء؟ الجواب، كما هو مسلّم به، كلا. ومادام الجواب نفياً، وكان موضوع الآية عاماً، فلايكون المراد إلا التنبيه إلى خصويات النبوة ليس إلا. بمعني أن مقتضيات الزمان والمكان تقضي بإنزال شرائع بين الفترة والفترة مع أحد هؤلاء الأنبياء والمرسلين، إضافة لكونهم مبشرين ومنذرين.

والمعروف أن التبشير والانذار لايستلزم أن يحمل المبشر والمنذر كتاباً معيناً، بل يبشر وينذر الناس ليعملوا على كتاب سابق مُنزل.

أقسام النبوة

والأنبياء أصلاً لايستعمل لهم لفظ نبي مجرداً . بل نقول أن موسى ومحمد نبيان مشرّعان تنبيهاً إلى خصوصيتهما بحمل رسالة تشريعية. ونقول إن الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى في بني إسرائيل ما بين بعثتي موسى وعيسى كانوا أنبياء غير مشرعين بل تابعين لقوله تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾. المائدة ٤٤

من هذا يتبين أن النبوة أقسام. منها نبوة تشريع ومنها نبوة اتباع. ولقد كانت النبوة تتصف بالاستقلالية. بمعنى أنه لم يكن هناك شرط في التوراة مثلاً ينص على أن العمل على تعاليم موسى يوصل صاحبه إلى مقام النبوة.

وجاء الإسلام مضيفاً هذا الشرط من منطلق كمال التعاليم التي جاء بها الإسلام، وإلى هذا الشرط اشار دعاء الفاتحة [اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين انعمت عليهم] بمعنى خذ بايدينا لبلوغ المقامات التي حصل عليها الذين أنعمت عليهم، ولقد فسّر القرآن حقيقة الذين انعمت عليهم بقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً ﴾ النساء ٦٩ موضحاً أن المنعم عليهم هم أصحاب مقامات روحية أربعة هي النبوة والصديقية والشهادة والصلاح، فمن عمل على تعاليم الإسلام حق العمل ظاهراً وباطناً، فلابد أن يفوز بمقام روحي من هذه المقامات الأربعة المذكورة.

وإن اشتراط الإسلام هذا الشرط، هو من بين أدلة كماله كما قلت، ذلك أن نبوة محمد رسول الله امتازت بهذا العطاء الروحي، وكانت من العظمة بمكان لم يبلغه أي نبي من أنبياء الله الكرام.

الفصل الرابع

بُطلان مصطلح

"الذكّر"

الذي ورد في "القراءة المعاصرة"

بسم الله الرحمن الرحيم

بطلان مُصطلح
"الذكر"
الذي اصطلحته "القراءة المعاصرة"

وطلعت علينا "القراءة المعاصرة" للدكتور شحرور بمصطلح ومفهوم خاص لكلمة "الذكر". خالف فيها صاحبها مفهوم هذا اللفظ من حيث اللغة، ومن حيث النصوص القرآنية.

فما وصلنا بطريق التواتر واجتهادات جميع أئمة الدين الإسلامي، وجميع المسلمين. هو أن كلمة "الذكر" إنما هي إسم وصفي من أسماء المصحف الشريف. ذلك على اعتبار أن الله سبحانه وتعالى، سمّى كتابه العظيم، الذي أنزله على رسوله محمد خاتم النبيين، بعدّة أسماء وصفية. لاستحقاق كتابه الكريم لأن يُسمّى بهذه الأسماء التي يستحق أن يوصف بها. وهي الكتاب، القرآن، الفرقان، والذكر الحكيم.

وإن من حقّ كل كاتب أن يطلق على مؤلفه مايرى من الأسماء الوصفية التي يستحقها مُؤلّفة. وإن تقرير مدى صحتها، يعود إلى مايحتويه مؤلفه من علوم وحقائق تتناسب والأسماء الوصفية الموضوعة.

والذي يتدارس أبعاد معاني أسماء كتاب الله الوصفية، ومنها الذكر، على ضوء ماقدمه اللغويون، وعلى ضوء ماتضمنه نفس المصحف الشريف، يوقن، لامحالة، أن ربنا كان في منتهى الحكمة، حينما وضع لكتابه العظيم هذه الأسماء الوصفية، سواءً من حيث منطلقاتها اللغوية أم من حيث كنوز المعارف والعلوم التي تقابلها فيه. وهذا أمر يثبت عن طريق الاستدلال العلمي.

وظاهرة وضع أسماء وصفية، هي ظاهرة طبيعية جداً، وما أسماء الله الحسنى إلاّ من هذا القبيل. حتى إن الله عز وجل أطلق على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ أيضاً عدة أسماء وصفية، يعرفها كل مسلم يتلو ويتدبر كتاب الله، آناء الليل وآناء النهار. فكلّنا يعلم

أن مُحمداً سُمّي بنص القرآن الكريم، إلى جانب اسمه الحقيقي، محموداً وأحمد، وطه، وياسين.

ولما كان لكل لفظ في اللغة العربية أكثر من معنى واحد. وكان من واجب كل متدارس لكتاب الله أن يُلم بتلك المعاني جميعها. حتى يمكنه ذلك من استيعاب معنى كل آية كريمة ورد فيها أحد أسماء الكتاب الوصفية على ضوء معنى يتناسب وسباقها وسياقها. فقد كان من أول واجبات صاحب "القراءة المعاصرة" أن يتقدم بدراسة لغوية متعلقة بكلمة "الذكر" مفصلاً فيها جميع معاني هذا اللفظ، ومن جميع المراجع اللغوية. لا أن يكتفي بمرجع واحد منها، وبمعنى وحيد لكلمة "الذكر"، وليعممه على جميع آيات الذكر الحكيم. ودونما مبرر أو مسوغ أو ليزعم بعد هذا التقصير أنه جاء بقراءة معاصرة للمصحف الشريف. وأنه يريد من ورائها وجه الله فقط.

أجل درج بعض أصحاب الغرض من المستشرقين، وسواهم، على الأسلوب الذي لاحظناه في "القراءة المعاصرة" للدكتور محمد شحرور. لكنهم كانوا رجالاً كانوا متعصبين أعماهم تعصبهم وحقدهم على الإسلام وكتابه، فأوقعهم هذا في الأخذ بأسلوب الدكتور شحرور. أما الدكتور المهندس فهو مسلم ومن عائلة مسلمة، لذلك استوقف اسلوبه نظرنا فكان استغرابنا، وحذرنا، وتألمنا من جرّاء ذلك. وهذا مادفعنا لنقض ما اصطلحه ظُلماً وعدواناً.

لم يقدّم الدكتور شحرور حول كلمة "ذكر" أي دراسة، فقد جاء كل ماكتبه في هذا المجال، ص ٦٢ (الذكر هو تحوّل القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي.) وقبل أن ينهي موضوع مصطلح الذكر كتب أيضاً ص ٦٤ (وعلينا أن ننوه أن فعل "ذكر" له معان أخرى منها التذكر، ضد النسيان كقوله [أفلا تذكرون] ومنه جاءت الذاكرة والمذاكرة).

وتلاحظون من خلال هذين النّصّين، أنّه أعطى لكلمة "الذكر" الواردة في كتاب الله معنى وحيداً، شاء أن يلزمنا به، من دون تقديم أي دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد قصر استعمال هذا اللفظ على المعنى الوحيد، في جميع آيات كتابه. ولاشك أن هذا الاتجاه في البحث، يعتبر دليلاً غير صحّي البتّة، ولايصدر إلا عن شخص يحمل أفكاراً "مسبقة الصنع" يريد تحريرها، وماهو إلا اسلوب تنجيم.

وإننا إذا رجعنا إلى معاجم اللغويين نلاحظ أنهم اعطوا الذكر معنى التفوه بالشيء، لكنهم اضافوا معاني كثيرة أخرى. فقد جاء أن الذكر معناه حفظ الشيء، والصيت

والثناء، والشرف، والدعاء، والصلاه لله تعالى، والنصح والتذكير. وهل يُعقل أن تكون لكلمة "الذكر" هذه المعاني جميعها، ويهمل كتاب الله هذه المعاني جميعها، ويقتصر منها على معنى أو معنيين. وهو كتاب تحدى العرب في جميع الفنون اللغوية. وأن التفن في استعمال اللفظ الواحد، بجميع معانيه هو أحد هذه التحديات؟

والذي يتابع نقضي هذا لمصطلح "الذكر" كما أورده الدكتور شحرور، ستتجلى له عظمة القرآن المجيد من خلال تفننه سبحانه وتعالى في الأخذ بجميع معاني كلمة "ذكر"، وفي مختلف المقامات، لذلك اترك أمر شرح ذلك على أوقاته. وأبدأ بالرد من حيث بدأ صاحب القراءة المعاصرة نفسه فأقول:

إن الدكتور شحرور ابتدأ مُصطلحه هذا بالتساؤل: ماهو الذكر؟ ص ٦١.

وبدلاً من أن يجيب بنفسه إجابة مباشرة. وبدلا من أن يلتزم بأمر الله عز وجل [وقولوا قولاً سديداً.]، حاول إيهام القارىء أن تقسيمه الذي سبق أن نقضناه في الجزء الأول، وهو تقسيمه المصحف الشريف إلى كتاب وقرآن. أقول حاول إيهام القارىء أن كلمة "الذكر" ماهي إلا صفة خاصة بالقرآن، من دون الكتاب. قام بهذه المحاولة ليربط مابين مصطلحه السابق الذي ثبت فساده باللاّحق الذي سنثبت بطلانه أيضاً بعون الله تعالى.

وتتساءلون عن محاولته، وكيفيه طرحه اياها. فاعلموا أنه كتب (لنرجع إلى قوله تعالى [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.] الحجر ٩، [وقالوا ياأيها الذي نُزّل عليه الذكّر إنك لمجنون.] الحجر ٦ ، [ص والقرآن ذي الذكر.] ص ١، فإذا أخذنا لفظة الذكر في الآيتين ٦-٩ في سورة الحجر، لوجدنا أنها جاءت مُعرّفة بـ "أل التعريف". وإذا نظرنا إلى لفظة الذكر في الآية (١) من سورة (ص) لوجدناها أيضاً مُعرّفة بأل التعريف. وإذا نظرنا إلى الربط بين القرآن والذكر في سورة (ص) لوجدناهما مربوطين بأداة "ذي" وهذه الأداة تستعمل للدلالة على صفة الشيء، لا على الشيء نفسه كقوله تعالى:

[وفرعون ذي الأوتاد] الفجر ١٠ - وقوله [ويسألونك عن ذي القرنين] الكهف ٨٣. ففرعون شيء والأوتاد شيء آخر. والآية تعني أن فرعون صاحب الأوتاد، وكقوله [أن كان ذا مالٍ وبنين] القلم ١٤- أي صاحب مال - فالقرآن هنا هو الموصوف. والذّكر هو الصفة [والقرآن ذي الذكر] أي القرآن صاحب الذكر، فما هي هذه الصفة الخاصة بالقرآن والتي تُسمى "الذكر"؟).

إن في هذا النص، الذي جاء على طريقة البحث العلمي. فيه محاولة إيهام بما ذكرته. وهو أن المصحف ينقسم إلى كتاب وقرآن. وأن "الذكر" صفة خاصة بالقرآن. لذلك تساءل هو في آخر ماكتب: (فماهي هذه الصفة الخاصة بالقرآن والتي تسمى "الذكر"؟).

والسؤال المطروح هو لماذا حاول هذه المحاولة؟ وهل قدم عليها دليلاً مُقنعاً؟

وإننا إذا تفحصنا هذا النص نراه لفت انظارنا إلى (أل التعريف) وإلى الأداة (ذى) وأنها تدل على صفة الشيء، لا على الشيء نفسه. وأن القرآن في قوله تعالى [ص والقرآن ذي الذكر] هو الموصوف، وأن الذكر هي الصفة للقرآن.

ونعلم أن أداة التعريف (أل) لها ثلاثة أنواع. فلم يبحث في هذه الأنواع، ولاعّين لنا النوع المستعمل في هذه الآيات الثلاث. وبأسلوب تقديم الدليل عليه. ومن جهة ثانية أراد أن يعممّ "صفة الذكر" التي استدل عليها بآية [ص والقرآن ذي الذكر] على بقية الآيات الوارد فيها كلمة الذكر غير مسبوقة بالأداة (ذي). وفَعَلَ مثل هذا أيضاً من دون البرهنة على صحة ماحاول إيهامنا بصحته. هذه النقائص تعني بالفاظ أخرى أن أسلوب الدكتور شحرور يرتكز إلى التنجيم، وليس هو بالأسلوب العلمي.

وإنني، سبق أن كنت قد أثبت أنّ (القرآن) هو إسم وصفي لكتاب الله عز وجل. كما كنت قد اثبت أن هذا الأسم الوصفي موضوع للمصحف الشريف بكامله، وليس لقسم منه، وتكون آية [ص والقرآن ذي الذكر] فيها الدلالة على جميع المصحف بكامله. ولاتكون بذلك الأداة (ذى) خاصة بالقرآن على أنه جزء منه. ويثبت من ذلك أن "الذكر" هو صفة أو اسم وصفي للمصحف الشريف بكامله لا لجزء منه، هذه النتيجة من باب اللازم والملزوم، المهم أن محاولة إيهامه إيّانا لم تكن ناجحة أو بارعة.

ولا اكتفي بهذا. بل سأثبت بأسلوب آخر أن محاولته المذكورة فاشلة وباطلة، لم تصدر عن علم راسخ وذلك بطرح معنى آية سورة (ص) على ضوء سباقها وسياقها. هذا الأسلوب الذي التزمت به في جميع ما أوردته من نقض لمصطلحات القراءة المعاصرة في الجزء الأول من الكتاب، والذي التزم به دوماً.

إن سورة (ص) نزلت في مكة. وعندما نقول انها سورة مكية النزول، ينبغي أن يذهب فكرنا فوراً إلى حالة الاضطهاد التي كان يُعاني منها محمد رسول الله وأصحابه المؤمنون، أولئك الذين كانوا يترقبون فرج ربهم ونصرته والفتح العظيم. الأمر الذي يلزمنا بالانتباه

إلى البشارات والنبوءات التي كانت تحتويها السور النازلة في مكة، ذلك على اعتبار أن ترتيب النزول، غير ترتيب التلاوة، وكان له هذه الحكمة العظيمة أيضاً.

وإننا نتناول الآية التي افتتح الله عز وجل بها سورة (ص) وهي قوله عز وجل ﴿ ص والقرآن ذي الذكر﴾، وهي الآية التي استدل منها الدكتور شحرور على مصطلح "الذكر" المزعوم، فإذا أمعنا نظرنا في صياغتها، أدركنا أنها احتوت على ادعاء ودليل صدق هذا الادعاء، وقد ورد الإدعاء مختزلاً، بينما ورد الدليل باسلوب انشائي، (ص) تعني صادق، فهي مختزلة من هذه الصفة الإلهية. فمن هو الصادق؟ هو الله الصادق. وماهو دليل هذا الإدعاء؟ الدليل جاء على صورة القسم [والقرآن ذي الذكر] ونعلم أن الواو هنا هي واو القسم. كما نعلم أن القسم يعني تقديم شهادة على موجبية أمر من الأمور. والنتيجة الحاصلة هي أن الله تعالى قدم كتابه العظيم كشهادة في مجال كونه صادقاً، هذا الكتاب الذي استحق أن يوصف باسمين وصفيين بارزين هما: القرآن والذكر. ولما لم يكن قد اكتمل نزول الكتاب بعد، فقد تضمن الاسم الوصفي الأول "القرآن" هنا بشارة على أن هذا الكتاب سيكتمل نزول جميع آياته وسوره، ويصبح قرآناً، أي مقروءاً من الناس على مستوى واسع، كما أن الاسم الوصفي الثاني [ذي الذكر] ينبغي أن يكون قد تضمن بشارة ثانية وهي أن هذا الكتاب سينال شهرة واسعة ويكون اساس عزة المؤمنين. فباكتمال تحقق هاتين البشارتين العظيمتين، يتحقق كون الله صادقاً. وهذا هو السر في ورود كلمتي القرآن، والذكر، معرفتين بالألف واللام، فالتعريف (بأل التعريف) هنا هو معهود ذهني، وهو الآيات التي توالى نزولها في مكة المكرمة لتؤلف كتاباً عظيماً هو هذا المعهود الذهني، فالآية تعني باختصار أنا الله الصادق، والذي ستستدلون به على كوني صادقاً بصورة يقينيه عند اكتمال هذا الكتاب ليصبح متداولاً ومقروءاً وأساس شهرتكم وعزتكم وعبادتكم، فهذه بشارة أزفها إليكم أيها المؤمنون الصابرون على اضطهاد مكذبيكم، فاحفظوا ماينزل إليكم لأنه سيصبح قرآنا وصاحب الذكر أيضاً.

لابد لاحظتم أني أخذت من معاني الذكر الصيت والثناء والشرف والدعاء. وحتى توقنوا أن المراد هو هذه المعاني بالذات لكلمة "الذكر" في هذه الآية الكريمة. هيا امعنوا النظر في سياقها. أي في الآيات التي بعدها، فهي تؤيد هذا الاتجاه، وتنفي أن يكون المراد "ذي الذكر" (الصيغة اللغوية الإنسانية المنطوقة بلسان عربي) كما ذهب إلى ذلك الدكتور

شحرور، فلا علاقة لهذا المعنى هنا بهذه الآية بشكل من الأشكال. فقد قال تعالى بعدها مباشرة ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ أي في استكبار وشقاق واختلاف بينهم، فما هو سر استكبارهم؟ وماهو سبب اختلافهم؟ بيّنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيءٌ عُجاب.﴾ فاستكبروا على محمد رسول الله وكفروا بما أنزل عليه. وراح سبحانه يصف ردة فعل استكبارهم ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يُراد. ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلاّ اختلاق﴾ فلم يستكبروا فقط، بل اختلفوا أيضاً [وشقاق]. ولفت سبحانه وتعالى انظارنا إلى سبب اختلافهم وهو قولهم ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي أيستحق محمد زعامتنا؟ أجاب سبحانه ﴿بل هم في شكّ من ذكري﴾ أي أن استكبارهم اعمى أبصارهم عن آيات الكتاب الذي نزل معه، فهم تعاموا عمّا في آياته من تعاليم وأحكام راقية جداً والتي إذا ماطُبقت كانت أساس عزتهم وشهرتهم وعبادتهم. وأضاف سبحانه وتعالى قوله ﴿بل لمّا يذوقوا عذابِ﴾ بمعنى أن ما أمدّ في استكبارهم وشقاقهم هو تأجيلي موضوع معاقبتهم لما بعد هجرة رسولي من بينهم. فلا يعقل أن أعذبهم وهو مايزال بينهم. وانتقل سبحانه وتعالى إلى ناحية أخرى في الدفاع عن كتابه واصطفائه لرسوله قائلاً ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ أي أن الله العزيز المنيع هو الوهاب، يهب فضله من يشاء، وهو أدرى أين يضع فضله ورسالته. والتفت سبحانه مهدداً إياهم بقوله ﴿أم لهم مُلك السماوات والأرض ومابينهما، فليرتقوا في الأسباب﴾ أي إن كانوا هم المالكين فهيا فليأخذوا بما استطاعوا أخذه من الأسباب للقضاء على رسولنا، والوقوف في وجه تحقق بشاراتنا المتعلقة بكتابنا من أنه سيصبح مقروءاً وأساس عزة المؤمنين وشهرتهم وعبادتهم. وهددهم سبحانه وتعالى قائلاً ﴿جُندٌ مّا هُنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾ أي ليكن في علم هؤلاء المستكبرين، والمختلفين فيما بينهم، والذين تجمعوا بالرغم من اختلافاتهم للكيد لرسولنا وكتابنا.

ليكن في علم هذه الشراذم [ماهنالك] أنهم ستلحق بهم الهزيمة لامحالة [مهزومٌ من الأحزاب]. وتابع سبحانه وتعالى يذكرهم بحال من قبلهم ومن كان على شاكلتهم، والمصير الأسود الذي آلوا إليه/

هذا هو سياق آية (ص والقرآن ذي الذكر). فما هي علاقة (الصيغة اللغوية الإنسانية المنطوقة بلسان عربي) وما مناسبة هذا المعنى أيها الاستاذ المهندس؟

وإن سورة الصافات تؤلف سباق هذه الآية الكريمة، وقد ابتدأت بالقسم أيضاً، بتقديم صحابة رسول الله شهادة على أمرين هامين: أولهما [فالزاجرات زجراً] أي الصحابة الذين نهضوا في وجه الظلم الاجتماعي ومفاسده ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف، وثانيهما [فالتاليات ذكراً] أي الصحابة الذين يتداولون ويحفظون هذه الآيات التي تقدم الدواء الناجع للخلاص من الظلم الاجتماعي ومفاسده، هذا التعليم الدائر حول التوحيد ووحدانية الله ووحدة الوجود الطبيعي [إن الهكم لواحد، رب السموات والأرض ومابينهما ورب المشارق] وأنّه وراء تطور هذا الكون لأنه هو ربه.

وعليه يكون قد ورد لفظ "الذكر" في مستهل سورة الصافات إذن، بمعنى الصيت والشرف والنصح والتذكير أيضاً، فقوله [ص والقرآن ذي الذكر] وقوله [إنه لذكر لك ولقومك] من سورة الزخرف أي شرف لك ولقومك، وقد جاء في النهاية لابن الأثير: والذكر الشرف والفخر ومنه الحديث في صفة القرآن: وهو الذكر الحكيم أي الشرف الحكم العاري من الاختلاف. وعليه يكون قد ثبت بطلان المعنى الذي أخذ به الدكتور شحرور بصورة قاطعة. فلم يكن الكلام لا في سورة (ص) ولا في سورة الصافات عن (الصيغة اللغوية الإنسانية المنطوقة بلسان عربي). بل كان الكلام عن كتاب الله وآياته على أنه مستحق للأسم الوصفي "ذي الذكر" لأنه من حيث مضامينه هو أساس شرف وصيت وشهرة المؤمنين به، وتعبدهم به في صلواتهم.

وتأكيداً من الله عز وجل على أنه قصد هذه المعاني التي ذكرناها من صفة الذكر التي وصف بها كتابه العظيم. فهو سبحانه أنهى سورة (ص) بقوله ﴿ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين، ولتعلَمُنَّ نبأه بعد حين﴾ بمعنى أن كتابي العظيم هذا الذي تتنزل آياته في مكة. تحمل تعاليمه صفة العالمية فهو لم أنزله لإصلاح مجتمعكم وحدكم، بل أنزلته [ذكر للعالمين] لإصلاح جميع الناس أينما كانوا، وفي أي زمان تواجدوا فيه. كما أكدّ سبحانه مضمون البشارة والنبوءة بقوله ﴿ ولتعلَمُنَّ نبأه بعد حين﴾.

وهاهو الدكتور شحرور قد علم أيضاً بتحقق هذه البشارة وتلك النبوءة. لكنه بدلاً من أن يتدبر هذا الكتاب العظيم، ويعطي آياته معانيها الحقيقية. فقد صدف عن ذلك ليأتينا

بمعاني وأفكار "مسبقة الصنع"، وكأنه يلقي علينا درساً من منطلق كونه مهندساً مختصاً.

على هذه الصورة نكون قد نجونا بفضل الله من محاولة هذا إيهامنا بما أراد إيهامنا به، دونما مبرر أو مسوغ أو دليل. ولنتابع معاً خطوته الثانية فهو كتب ص ٦٣ (إن القرآن مجموعة القوانين الموضوعية، الناظمة للوجود، ولظواهر الطبيعة، والاحداث الإنسانية).

إنه بهذه الجملات يكرّر ماسلف أن نقضناه من تقسيم المصحف إلى كتاب قرآن، فهو يستعمل لفظ (قرآن) بمصطلحه الفاسد هنا. لذلك نحن بغنى عن سماع هذه النغمة الناشزة التي تصك الأذن، فلنتجاوزها إلى مابعدها.

فهو أضاف (وأساسه غير لغوي، ثم جُعل لغوياً، لقوله [إنا جعلناه قرآناً عربياً] الزخرف٣). وإنه، أي الدكتور شحرور، عاد ليوهمنا أن الكلام في آية سورة الزخرف التي أوردها، من أنها اختصت بالكلام عن القرآن كجزء من كتاب الله العظيم، وليس هذا فحسب، بل ليقول بصيغة الجزم والتقرير، ومن دون تقديم أي دليل، وعلى طريقته (وأساسه غير لغوي ثم جُعل لغوياً). وهو مخطىء في فهم آية الزخرف [إنا جعلناه قرآنا عربياً] حتى وأنه يقوم بمحاولة تحريفها أيضاً. وحتى لايتهمني أحد بالتجني على الدكتور المهندس، تعالوا معي نعوُد إلى الزخرف نفسها:

ابتدأ ربنا هذه السورة بقوله عز وجل ﴿ حم. والكتاب المبين. إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون.﴾ وعندما نتلو هذه الآيات مجتمعة يبدو لنا أن الكلام فيها يدور حول [الكتاب المبين] وليس حول القرآن. وأن الله سبحانه قد جعل هذا (الكتاب المبين) (قرآناً) أي مقروءاً بكثرة بدليل التنوين على آخر اللفظ، و (عربياً) أيضاً من حيث الإبانة والافصاح عما تضمنه من تعاليم. ويتساءل المرء: ولماذا جُعل (الكتاب المبين) قرآناً عربياً؟ ويأتي الجواب منه سبحانه [لعلكم تعقلون]. ولايُسمّى الرجل "عاقلاً" مالم يستعمل ملكة عقله، وأدوات محاكمتها للأمور المطروحة، بصورة علمية منطقية سليمة، ويلزم نفسه أيضاً بما أسفرت عنه هذه المحاكمات. وكأنه سبحانه قال بأنه أنزل آياته على شكل كتاب يحمل بيناته معه، وقدّر أن يطبع ويُستنسخ كتابه هذا، ويقرأ على نطاق واسع، وبلغة عربية سليمة الحسب، جعل كل هذا التيسير منه سبحانه رأفة بعباده، وليستعمل أصحاب الأدمغة عقولهم فيتدبروا هذه الآيات تدبراً علمياً ومنطقياً سليماً، وليلزموا أنفسهم بما أنزله ربهم في هذا الكتاب ليحققوا الغاية القصوى من إنزاله.

على هذا الأساس ندرك أن الضمير الوارد في كلمة (جعلناه) يعود إلى (الكتاب المبين) وليس إلى القرآن. ويعود القرآن في هذه الحالة إسماً وصفياً للكتاب المبين ليس إلاّ. هذا وعلى اعتبار أن الضمير يعود إلى الأسم الذي قبله، وليس إلى الأسم الذي يأتي بعده.

والآن نتوجه بالسؤال إلى الدكتور شحرور نفسه فنسأله: لماذا قطعت الآية عن سباقها أولاً. ولماذا خالفتَ أصول اللغة فأعدت الضمير إلى أسم ورد بعده ثانياً. ولماذا بل على أي أساس جئت لتزعم أن القرآن كان أساسه غير لغوي ثم جُعل لغوياً ثالثاً. ولماذا قمت بمجاولة مشككة لقارىء هذه المحاولة المضلّلة رابعاً وأخيراً، ألا إنها أشبه بأساليب المستشرقين وغير المستشرقين الذين يعتمدون على اهواءهم في تفسير كتاب الله العظيم.

وكيلا أُشعر قارئي الكريم أنني تناسيت أسلوبي الذي اختططته لنفسي، وهو وضع القارىء في إطار المعنى الصحيح لكل آية تُعرضُ لنا، مع بيان سباقها وسياقها، فإليكم مافهمته أنا من هذا الآيات الكريمات التي ابتدأ ربنا بها سورة الزخرف.

﴿حـم﴾ حرفا اختزال، واختُزلا من اسمين من أسماء الله الحسنى هما حميد مجيد. استهل ربنا سورة الزخرف بإسميه المذكورين ليؤلّفا في حدّ ذاتهما إدّعاء، ولايُفهم مضمون هذا الإدّعاء إلا بفهم معنى حميد مجيد. وخلاصة معنى (حميد) على وزن فعيل، اتصاف صاحبه باكمل الصفات الجميلة التي استحق من خلالها التعظيم فأضحى محموداً، وخلاصة معنى (مجيد) العظيم في ذاته وصفاته، كثير الخير والإحسان على عباده، وكأنه سبحانه وتعالى ينبه عباده إلى أنه من منطلق كونه حميداً مجيداً بحكم أنه كامل الصفات الجميلة، عظيم في ذاته وصفاته، ومن منطلق كونه كثير الخير والإحسان على عباده يُنزل هذه الآيات الكريمات على رسوله محمد ﷺ هذا هو الإدّعاء.

وعلى عادة الله وأسلوبه المتميز، فهو توجّه فوراً لتقديم الدليل على صحة إدعائه عز وجل فقال ﴿والكتاب المبين﴾، الواو واو القسم وتعني تقديم شهادة من قبله سبحانه وتعالى على صدق ادعائه. وهذه الشهادة هي [الكتاب المبين] أورد اللفظين معرفين بالألف واللام، ليفيدوا معهوداً ذهنياً يربط سورة الزخرف بسورة الشورى التي سبقتها وقد أنهاها ربنا بقوله ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الذي له مافي السموات ومافي الأرض، ألا إلى الله

تصيرُ الأمور﴾، فهو سبحانه بتعريفه للفظي [الكتاب المبين] ربط بين مضموني السورتين ربطاً محكماً.

و [المبين] يعني أن هذا الكتاب يحمل أدلته وبيناته معه، فإذا تحققتم ذلك تكون هذه شهادة على أني ربكم الحميد المجيد بأكمل الصفات الجميلة، والعظيم في ذاتي وصفاتي، وكثير الإحسان على عبادي فأنا المستحق من خلال هذا كله للحمد والتعظيم.

وأضاف سبحانه وتعالى قوله ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ موجها خطابه للإنسان العاقل الذي يستعمل ماأحسن عليه ربه من ملكات محاكمه وتفكير ليستنبط بها النتائج والأمور السليمة، ويلزم بها نفسه. خاطب هؤلاء العقلاء يذكرهم أنه سبحانه وتعالى لم يكتف بأن أنزل إليهم كتاباً يحمل معه دلائله وبيناته، بل وقدّر أن يصبح هذا الكتاب في متناول كل إنسان مقروءاً ومحفوظاً في الصدور، ومتلّواً في العبادات. وأنزله بلغة عربية مبّينه يفهمها كل عربي مهما اختلفت لهجته وأحواله.

وأضاف سبحانه وتعالى معلومة أخرى حينما قال ﴿ وإنّه في أمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم﴾ بمعنى أن اعلموا بأننا مُذْ خططّنا لإنزال الشرائع على عبادنا لإصلاح احوالهم وتطويرهم وتوجيههم نحو إلهم الحقيقي، فقد أخذنا في [أم الكتاب] أي في هذا المخطط، إنزال هذا الكتاب المبين الذي قدرنا أن يصبح مقروءاً بلغة عربية سليمة. يقول سبحانه لهذا السبب نفسه فإن هذا الكتاب المبينَ ﴿لدينا لعلي حكيم﴾ بمعنى أننا أعطيناه في أصل مُخططنا مكانة سامية على جميع ماأنزلناه من شرائع ووسمناه بالحكمة أي بتقديم تعاليمه جميعها على أساس فلسفي وعلمي مناسب لجميع الظروف والأحوال.

ولابّد أنكم لاحظتم أن جميع الضمائر، في هذه الآيات كافة إنّما عادت إلى [الكتاب المبين] وليس إلى [القرآن] كما ذهب الدكتور شحرور.

ونسأله: مادمت باحثاً ومجتهداً، فكيف غاب عنك هذا الأمر وقد اثبتناه؟ وقد جاء الأمر من صاحبنا محاولة لإفراغ الآية من محتواها والباسها أفكاراً مسبقة الإعداد.

على هذه الصورة اعتقد أننا نكون قد بددنا هذا الوهم الذي أريد لنا أن نقع فيه، وأبطلنا زعم كون القرآن هو المقصود في آية سورة الزخرف وماتبعه من أوهام.

ولنتابع معاً خطوته الثالثة فقد كتب ص ٦٢ (وانتقال القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية بلسان عربي، تمّ بصيغةٍ منطوقة. لذا فهو يُتلى بصيغة صوتية منطوقة مسموعة أو غير مسموعة،

وهذه هي الصيغة التي أشتهر بها القرآن، وبها يُذكر بين الناس، كما جاء في قوله تعالى [ورفعنا لك ذكرك] الانشراح ٤، وقوله [اذكرني عبد ربك] يوسف ٤٢﴾.

هذا النص، تكملة، لما كشفنا فساده وبطلانه، فهو تأكيد للإيهام بأن القرآن جزء الكتاب، وأن الذكر يقصد به الصيغة اللغوية العربية المنطوقة، وهذا كله بات منقوضاً باطلاً، فلاحاجة للخوض فيه.

ولما كان قد استشهد فيه بآيتين لاعلاقة لهما بما ذهب إليه من قريب أو من بعيد. وكان معناهما على غير مافهمه هو منهما. لذلك أرى من واجبي شرح هاتين الآيتين وبيان موضعهما من سباقهما وسياقهما أيضاً.

إنه فهم من قوله تعالى [ورفعنا لك ذكرك] نشرنا ذكرك بين الناس فاصبحوا ينطقون باسمك بلغة إنسانية عربية، على حسب تعابيره، وهذا يعني اشهاره بين قومه.

كلا فما كان لهذه المنّة الإلهية أن تعني ماذكره صاحبنا، ذلك أن محمداً كان مشهوراً في قومه بالصادق الأمين، من قبل أن يُؤتى رساله ربه، حتى أضحى موضع ثقتهم، فكانوا يودعونه أماناتهم المالية تماماً كما كانوا يودعون أماناتهم لدى زعيم مكة آنذاك، فلايصح الاستدلال بهذه الآية على الإدعاء المشار إليه.

وإنكم إذا امعنتم النظر في الفاظ وتركيبة هذه الآية الكريمة تجلّت لكم الأمور التالية:

أولاً - لو كان سبحانه قال [نشرنا لك ذكرك) لكان المقصود الصيغة الصوتية اللغوية. لكنه قال [رفعنا]، والرفع يشير إلى المرتبة، فهو سبحانه يمّن عليه أن رفع منزلته من شهرة رجل عادي، إلى شهرة رسول من عند الله عز وجل عظيم.

ثانياً - لم يقل سبحانه (رفعنا ذكرك) بل قال [رفعنا لك ذكرك] أي كانت هذه المنّة لمصلحة الدعوة التي كُلّفت حمل رسالتها.

ثالثاً - ومن منطلق اعتبار اللام هنا قد وردت بمعنى التملك، فيها إشارة إلى منزلة هذه التعاليم التي أنزلها ربه عليه، فهي التي ملكته ناصية الصيت والشهرة بين الناس.

رابعاً - وإننا إذا أخذنا بعين الاعتبار سياق هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿ إن مع العسر يسراً﴾ تجلى لأعيننا مَعْلَمٌ بشارة ونبوءة، وهي أن الاضطهاد الذي تعانيه من طرف قومك لن يدوم. وإن النصر قريب فهاهي أيام اليُسر قادمة، وهي ستنسيك ماأنت فيه من متاعب وآلام، بدليل التنوين على كلمة [يُسراً] ففيها دلالة عظمة الأيام القادمة،

ذلك أن سورة الانشراح مكية النزول. ولم يكن محمد رسول الله قد بلغ المكانة التي أنبأت عنها هذه السورة الكريمة، ودارت بعدها الأيام وتحققت النبوءة المبشره، حتى إن أعداء الإسلام في عصرنا يصنفون محمداً مع أعاظم رجال التاريخ البشري. وهذه شهادة حسية تثبت أن البشارة قد تحققت على أوسع نطاق.

ألا إن جميع هذه الملاحظات التي استخلصناها لايدخل ضمنها معنى الصيغة الصوتية اللغوية التي حاول الدكتور شحرور إلصاقها بهذه الآية الكريمة.

هذا وهو عندما استدل بآية سورة يوسف ٤٢ ﴿اذكرني عبد ربك﴾ فقد استدل بها علي غير معناها الحقيقي أيضاً. فما كان مراد يوسف عليه السلام من قوله هذا مجّرد تذكير فرعون باسمه بصيغة صوتية مسموعة، إذ إن مجرد التذكير بخادم لايزيد ولاينقص من الأمر شيئاً، ويستحيل أن يُعد في نظر فرعون مبّرراً للإفراج عنه.

والذي اراده يوسف هو أن يشهره عند فرعون على أنه عليم بتأويل الأحلام، بدليل أن هذا الأمر هو الذي أدى إلى اطلاق سراحه فيما بعد، ولاريب أن الذكر يعني الشهرة والصيت كما بينت من قبل.

ولنتابع معاً خطوته الثالثة فقد كتب ص ٦٢ (فالذكر هو تحول القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي، وهذه هي الصيغة التي يُذكر بها القرآن).

إنه لخص بهذه الجمل جميع ماأورده حتى الآن مما أثبتنا بطلانه. فقد أثبتنا أنه ماكان (القرآن) هو المقصود من قوله تعالى [إنا جعلناه قرآناً عربياً]، بل كان الضمير يعود إلى (الكتاب المبين). ومادام الأمر كذلك، فما عاد يصح قوله من إن الذكر هو تحول القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي، وتكون خطوته الثالثة هذه باطلة مخفقة أيضاً.

إذ مضى الدكتور شحرور يقيم على رماله المتحركة هذه صرحاً، وهذا الصرح ينبىء بتمويه جديد فهو قد كتب (وبما أن هذه الصيغة عربية، فقد قال للعرب [لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، أفلا تعقلون] الأنبياء ١٠ أي صيغته اللغوية في اللسان العربي المبين. لذا قال [فيه ذكركم] وهنا جاء أكبر عزّ للعروبة والقومية العربية.) ص ٦٢.

هذه الخطوة الرابعة تحمل كما قلت رائحة التمويه، لذلك ماكانت صياغته الأدبية لأفكارها ناجحة، وعلى كل حال فإنها باطلة شكلاً ومضموناً، وهي على شاكلة بقية استدلالاته باطلة "مسبقة الصنع".

فقد حاول في هذا النص جاهداً أن يعطي كلمة [الذكر] هنا [فيه ذكركم] معنى الصيغة اللغوية الصوتية في اللسان العربي، فالسؤال هنا هو هل يصحّ هذا المعنى لهذه الآية ولكلمة الذكر الوارد فيها؟ أم لايصح. أو أراد ربنا به معاني أخرى للذكر غير هذه؟

نعود إلى سورة الأنبياء لنلاحظ فيها سباق هذه الآية وسياقها، والتسلسل الموضوعي لها، فعلى ضوء هذا يتحدد المعنى المقصود في هذه الآية.

ابتدأ ربنا سورة الأنبياء بقوله ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة مُعرضون. مايأتيهم من ذكر من ربّهم مُحدث، إلا استمعوه وهم يلعبون.﴾ وهذا كلام واضح يقول تعالى [مايأتيهم من ذكر] أي مايأتيهم من وحي إلهي مُفعم بالنصح والتذكير [إلا استمعوه وهم يلعبون] أي لايُعطونه التأدب الضروري لمجرد كونه منسوباً إلى الله خالقهم. بل يُصغون إليه وقلوبهم لاهية باهوائهم وقضاء شهواتهم وميولهم.

بهذه الافتتاحية تحددت مضامين سورة الأنبياء واتجاهاتها. إنها تبحث موضوع محاسبة المكذبين بشكل خاص. لماذا؟ لأن الله عز وجل نبه إلى ذلك في آخر سورة طه بقوله عز وجل ﴿ قل كلٌّ مُتربّص، فتربصوا، فستعلمون من أصحاب الصراط السّويّ ومن اهتدى﴾. فمن خلال كلمة [فتربصوا] أشار إلى أنه آن أوان بحث موضوع انزال العقاب بكم بعد هذه السنوات الطويلة من الوعظ والتذكير. علماً بأن سورتي طه والأنبياء نزلتا في مكة المكرمة.

على أساس من موضوعية سورة الأنبياء هذه قال سبحانه وتعالى في الآية العاشرة منها ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً، فيه ذكركم، أفلا تعقلون؟﴾ فحدد سبحانه وتعالى معنى [فيه ذكركم] من خلال سؤاله إياهم [أفلا تعقلون؟] فالعقل كما عرفنا متعلق بالمحاكمات وليس بالعواطف، فلو كان المراد من قوله [فيه ذكركم] أي منطوق وجودكم بلغة صوتية عربية كما ذهب إليه الدكتور شحرور لكان خاطب الله عواطفهم وشعورهم القومي. الأمر الذي يثبت منه أن المراد من قوله هنا [فيه ذكركم] أي أُسس شرفكم ورفعتكم وتقدمكم وشهرتكم. هذه الأمور ستثبت لكم صحتها إذا استقبلتم كتابنا المنزل بروح الجدية والتعقل.

إذن لامحل في الآية المذكورة لمعنى ذكركم بلغة صوتية عربية كما ذهب إلى ذلك الدكتور شحرور فلا سؤال مطروح فيها عن العروبة والقومية العربية. بل السؤال المطروح

فيها هو وصف المكذبين بمشابهة الأنعام من حيث اتباع الغرائز، وفقدان العقول. لذلك قلت أنا: المؤلف هنا:يحاول التموية فهو يُداجي العروبة ويرائي القومية سعياً وراء إثبات زعمه.

مايؤكد أنه قام بعملية تمويه. أننا لاحظناه عاد ليستدل بالآية الثانية من سورة الأنبياء، من بعد استدلاله بالآية العاشرة منها. بينما كات يترتب عليه الاستدلال بالآية الثانية أولاً. فلماذا قدّم وأخّر في الاستدلال إن لم يكن يهدف إلى إثبات دعواه بأي وسيلة؟

ألا إنه عندما عاد أدراجه واستدل بالآية الثانية وهي قوله عز وجل ﴿مايأتيهم من ذكر، من ربهم مُحدث، إلا استمعوه، وهم يلعبون﴾ أضاف قوله (لاحظ هنا دقة التعبير في الكتاب عندما قال عن الذكر إنه محدث ولم يقل القرآن، ولاننس أن الذكر ليس القرآن نفسه، بل هو أحد اسماء القرآن الوصفية [ص والقرآن ذي الذكر]).

وإنني اعتبرت هذا النص مكملاً لخطوته الرابعة التي عجّت برائحة التمويه. وكشفت لكم فيها مداجاته للعروبة والقومية. على هذا الأساس أقول:

أولاً - فأتساءل: لماذا يحشر الدكتور شحرور مصطلح (القرآن) الذي ابتدعه حشراً في جميع هذه الآيات التي يستدل بها؟ والضمير في [إنا جعلناه قرآناً عربياً] إنما يعود إلى الكتاب المبين؟ وليس إلى القرآن بمصطلحه؟ وقد اثبتنا له بطلان استدلاله أيضاً بآية [ص والقرآن ذي الذكر] من أنها متعلقة بالكتاب أيضاً وليس بالقرآن بمصطلحه.

ثانياً- إنه حسب أن كلمة "الذكر" في الآية الثانية من سورة الأنبياء وردت كصفة للقرآن بمصطلحه زاعماً (دقة التعبير) عن ذلك، وأنه [قرآنٍ مُحدَث] ونقول هذا تحريف واضح لكلام الله عز وجل. وقد تكلمنا عن هذه الآية في مستهل الرد على الخطوة الرابعة المذكورة. واثبتنا من خلال سباق هذه الآية وسياقها أن (الذكر) فيها يقصد به الوحي الإلهي المُفعم بالنصح والتذكير. الذكر الذي [استمعوه وهم يلعبون] بدل أن يقبلوا عليه إقبال المتأدب المتهيب لمجرد كونه منسوباً إلى خالقهم.

ثالثاً- وكلمة (مُحدث) الواردة في قوله تعالى [ذكرٌ محدث] وردت بمعنى وحي جديد أي وعظ ونصح جديد سماوي. هذا على اعتبار أن قولك حَدَث نقيض قَدُم، وحدث الأمر وقع، واحدثه الله أوجده، والحادث هو القائم بذاته، وإن مالايقوم بذاته نقول عنه مُحدث. ولما كان كلام الله ووعظه لايقوم بذاته فهو مُحدث لذلك جاء قوله عز وجل [ذكرٌ محدث] أي وعظ جديد ماكان ذاتياً بل من عند الله الذي أنزله

على رسوله. هذه هي [دقة التعبير، هذا مايخلُص إليه الاختصاص والفحص والمتابعة، فإذا لم تتوفر أدوات البحث هذه عسُر الوصول إلى اليقين، وهو ماحدث مع صاحبنا. فا الله سبحانه وتعالى ماقال (ذكر حديث) للسبب الذي بيناه، بل قال [ذكرٌ مُحدث] لينفي كون هذا الذكر من صياغة أحد سوى الله عز وجل.

نعود لنحاذي في ردّنا خطوات الدكتور شحرور الفاشلة ذلك أننا نلاحظ أنه خطا خطوة هامشية، ليست من صلب بحثه فقد كتب ص ٦٣ (وهذا الفهم يحل المعضلة الكبرى التي نشأت بين المعتزلة وخصومهم حول خلق القرآن. فإذا عرفنا الآن أن الذكر ليس القرآن نفسه، وإنما هو أحد خواصه، وهو صيغته اللسانية حصراً، يزول الالتباس).

وتعليقنا، هو أن من سوء حظ الدكتور شحرور، أو سوء حظ المعتزلة أنهم لم يخلقهم الله تعالى في زمان واحد، حسماً للصراع الذي أثاروه. ونضيف قولنا: إن من المؤسف حقاً أن مكننا الله عز وجل من إبطال استقراء الدكتور شحرور فليس صحيحاً قوله إن المعضلة الكبرى التي نشأت بين المعتزلة وخصومهم قد حُلّت، فمن المؤسف بالنسبة للدكتور شحرور أن يوفقنا ربنا إلى هدم ماحاول الإساءة به إلى كتاب الله العزيز.

وكانت خطوة الدكتور الخامسة متجلية فيما كتب ص ٦٣ (لذا فقد وُضع الكتاب شرطاً لفهم آياته بقوله [ومارسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر، إن كنتم لاتعلمون] الأنبياء ٧ - هنا يجب أن نفهم أن "أهل الذكر" هم أهل اللسان العربي).

قرأت هذه الفقرات فأعجبني من هذا الأخ أن أورد الآية هنا بكاملها. فلم يقتطع على عادته لفظين أو أكثر تحكماً واستبداداً بالرأي، ويا للأسف عندما أورد الآية بكاملها، غلب عليه فكرة "مسبق الصنع" فشغل قلبه عن مناقشة أفكارها مناقشة سليمة هادئة.

قال (يجب أن نفهم أن "أهل الذكر" هم أهل اللسان العربي).

لنفرض أن "وجوبه" هذا صحيح جدلاً أي أن اللغويين العرب هم المشار إليهم في هذه الآية الكريمة. فالسؤال المطروح هو: هل يحق لنا اعتبارهم مرجعاً في غير اللغة العربية أيضاً؟ أم أنهم مرجع لغوي وحسب؟ المنطق يقول: لايُرجع إليهم إلا في اختصاصهم. نحن نقول هيا بنا نلاحظ الأمر المتعلق بسؤال هؤلاء اللغويين "أهل الذكر"، هل إنه سؤال لغوي؟ ذلك أن الله تعالى يأمرنا بسؤالهم [فاسألوا أهل الذكر].

وعن أي شيء نسأل "**أهل الذكر**" اللغويين على حد منطق الدكتور شحرور؟ قال تعالى ﴿ وما ارسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا..﴾ فيا أيها القُرّاء الكرام اناشدكم أن تجيبوني أين موضوع الاختصاص في هذه المعلومة الإلهية؟ وهل تشعرون فيها بإبهام لغوي؟ فكيف قرر الدكتور شحرور أن يكون أهل الذكر هم اللغويين العرب إذن؟ أوليس من السذاجة بمكان أن نربط بين هذا وذاك؟ فهل نحن بحاجة إلى اللغويين العرب، ليفيدونا أن ربنا ماأرسل قبل محمد رسول الله إلاّ رجالاً يوحي إليهم؟ أم نرجع في معرفة ذلك إلى الراسخين في العلم من أهل الديانات السابقة؟

لقد اتضح من هذا الزعم بجلاء تام أن الدكتور شحرور حين يناقش آيات الله، إنّما يفرغها من محتواها، ويحاول إلباسها ثوباً من عنده "مسبق الصنع" بأسلوب التنجيم، وعلى غير أسس وأصول.

ادعى أنه كتب "قراءة معاصرة" للمصحف الشريف. وإن مانفهمه من هذا العنوان، هو إعادة دراسة نص من النصوص أو الكتاب كله. فلعل الذين سبقوا في دراسة هذا النص أو الكتاب قد غاب عن ذهنهم أصل وأساس من الأصول والأسس التي يُفهم على ضوئها النص أو الكتاب.

ومادام الدكتور شحرور قد استعمل عنوان "قراءة معاصرة" فمن أبسط البديهيات أن يتقيد نفسه بهذه الأسس والأصول، لا أن يتجاوزها إلى حد التنجيم والتأويل. كما أن من أبسط البديهيات ضرورة مناقشة صاحبنا للنصوص مناقشة علمية وعقلانية، لا أن يقتطع من النص ماشاء، فينتزعه من محتواه،ويلبسه لباساً "مسبق الصنع" كما فعل ويفعل صاحبنا الدكتور.

إن مناقشتنا لأفكار هذه الآية الكريمة، أدت بنا لإدراك فساد الزعم بأن "أهل الذكر" هم اللغويون العرب، وهيا بنا نتدبر سباق هذه الآية وسياقها وموضعها من تسلسل السورة الموضوعي. لنوقن ببطلان هذا الزعم وهذا الإدعاء.

قال تعالى ﴿ بل قالوا اضغاث احلام، بل افتراه، بل هو شاعر، فيأتنا بآية كما أرسل الأولون، ماآمنت قبلهم من قرية أهلكناها، أفهُمْ يؤمنون، ومأرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون، وماجعلناهم جسداً لايأكلون الطعام، وماكانوا خالدين. ثم صدقناهم الوعد، فانجيناهم ومن

نشاء وأهلكنا المسرفين. لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، أفلا تعقلون؟﴾.

عدّد الله ربنا في الآية الأولى تقوُّلات المكذبين، الذين أرادوا تعجيز محمد رسوله الأمين. ونبه سبحانه إلى تركيز المكذبين على مطالبة رسوله بآية على شاكلة ماأرسل الأولون. وعلى الصورة التي وصلتهم أخبارها. وردّ عليهم ربنا في الآية الثانية موضحاً لهم أن الصورة التي وصلتهم أخبارها كانت مُضخمة مُبالغاً فيها. فلو كانت على تلك الصورة لآمن أهل القرى التي ظهرت فيها تلك المُعجزات. ومادامت لم يؤمنوا [أفَهُمْ يؤمنون]؟ وصحح ربنا في الآية الثالثة أفكار المكذبين المتعلقة بالمعجزات بقوله ﴿ وماأرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنم لاتعلمون﴾ أي اسألوا أصحاب الديانات التي امتلأت تعاليمها بالنصح والتذكير على شاكلة الذكر الذي ننزله على رسولنا، فسيعلمون من المخلصين منهم سوء فهمكم لحقيقة المعجزات. فما كُنا نرسل إلا رجالاً بشراً مثلكم إنما الفارق كان فارق الوحي النازل عليهم بالنصح والإرشاد. الوحي المعمور بالأنباء الغيبية والبشارات. فتلك هي حقيقة المعجزات. نبوءات وبشارات ووعود تحققت على أوقاتها فكانت معجزات وفرقاناً، فرق بين الحق الذي جاء به المرسلون، وبين الباطل الذي كان يدين به المكذبون.

وراح سبحانه وتعالى بعدها يبين أن جميع رسله كانوا رجالاً عاديين، لايختلفون عمن سواهم من الأشخاص إلا فيما كانوا يتلقونه من وحي فما كانوا أناساً لايأكلون الطعام، ولاكانوا ذوي أعمار طويلة فوق المعدل المعروف في زمانهم. وكانوا أوّل المسلمين بما يتلقونه من وحي حافل بالنصح والتذكير، بالنبوءات الغيبية والبشارات السماوية، وبالوعود من رب العالمين. وكانت نتيجة إيمانهم وصبرهم على اضطهاد مكذبيهم أن [صدقناهم الوعد، فأنجيناهم ومن نشاء، وأهلكنا المسرفين] في معاجزة رسلنا ومشاقتهم إياهم، الذين كانوا لايستعملون ملكاتهم العقلية ومواهبهم لفهم ماجاء به رسلنا. وها نحن [أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم] أي فيه نُصحكم وتذكيركم وشهرتكم وعزتكم [أفلا تعقلون؟] أي فهل تمضون على آثار من سبقكم من المكذبين الذين اهلكناهم. أم تؤمنون على شاكلة من استعمل ملكاته العقلية الذين بشرناهم بعاقبتهم وصدقناهم الوعد وكانوا من الناجين؟

وكأنه سبحانه وتعالى يقول للمكذبين: إن القضية هي قضية مبادىء وتعاليم في دائرة عمل العقول. وماهي بقضية إظهار معجزات، فلِمَ لاتفكرون فيما أنزلناه من نصح وتذكير،

بدل أن تطالبوا رسولنا باراءة المعجزات التي ضخّم حقائقها أصحاب الرسالات السابقة.

ومن خلال هذا السباق والسياق والتسلسل الموضوعي لآيات سورة الأنبياء يتبين زيف المعنى الذي ذهب إليه الدكتور شحرور من أن "أهل الذكر" هم اللغويون العرب.

وإننا نراك أيها الأخ العربي ركضت لاهثاً وراء أحد هؤلاء اللغويين وأعرضت عن تراث بقيتهم، فلماذا الزمت نفسك بواحد من اللغويين إن كان المراد من **"أهل الذكر"** جميع اللغويين؟ هل بإمكانك تفسير هذا التناقض الذي أوقعت نفسك فيه.

ولنلاحظ هذا الأخ المسلم، وبعد أن قال (يجب أن نفهم أن أهل الذكر هم أهل اللسان العربي) هذا الزعم الذي بينا زيفه وفساده وبصورة قاطعة. لنلاحظه في خطوة سادسة من خطواته الفاشلة يفاجئنا بشيء جديد وببدعة تتنافى وتعاليم القرآن الكريم نفسه. فهو كتب على صفحة ٦٣: (هذه الصيغة الحدثة هي التي أخذت الصيغة التعبدية.... فإذا وقف في الصلاة مسلمان: عربي وغير عربي، وكلاهما تلا الذكر، بغض النظر عن فهم المضمون، فصلاتهما مقبولة، لذا قال:[أقم الصلاة لذكري] طه ١٤. وعندما قال الفقهاء: إن الصلاة لاتجوز إلاّ باللسان العربي فهذا صحيح، لأن المطلوب في أثناء الصلاة هو التلاوة الصوتية للكتاب، "لافهم الكتاب"، لذا قيل عن القرآن إنه المُتعَبد بتلاونه، فالقرآن يُتلى [وأن أتلُوا القرآن] النمل ٩٢).

إن مخالفة تعاليم القرآن الكريم، تبدو في هذا النص، من خلال قوله (وكلاهما تلا الذكر، بغض النظر عن فهم المضمون، فصلاتهما مقبولة)، وقوله (المطلوب في أثناء الصلاة هو التلاوة للكتاب، لافهم الكتاب).

إن هذه الفتوى التي ابتدعها، تشجيعاً منه للمصلين على عدم تدبّر مايتلونه في صلواتهم من أدعية وآيات، تتنافى صراحة مع قول الله عز وجل في سورة النساء ٤٣ ﴿لاتقربوا الصلاة وأنتم سُكارى، حتى تعلموا ماتقولون...﴾ ففي هذه الآية الكريمة يشترط سبحانه على المصلين أن يدخلوا الصلاة مالكين زمام عقلهم وفكرهم ليفقهوا مايقولون بدليل قوله تعالى [حتى تعلموا ماتقولون...].

كما يتنافى مع قوله تعالى ﴿ويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ ومعلوم أن معنى سها عن الشيء أي غفل عنه. ومادام قد اطلق سبحانه الخطاب للمصلين وليس للمقصرين في اداء صلواتهم، ينتقل السهو والغفلة إلى مضمون الصلاة نفسها من أدعية

وقراءات، ويكون في هذه الآية تحذير لمن يواظبون على صواتهم دون تدبر مايتلون فيها من أدعية وآيات. إشارة إلى أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في حال كون المصلي يعلم مايقرأ في ركعاتها من أدعية وآيات، وهذا العلم يفيده في توليد الخشوع والخشية من الله في نفسه، الأمر الذي ينهاه عن ارتكات الفحشاء والمنكرات، لذلك قال سبحانه بعد هذه الآية عن أمثال هؤلاء المواظبين على صلواتهم من دون أن يعلموا مايقولون، قال ﴿الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون﴾.

فالدكتور شحرور أفتى في خطوته السادسة فتوى تخالف النصوص القرآنية التي ذكرناها مخالفة صريحة، هذه النصوص التي وضعت شرطاً أساسياً لصحة صلاة المرء، وهي أن يتلو آيات الذكر في صلاته محاولاً فهم مضامينها، وإلا اعتبرت صلاته مراءاة ونَصَباً.

وهذه في الأصل آيات مُحكمات ماسبق أن ورد مثل تعليمها في كتب وتعاليم الأديان السابقة. فكيف أجاز هذا الأخ المسلم أن يفتي بأمر مخالف ومضاد لتعليمها، وهو يزعم أنه يريد وجه الله خالصاً؟

من هذا ندرك بأن خطوة هذا الأخ المسلم السادسة جاءت مخفقة مشككة لايقوم بمثلها باحث، وإنه في حين استدل لتدعيم قوله: (لذا قيل عن القرآن أنّه المتعبَّدُ بتلاوته، فالقرآن يتلى..) استدل ببعض ألفاظ آية من سورة النمل. وهي [وأن أتلوَ القرآن] وأراد من وراء استدلاله هذا تثبيت أركان فتواه السالفة المشككة في نفوس قُرّائه.

وتعالوا بنا إلى الآية بكامل ألفاظها مع سياقها لتشاهدوا حلقة جديدة من حلقات سوء التأويل. قال تعالى آمراً رسوله ليبلغ قومه ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التي حرّمها، وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل، فقل إنما أنا من المنذرين، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها، وماربك بغافل عما تعملون﴾.

وسؤالنا: لماذ عمد صاحبنا إلى اقتطاع [وأن أتلو القرآن] واغفل قوله [فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين]؟ فكأنه يحاول إيهام القارىء أن الفاظ [وأن أتلو القرآن] تصرح بمجرد التلاوة، ولو أورد الآية بكاملها، يتغير المعنى الذي يريد الباسه هذه الألفاظ. فالمراد أساساً من [وأن أتلو القرآن] التبليغ وليس مجرد التلاوة، فأنتم تقولون تلا القاضي الحكم على المحكومين، ويكون مرادكم أنه بلغهم قرار

محكمته. وبهذا المعنى ورد فعل [أتلو القرآن] لذلك أكمل سبحانه هذا بالقول ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين﴾، فهذا تبليغ رسالة الله من دون اكراه على عمل معين، وهو بمثابة إنذار للمنحرفين، لذلك قال [فقل إنما أنا من المنذرين] بل ودعّم سبحانه وتعالى هذا المعنى أيضاً حينما قال: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته، فترفونها، ومااربك بغافل عما تعملون﴾.

ونتوجه بالسؤال ثانية إلى الدكتور شحرور، فنسألة كيف يجوز أن تتعبد بتلاوة الكتاب، كالببغاء،دون تدبّر وعلم. وما الذي يمكن أن تجنيه من هذه العبادة؟

والخطوة السابعة من خطواته كتب فيها ص ٦٢ : (ومنه يظهر أن التحويل للقرآن "الجعل" إلى صيغة صوتية لغوية عربية، قد أخذ الطابع التعبدي، لذا قال عنه [ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مُدكر؟] القمر ١٧).

ونقول إننا سبق أن أبطلنا كون "الجعل" متعلقاً بالقرآن، وأثبتنا هناك أنه متعلق بالكتاب المبين. كما سبق أن اثبتنا أن "الجعل" غير متعلق بتحويل القرآن إلى صيغة صوتية لغوية.

ثم إننا أثبتنا آنفاً أن تلاوة آيات الله واذكاره في صلواتنا دون فهم مضامينها، لايمثل الطابع التعبدي، بل هو حالة تبطل الصلاة نفسها، ذلك أن ربنا يطلب منّا أن نعلم مانقول في صلاتنا لقوله تعالى: ﴿ لاتقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ماتقولون﴾. ولايغرّنكم لفظ (سُكارى) فتظنون أنه يعني شارب الخمر حتماً، كلا إن السَكران في اللغة العربية هو فاقد الوعي أيضاً والمعروف أن الآية نزلت قبل تحريم الخمر. وأن فقدان الوعي يتأتي عن أسباب عديدة كحالات المرض وحالات الإجهاد العضلي، وحالات شرب مايُخل بوعي الإنسان.

المهم هو أن مانقلناه من كلام الدكتور شحرور في خطوته السابعة إنما هو عدة جمل مفعمة بالأباطيل، التي سبق أن كشفنا بطلانها. وماقام على باطل فهو باطل حُكماً، ولكني لاأرغب بالمرور على الآية الكريمة التي استدل منها، على آخر مزاعمه، مرور الكرام. بل أتناولها هي أيضاً لمجرد إثبات أن هذا الأخ المسلم يستدل بالآيات الكريمة على طريقة التخمين المجرد وليس عن طريق البحث العلمي والتدبّر السليم.

أنهى ربنا آية سورة القمر ١٧ المشار إليها بقوله [فهل من مدكر] فما معنى ادّكر؟ قال اللغويون: إن ادكر جاءت لغة من إذكر. فهل افتعِل من الذكر. حيث أبدلت تاء الافتعال في الأصل ذالاً، ثم بدلت الذال دالاً أيضاً، للمشاكله، وأدغمت، وقد أورد وزن افتُعل المذكور قول ربنا في سورة القمر ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر، فهل من مُدّكر؟﴾ الأمر الذي يعني أن صيغة [فهل من مدّكر] أصلها [هل من متذكّر]. أي هل من منتصح بهذا الكتاب الذّكر المليء بالنصح والوعظ؟

وهذا المعنى الذي توصلنا إليه يحدّد معني الشطر الأول للآية الكريمة [ولقد يسّرنا القرآن للذّكر] فهو سبحانه وتعالى ينبه عباده فيه إلى أنه اتخذ جميع وسائل تيسير كتابه القرآن الكريم ليكون أداة سهلة في متناول كل عبد من عباده، يريد أن يقرأ هذا الكتاب، وينتصح بما جاء فيه من نصائح ومواعظ. فهل هناك من يسارع للاستفادة من هذه التيسيرات الإلهية التي تجسّم رحمة الله ورأفته بعباده؟

وانتقلوا الآن معي إلى سباق الآية، فهناك قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر، فكيف كان عذابي ونذر﴾ وترون كيف أن هذا السباق دائر أيضاً حول موضوع النصح والتذكير، وهو غير دائر حول التلاوة التعبدية، وهو سبحانه قال هذا بعدما استعرض قصة نوح عليه السلام ونجاته من الطوفان، وغرق مكذبيه، المكذبون الذين لم يستفيدوا مما أنزل الله ربنا على نوح من نصح وتذكير.

وانتقلوا الآ معي إلى سياق الآية أي إلى مابعدها من آيات، حيث قال تعالى ﴿كذبت عاد، فكيف كان عذابي ونذر، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً، في يوم نحسٍ مستمر﴾، وهذا ضرب مثل جديد على نصح ربنا لعباده وتذكيرهم عبر القرون، فالسباق والسياق يدوران حول النصح والتذكير، وليس حول "الصيغة الصوتية اللغوية" لكلمة ذكر، كما يقول هذا الآخ المسلم ويزعم.

كان الدكتور شحرور حتى الآن يستدل بآيات الله عز وجل ليثبت بها أن "الذكر" هو صفة "للقرآن" بمصطلحه، وإذا به يواجهه سؤال ملح يطرح نفسه وهو: فأين بقي "كتاب الرسالة" و "تفصيل الذي بين يديه" وماإليه من تقسيمات جئت بها ياصاحبنا الدكتور، فأنت قلت بصراحة تامة أن الكتاب شيء وأن القرآن شيء آخر. وأنت غطيت صفة "الذكر" بالقرآن وحده، فأين بقيت بقية المصحف الشريف، أفلا تتصف هذه "بالذكر" بمعنى [الصيغة

اللغوية اللسانية المنطوقة بلسان عربي مبين]؟؟؟ أولا يتعبدّ بآياتها المسلم في صلواته؟؟؟ هذا سؤال كبير طرح نفسه وأوقع الدكتور شحرور في حرج من أمره فبماذا يجيب؟

كشف عن هذا الصراع النفسي الذي واجهه هذا الأخ المسلم **خطوته الثامنة** التي نحن بصدد الكلام عنها.

وبإسلوب التنجيم المجرد من أسس وأصول، كتب ص ٦٣ يجيب على هذه المعضلة، قال: [إذاً فصيغة القرآن اللغوية هي الصيغة التعبدية، وكذلك قال تعالى عن صيغة أم الكتاب [إن الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة.. الآية] فاطر ٢٩، فيصبح الذكر بذلك هو الصيغة اللغوية الصوتية للكتاب كله، وهي الصيغة التعبدية، ويغدو من الصحيح أن نقول عندما تُتلى آيات الكتاب "تُتلى آيات الذكر الحكيم").

لابد لاحظتم معالم المشكلة التي واجهت الدكتور شحرور، من خلال هذا النص بالذات، ولابد لاحظتم كيف راح يبحث بإسلوب التنجيم المجرد عن آية كريمة ليستدل بها، مواجهة لمعضلته، ولاأدري كيف دلّه تنجيمه على هذا الجزء من آية سورة فاطر ٢٩، وبكل بساطة حسم المشكلة، وكأن آيات الله طوع يديه يفسّرها كيف يشاء.

إن أول مباينة يلجأ إليها هي بتر بعض ألفاظ من الآية ٢٩ من سورة فاطر. فلماذا لم يدرج الآية بكاملها؟ ألأنها إذا قرنت بكاملها لاتفيده فيما يريده أن يصل إليه، لذلك فمن الواجب علينا الرجوع إليها كاملة. قال تعالى: ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة، وانفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية، يرجون تجارة لاتبور﴾. عدّد ربنا في هذه الآية الكريمة مقومات النجاح على طريق تحقيق الغاية من خلق الإنسان، مؤكداً أهمية هذه العناصر (بإنّ) ومشبها إياها برأسمال تجارة رابحة ربحاً يقينياً. وعبّر عن العنصر الأول بقوله [إن الذين يتلون كتاب الله] ومعلوم أن مجرد التلاوة باللسان، قد يكون بينه وبين الناس وقد يكون بينه وبين نفسه، ومدام سبحانه يعدد عناصر ذات أهمية، ولم يخصص التلاوة أمام الناس، ولااشترط أن تكون التلاوة مقرونة بفهم، فإن هذه النقائص بمجموعها تشكل قرائن تمنعنا من الأخذ بمعنى التلاوة اللسانية، خصوصاً وإنه سبحانه يوجهنا إلى عناصر اجتماعية الصبغة وليس فردية الصبغة، فقد قال [يقيمون الصلاة] وإقامة الصلاة لاتتم إلا جماعة. وهو قال [وماأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية] والعلانية اجتماعية الصبغة. لهذا علينا أن نأخذ بمعنى اجتماعي الصبغة حتى يتكامل معنى هذه الآية الكريمة.

وأنت تقول: وقف القاضي على منصة المحكمة يتلو قراره. وتقصد أصلاً تبليغ المحكومين القرار. وعلى هذه الشاكله ورد قوله تعالى ﴿ يتلون كتاب الله﴾ أي يقفون وقفة الشجاع المقدام، وبجرأة إيمانية منقطعة النظير يبلغون الناس ما أنزل الله من تعاليم وأحكام، وبألفاظ أخرى يكونون من الداعين إلى الله عز وجل كما قال ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني..﴾ بمعنى أن كل مُتّبع لمحمد رسول الله يكون داعياً إلى الله متأسياً برسول الله. أمّا الذين يكتمون ما أنزل الله، ولايتلون كتاب الله ويبلغونه إلى عباده فقد لعنهم الله.

هذا هو المعنى الذي يستقيم هنا لقوله عز وجل ﴿ يتلون كتاب الله﴾ ولم نتوصل إلى هذا المعنى العظيم إلا بعدما نظرنا إلى الآية الكريمة بكامل الفاظها ومجموعها. وإلى هذا السّر بالذات توجهت إلى الدكتور شحرور، أول ماتوجهت، بسؤاله: لماذا لم يدرج الآية بكاملها؟

على أساس من المعنى الذي أوصلتكم إليه، يكون الدكتور شحرور قد أخفق في خطوته الثامنة، ولم يستطع حلّ المعضلة التي واجهته والتي ذكرناها.

فلنتابع **خطوته الناسعة**، كتب ص ٦٣ (وبما أن النبي (ص) عربي، والذكر هو الصيغة اللغوية لكتاب الله، فقد قال ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزّل إليهم﴾ النحل٤٤. في هذه الآية يوجد إنزال وتنزيل له، والإنزال هو بيان التنزّيل، وهذا البيان "الإنزال" هو الصيغة اللغوية بلسان عربي مبين" ، وعليه فإن إنزال الذكر هو إنزال الكتاب كله [الكم والقرآن] بصيغة لغوية عربية [وكذلك أنزلناه حكماً عربياً] الرعد ٣٧ [إنا أنزلناه قرآناً عربياً] يوسف ٢، مجتمعين مع آيات تفصيل الكتاب والتي هي بالضرورة عربية، لأنها تشرح مفردات الكتاب من قرآن وأم الكتاب وتشرح الإنزال والتنزيل (انظر فصل الإنزال والتنزيل).

إنه حاول في هذا النص محاولة ثانية ليُشمل "الذكر" كصفة للقرآن، في مُصطلحه، وليُعمّمه على أم الكتاب" و"تفصيل الكتاب" بقية تقسيماته لكنه جاء في محاولته الثانية كمن يترنّح.

فكما يقولون (الطبع غلب التطبع) فمن طبعه القطع والاجتزاء. وهو قد اجتزأ بعض ألفاظ آية من سورة النحل، ليلبسها المعنى الذي يريد وهي ضمن الآية بكاملها. ومادام

طبعه التنجيم، وليس الانطلاق من أسس وأصول وطريقة علمية في البحث والاستقصاء، فقد غلب عليه طبعه واجتزأ تلك الألفاظ ليقول : (في هذه الآية يوجد إنزال وتنزيل)، ونسي أنه لايقدم لنا آية، بل يقدم لنا "جزء من آية". ونقول على رُسْلك يادكتور شحرور، سنسرد نحن على مسامعك الآية بكاملها، ومن ثم نبدأ بمناقشتك.

قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون. بالبينات والزبر، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزّل إليهم، ولعلهم يتفكرون. أفأمِنَ الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون؟ ﴾.

ونستميحك عُذراً هنا إذ سردنا لك كامل الآية مع سباقها وسياقها ذلك أننا آثرنا ذلك دوماً لنتبين الحقيقة ونكشف عنها بجلاء، فلا نستطيع أخذ معنى من آية دون أن نلاحظ سباقها وسياقها وموقعها من التسلسل الموضوعي للسورة التي هي جزء منها.

لاحظ الآن أن المعنى قد انقلب إلى عكس ماأردت أنت للاستدلال به.

إن كلمة الذكر هنا جاءت بدل "البينات والزبر". أي كما كنا نرسل من قبلك رجالاً يكون وحيًنا إليهم مليئاً بالبينات - أي التعاليم الواضحة - والزُبُر - أي التعاليم العظيمة المشابهة لقطع الحديد في قوة مضامينها، فكذلك أنزلنا إليك "الذكر" - أي هذا الكتاب العظيم المليء بالبينات والزبّر. وعلى أرفع المستويات من حيث قوة الدلائل وموافقة المكان والزمان، لذلك استحق هذا الكتاب أن يوصف بالذكر على أنه النصح والتذكير المُجسمّن.

وأكدّ سبحانه وتعالى هذا المعنى الذي شرحته وذلك بقوله ﴿ لتُبين للناس مانُزل إليهم﴾. أي أن هذه البينات والزبر الكاملة الجوانب تحتاج إلى من يشرحها للناس، لذلك ادخلنا هذا الأمر في دائرة رسالتك إلى الناس.

وأكدّ سبحانه وتعالى نفس المعنى الذي شرحته أيضاً ثانية حينما قال: [ولعلهم يتفكرون] أي أننا لانقصد من صفة الذكر في هذه الآية الكريمة (الصيغة اللغوية لكتاب الله) بل نقصد من صفة الذكر هذه الزبر والبينات التي اشتمل عليها هذا الكتاب والمتعلقة بفكر الإنسان وأدوات تفكيره. بمعنى أن كلمة "ذكر" هنا جاءت في مقابلة "فكر" بينما تكون الصيغة الصوتية في مقابل الأذن والسمع.

وفي الآية الثالثة التي تؤلف سياق الآية موضوع بحثنا. هدّد ربنا الذين يستخفون بهذه الزبر والبينات، ولايستعملون فكرهم للإستفادة منها، هددهم ليؤكد ثالثةً المعنى الذي شرحته. فقال: ﴿أفأمِنَ الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون؟﴾.

أرأيت يادكتور شحرور أننا إذا أخذنا الآية بكاملها مع سباقها وسياقها، يكون المعنى قد انقلب على عكس ماجاء به تصورك؟ وهل ظننت أنك تشغلنا عن هذه الحقيقة بتأويل (الإنزال والتنزيل) و (أن الإنزال يبين التنزيل). على كل حال سنتناول تأويلك هذا في حينه.

وقلت أنت إن "ايات تفصيل الكتاب" على مُصطلحك هي بالضرورة عربية، لأنها تشرح مفردات الكتاب من قرآن وأم الكتاب وتشرح الإنزال والتنزيل. ومادمت قد اعتبرت هذه (بديهية)، فلا نرى هناك من حاجة أيضاً، لمناقشة (بديهيتك المذكورة) ونذكرك بما قلناه من أنك كنت في محاولتك الثانية لإثبات الصيغة الصوتية للذكر ليشمل (كتاب الرسالة أيضاً).

ولانقنط، فهيا نتابع **خطوته العاشرة** على الصفحة ٦٤، إنه كتب: (وفي سورة يس الآية ٦٩ قال [وماعلّمناه الشعر، وماينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين] هنا نلاحظ كيف عطف القرآن على لفظ "الذكر". أي ذكر عبادة. قرآن. علم "استقراء ومقارنة").

يبدو أن الدكتور شحرور اعتقد أنه بلغ غايته وحقق مطمحه على مايشاء مُعلنا أنه حسم الموضوع لصالحه. وأنه أتى لكلمة "الذكر" بما لم يأت به الأولون، وبما لن يأتي به الآخرون، هذا خصوصاً وأني لاحظت خلال اجتماعي به شخصياً، إنه يعتز بماجاء به حول كلمة "الذكر" في كتابه "القراءة المعاصرة".

وأحب أن أشير هنا إلى أنه بالرغم من أن لكلمة الذكر أكثر من عشرة معاني، فهو لم يتناول لجميع آيات كتاب الله إلا معنى واحداً لكلمة الذكر، ألا وهو الصيغة الصوتية. هذا في وقت كان يعلم فيه أن لكلمة الذكر هذه المعاني جميعها بدليل أنه استدرك في آخر بحثه ص ٦٤ وكتب (وعلينا أن ننوه أن فعل (ذكر) له معان أخرى، منها التذكير ضد النسيان كقوله [أفلا تذكرون] ومنه جاءت الذاكرة والمذاكرة).

ويتساءل المرء لماذا أهمل هذه المعاني الأخرى ولم يأخذها بالحسبان ولم يبن ذلك على أي دليل أو برهان؟ هذا التكتم منه على تلك المعاني التي أثبت نزول كثير من آيات كتاب

الله بعدد من تلك المعاني، يثير إشارة استفهام. ونترك الأمر هنا لربنا الذي أنزل "الذكر" ووعد بالمحافظة عليه.

والآن أتناول ماكتبه في خطوته العاشرة والأخيرة، فهو استدل بآية من سورة يس ٦٩ [وماعلمناه الشعر، وماينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين] ليقرر: ذكر = عبادة. قرآن = علم "استقراء ومقارنة".

وسأتناول هذه الآية الكريمة وماتوصل إليه من قرار من زوايا النقاط الخمس التالية:

أولاً - علينا أن نقرّر الجهة التي تعود إليها ضمائر هذه الآية الكريمة.

ثانياً- علينا أن نحلل مضمون الآية وبيان ضعف أو قوة ماتوصل هو إليه، وعلى ضوء مُصطلحاته وتقسيماته نفسها.

ثالثاً - إلقاء نظرة عامة على موضوع سورة يس وتسلسلها الموضوعي ومحل الآية منه.

رابعاً - شرح هذه الآية الكريمة بمنطق اللغة وأصول التفسير.

خامساً - ربط هذا الشرح بسباق آية سورة يس وسياقها، توضيحاً لسلامة المعنى الذي توصلنا إليه.

أما من حيث الضمائر، فهي تعود إلى ذات محمد ﷺ والدليل هو مخاطبة ربنا إياه بـ (يس) المختزلة من ياسيِّد، كما سلف أن بينت، فالخطاب موجه إلى رسول الله لذلك جاء [لتنذر قوماً...] [إنما تنذر...] واضرب لهم مثلاً....] [وماعلمناه الشعر، وماينبغي له...]. وقد اصبح مرجع الضمائر واضحاً.

وأما من حيث ضرورة تحليلنا مضمون الآية على ضوء مصطلحات وتقسيمات هذا الآخر نفسه، بفرض صحتها جدلاً مع بيان ضعف وقوة ماتوصلنا إليه.

إننا ننطلق من تقريره نفسه، فهو قال (ذكر = عباده. قرآن = علم (استقراء ومقارنة). وعلى ضوء ماقرره يكون ربنا قد خاطب رسوله بمامعناه أن الكتاب الذي أنزلناه عليك، مؤلف من صيغة لغوية منطوقة وعلومٍ سميناها (قرآناً). وهو كتاب الغيب أيضاً. أما "كتاب السلوك" و "تفصيل الذي بين يديه" فلا شأن لهما، لذلك لم نأت على ذكرها في آيتنا هذه، وبسبب خُلوّهما من العلوم الاستقرائية والمقارنة. هذا مافهمته أنا من هذه الآية على ضوء تقسيماته ومصطلحاته. فإن كنت مخطئاً فليشرح لنا هو معناها من هذه المنطلقات.

وأما مايتعلق بموضوع سورة يس نفسها، فأقول بإيجاز شديد أنها تناولت شخصية محمد رسول الله بالذات. بدليل أنه سبحانه وتعالى ابتدأها واستهلها بمخاطبة رسوله بياسيد، فالياء في (يس) مختزلة من ياء النداء. والسين مختزلة من كلمة سيّد. وهذا الخطاب جاء ليشكل إدعاء بأن رسول الله كان على منصب السيادة بالنسبة لجميع من بعثهم الله قبله من الأنبياء والمرسلين. ولذلك سمّاه سبحانه في مقام آخر بخاتم النبيين.

وإن إعلان هذا الإدعاء هو بحاجة للبرهنة عليه. وقدم لنا ربُّنا دليله القاطع مباشرة، وعلى اسلوبه فقال: ﴿والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾.

وأصبحنا جميعنا على علم ويقين بأن القسم يعني دوماً تقديم شهادة لإثبات صحة إدعاء ما معين، وعليه فإن الواو في قوله تعالى: [والقرآن الحكيم] تفيد تقديم شهادة من جانب الله عز وجل على كون محمد رسوله بعثه ربه على منصب السيادة. وهذه الشهادة عبّر عنها سبحانه بقوله[القرآن الحكيم]. فإذا أخذنا بعين الاعتبار ماعرفناه من معنى [القرآن] من أنه يعني سيكون مقروءاً جداً. وماعرفناه من معنى تعاليم متوازنة مع جميع الأمكنة والعصور، وتضع الأمور في نصابها وتحمل معها فلسفاتها. إذا أخذنا بهذه المعاني التي تفيدها كلمتا [القرآن الحكيم]. يسهل علينا القول إن تعريف هاتين الكلمتين بالألف واللام جاء للدلالة على معهود ذهني وهو كامل المصحف الشريف الذي أنزله الله على رسوله الكريم. وكأنه سبحانه وتعالى قد قال بالفاظ أخرى:

إن هذا الكتاب العظيم المعجز الذي هو بهذه العظمة يشكل الدليل القاطع على كون رسولنا قد بعثناه على منصب السيادة نسبة لجميع المرسلين. فالملك عندما يبعث بسفيره إلى جهة ما. ينتخبه ليكون على مستوى المهمة الموكلة إليه. وهذا الكتاب بهذه العظمة هو دليل بحدّ ذاته على منصب هذا الرسول. ولذلك أتبع سبحانه وتعالى دليله القاطع هذا بقوله [إنك لمن المرسلين] مؤكداً بإنّ ومعرّفاً كلمة (المرسلين) بالألف واللام لتشمل جميع الأنبياء والمرسلين.

والآن تمثل في أذهاننا من خلال الآيات الثلاث الأولى لسورة (يس) دعوى ودليل. وهذا الإدعاء وذاك الدليل يدوران حول شخصية محمد سيّد المرسلين ﷺ.

وبرز بنتيجة هذا الإدعاء ودليله سؤال طرح نفسه وهو: لماذا أرسل الله محمداً وماهي مهمة كتابه الذي أنزله عليه؟ ولقد استدعت منطقية هذا التساؤل الإجابة عليه على محورين

يتخللهما حواشي لابد منها تشرح كُلاً من هذين المحورين: أما الإجابة بطريق المحور الأول فقد خصه بموضوع "الصراط المستقيم" الذي ضلّت عنه البشرية وبروز الحاجة إلى إعادتها إليه. وأما الإجابة بطريق المحور الثاني. فهو الكلام عن الكتاب الذي نزل لتأدية هذه المهمة، وقد وصفه بالأوصاف التي يستحقها، موضحاً أن هذه المهمة لاتحتاج في القيام بها إلى شاعر، بل تحتاج إلى كتاب ميّسر حفظه لكل إنسان لذلك ترونه قد نزل مابين الشعر والنثر، موافقاً لكل منطق سليم. وقد صيغت الآية الكريمة التي نحن بصددها على وجه التقابل الكلامي، فقوله [وماعلمناه الشعر وماينبغي له] جاء في مقابلة [إن هو إلاّ ذكرٌ وقرآنٌ مبين]، فحيث نفى ضرورة أن يكون رسول الله القائم بهذه المهمة شاعراً. وضح لنا في مقابله أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد إليكم بعيد في مضامينه وأساليب إنشائه عما يتصف به شعر الشعراء، فهو كتاب سهل القراءة، مُفعم بالمواعظ والحكم البعيدة عن كل نقص وشطط وخيال خصب وذمّ ومدح على طريقة الشعراء. وإن هذا الاتزان الذي نزل به كتابنا يبرّىء رسولنا من أن يكون شاعراً.

إلى هنا أكون قد وضحّت تسلسل السورة الموضوعي. إلى جانب توضيح ماورد في هذه الآية الكريمة التي استدل بها الدكتور شحرور بمنطق اللغة والعقل والمنطق وأصول التفسير رابطاً إياها بتسلسل السورة الموضوعي.

والتفت الآن إلى موضوع ربط معنى الآية المذكورة بسباقها وسياقها. وإليكم الآية مع ماقبلها ومابعدها.

قال تعالى: ﴿ولو نشأ لمسخناهم على مكانتهم، فما استطاعوا مُضياً ولايرجعون. ومن نُعمرّه نُنكّسه في الخلق، أفلا تعقلون. وما علّمناه الشعر، وماينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حيّاً ويحقَّ القولُ على الكافرين﴾. فإذا تابعنا محور الإجابة الأول، الذي تكلمت عنه آنفاً. نلاحظه سبحانه وتعالى قد تعرض من خلاله إلى وضع الأمتين اليهودية والمسيحية. فوضح أنهم انحطوا إلى أدنى دركات الانحطاط، وبعُدوا بُعداً كبيراً عن تعاليم رسلهم. فشابهوا الأنعام، ولولا رحمة الله بهم، لكان قد قضى عليهم خصوصياً وأنه سبحانه قد سنّ قانوناً أبدياً وهو ﴿من نعمرّه ننكسه في الخلق﴾ بمعنى أن عامل الزمن مُتلف لكل شيء. وحرّك عقول المخاطبين بقوله عز وجل [أفلا تعقلون]. هذا عن سباق الآية موضوع بحثنا.

وبعدما دافع سبحانه عن شخصية رسوله من خلال ماجاءهم به من كتاب، هذا الكتاب الذي يؤكد سعة رحمتي بهذه الأمم، قال: ﴿ ليُنذر مَنْ كان حيّاً، ويحقَّ القول على الكافرين﴾ أي ليستفيد من تعاليم كتابنا هذا، من كان قلبه لازال ينبض بالحياة من أفراد هذه الأمم التي أهملت العمل بتعاليم رسلها، وبعيداً عن التعصب الأعمى والتقليد المقوت، فقد أنزلنا هذا الكتاب رحمة منّا بالذين يطلبون الحكمة أنىّ وجدت، ومن حيث جاءت.

وللقارىء الكريم أن يرجع إلى هذه السورة بكاملها. هذه السورة التي يتبرّك المسلمون بقراءتها في شتى المناسبات بسبب كونها قد أعطت رسول الإسلام المكانة اللائقة به وبرسالته بين جميع الأنبياء والمرسلين. للقارىء الكريم أن يرجع بنفسه إلى آياتها من خلال المنظار الذي وضعته بين يديه. وإني لعلى يقين تام، أنه مُدركٌ إدراكاً حقيقياً بُطلان ماجاء به الدكتور شحرور من مصطلح ومعنى لكلمة "الذكر" في "قراءته المعاصرة".

وإليكم أخيراً بعض اللاحظات التي تساعدكم على التبرؤ من مصطلح "ذكره" بصورة قاطعة ونهائية:

أولاً - لقد فرّق ربّنا بين تلاوة آيات كتابه ومابين الذكر بالواو العاطفة التي تعطف المتغايرات أو تعطف الخاص على العام. وذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران الآية ٥٨ ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ فالآيات المتلوة المنطوقة بلسان عربي مبين هي شيء. والذكر الحكيم بمعنى كتاب مُتصف بالحكم والمواعظ شيء آخر.

ثانياً - وخاطب ربّنا في سورة الأنبياء الآية (١٠٥) الأمم السابقة بقوله: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور، من بعد الذكر، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ أي أنه بالرغم من أننا وعدنا بني اسرائيل فما أنزل عليهم من كتاب حافل بالحكم والنصائح وعدناهم أن تكون الأرض لهم، لكنّا كتبنا في الزبور أيضاً [أن الأرض يرثها عبادي الصالحون] أي يرثها عبادي الصالحون لوراثتها، فلِمَ تغضون الطرف عن هذا وتتشبثون بذاك الوعد، وأنتم ماعدتم لوراثتها بصالحين؟.

ثالثاً - وتوجه الله عز وجل بقوله تعالى في سورة الفرقان ١٨ ﴿ولكن متّعتهم وآباءهم، حتى نسوا الذكر، وكانوا قوماً بوراً﴾، وتلاحظون كيف وصف سبحانه وتعالى ماأنزله إليهم من قبل "بالذكر" فهل يحق للاسرائيليين التفاخر بما

أُنزل إليهم لوصفه بصفة "الذكر". وأن عليهم الرجوع لفهم ماأنزل إليهم، إلى "أهل الذكر" أي اللغويين العرب بمصطلح الدكتور شحرور؟

إلى هنا أكون قد اجتثيت مصطلح "الذكر" كما جاءت به "القراءة المعاصرة" من جذوره، فالحمد لله ربه العالمين.

الفصل الخامس

بُطلان مصطلح "الفرقان" الذي ورد في "القراءة المعاصرة"

بسم الله الرحمن الرحيم

بُطلان

مصطلح "الفرقان"

الذي اصطلحنه "القراءة المعاصرة"

وطلعت علينا "القراءة المعاصرة" بمصطلح ومفهوم خاص لكلمة "الفرقان" في كتاب الله. خالف فيها صاحبها الدكتور شحرور، مفهوم هذه الكلمة سواءً من حيث اللغة وسواء من حيث النصوص القرآنية.

فما وصلنا بطريق التواتر واجتهادات جميع أئمة الدين الإسلامي، بل وجميع المسلمين هو أن كلمة "الفرقان" إنما هي إسم وصفي من أسماء المصحف الشريف، وعلى شاكلة "الذكر" و"القرآن" و "الكتاب".

والذي يؤسف له أسفاً شديداً هو أن يّدعى الدكتور شحرور أنه باحث يقدم "قراءة معاصرة" لكتاب الله، ويُغفل الرجوع إلى كتب اللغويين، إغفالاً تاماً فيما يتعلق بمفهوم كلمة "فرقان" فلا يقدم ولو سطراً واحداً حول معاني هذا اللفظ. في وقت كان قد زعم فيه تحت عنوان "الذكر" الذي نقضناه، أن "أهل الذكر" الذين ذكرهم كتاب الله ، هُمُ اللغويون العرب. وهم الذين يُرجع إليهم في فهم الكتاب. فلماذا لم يرجع إلى اللغويين لتعريفنا على معنى كلمة "فرقان"؟ وعلى أي أساس أقام مصطلحه؟ هذا أمرٌ نترك الإجابة عليه للدكتور شحرور نفسه. على اعتبار أنها خطوة لاتتفق وتقديم نفسه كباحث في كتاب الله العظيم.

وإننا لنعتبر بحث "الفرقان" ومصطلحه، كما ود في "القراءة المعاصرة" مثالاً بارزاً يثبت صحّة تسميتي لها "مجرد تنجيم" للأسباب البارزة التالية:

أولاً - إنه ادرج في مقدمة بحثه ست آيات، جاء فيها لفظ الفرقان مُعّرفاً بالألف واللام، فذهب إلى أن الفرقان شيء والكتاب شيء دونما أي تعليل لذلك ولادليل. ولمجرد أن ساقه تنجيمه إلى النتيجة المذكورة.

ثانياً - وانتقل فجأة إلى الآيات ١٥١/١٥٢/١٥٣ من سورة الأنعام ليزعم أن الوصايا الواردة فيها إنما هي الوصايا العشر الموسوية، فلم يعد إلى التوراة ليقارن بين هذا وذاك، بل فرض زعمه هذا لمجرد أن ساقه تنجيمه إليه. حتى وأنه جنح ليزعم أن الكتاب، نسبة إلى موسى وعيسى هو التشريع فقط، وليس التوراة والإنجيل. وأن الوصايا العشر هي غير الكتاب أيضاً.

ثالثاً - وأوصله تنجيمه المجرد عن الأدلة والأصول، إلى أن "الوصايا العشر" لم تنزل على موسى وحده، بل ونزلت على عيسى ومحمد صلوات الله عليهما أيضاً. معتبراً "الوصايا العشر" القاسم المشترك بين الديانات الثلاث، وتحمل الطابع الإنساني العام، وتمثل التقوى الاجتماعية الأخلاقية من دون العبادات، ووصف "الوصايا العشر" على أنها السّنام للأديان المذكورة.

رابعاً - ودفعه تنجيمه المجرد ليزعم بأن دُعاء سورة الفاتحة [اهدنا الصراط المستقيم] أريد به طلب الالتزام "بالوصايا العشر"، على اعتبار أنها النعماء التي فضل الله ربنا بسببها بني اسرائيل على العالمين. وقد سُميت هذه النعماء بالصراط المستقيم، وأن هذه الوصايا لاتتغير أبداً، وهي من ثوابت الدين الإسلامي، وهي "الفرقان" باصطلاح القرآن. هذه المزاعم لم يقدّم عليها أي دليل. وكأنه قد نصبّ نفسه محامياً عن اليهود وعن وصاياهم العشر، وهو بلباس مسلم يريد وجه الله تعالى كما يزعم ويقول.

خامساً - حتى وامدّه تنجيمه بمعلومات جديدة، زاعماً أن الكتاب نسبة إلى موسى هو الرسالة. وأن الحكمة هي الوصايا نسبة إلى عيسى، وأن التوراة هي النبوة نسبة إلى موسى كما أن الإنجيل هو نبوة عيسى، وأن مجموع هذا وذاك جميعه يشكل الكتاب المقدس.

سادساً - كما دلّه تنجيمه على أن الفرقان هو فرقانان: فرقان عام وفرقان خاص. العام نزل على جميع الأنبياء، بينما اختص الله سبحانه نبيه محمداً بالفرقانين معاً. ولم يقدم على تقسيمه المذكور أي دليل يُذكر.

وقبل أن أبدأ بتفنيد مزاعم الدكتور شحرور بما يتعلق ببحث "الفرقان". أضع بين يدي قارئي الكريم ماقدمه لنا اللغويون حول معاني كلمة فرقان. وزبدة ماقالوه هو: فَرَقَ امرؤٌ بين شيئين، فرقاً وفرقاناً: فصل أبعاضهما بعضها عن بعض. بهذا المعنى جاء في سورة الدخان [وفيها يُفرق كلُّ أمر حكيم] أي يُقضي في الأمور. وفي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿وقرآنا فرقناه﴾ أي فصلناه وأحكمناه، وفي سورة البقرة قال ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي فلقناه وفصلناه بعضه عن بعض. فإذا قيل: فرق لفلان أمرٌ من الأمور، يعني تبين واتضح. فإذا اشتق فعل فرّقة من مصدر التفرقة، يكون معناه بدّده ووزعه أي عكس جمعه. ثم إن الفاروق هو الشخص الذي يفرق بين الأمور ويفصلها بعضها عن بعض، على وزن فاعول على سبيل المبالغة. ثم إن كلمة الفُرقان كمصدر تفيد أي شيء يفرق بين الحق والباطل، ومابين النصر والبرهان. ومابين الصبح والسّحر، أو ماشاكل كانفراق البحر. وبهذا المعنى ورد قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وآتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ أي انفراق البحر وسواه من معجزات.

ومن خلال ماأورده اللغويون يتبين جلياً لنا بأن كلمة (فرقان) تدور معانيها واشتقاقاتها حول موضوع امتياز أمر عن أمر، وترجيح كفة على كفة، وجانب عن جانب آخر، وتمييز بعضهم عن بعض.

والذي يستخلص من هذا المعنى لاعلاقة له بالوصايا السلوكية ولا بالصراط المستقيم ولابتقوى اجتماعية كما ذهب إلى ذلك الدكتور شحرور.

ومادام الأمر كذلك. حق لنا اتهام هذا الأخ المسلم أنه يأتينا بأفكارٍ "مسبقة الصنع"، لاأساس لها من كتاب الله القرآن العظيم. ولانتساءل عن أهدافه البعيدة، ونكل أمره إلى الله عز وجل.

وحتى توقنوا بما جاء به اللغويون العرب من معنى للفرقان. تعالوا إلى الآية ٢٩ من سورة الأنفال، وانصتوا إلى قوله عز وجل وهو يوجه خطابه إلى المؤمنين بقوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا، إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾ ويبدو واضحاً من خطابه سبحانه أنه يطلب من عباده المؤمنين ليعاهدوه على انتهاج نهج التقوى، عهداً لارجوع عنه. لماذا؟ حتى يجعل للمتقين منهم "فرقاناً" يتميزون بواسطته عن الكافرين.

وقد سبق أن شرحت نهج التقوى الذي جاء به الإسلام عند بحث قوله عز وجل ﴿يؤمنون بالغيب﴾ من ثاني آيات سورة البقرة. وقد كانت خلاصة هذا النهج التقووي أنه دعوة عامة لانتهاج سلوكية متيمزة عن سلوكيات الأفراد الماديين، وقائمة على أسس اخلاقية ذات منطلق روحي مستند إلى الفطرة البشرية كحقيقة ثابتة.

ومعلوم أن صحابة رسول الله ضربوا المثل الأروع في انتهاجهم لنهج التقوى الذي جاء به الإسلام، الأمر الذي يعني أن الله عز وجل صدقهم وعده، وجعل لهم فرقاناً، ميزهم به عن الكافرين، فما هي معالم الفرقان المذكور؟ تجلّت معالم هذا الفرقان في نصرة الله إياهم وتأييده لهم بشكل معجز في جميع الحروب التي خاضوها ضد اعداء الله، الأمر الذي ميّزهم عن اعداء الله بصورة لازالت تتحدث عنها الأجيال والتواريخ. وإن الله عز وجل ذكّرهم بهذه النصرة وذاك التأييد، ليعلموا أنه صدقهم وعده وجعل لهم فرقاناً بقوله عزّ وجلّ: ﴿وماأنزلنا علي عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان﴾ الأنفال ٤١، فهو سبحانه وتعالى أطلق على يوم بدر، إسم يوم الفرقان. بسبب أن فئة بدر المؤمنة جميعهم رأوا بأم أعينهم كيف أن ربهم صدقهم وعده،وجعل لكل واحد منهم فرقاناً،أي امتيازاً خاصاً. حتى ظلّوا طوال بقية حياتهم يشار إليهم بالبنان ويُقال عن الواحد منهم أنه بدري أي من فئة من خاضوا معركة بدر الشهيرة.

ولقد ميّز الله المؤمنين المتقين على جميع الصُعُد: على صعيد التضحيات بالنفس، والنّفيس وفعل الخيرات والطاعة لله ولرسوله ولخلفائه.

المهم في الأمر أننا بين أمرين لاثالث لهما: إما أن الله تعالى وفى بوعده الذي وعده عباده المؤمنين المتقين. وإما أنه أخلف وعده (والعياذ بالله). ومادام قد وفى الله بوعده، فليس بإمكاننا تبيّن معالم هذا الفرقان الذي جعله لأولئك المؤمنين إلا فيما ذكرناه.

أما الدكتور شحرور فيزعم أن الفرقان هو الوصايا العشر الموسوية، ولايُعطي "الفرقان" أي معنى آخر سواه. يزعم هذا بدون تقديم أي دليل مُقنع. وكل ماهنالك أنه توصل إلي هذا الفهم عن طريق "التنجيم" المجرد من كل أسس وأصول، ولاأذكر أني قرأت ليهودي أنه نسب الفرقان إلى وصايا نبيه العشر كما يدعي هذا المسلم.

وزبدة الكلام تتلخص في أن كلمة "الفرقان" استعملت في كتاب الله تعالى، بما قاله اللغويون وهو التمييز بين الحق والباطل أو تمييز جهة عن جهة بدعم خاص من رب العالمين.

وبالرغم من وضوح هذا الأمر فها أني اتدرج مع هذا الأخ المسلم خطوة خطوة مع كل خطوة خطاها تحت عنوان "الفرقان" وإني سأناقش كلّ ماكتبه بروح التسامح وبطريقة علمية وبسلاح الحجة والبرهان.

وكانت خطوته الأولى أن استهل بحثه ومصطلحه بسرد ست آيات هي:

﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ البقرة ٥٣.

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾ البقرة ١٨٥.

﴿وأنزل التوراة والإنجيل، من قبلُ هدى للناس، وأنزل الفرقان﴾ آل عمران٣-٤.

﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان، وضياءً، وذكراً للمتقين﴾ الأنبياء ٤٨

﴿تبارك الذي نزّل الفرقن على عبده، ليكون للعالمين نذيراً﴾ الفرقان ١

﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان﴾ الأنفال ٤١.

وأضاف تحتها: (جاء لفظ الفرقان في ستة مواضع في الكتاب. وفي هذه المواضع الستة جاء مَعرّفا، فأول ماجاء لفظ "الفرقان" لموسى عليه السلام، وجاء معه الكتاب. أي أن الفرقان جاء إلى موسى على حدة، وجاء الكتاب على حدة، ففرّقا عن بعضهما. وهذا الفرقان قال عنه في سورة آل عمران: إن الفرقان والتوراة والإنجيل أنزلت قبل أن يأتي الكتاب إلى النبي ﷺ، ثم إن الفرقان الذي أنزل على موسى، هو نفسه الذي أنزل على النبي ﷺ في رمضان [شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان] البقرة ١٨٥. وبما أن الفرقان جاء معطوفاً على القرآن، يُستنتج أن الفرقان غير القرآن. وهو جزء من أم الكتاب "الرسالة". وأنزل ونُزّل في رمضان. وهذا الجزء أول ماأنزل إلى موسى عليه السلام، فما هو الفرقان الذي جاء إلى موسى على حدة مفروقاً عن الكتاب؟).

أثار الدكتور شحرور في خطوته الأولى التي نقلناها النقاط التالية:

١- أن لفظ الفرقان ورد في الآيات الستة التي ذكرها مُعرفاً بالألف واللام، وبلا استثناء. وتساءل: لماذا؟ فلم يُجب هو نفسه على السؤال الذي طرحه، ولا علل هذا لأمر بشكل من الأشكال. أثار هذا وكأنه مُسلّمة وبديهية يعرفها أهل الديانات.

٢- زعم أن الفرقان غير الكتاب عند اليهود. وأنه أنزل قبل الكتاب. لذلك فرّقا عن بعضهما بعضا في الآية الكريمة. واستدل بالآية الثالثة والرابعة من سورة آل عمران على أن الفرقان قد نزل على موسى وعيسى قبل أن يتلقى محمد رسول الله كتاب الله العظيم.

٣- ثم زعم، ومن غير تقديم أي دليل مُقنع، أن الفرقان الذي أُنزل على موسى. هو نفسه الذي أُنزل على محمد رسول الله في شهر رمضان. معتبراً القرآن غير الفُرقان، بسبب وجود أداة العطف بينهما، ومعتبراً الفرقان جزء من "أم الكتاب" الرسالة بمصطلحه أي الآيات المحكمات. هذا المصطلح الذي سبق أن نقضناه.

٤- كما زعم أن الفرقان أُنزل على موسى قبل التوراة، ودونما تقديم أي دليل تاريخي يدعم زعمه المذكور.

والآن فلنفنّد هذه النقاط ونبين نواحي زيفها وبُطلانها:

أما مايتعلق بالنقطة الأولى فهو لفت نظرنا إلى إن كلمة "الفرقان" وردت مُعرفّة بالألف واللام في الآيات الستة.لكنه لم يعلّل لنا سبب هذا التعريف ولا دلالته اللغوية. وكأنه مُسلّمة وبديهية. وبدلاً من أن يقوم بهذه المهمة أنهى النص بسؤال طرحه (فما هو الفرقان الذي جاء إلى موسى على حدة مفروقاً عن الكتاب؟). وإنه مُطالب بشرح دلالة التعريف هذه.

وأما مايتعلق بالنقطة الثانية التي زعم فيها أن الفرقان غير الكتاب عند اليهود، فهذا إدعاء كان بحاجة لتقديم دليل تاريخي يثبته. فإذا فسرنا القرآن الكريم بما يخالف النصوص التاريخية، يتوجب علينا إثبات صحة ماأخذناه من القرآن ليكون أداة إقناع في مواجهة أصحاب الديانات السابقة، وإنه لايوجد لدى اليهود ولا النصارى فكرة عن هذا الإدعاء الذي إدعاه الدكتور شحرور على حسب علمي. فهل يجوز لباحث أن يُغفل تقديم الدليل التاريخي؟

أما استدلاله بسورة آل عمران من أن الفرقان والتوراة والإنجيل أنزلت قبل أن يأتي الكتاب إلى النبي ﷺ على حد قوله، فبإمكان القارىء الكريم العودة إلى فصل الآيات المحكمات والمتشابهات ليجد هناك الدليل المقنع على بُطلان هذا الاستدلال. ذلك أني اثبت هناك من أن الفرقان المذكور يُقصد به القرآن نفسه وليس شيئاً آخر. وبالإمكان الرجوع إليه.

أما مايتعلق بالنقطة الثالثة من أن الفرقان الذي أنزل على موسي هو نفسه الفرقان الذي أنزل على محمد ﷺ في شهر رمضان فهو إدعاء جديد مُطالب عليه بالبرهان القاطع.

ونقول إن الفرقان على ضوء التحليل اللغوي الذي سبق أن قدمته لكم. يعني ظاهرة التمييز بين الحق والباطل ليس إلا. ولايُستفاد منه معنى التعاليم السلوكية، وعندما يُعطف الفرقان على الكتاب بواو المتغايرات،فهذه حقيقة عبّرت عنها واو العطف، ولايُستفاد منها أن الفرقان هو تعاليم سلوكية.

لنأخذ قوله عز وجل في سورة البقرة ٥٣. هذه الآية الأولى من ضمن الآيات الستة التي استعرضها هذا الأخ المسلم، قال تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ وإن في قوله تعالى [لعلكم تهتدون] توضيح حقيقة ماآتى الله بني اسرائيل. وبالرجوع إلى تاريخهم يتبين أنهم مرّوا بمرحلتين زمنيتين بارزتين. المرحلة الأولى منهما ماقبل مغادرتهم القطر العربي المصري. والمرحلة الثانية منهما مرحلة التيه في سيناء ووفاة موسى عليه اسلام هناك قبل قيامهم بغزو فلسطين العزيزة.

ففي المرحلة الأولى لم تتنزل على موسى أية شريعة أو ماسوى ذلك. بل كل ماجرى هو أن اليهود كانوا مقهورين إلى أبعد الحدود على أيدي فرعون وجنوده لأسباب جوهرية لامجال للتطرق إليها هنا. وقد كلّف الله عز وجل نبيه موسى من بعد أن ربّاه على عصبية قومية متميزة تمكنه من تأدية مهمته. أقول كلّفه بإيقاظ هذه العصبية في قومه وتحريضهم على التجمع لمغادرة مصر،بأمر من الله عز وجل.

ولم يؤمر موسى بهذه المهمة على أن يقوم بها على طريقة التجّمع الحزبي. بل على طريقة التجّمع الديني، قام بمهمته في مواجهة فرعون، وجعل الله تعالى المواجهة بينه وبين فرعون "فرقاناً" فرقَ بواسطته مابين باطل فرعون والحق الذي بُعث به موسى. وكُلّنا يعلم تلك المعجزات التي ظهرت على ايدي موسى في مواجهة فرعون. تلك المعجزات التي وحّدت صفوف الاسرائيليين وراء موسى عليه السلام. وبسبب أن آتى الله موسى وقومه هذا "الفرقان" أي هذه الأسباب التي ميزت حقهم عن باطل فرعون. تمكن موسى من تجميع قومه ومغادرة مصر إلى سيناء. وهذا لايعني أن جميع الاسرائيليين قد هاجروا معه، والتاريخ يُخبرنا بأن الاسرائيليين كانوا دخلاء أصلاً على المصريين وأرض النيل، ذلك أن قصة يوسف معروفة.

على ضوء هذا التحليل التاريخي ورد قول الله عز وجل ﴿وإذا آتينا موسى الكتاب والفرقان، لعلكم تهتدون﴾ بمعنى أن هدايتكم أيها الاسرائيليون تمت على مرحلتين: مرحلة تجميعكم حيث آتيناكم "فرقاناً" هداكم إلى أن موسى لايكذب عليكم بل هو مُرسل من ربكم. ومرحلة عبوركم البحر الأحمر إلى سيناء فقد آتيناكم الكتاب أي مجموعة التعاليم التي لقناها هذا الرسول، لتكون هذه التعاليم التي يمكن التعبير عنها بكلمة كتاب، لُغةً، سبباً جديداً في هدايتكم وتطويركم على طريق خلاصكم من عبودية فرعون.

بهذا الفهم، وعلى ضوء المعطيات اللغوية والتاريخية، نكون قد أدركنا بطلان مازعمه الدكتور شحرور من أن الفرقان الذي أنزل على موسى هو الفرقان الذي أنزل على محمد رسول الله. فما الفرقان بتعاليم سلوكية حتى نسمح لأنفسنا بمجرد المقارنة بين الفرقانين.

وأما مايتعلق بالنقطة الرابعة من أن الفرقان أنزل على موسى قبل التوراة، فهو لم يقدم أي دليل تاريخي يدعم رأيه. وإن الذي بيّناه في الجواب على النقطة الثالثة، يفيد في هذا المجال، فصحيح أن المرحلة الأولى من حياة الاسرائيليين اقتضت أن يؤتيهم ربهم "فرقاناً" من قبل أن ينزل التوراة.

إلى هنا نكون قد اثبتنا زيف ماورد في خَطوة الدكتور شحرور التي خطاها على طريق مصطلح "الفرقان" في قراءته المعاصرة.

ولما كان قد استدل بآية سورة البقرة ١٨٥، في هذه الخطوة ليزعم أن القرآن شيء وأن الفرقان شيء آخر من خلالها، بسبب أن الفرقان جاء معطوفاً على القرآن. فهذا استدلال باطل على شاكلة جميع استدلالاته. ولايجوز لي المرور على هذا مرور الكرام. وهذا الاستدلال إن دلّ على شيء، فهو قد دلّ على جهل هذا الأخ المسلم بكتاب الله وآياته جهلاً مُطبقاً.

إن الآية ١٨٥ من سورة البقرة المذكورة.

أولاً- ألغتْ الأسم الذي اشتهر بشهر (ناتق)، واستبدلته باسم شهر رمضان، المشتق من الرمضاء أي الحر الشديد، إشارة إلى أن الله سبحانه قد قرّر أن يكون هذا الشهر أداة تطهير لعباده المؤمنين، ولدفعهم على طريق العروج الروحي. ذلك أن تطهير الاشياء يتم عن طريق الماء الساخن إلى درجة عالية. وإلى هذا اشار إسم رمضان.

ثانياً - وحددت لنا هذه الآية الكريمة تاريخ البدء بنزول الوحي القرآني حيث اثبتت الروايات الموثوق بها أن بدء الوحي تم في غار حراء في الأسبوع الأخير من شهر رمضان. وحكمة هذا أن يوقن المؤمن الصائم بثمار هذا الصيام التي لابد أن يقطفها في آخر أسبوع من هذا الشهر، إذا صام صياماً حقيقياً. وماقوله عز وجل ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ إلا من قبيل اطلاق الجزء على الكل، وكان هذا تجوزاً لغوياً.

ثالثاً - فلو كان الفرقان شيء والقرآن شيء آخر وإنه من "أم الكتاب"، لتوجب أن تكون ألفاظ الآية الكريمة على شكل آخر وهو (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن والفُرقان هدى للناس..) وتكون الواو العاطفة حينئذ قد عطفت شيئين متغايرين.

رابعاً - وكلمة (هُدى) في الآية مصدر بمعنى فاعل أي أن القرآن أنزله الله ليهدي به عباده. كما أن كلمة (بينات) مفردها بيّنه، ومعناها الدلالة الواضحة، عقلية كانت أو محسوسة. كما بيّن ذلك صاحب المفردات. وكلمة (فرقان) تعني التفريق بين الحق والباطل كما سبق أن بيّناه، وإن الواو العاطفة في كلمة (والفرقان) عطفته على [بينات من الهدى] ولم تعطفه على القرآن.

ولنستعرض الآن الآية بكاملها. قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هُدى للناس وبينات من الهدى، والفرقان، فمن شهد الشّهر فليصمه، ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيّامٍ أُخر، يُريد الله بكم اليُسر، ولايريد بكم العُسر، ولتُكملوا العدّة، ولتكبّروا الله على ماهداكم، ولعلكم تشكرون﴾.

ونقول باختصار إن هذه الآية الكريمة نموذج من نماذج المراسيم الإلهية، التي أصدرها سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لصالح بني نوع الإنسان. والدليل الأول على أنها مرسومٌ إلهي يتعلق بفريضة الصيام ماقبلها ومابعدها من آيات.

فقد قال عز وجل قبلها ﴿ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام، كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ وهذا تمهيد لإصدار المرسوم الإلهي بما تعلّق بفريضة الصيام، وقد قال عز وجل بعدها ﴿وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب، أجيب دعوة اداع إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلّهم يرشُدون﴾، وهذا بيان للغاية من الصيام شهراً كاملاً، وهو التوجه إلى الله والتضرع بين يديه والتوبة

والغفران. مع بيان شروط استجابة الدعاء، الأول منها [فليستجيبوا لي] أي ليصوموا ويتبّلوا وفقاً لما اصدرته من مرسوم بدقة تامة، وثانيها [وليؤمنوا بي] أي أن يندفعوا على هذا الطريق وحين التطبيق بيقين لايتزعزع من أنني مُتقبّل تضرعاتهم يقيناً، فالإيمان هنا لايقصد به الإيمان العام، بل يقصد به الإيمان الخاص بأن الله جدّ قريب ويجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وحينما أنهى سبحانه الآية بقوله [لعلّهم يرشدون] وضّح من خلاله ماذكرت وهو أن الصائم إذا تقيد بهذه الشروط لابد بالغ رشده.

ولنعد أدراجنا بالكلام عن هذا المرسوم الإلهي الذي تضمنته الآية التي استدل بها الدكتور شحرور عن جهالة بمضمونها. فنلاحظ أنه مرسوم إلهي جاء على أرفع المستويات من حيث الصياغة، ومن حيث أنه جاء مؤيداً بحيثّياته وموجباته، مع بيان أحكام ثلاثة مرفقة بفلسفاتها.

والذي يعلمه أصحاب الحلّ والربّط أن إصدار المراسيم لايقوم به إلا مختصون وحقوقيون. وإن الله عز وجل تحدى في صياغة مرسومه المذكور أعاظم المختصين في حقل اصدار المراسيم.

وإنه سبحانه وتعالى عندما مهّد لإصدار مرسومه بقوله ﴿ياأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام، كما كُتب على الذين من قبلكم، لعلكم تتقون﴾ قام بهذا التمهيد ليحرك في أذهان المؤمنين سؤالاً يطرح نفسه وهو : كيف نصوم، وفي أي شهر نصوم، وكم عدّة أيام الصيام، وماهي الغاية من هذا الصيام؟ وأصدر سبحانه وتعالى مرسومه مستوفياً الإجابة على جميع فروع هذا السؤال المطروح.

أولاً - تضمن المرسوم استبدال الأسم الجاهلي لشهر الصيام (ناتق) بإسم جديد ألا وهو (رمضان). وقد سبق أن شرحت الحكمة من ذلك التبديل، وحتى يؤكد سبحانه وتعالى استبدال شهر (ناتق) بالذات، قال ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ ملفتاً النظر إلى الشهر الذي ابتدأ فيه نزول القرآن. حدث هذا في الأسبوع الأخير منه. ولقد أورد سبحانه الأسم الوصفي لكتابه (القرآن) في صياغة مرسومه هذا تذكيراً للمؤمنين بأنه حقق لهم وعوده. وبما أن الآيات اتخذت شكل كتاب مقروء بكثرة فلم يكن المقصود إنزال الكتاب كله بل ابتداء نزوله وقد علّلت لكم هذا سابقاً.

ثانياً - وعندما قال [هدى للناس] وضح سبحانه بواسطة هذين اللفظين الصفة العالمية لمرسومه. كيلا يظن ظان أن الصيام قد فُرض على العرب وحدهم. وانتخب لفظ الناس خاصة لاليشير به إلى جميع بني نوع الإنسان. بل ليشير إلى الذين يأنسون صدق الإسلام منهم خاصة. مُعلناً بأن هذا الكتاب، دعوة عامة إلى جميع الناس من حيث أنه لايسرد مجرد مراسيم وأحكام، بل ويحمل معه اسلحة بيّناته وبراهينه التي تفرق الحق من الباطل. وإلى هذه النقاط بالذات قال سبحانه في صيغة مرسومه [وبينات من الهدى والفرقان] وإنه سبحانه بهذه الإضافة اشار إلى ماسيواجهه كتابه من نظريات وفلسفات، وضرورة تفنيد مُعطياتها وركائزها بسلاح البيّنات والدلالات الفرقانية.

إلى هنا يكون المرسوم الإلهي قد استوفى ذكر موجباته وحيثياته، لذلك نلاحظ انبراء المرسوم لتعداد ماجاء يحمله من أحكام. وكانت أولاها [فمن شهد منكم الشهر فليصمه]، وأراد من تعريف (الشهر) بالألف واللام الإشارة إلى شهر (ناتق) الذي استبدله المرسوم الإلهي بإسم شهر رمضان. تنبيهاً إلى أن صيام هذا الشهر يساعد على تطهير المؤمنين من أمراضهم الروحية، فهو ضرورة مُلّحة وعلى اعتبار أنه شهر غذاء روحي.

وكان الحكم الثاني الذي جاء به هذا المرسوم الإلهي، الترخيص للمريض والمسافر بالإفطار شريطة أن يصوم أياماً بديلةً عن أيّام افطاره. عبّر عن هذا بقوله ﴿ومن كان مريضاً، أو على سفرٍ، فعدةٌ من آيَام أُخر﴾.

إلى هنا يكون هذا المرسوم قد تضمن أحكاماً ثلاثة كان أولهما استبدال شهر ناتق باسم رمضان. توجه سبحانه وتعالى بعدها إلى بيان حكمة وفلسفة هذه الأحكام. من منطلق أن كتاب الله يحمل معه أدلته وفلسفة تعاليمه.

أولاً - وضّح حكمة وفلسفة استبدال اسم ناتق باسم رمضان الدّال على الرّمضاء والشدة والحرّ، فقال ﴿يريد الله بكم اليُسر، ولايريد بكم العُسر﴾ مُنوّهاً بأن صومكم وامتناعكم عن تناول الطعام والماء، ماهو إلا لصالحكم، فلا يريد الله من ذلك عُسركُم بل يُسركُم. أي أن هذا الصيام سييسر لكم التقدم الروحي الضروري لتحقيق الغاية من خلقكم، فهو شهر غذاء روحي لاتقوم حياتكم الروحية بدونه.

ثانياً - ووضح ضرورة صيام شهر كامل غير منقوص بقوله ﴿ولتكملوا العدة﴾بمعنى أن غذاء الروح يحتاج إلى صيام شهر كامل من أشهر السنة غير منقوص.

ثالثاً - ووضّح ثمرات صيام شهر رمضان بقوله ﴿ولتكبروا الله على ماهداكم، ولعلكم تشكرون﴾ أي أن لصيام هذا الشهر ثمرات روحية أبرزها أن تستذكروا سنوات غار حراء التي قضاها محمد رسول الله متبتلاً متفكراً متضرعاً، وكيف أن أيّام التبتل والتفكر والتضرع ضرورية للعبد، كغذاء روحي، يصل به من حيث النهاية إلى الاتصال بربه وتلقي كلامه المقدس، فبصيامكم لشهر رمضان ستتذوقون شيئاً مما تذوّقه رسولنا في غار حراء.

كما أن من أبرز ثمار شهر الصوم هذا [لعلكم تشكرون] أي أن صيامكم هذا سيدفعكم على طريق تقدير أفضال الله عليكم وشكره على نعمائه. الأمر الذي سيزيدكم انجذاباً نحو بارئكم.

إلى هنا يكون المرسوم الإلهي قد استوفى موجباته وحيثياته وأحكامه الثلاثة وفلسفاتها، وتكون هذه الأمور كلها قد صيغت صياغة بلاغية معجزة وبأسلوب تميّز به كتاب الله عزّ وجلّ عماّ دونه من كتب سماوية سابقة، وكتب وضعيه.

وإنه سبحانه وتعالى، بعد إصداره لمرسومه المذكور، توجه بالقول ﴿وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعاني، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون﴾ وقد شرحناها.

على هذه الصورة، يظهر مما أسلفناه، بُطلان وزيف ماجاء في الخطوة الأولى التي خطاها الدكتور شحرور، ولننتقل إلى خطوته الثانية.

فالدكتور شحرور في خطوته الثانية كشف عن وجهه جلياً من أنه لايتدبر سباق آيات الله ولاسياقها، بل يعمد إلى التنجيم والتخمين والحرز في فهمه للآيات.

تصوروا أنه افتتح خطوته الثانية بقوله ص ٦٥ (لو تأملنا الآيات (١٥١، ١٥٢، ١٥٣) من سورة الأنعام، وهي:

[قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم

١- ألا تشركوا به شيئاً.

٢- وبالوالدين إحساناً.

٣- ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم.
٤- ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن.
٥- ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق
ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون] الأنعام ١٥١
٦- ولاتقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلُغ أشُدّه.
٧- وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لانُكلف نفساً إلاّ وسعها.
٨- وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قُربى.
٩- وبعهد الله أوفوا.
ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون] الأنعام ١٥٢
١٠- وأنّ هذا صراطي فاتبعوه، ولاتتبعوا السُّبُل فتفرق بكم عن سبيله
ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون] الأنعام ١٥٣

أقول - والكلام لازال للدكتور شحرور - لو تأملنا هذه الآيات لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنّها هي الوصايا العشر، ولنلاحظ الآية التي تلت هذه الآيات الثلاث، وهي الآية ١٥٤ الأنعام: [ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن، تفصيلاً لكل شيء وهُدىً ورحمةً لعلّهم بلقاء ربهم يؤمنون].

هنا نلاحظ بشكل جلي كيف أنّ هذه الوصايا جاءت لموسى مفصولة عن الكتاب، وأنّ الكتاب لموسى وعيسى هو التشريع فقط، وليس التوراة والإنجيل، وذلك واضح تماماً في قوله تعالى عن عيسى: ﴿ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ آل عمران ٤٨) ص٦٥-٦٦.)

وأقول: إن هذه الخطوة تعتبر مثالاً واضحاً على أسلوب الدكتور شحرور في التنجيم والتخمين والحرز، وعدم مراعاة السّباق والسّياق لكلام الله عزّ وجلّ. إنه يتناول آيات الله وكأن كلام الله لايتصف بالتسلسل الموضوعي والعياذ بالله.

إن صاحبنا عندما قال (لو تأملنا هذه الآيات) ويقصد بها الآيات الثلاث (١٥١-١٥٢-١٥٣) من سورة الأنعام التي قسمها على مزاجه من الواحد إلى العشرة مع أنها ثلاثة آيات فقط قال (لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنّها هي الوصايا العشر) أقول لو أن صاحبنا راجع الآيتين السابقتين لهذه الآيات لأدرك خطأ استنتاجه وتخمينه، ذلك أن الكلام في هذه

الآيات الثلاث متعلق بالمشركين وليس باليهود أو بموسى وبما أنزل عليه. وهاكم هاتين الآيتين، علماً بأن سورة الأنعام أنزلها ربّنا في مكة، حيث قال: ﴿سيقول الذين أشركوا، لوشاء الله ماأشركنا ولاآباؤنا، ولاحرّمنا من شيء، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتُخرجوه لنا، إن تتبعون إلاّ الظن، وإن أنتم إلاّ تخرُصون، قل فلّله الحُجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين. قل هَلُمَّ شهداءكُم الذين يشهدون أنّ الله حرَّمَ هذا، فإن شهدُوا، فلا تشهد معهم، ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدِلُون﴾.

ندرك من خلال هاتين الآيتين الكريمتين الأمورالتالية:

أ - الخطاب موجه إلى المشركين، وإلى مشركي مكة بالذات، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين ابراهيم الخليل.

٢ - يعرض سبحانه وتعالى حجة هؤلاء المشركين التي يحتجون بها لرفض ماجاءهم به محمد رسول الله، وهو زعمهم أنهم لوكانوا مشركين حقاً، فلما كان قد تركهم ربهم يشركون، وكانوا لايحرّمون ماكان حلالاً لهم.

٣ - يطالبهم الله ربّنا بالدليل والبرهان على مايزعمونه. ويتهمهم في الوقت نفسه بإقامة عقائدهم على أساس من الظن وليس على أساس من دليل. وينبّههم في الوقت نفسه أيضاً إلى أنه لم يأتهم محمد رسوله بالظّنون، بل بالحجّة البالغة.

٤ - ويطالبهم في حال فُقدان "البينة المادية" لديهم بتقديم "الشهادة" أي تقديم شهود أحياء يشهدون على صحة عقائدهم. ويستدرك سبحانه وتعالى منبهاً رسوله إلى أن شهادات الشهود غير مقبولة في هذه القضية التي مرّ عليها ألوف السنوات والتي تعود لزمن بعثة ابراهيم عليه السلام.

وبعد أن أثار ربنا هذه النقاط الأربع. كان لزاماً أن يدلي بالحقيقة التي غابت معالمها خلال ألوف من السنوات مضت. فتوجه سبحانه وتعالى لبيان ماأنزله على نبيه ابراهيم من تعاليم، متحدياً الإتيان بما يخالفها. فقال عز وجل موجهاً خطابه إلى هؤلاء المشركين ﴿قل تعالوا أتلُ ماحرم ربكم عليكم...﴾.

وإنه سبحانه وتعالى، بتقديمه لهذا الحوار وماتضمنه من تعاليم. يكون وبأسلوب الحاذق قد اعطانا فكرة واضحة عن الفترة الزمنية المتعلقة ببعثة ابراهيم، والمستوى الذي بلغته البشرية في منطقتنا حين بعثته من وعي، وماتخلّلها من مفاسد اقتضت إنزال تلك التعاليم.

على هذه الصورة تتبين لنا معالم فساد وزيف وخطأ قول صاحبنا الدكتور شحرور (لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنّها هي الوصايا العشر). إن صاحبنا حين أجهد فكره هنا وحاول الاستنتاج والتخمين. ماكان ليفعل هذا لو أنه أزعج نفسه وطالع الآيتين السالفتي الذّكر واللّتين تشكّلان سباق هذه الآيات الثلاث. فهو أخطأ حين أهمل التسلسل الموضوعي، واعتمد اسلوب التنجيم والتخمين. وقد ثبت من خلال هذا التسلسل الموضوعي أن لاعلاقة لتعاليم هذه الآيات ووصاياها، بتعاليم الوصايا العشر التي اشتهر أنها أنزلت على موسى عليه السلام.

وإن مايؤكد عدم علاقة تعاليم هذه الآيات بالوصايا العشر، قول الله سبحانه وتعالى بعدها مباشرة: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكل شيء، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾.

أولاً - استعمل سبحانه وتعالى الحرف (ثمّ) الذي يعني الترتيب الزماني والمكاني، وهو نبهنا بواسطة الحرف (ثم) إلى أنه انتقل من الكلام عن المشركين وماأنزل على جدّهم ابراهيم عليه السلام من تعاليم للكلام عن بعثة موسى عليه السلام، وماأنزل عليه من تعاليم أوسع دائرة وتفاصيل أدق مما أنزله على ابراهيم، يثبت من خلال ذلك تدخّل ربوبيّته في أمر تطوير شعوب هذه المنطقة من العالم، وليُشعر المشركين مدى بُعدهم عن الاستفادة من ثمرات ماأنزله رب العالمين، ليستيقن العاقل منهم ضرورة الاهتمام والإيمان بما ينزله ربهم على محمد رسول الله، فإلى هذه الحكمة اشار سبحانه وتعالى بقوله في آخر الاية [... لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون].

ثانياً - وعندما قال سبحانه وتعالى: ﴿آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء﴾ فمناسبة ذلك الإشارة إلى أن التعاليم التي أنزلت على ابراهيم كانت مجملة ومحدودة دوائرها. بسبب أن إنسان ذاك الزمان ماكان مؤهّلاً لتلقي تعاليم مفصلّه وكاملة. خصوصاً وأن نقائص بيئة ابراهيم ماكانت بهذه السعة والشمولية أيضاً. وأن حكمة الله اقتضت ألاّ يُنزل على نبيه ابراهيم من تعاليم غير ضرورية لزمانه.

وإنه سبحانه وتعالى وضحّ لنا من خلال الفاظ الآية المذكورين أنه أنزل على موسى تعاليم تامة في مضامينها وأحكامها، وعلى صورة أحسن مما أنزله على ابراهيم. كما امتازت تعاليم موسى بتفصيلها لكل شيء من الأشياء والأمور التي تلقى تعاليمها.

ثالثاً - وهو سبحانه وتعالى بهذه الألفاظ ينفي نفياً قاطعاً، نزول الوصايا العشر على موسى عليه السلام، على اعتبار أن نبيه موسى تلقى شريعة كاملة الابحاث والمضامين. وإن تكن تلك الشريعة محدودة ببني اسرائيل، وذات طابع قومي. وكأنه سبحانه وتعالى أشار بذلك أيضاً إلى الضرورة التي استلزمت نزول الشريعة الإسلامية تداركاً لتلك النقائص التي تجلت في شريعة الموسويين.

ولنتناول مصطلح (الوصايا العشر) الذي طلع به علينا هذا الآخ المسلم، فالسؤال المطروح: من أين استقى صاحبنا هذا الاصطلاح؟ وماهي الوصايا العشر الذي يعنيها؟

وأقول إنه لاأساس لهذا الاصطلاح إلا في تصورات بعض من لم يتدارسوا كتابهم، ولم يفهموا ماجاء به نبيهم من اسرائيليين ونصارى.

والذي يرجع إلى التوراة المحرّفة التي هي بين أيدينا لايلاحظ فيها مصطلح الوصايا العشر. وإليكم ماورد فيها من نصوص. ورد في سفر الخروج الاصحاح ١٢/٢٤-١٣ (وقال الرب لموسى اصعد إليّ إلى الجبل وكُن هناك. فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم) كما ورد في سفر الخروج أيضاً الاصحاح ٢٨/٣٤ (فكتب على اللوحين كلمات العهد والكلمات العشر).

ومن مطالعتنا لهذه التوراة المحرفة يتبين لنا أنها خالية من ذكر هذه الكلمات العشر، كلمات العهد التي صرح بها هذان النصان التوراتيان.

ولما كان كتاب الله القرآن قد أنزله الله سبحانه وتعالى فرقاناً. ومهيمناً على الكتب السماوية السابقة، ومصححاً لتعاليمها المحرفة، وناسخاً إياها. فقد عدنا إلى كتاب الله العظيم، لنجد أنه عزّ وجلّ أعطانا الصورة الحقيقية لما تضمنته نصوص التوراة المحرفة المذكورة، وبشكل منطقي ومعقول.

قال تعالى في سورة الأعراف ١٤٥-١٤٦ ﴿قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين. وكتبنا له في الألواح من كل شيء، موعظة وتفصيلاً لكل شيء، فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا

بأحسنها، سأوريكم دار الفاسقين﴾ وفي الآية ١٥٠ من نفس السورة قال تعالى ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، قال بئسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه...﴾ وفي الآية ١٥٤ من نفس السورة قال تعالى ﴿ولما سكت عن موسى الغضب، أخذ الألواح، وفي نُسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾.

هذه النصوص القرآنية تنفي وجود (وصايا عشر) نفياً قاطعاً، وتصرح بأن ماجاء في الألواح كان أكثر من عشر وصايا بكثير. ورد فيها موعظة وتفصيلاً لكل شيء. وهذا الأمر يتفق وقوله عز وجل في سورة الأنعام ١٥٤ ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً، على الذي أحسن. وتفصيلاً لكل شيء، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾.

ولابد أن القارىء أدرك بُطلان مصطلح الوصايا العشر الذي راج استعماله بين اليهود والنصارى خطأً. ذلك أن ماورد في النّص التّوراتي (فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية) هو كلام مشوّش ومتناقض، يفرق بين كلمات العهد في الحجارة، عن الشريعة، وعن الوصية. وهذا التفريق يقوم به كاتب غير مُثقّف. أما العالم فلا يمكنه الأخذ بهذا التمييز. خصوصاً وإننا إذا عُدنا إلى الوصايا العشر المزعومة، نجد أنها أحكام شريعة ليس إلا، فهي أوامر منهيات (لاتقتل، لاتزن، لاتسرق...) فمن السخف اعطاءها كيانا مستقلاً عن الشريعة، ثم إن (الوصية) لاتعني شيئاً سوى ماأنزل الله من أحكام وتعاليم، فلا يُعقل أن تكون هناك وصية خارج ذلك.

فمن منطلق كوننا مسلمين، لايجوز لأحدنا أن يأخذ بمصطلح اليهود والنصارى، مهما كان شأنه، مالم يجد له مؤيداً من كتاب الله القرآن العظيم. ومادمت قد أثبت لكم بطلان مصطلح (الوصايا العشر) من النصوص التوراتية، ومن النصوص القرآنية، فإنكم ستعجبون من أخ مسلم كالدكتور شحرور، لايقوم بمثل هذا البحث، وينساق مع تيار السطحيين من أهل الأديان، ويأخذ بمُصطلحهم، مُصطلح (الوصايا العشر) وكأنه إحدى مسّلمات ديننا الإسلام. فكيف يُجيز لنفسه كتابة "قراءة معاصرة" وهو تقليدي في هذا الأمر، أكثر من التقليديين.

ومادام صاحبنا لم يدرك حقيقة "الوصايا العشر" فلا حاجةبنا للرد على قوله ص ٦٥ [ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة، لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون]. هنا نلاحظ بشكل جلّي كيف أن هذه الوصايا جاءت لموسى مفصولة عن

الكتاب - وأن الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط - وليس التوراة والإنجيل، وذلك واضح تماماً في قوله تعالى عن عيسى: [ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل]).

أقول إنه يَهْرِفُ هنا بما لايعرف. وقد سبق أن نقضت كون الوصايا التي تضمنتها آيات سورة الأنعام (١٥١-١٥٢-١٥٣) وصايا الوصايا العشر المزعومة، وكنت أثبت أنها أي وصايا هذه الآيات هي التعاليم التي أنزلها الله ربنا على ابراهيم عليه السلام، فالخطاب موجه للمشركين ومُذكّر اياهم بتعاليم جدّهم ابراهيم، وأثبت أيضاً أن (ثم) جاء حرف يفيد الترتيب. وأن الله سبحانه يبين للمشركين ماأنزل على موسى من بعد بعثة ابراهيم.

وهكذا فلا سؤال أَنَزَلَتِ (الوصايا العشر) المزعومة قبل الكتاب أو بعده أو أنها نزلت مفصولة عن الكتاب. فهذا طرح باطل، لأنه قد قام على أمر باطل. ولامجال حينئذ للاستشهاد بآية سورة آل عمران ٤٨.

إلى هنا أكون قد بينت لقارئي الكريم زيف وبطلان الخطوة الثانية التي خطاها الدكتور شحرور، وقبل أن ننظر في خطوته الثالثة، أجد لزاماً علي تنبيهكم إلى أمر هام. وهو إننا كمسلمين نأخذ بما جاء به القرآن المجيد، لكنا في الوقت نفسه لانرفض أمراً لانخالفه دونما تقديم دليل وبرهان.

فأنا عندما قلت أن النص التوّراتي هو كلام مشوش ومتناقض، حين فرّق بين كلمات العهد في الحجارة عن الشريعة، وعن الوصية، وحين ناقشت هذا النص من الوجهة المنطقية والعقلية، وحين وضعت أمام أعينكم النصّ القرآني كحد فاصل لإدراك هذا التشويش والتناقض الواقع في النص التوراتي.

إنني حينما فعلت هذا كله. أكون قد جئتكم باستدلالات من خارج التوراة، وهذا الأمر يظل دون مرتبة الكمال في البحث إن قصرت عن الإتيان باستدلال من ضمن التوراة نفسها. واستكمالاً لهذا الأمر، ألفت نظركم إلى ماتضمنته التوراة نفسها، إذ كان من المفترض أن ينزل موسى من الجبل ومعه الألواح ويتلوها على قومه، وقد فعل هذا موسى عليه السلام. وإليكم مقتطفات مما أوردته التوراة بهذا الخصوص، مقتطفات ستدركون من خلال نصوصها أن ماذكره القرآن هو الحق، وأن ماكتبه التوراتيون في التوراة المعاصرة مشوّش ومتناقض:

خروج ٣٤-٣٥ (وكان لما نزل موسى من جبل شيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل... فأوصاهم بكل ماتكلم به الرب معه في جبل سيناء... وجمع موسى كل

جماعة بني اسرائيل، وقال لهم، هذه هي الكلمات التي أمر الرب أن تُصنع. ستة أيام يُعمل عمل، وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبْتُ عطلة مقدسٌ للرب... وكلّم موسى كل جماعة بني اسرائيل قائلاً: هذا هو الشيء الذي أمر به الرب قائلاً: خذوا من عندكم تقدمة للرب...).

هذه الأقوال جميعها لاتشير إلى وصايا عشر من قريب ولامن بعيد. كما أنها تثبت أن النص التوراتي الذي ذكرته لكم من قبل هو نَصٌ مشوّش حقاً ومتناقض. إن القضية برمتها انحصرت في تنسّك موسى أربعين يوماً فوق جبل الطور، تلقى خلالها موسى [كتاباً على الذي أحسن] - ممّا تلقاه ابراهيم من قبله - [وتفصيلاً لكل شيء] - أنزله ربّه عليه وعلى ابراهيم، وكان هذا الكتاب الذي أنزله الله على موسى يهدف إلى [وهدى ورحمة] لهداية بني اسرائيل ورحمة بهم لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون]. وهذا الأمر بجميع أجزائه، يفسّر لنا قوله عز وجل [وكتبنا له في الألواح من كل شيء] فلا يعني قوله (وكتبنا) أن الله عزّ وجل كتب شيئاً ما في ألواحٍ معيّنة، بل كل مايعنيه أننا فرضنا لصالح بعثة موسى في الألواح التي دوّن عليها موسى مافرضناه عليه [من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء] ونلاحظ أن القرآن جاء بصيغة الجمع [ألواح] بينما جاءت التوراة بصيغة التّثنية (لوحا الشهادة)، وإن صيغة الجمع تعني أن موسى تلقى شيئاً كثيراً استكتبه إياه ربه. وإن الاقتباسات التي أوردتها لكم ومابعدها من نصوص بإمكان القارىء الرجوع إليها في التّوراة المحرفة، سيتأكد من أن موسى لم يأت بأشياء منفصلة بعضها عن بعض كالوصايا العشر المزعومة والشريعة والوصية. بل تلقى شيئاً واحداً وهو شريعة جديدة أوسع مما نزل على ابراهيم عليه السلام من تشريع، فلا معنى أن يقول كاتب التوراة بأن الله عزّ وجلّ خاطب موسى قائلاً: اصعد إليّ إلى الجبل، وكن هناك فاعطيك لوحي الحجارة والشريعة، والوصية التي كتبتها لتعليمهم] فكل ماهنالك هو أن الله أمر موسى أن يهيّء الواحاً حجرية تصلح لكتابه مايتلقاه من تعاليم وأحكام بسبب أنه لايملك أقلاماً ولاأوراقاً وهو في منطقةِ هجرة هي صحراء سيناء.

لاحظوا التناقض في أقوال كتبه التوراة المعاصرة، فمرة كتبوا أن الله سبحانه قال [فأعطيك لوحي الحجارة...) ومرة كتبوا [قال الرب لموسى إنْحتْ لك لوحين من حجر مثل الأولين فاكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما

وكن مستعداً للصباح... فنحت لوحين من حجر كالأولين، وبكر موسى في الصباح وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب، وأخذ في يده لوحي الحجر) خروج ٣٤/١-٢. إن كتبة التوراة يوحون للقارىء أولاً أن اللوحين سماويين ومقدسين، بينما في النص الآخر يعترفان بأن اللوحين حجريين منحوتين. ولا يُقدِرّان الله حق قدره، فيجعلونه نحات ألواح حجرية.

المهم أن متابعة النصوص التوراتية المحرفة والمعاصرة تفيد في تدعيم مصداقية ماجاء به القرآن الكريم حكاية عن موسى وبني اسرائيل. كما تفيد في وضع مستمسكات ضدهم بين أيدينا تدينهم من أفواههم ومما كتبته أيديهم، وتثبت عدم صلاحيّة التوراة الحالية لتُقدّمَ إلى الناس ككتاب سماوي.

على ضوء ماذكرناه يتضح لأعيُننا الفرق الشاسع مابين شريعة موسى وشريعة محمد رسول الله، فيما تعلق بشريعة موسى أورد كتاب الله عز وجل: ﴿وكتبنا له في الألواح..﴾، بينما أورد كتاب الله فيما تعلق بشريعة محمد رسول الله: ﴿بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ﴾ البروج ٢٢ . فهناك استعمل كلمة الواح مجردة عن الحفظ، لأنه كان مقدراً لشريعة موسى أن تحرّف وتُنسَخ، بينما استعمل للقرآن جملة [في لوح محفوظ] إشارة إلى أنه كان مقدراً لشريعة محمد رسول الله التي احتواها القرآن أن تظل مقروءة بكثرة علناً، ومحفوظة من كل تحريف إلى يوم الدين. اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

ولا أجد مندوحة من التنويه هنا إلى أن الدكتور شحرور لم يخبرنا أولاً ماهي الوصايا العشر، ولم يدرجها لنا في كتابه، وكأنها مسلّمات لدى جميع المتدينين من أصحاب الديانات السماوية. وأنتم قد لاحظتم يقيناً ومن خلال النصوص المقتبسة من التوراة، بأن أهم وصية فاتح موسى قومه بها من بعد نزوله عن جبل سيناء، كانت وصّية اعتماد يوم السبت يومَ راحة. والآن عودوا إلى "الوصايا العشر" التي استنبطها الدكتور شحرور من آيات سورة الأنعام (١٥١-١٥٢-١٥٣) فلا تلاحظون فيها هذه الوصية فكيف يجيز صاحبنا الدكتور لنفسه، والحال هذه، أن يزعم فيقول (لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنها هي الوصايا العشر؟ إلا أن يكون قد استنتج هذه النتيجة عن طريق التنجيم متناسياً قول رسول الله ﷺ: (كذب المنجمون ولو صدقوا) ؟

إني بينت للقارىء حتى الآن من سباق آيات سورة الأنعام التي استدل بها الدكتور شحرور بُطلان وزيف استدلالاته جميعها. حيث بينت لكم من خلال التسلسل الموضوعي للآيات هذا البطلان. والآن أوجهكم إلى سياق الآيات أي إلى مابعدها من كلام إلهي مقدس لتدركوا من خلاله هذا الزيف والبطلان أيضاً.

فلقد قال الله ربنا بعد تلك الآيات مباشرة ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه، واتقوا لعلكم تُرحمون. أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كُنّا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكُنّا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها، وسنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾.

فمن خلال هذه الآيات تلاحظون أنه لم يكن الكلام في الآيات التي استدل بها صاحبنا منحصراً في موسى ورسالته، بل كان منحصراً في طائفتين هما طائفة ابراهيم وطائفة موسى، هذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا...﴾ فلايوجد في سباق الكلام إلاّ ذكر طائفتي ابراهيم وموسى عليهما السلام.

إلى هنا نكون قد نقضنا ماجاء في الخطوة الثانية للدكتور شحرور، واثبتنا زيفها وبُطلانها، ولننتقل الآن خطوة ثالثة مع خطواته.

كتب على الصفحة ٦٦ مايلي: (لنقارن هذه الوصايا العشر، والتي أتى بعدها [ثم آتينا موسى الكتاب] الأنعام ١٥٤، وقوله تعالى ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ البقرة٥٣، بقوله ﴿من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان﴾ آل عمران ٤. أي أنها أنزلت قبل محمد ﷺ. بقوله ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده.. الآية﴾ الفرقان ٢. أي أنها أنزلت على محمد ﷺ أيضاً... يستنتج أنّ الفرقان هو الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى. ونُبّتت إلى عيسى عليهما السلام. ثم جاءت إلى محمد ﷺ، وهي رأس الأديان السماوية الثلاثة وسنامها، لأنها القاسم المشترك بين الأديان الثلاثة، وفيها التقوى الاجتماعية، وهي مايُسمى بالأخلاق، وليست العبادات، وهي تحمل الطابع الإنساني العام. ولقد أنزلت هذه الآيات على النبي ﷺ في رمضان، وبما أنّها من أمّ الكتاب، فإنها أُنزلت ونُزّلت معاً. ولذا قال ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده﴾ الفرقان ١، ونحن نعلم

أن معركة بدر حصلت في رمضان. وأن آيات الفرقان في سورة الأنعام ليست مكية. فهنا أخبرنا أنّ الفرقان أُنزل على رسول الله ﷺ في معركة بدر "في رمضان" لذا سُمّي بيوم الفرقان، بقوله: ﴿وماأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان﴾ الأنفال٤١.).

تلاحظون أنني نقضت مصطلح الوصايا العشر، كما نقضت أن تكون وصايا الآيات الثلاث من سورة الأنعام متعلقة بموسى، وأثبت من خلال سباق هذه الآيات وسياقها أنها تمثل الوصايا التي تلقاها ابراهيم عليه السلام، ومادام صاحبنا قد ابتدأ مقارنته في خطوته الثالثة، معتمداً فهمه الباطل لمصطلح الوصايا العشر، يكون صاحبنا قد دخل خطوته الثالثة مدخلاً خاطئاً وقائماً على أساس من الزيف والبطلان. وتكون مقارنته قد جاءت مختلّة الأطراف وباطلة من بدايتها، ولامعنى للقيام بمقارنة مابين الآيات التي استدل بها في مقارنته.

وإنه بعد قيامه بمقارنته الباطلة والمختلّة الأطراف هذه،انتهى إلى الاستنتاج بقوله (نستنتج أن الفرقان هو الوصايا العشر) وبديهي جداً القول بأن هذا استنتاج تنجيم وتخمين وحرز، وليس هو بالاستنتاج العلمي. ذلك لأنه لم يلتزم بالأصول العلمية في عملية الاستنتاجات، فهو لم يقم بشرح الفاظ كل آية، ولم يقارن بين معانيها، ولا أخذ بعين الحسبان ترتيب الفاظها وصياغتها اللغوية، ولا أعطى كل أية مكانتها وصحة دلالته منها على ضوء التسلسل الموضوعي لسورتها.

وبالرغم من غوغائية هذه الخطوة وهشاشتها في مقارناتها وفي استنتاجاتها. فإنها تدور على كل حال حول ثلاثة نقاط هي:

١ - أن (الفرقان) هو اصطلاح قرآني (للوصايا العشر) الموسوية والتي أنزلت علي حدّ زعم صاحبنا على عيسى ومحمد عليهما السلام أيضاً.

٢ - وأن آيات الفرقان أو آيات الوصايا العشر المذكورة تمثل "الاخلاق أو التقوى الاجتماعية، وتحمل الطابع الإنساني العام، والقاسم المشترك بين الأديان".

٣ - وأن آيات الفرقان أو آيات الوصايا العشر قد أنزلها الله تعالى على محمد رسول الله في رمضان، وفي معركة بدر بالذات، لذلك سُمّي شهر رمضان على حدّ زعم صاحبنا، بيوم الفرقان.

وسأتناول فيما يلي هذه النقاط الثلاثة واحدة تلو أخرى.

وأقول بالنسبة للنقطة الأولى: إن من الجهالة بمكان اعتبار (الفرقان) مصطلحاً للوصايا العشر. بسبب أن معاني كلمة (فرقان) تدور حول تمييز الأشياء وتفضيلها بعضها عن بعض، ولاتدور حول الوصايا والتعاليم. فالفرقان صفة وليست هي باسم شيء من الأشياء. لذلك لاعلاقة لهذه الكلمة من حيث المعنى بالأمور السلوكية أو الاخلاق الاجتماعية. ولابأس أن أعيد على مسامعكم مابّينه اللغويون لمعنى الفرقان. خصوصاً وأن صاحبنا أغفل العودة إلى معاني كلمة فرقان إغفالاً تاماً، مما لايليق به ككاتب لقراءة معاصرة، وردت على السنة مختلف اللغويين أنّك إذا قلت: فرّق فلان بين شيئين فرقاً وفرقاناً، معناه فصل أبْعاضهما، كما في سورة الدخان ﴿وفيها يُفرق كلَّ أمرٍ حكيم﴾ أي يُقضى في الأمور. وكما ورد في سورة الإسراء ﴿وقرآناً فرقناه﴾ أي فصلناه وأحكمناه. كما في سورة البقرة ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي فلقناه. وإذا قلت: فرق الأمر في نظر فلان، فمعناه تبين واتضح، وإذا اشتق مصدر فرّقه من التّفرقة يعني عكس جمعه أي بدّده ووزعه. الفاروق هو الشخص الذي يفرق بين الأمور ويفصلها فهو على وزن فاعول على سبيل المبالغة. وإذا تناولنا لفظ الفرقان كمصدر، معناه مايفرق به بين الحق والباطل، ومابين النصر والبرهان، ومابين الصبح والسحر أو ماشاكل. من هذا ندرك بأن قوله عز وجل [وآتينا موسي الكتاب والفرقان] يعني آتيناه الكتاب وانفراق البحر لأجل نجاته وقومه، وسوى ذلك من معجزات.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا لم يرجع الدكتور شحرور إلى أقوال اللغويين، لم يقُم من نفسه ببحث لغوي متعلق بكلمة فرقان؟؟

فلماذا لم يسأل هؤلاء اللغويين، خصوصاً وقد اصطلح هو نفسه أنهم هم (أهل الذكر) الذي ورد ذكرهم في قوله عز وجل ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾ أم أنه كان يعلم معنى الفرقان بطريق التنجيم والتخمين والحرز، لذلك لم يجد ضرورة ليسأل أهل الذكر، متجاهلاً هذا الأمر الإلهي؟؟؟

ثم هل يحق لنا القول هنا بأن صاحبنا هذا يتّهم ربّه من أنه استعمل لفظ (الفرقان) خطأ وخلافاً للمعاني التي بيّنها اللغويون، وبمصطلح لم يعط مفتاح فهمه إلا لشخص واحد في تاريخ الإسلام كله هو الدكتور شحرور؟

ألا إنني اتحدى هذا الأخ المسلم أن يثبت بأي شكل من الأشكال علاقة كلمة (فرقان) باصطلاحه، من خلال ماتركه لنا اللغويون من تراث.

لذلك قلت إن من الجهالة بمكان اعتبار (الفرقان) مصطلحاً يدل على الوصايا العشر المزعومة من أنها نزلت على موسى، ومن ثم على عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وبكلمة مختصرة، إننا نستطيع أن ندرك دلالة [الفرقان] على ضوء قوله عزّ وجلّ في سورة الأنفال ٢٩، من خلال الوعد الذي قطعه ربنا للمؤمنين المتقين حينما قال: ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً، ويكفّر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾ وقد شرحت لكم معنى هذه الآية الكريمة من قبل وماتضمنته من وعدٍ إلهي. فليرجع الدكتور شحرور إلى نفسه وينظر لماذا لم يجعل له ربه فُرقاناً وهو قد كتب قراءة معاصرة؟؟؟

من هنا ندرك بصورة قاطعة ويقينية بُطلان ماتضمنته النقطة الأولى من خطوة صاحبنا، فلا (الفرقان) هو الوصايا العشر. ولايصح من جهة أخرى لغوياً اصطلاح لفظ (الفرقان) للوصايا العشر المزعومة.

وأما مايتعلق بالنقطة الثانية من خطوة صاحبنا الثالثة، وهو الزعم بأن (الفرقان) أو الوصايا العشر المزعومة تمثل في حقيقتها على حدّ زعمه (الأخلاق، أو التقوى الاجتماعية، وتحمل الطابع الإنساني العام، والقاسم المشترك بين الأديان). فقد تداعى هذا الزعم لسببين رئيسيّين:

أولهما: ماأثبتّه من خلال ماأسلفته بُطلان وجود وصايا عشر مزعومة.

وثانيهما: كون الشريعة التي أنزلت على موسى تتعدى حدود وصايا عشر، وتتناول جميع نواحي الحياة. ذلك أن الشريعة الموسوية جاءت في شموليتها وتعدّد جوانب الحياة التي عالجتها، بداية وصورة مصغّرة للشريعة الإسلامية التي أنزلها ربنا كاملة الجوانب والتعاليم ولكل زمان ومكان.

أضف إلى ذلك بأنه لايجوز لصاحبنا استعمال كلمتي (أخلاق) أو (تقوى اجتماعية). فما هذان التعبيران بدقيقين من حيث اللغة، على اعتبار أن الأخلاق جمع خلُق. والخُلُق في اللغة يعني التركيب الباطني للإنسان. هذا بضم اللام. أما بفتح الخاء وتسكين اللام أي (الخَلْق) فتعني كلمة خَلْق هذه الخلقة الظاهرة لجسم الإنسان. ولقد راعى كتاب الله القرآن هذا

التفريق في تهجية هذا اللفظ، وفي دلالاته. لذلك لم يستعمل سبحانه وتعالى لفظ (خُلْقْ) مجرداً في كتابه، بل قرنه دوماً بصفة معينة، لذلك نلاحظه سبحانه وقد وصف التركيب الباطني لرسوله محمد خاتم النبيين ﷺ بقوله [وإنك لَعَلى خُلُق عظيم].

فليتفضل صاحبنا وليثبت لنا من حيث اللغة جواز استعماله لكلمة (أخلاق)، هذا إن كان لهذا اللفظ من الدارسين والباحثين.

ويتبع هذا عدم جواز استعمال اصطلاح (تقوى اجتماعية) لغوياً. فالتقوى منهاج، وليس بتعاليم سلوكية، وإن تَعَلّقَ هذا المنهاج بكيفية استعمال التعاليم السلوكية. وبإمكان القارىء مراجعة ماشرحته عند قوله تعالى ﴿هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب﴾ البقرة ٣ في الفصل الثالث من الجزء الأول من هذا الكتاب.

وإن صاحبنا، عندما استعمل مُصطلح (تقوى اجتماعية) لم يكن دقيق الدلالة لغوياً، ودلّل على أنه يحاول أحياناً أن يلتزم بدقة التعبير كما فعل عند شرحه لكلمة (كتاب)، كما يطلق لقلمه العنان حيناً آخر فينسى أو يتناسى ضرورة الالتزام بدقة التعبير،كما فعل في هذا المقام. فلا معنى حقيقي مدروس لكلمتي (تقوى اجتماعية). على اعتبار أن لفظ التقوى فيه دلالة منهاج معين للتفكير والبحث والسلوك. وإن كلمة (الاجتماعية) هي كلمة عامة الدلالة، لذلك فهي ناقصة الدلالة، فلا يدل على شيء معلوم.

أضف إلى ذلك أنّه لا أصحاب الديانات، ولاهيئة الأمم ومحكمتها الدولية أخذت بمصطلح (الوصايا العشر) المزعومة كأخلاق أو كتقوى اجتماعية. فليتفضل صاحبنا وليفرض فهمه المزعوم الباطل على هؤلاء وهؤلاء. إنّما ليتذكر الآن أن الأحصائيين من هؤلاء جميعهم سيطالبونه بدقة التعبير، كما أشرت إلى ذلك، كما سيطالبونه بوصايا عشر مدعومة بفلسفة علمية حَقيقية لكل وصية من وصاياها إلى جانب ذكر العقوبة الضرورية الرادعة لكل وصية من وصاياها، لتبلغ هذه الوصايا حدّ الكمال، ولتصلح لمجتمع عالمي متقدّم ومتحضّر.

وإن صاحبنا سيُصاب بصدمة عظيمة حينما يطالبه هؤلاء وهؤلاء بجميع هذه المطالبات، متهمين إياه بضيق الأفق العلمي واللغوي، مستهينين بمطالبته على أنها مجرد نَزْوة من النزوات.

هذا سيحدث، على اعتبار أن صاحبنا لايفرق مابين التشريع، ومابين موضوع علم الأخلاق، فمن أبسط المسّلمات ألاّ نخلط مابين التشريع ومابين علم الفلسفة والأخلاق.

وأما مايتعلق بالنقطة الثالثة التي أثارها في خطوته الثالثة وهي زعم صاحبنا بأنّ الفرقان، بمصطلح الوصايا العشر المزعوم، قد أنزله الله عز وجل على محمّد رسول الله في شهر رمضان، وفي معركة بدر بالذات. لذلك سُمّي شهر رمضان على حدّ زعم صاحبنا بيوم الفرقان.

وأقول مذّكراً صاحبنا بأن البيّنه على من أدعّى، وأن اليمين على من أنكر. فصاحبنا مطالب بإثبات أن (الفرقان) بمصطلح ومفهوم (الوصايا العشر) قد أنزله الله عز وجل في شهر رمضان، وفي معركة بدر بالذات. فإن عجز عن إثبات زعمه المذكور، يكون قد أثبت بُطلانه،وإني لعلى يقين تام بأنه أي صاحبنا الدكتور شحرور يستحيل عليه إثبات زعمه ومدّعاه من خلال أوراق تاريخ هذه الأمة.

ومساعدةً مني لقارئي العزيز على كشف زيف زعم هذا الأخ المسلم، الذي أدعى أن الآيات الثلاث من سورة الأنعام (١٥١-١٥٢-١٥٣) قد نزلت في معركة بدر، ولم تنزل في مكة المكرمة. فبإمكان كل قارىء مراجعة تفسير ابن كثير وملاحظة قوله بإجماع الروّاة على نزول سورة الأنعام بكاملها في مكة المكرمة، حيث رُوي أنه نزل للمحافظة عليها سبعون ألف ملك. علماً بأن ذكر هذا العدد من الملائكة يشير عموماً إلى أهمية السورة وأهمية مضامينها، والوعد بالمحافظة عليها بهذا العدد من الملائكة وحتى قيام الساعة ومجيء يوم الدينونة.

وإضافة إلى ذلك فإن مضمون الآيات، كما اتضح لنا، فهو موجّه إلى المشركين في مكة، يوم كانوا يضطهدون محمداً وأصحابه. وأكدّ هذه الحقيقة قوله عزّ وجلّ في آخر هذه الآيات ﴿لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾.

وإن صاحبنا عندما استدل بآية سورة الفرقان، نلاحظ كيف استدل ببعض ألفاظ الآية وليس بكامل ألفاظها. قام بهذا بما عُرف عن أسلوبه في البتر والقطع لآيات الله على أسلوب المستشرقين من اعداء الله، مُعرضاً عن أسلوب المؤمنين من عباد الله، فلم عمد صاحبنا هنا إلى بتر بعض الفاظ هذه الآية الكريمة؟ قام بذلك إيهاماً للقارىء بأن المراد من الفرقان هنا الوصايا العشر المزعومة يقيناً، وإلاّ فلا وجه آخر محتمل في هذا المقام.

لنستمع خاشعين للآية الكريمة بكامل ألفاظها. قال تعالى:

﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيراً.﴾ وإن صاحبنا حذف ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ بسبب أن هذه الألفاظ، إذا أخذها القارىء بعين الاعتبار، يتبدّل المعنى الذي ذهب صاحبنا إليه.

فمن خلال هذه الألفاظ ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ يتجلى أن المراد من (الفرقان) هنا هو القرآن الكريم نفسه، ولم يكن المراد جزءً من تعاليمه هي الوصايا العشر المزعومة. ذلك أن الوصايا العشر ماهي إلا مجرد وصايا نهي، وماهي بتعاليم ولاحدود شرعية ولافلسفة حتى يصح القول [ليكون للعالمين نذيراً].

وقد ذكرت لكم في بداية هذا الفصل إجماع أمتنا على اعتبار (الفرقان) إسماً وصفياً لكتاب الله، وهو اسم وصفي استحقه كتاب الله، بسبب ماجاء به من تعاليم وأحكام وفلسفات، وتصحيح للمحرّف من تعاليم الأديان السابقة، فهو كتاب جاء يفرق ويفصل مابين الحق والباطل في جميع الأحوال والمستويات والزمان والمكان.

وتأكيداً للقارىء الكريم من أن المراد من هذه الآية الكريمة من كلمة (الفرقان) كامل القرآن، وليس بعضاً من وصاياه. فليتابع هذا القارىء معي تلاوة مابعد هذه الآية من آيات، فمن خلال هذا السياق سيتولد دليل قاطع وجديد يؤكّد ماذهبت الأمّة جميعها إليه من معنى.

فهو سبحانه وتعالى، بعدما قال: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيراً﴾ أضاف قوله: ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ افك افتراه، واعانه عليه قوم آخرون... وقالوا اساطير الأولين اكتتبها، وهي تُملى عليه بُكرة وأصيلا. قل أنزله الذي يعلم السّر في السماوات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً﴾. وهذا السيّاق لم يحدد كلمة (الفرقان) ولم يحصرها في وصايا عشر مزعومة البته. بل أكدّ ماذهب علماء الأمة إليه، من أنه أريد بالفرقان في هذه الآية كامل كتاب الله، خصوصاً وأن كلام المكذبين جاء مطلقاً غير مقيد. من جهة، وإنه قال تعالى من جهة أخرى رداً على الذين كفروا ﴿قل أنزله الذي يعلم السّر في السماوات والأرض﴾ فالضمير يعود إلى كامل الكتاب أي إلى الكتاب بوصفه قد نزل فرقاناً ليكون للعالمين نذيراً.

كذلك اقتطع صاحبنا بعض الفاظ آية سورة الأنفال ٤١. فهو نقل للقارىء من الآية ﴿وماأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان..﴾ بينما الآية الكريمة أضاف

هذه الألفاظ، فقد قال تعالى فيها: ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيء، فإن لله خُمُسَهُ، وللرسول، ولذي القُربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، وماأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير﴾.

وعلينا أن نتساءل عمّا أنزله ربنا على عبده محمد رسول الله يومَ الفرقان، يوم التقى الجمعان في معركة بدر المشهورة، وقد أجاب صاحبنا الدكتور محمد شحرور أن الله أنزل على عبده في المعركة: الوصايا العشر المزعومة. وأنه سبحانه أطلق على يوم المعركة (يوم الفرقان) لهذا السبب بالذات.

وقد تناسى الدكتور شحرور الوعود الإلهية التي تضمنتها آيات سورة الأنفال. تناسى وعده عزّ وجلّ في الآية التاسعة ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾ تناسى هذا الوعد الذي وعد المؤمنين بالنصر المؤزر على المشركين، ولم يعدهم بالوصايا العشر المزعومة، تناسى صاحبنا أن هذا الوعد الإلهي قد وعده الله لرسوله وللمؤمنين، بعد أن سمع تضرعاتهم [إذ تستغيثون ربكم، فاستجاب لكم، أنّي مِمدُكم بألفٍ من الملائكة مُردفين] الآية ١٠.

ولو أن صاحبنا تدارس وتقصى ماحدث يوم معركة بدر. يوم أن قيض الله لرسوله وللمؤمنين أن ينزلوا يوم المعركة في مركز ستراتيجي قريب من نبع بدر، بينما حرم المشركين من هذا الموقع الستراتيجي، وأنزلهم في مكان رملي لاتصلح أرضه لعملية الكرّ والفرّ التي تقتضيها كل معركة من المعارك في ذاك التاريخ، بسبب أن المواجهة كانت تحدث على صهوات الجياد. الآية (٤٣).

ويوم أن شدّد الله عز وجل على قلوب المؤمنين، فرفع قواهم المعنوية بوعوده وببشاراته إلى الأوج. بينما أثار الله سبحانه الرّياح تضرب وجوه أعدائه وتعمي رؤياهم بسبب ماكانت تحمله من الرمال التي كانت تعمي أبصارهم الآية (٤٥).

وتناسى صاحبنا الرؤيا المبّشرة التي أراها الله لرسوله، والتي بشّره فيها بالنصر المؤزّر الأكيد. الآية (٤٤).

- فلماذا تناسى وأهمل الدكتور شحرور جميع هذه الأمور التي شكلت بمجملها (فرقاناً) فرّق مابين حق المؤمنين وباطل الكافرين؟؟؟ لماذا تناسى هذه الفروق التي ساعدت على تحقيق النصر المؤزر لجانب المؤمنين؟؟؟

وهل شغل أذهان المؤرخين إلاّ هذه الأحداث التي قلبت وجه المعركة لصالح المؤمنين. بالرغم من قلّة عددهم، وكثرة عدد الكافرين؟؟؟

فمن أين استقى صاحبنا معلومته من أن الوصايا العشر المزعومة قد نزلت يوم معركة بدر؟ إلا أن يكون قد استقى هذه المعلومة المزيفة بطريق التنجيم والتخمين فلماذا لم يدلّنا صاحبنا على المصدر الذي استقى منه معلومته المزيفة إن كان في إدعائه من الصادقين؟؟؟

يدور محور سورة الأنفال حول التحريض على الاستشهاد في سبيل الله عز وجل. تبيّن لنا ذلك من خلال قوله فيها ﴿ياأيها الدين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً، لعلكم تفلحون، واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحُكم، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط﴾ وأكمل سبحانه وتعالى موضوع الحث والتحريض على الاستشهاد في سبيل الله بضرب الأمثلة مما حدث زمن فرعون ومن قبله، وأكد سبحانه وتعالى تحريضه هذا بوعد الحوافز حينما قال: ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ وماتَسْميةُ سورة الأنفال بهذا الإسم إلا عنواناً على هذا الطريق. وماكان ابتداء السورة بموضوع الأنفال وتقسيمها مقصوداً بالذات، بل ليقول سبحانه وتعالى بألفاظ أخرى إن الأنفال آتية لامحالة، إذا أنتم تركتم التفكير بها، والتفتُّم إلى اعتناق روح التضحية في سبيل الله فهو طريق الخيرات وهو سبيل الغنى والمغفرة والفلاح. ومن خلال هذا كله ندرك إدراكاً واضحاً من أنه لاسبيل إلى ذكر ونزول الوصايا العشر المزعومة في معركة بدر، بحال من الأحوال. ،إن الذي كان يُفترض نزوله وقتها نزول بشارات، وتأييد ملائكة، وتحقيق وعود.

والخلاصة هي أن الدكتور شحرور لم يقم بدراسة لغوية لكلمة (فرقان) واشتقاقاتها. ولم يقم بتحقيق تاريخي حول موضوع الوصايا العشر المزعومة. وكان ذهنه مُشوّشاً يخلط مابين الأخلاق والتشريع. كما كان يجهل موضوع سورة الأنفال نفسها، وجاء بإدعاء متعلق بإحدى آياتها خلافاً لما اتّفق عليه المؤرخون. وأتى بجديد عن طريق التنجيم والتخمين والحزر، وليس عن طريق بحث علمي قائم على أسس وأصول. هذه السّقطات جميعها انتهت بصاحبنا ليزعم أن الوصايا العشر المزعومة أنزلها الله تعالى على نبيه محمد رسول الله في رمضان، وفي معركة بدر بالذات. وأن شهر رمضان سمي لهذا الوجه بيوم الفرقان. وقد أثبتنا زيف جميع

هذه الأباطيل وانتهينا من كل ماتعلق بخطوة صاحبنا الثالثة. لذلك نلتفت إلى خطوته الرابعة، وماجاء فيها.

كتب صاحبنا الدكتور شحرور على الصفحة (٦٦) : (لقد ورد في سورة فاتحة الكتاب الآية [أهدنا الصراط المستقيم] الفاتحة ٤. وحدّد هذا الصراط في قوله [صراط الذين أنعمت عليهم] فمن هؤلاء الذين أنعَمَ عليهم وجاءهم الصراط المستقيم لأوّل مرّة).

إنه لسؤال كبير طرحه صاحبنا، وإنه لانحراف خطير كاد أن يدفعنا إليه. يتضح هذا من خلال تساؤله (فمن هؤلاء الذين أنعم عليهم وجاءهم الصراط المستقيم لأول مرة؟ فهو بهذه الألفاظ كاد أن يوحي بمعنى مادّي للصراط، وأن هذا الصّراط بُخِلَ الله تعالى بالإنعام به علينا، حتى وجد من يستحق الإنعام به عليه.

والحقيقة هي أن كلمة صراط تعني الطريق، والصراط المستقيم يعني الطريق المختصر الواصل مابين نقطتين بحيث لايوجد طريق أقصر منه.

والحقيقة الناصعة أيضاً هي أن الله عزّ وجلّ لم يبخل على أحدٍ من رسله وأنبيائه من وجهة هدايتهم إلى الصراط المستقيم. فلم يختص سبحانه بالصراط المستقيم قوماً دون قوم، ولا أمة دون أمة، ولارسولاً من دون رسول. فتعاليم جميع الأنبياء هي صراط الله المستقيم ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾ الأنعام ١٥٣ هذه الوصية جاء بها كل من آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسول الله وبقية رسل الله تعالى، جميع هؤلاء كانوا على صراط مستقيم، فلم يختص احدهم به دون سواه، فما معنى أن يتساءل صاحبنا، والحال هذه، عمن تلقى الصراط المستقيم لأول مرة في تاريخ الرسالات؟؟؟

ولنتابع على كل حال جواب صاحبنا الذي أجاب به على هذا السؤال الكبير الذي طرحه. إنما من واجبنا الحذر كل الحذر من انحرافٍ خطيرٍ يدفعنا إليه.

أجاب صاحبنا على الصفحة ٦٦ بقوله: (إن الناس الذين أنعم الله عليهم بالصراط المستقيم لأول مرة، هم بنو اسرائيل الذين عاصروا موسى. وقد فضّلهم الله على العالمين به وذلك في قوله ﴿يابني اسرائيل اذكروا نعمتي عليكم، وأني فضلتكم على العالمين﴾ البقرة ٤٧. هنا يذكر بني اسرائيل بنعمته التي أنعم عليهم بها، والتي فضلهم بها على العالمين، وهذه النعمة، وهذا التفضيل هما الصراط المستقيم الذي أنزل لأوّل مرة في تاريخ

الرسالات إلى موسى عليه السلام، وذلك في قوله ﴿ولقد مننا على موسى وهارون، ونجيّناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المُستبين. وهديناهما الصراط المستقيم﴾ الصافات (١١٤-١١٨) وقد سُمّيت الوصايا، الصراط المستقيم، لأنها لاتتغير أبداً).

وقد أثار في إجابته النقاط التالية:

١- تلقى بنو اسرائيل الصراط المستقيم زمن موسى لأول مرة في تاريخ الرسالات.

٢- وفضل الله بني اسرائيل على العالمين بسبب ذلك.

٣- وجاء ببدعة واهية وهو زعمه إن الوصايا العشر المزعومة هي الصراط المستقيم، على اعتبار أنها لاتتبدل أبداً مع تجدّد الرسالات.

وأتناول من جانبي هذه النقاط المثارة بالترتيب فأقول:

أما بالنسبة إلى النقطة الأولى وهو زعمه تلقي بنو اسرائيل "الصراط المستقيم" زمن موسى لأول مرة في تاريخ الرسالات. أقول بأن هذا الزعم هو مجرد إدعاء غير مسند بدليل. والباحث العالم يترفع عن الإدعاء الذي لايجد له دليل يدعمه علمياً.

أما صاحبنا، وهو يكتب "قراءة معاصرة" فقد دأب فيها علي تكرار الإدعاءات من دون برهنتها وتقديم مايُدّعِمُها من أدلة وبراهين.

وهو حين استدل بقوله تعالى: ﴿ولقد مننّا على موسى وهارون، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم،ونصرناهم فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم﴾ الصافات. فلا يُستفاد من ألفاظ هذه الآية الكريمة ماذهب إليه صاحبنا، فليتدبّر القارىء الكريم هذه الآية جيداً، هل يجد أنها أخبرت بأن الصراط المستقيم قد نزل لأول مرة في تاريخ الرسالات على بني اسرائيل؟ وحتى يكون هذا الصراط المستقيم سبباً مباشراً لتفضيلهم على العالمين؟

فلو كان الصراط المستقيم شيئاً جديداً لكان قال سبحانه [وأهديناهما الصراط المستقيم] وبديهي أن مابين الهداية والإهداء بون واسع وفرق كبير من حيث المعنى، هذا إذا كان الصراط المستقيم شيئاً مستقلاً في ذاته.

إنّ الإهداء يعني العطاء، أما الهداية فهي تعني الأخذ بيد الضال وايصاله إلى هدفه المنشود، ولم يرد في الآية لفظ (أهديناهما) بل ورد لفظ (هديناهما) أي دللناهما على

الصراط المستقيم أي على أقرب مسافة لتلقّي نعماء ربّهما. أي لم نتركهما لنفسيهما وأهوائهما على هذا الطريق.

والمؤسف أن صاحبنا لايتدبر كتاب الله العظيم، فهو ينقّب عن آيات يستطيع افراغها من محتواها ليُلبسها أفكاره "مسبقة الصنع". ولايفعل أكثر من ذلك اطلاقاً. وهو لو كان يتدبّر كتاب الله، مخلصاً له الدين، فَلَما مرّ على ناظريه، قول ربه عز وجل، في سورة النحل ١٢٢ ﴿إن ابراهيم كان أمّة قانتاً للّه حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكرٌ لأنعُمِهِ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾، مرور الكرام. فهل من فرق بين الصيغتين اللّهم إلا فرق (أل) التعريف؟ وإن تعريف (الصراط المستقيم) في الآية التي استدل بها صاحبنا. معهود ذهني يعود إلى الصراط المستقيم الذي هدى الله عز وجل نبيه ابراهيم إليه. فهذا التعريف بـ (أل) إدانة ثانية لهذا الأخ المسلم.

وحتى رسولنا محمد ﷺ هداه الله إلى صراط ابراهيم أيضاً، وليس إلى صراط موسى عليه السلام، وذلك وفقاً لما ورد في سورة الأنعام قوله عز وجل ١٦٢: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملة ابراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين﴾.

وإن موضوع هداية الله أنبياءه والمخلصين من اتباعهم، إلى صراط مستقيم بدأ منذ عهد آدم عليه السلام، ولم يبدأ منذ عهد موسى عليه السلام، حتى يحق للدكتور شحرور تخصيص هذه الأفضلية ببني اسرائيل قتلة أنبياء الله عزّ وجلّ، فَهلّا قرأ صاحبنا قول ابليس اللّعين في سورة الأعراف ١٦. ﴿قال فبما أغويتني لأقعُدنّ لهم صراطك المستقيم﴾ فهل حدد ابليس عمله بزمن معين هو زمن موسى عليه السلام حتى يحق للدكتور شحرور تخصيص هذه الأفضلية ببني اسرائيل الذين لعنهم الله في كتابه العزيز؟؟؟ وهل تناسى صاحبنا إغواء ابليس زمن آدم أيضاً؟

ألا إنّ موضوع هداية الله لأنبيائه وعباده الصالحين إلى صراط مستقيم هو أمر عام، وليس بالأمر الخاص حتى يختص به موسى وقومه، تدلنا على هذه المعلومة آية سورة آل عمران ١٠١ في قوله عز وجل ﴿ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم﴾. وهل يتجرأ صاحبنا على اتهام جميع أنبياء الله الذين بَعَثَهُمُ الله قبل موسى على أنهم ماكانوا معتصمين باله ربّهم والعياذ بالله، لذلك ماهُدُوا إلى صراط مستقيم؟؟؟

ولنسلّم مع صاحبنا جدلاً من أن (الصراط المستقيم) الذي هُدي إليه موسى يعني الوصايا

العشر المزعومة، وهذا التسليم بهذا الزعم يعني بألفاظ أخرى أن الأم والأنبياء قبل زمن موسى كانوا محرومين من نعماء الوصايا العشر المزعومة. هذا في وقت زعم فيه صاحبنا، أن هذه الوصايا هي في حقيقتها سنام الأديان السماوية وقاسمها المشترك، وهي التقوى الاجتماعية وهي مايسمى بالأخلاق، وهي تحمل الطابع الإنساني العام.

فهذه الكلمات هي أوصاف الوصايا العشر المزعومة كما وصفها الدكتور شحرور نفسه. ومادام الأمر كذلك فهل يحق لأحد أن يزعم بأن الأم والأنبياء قبل زمن موسى كانوا محرومين من هذه الأمور جميعها. فلم تكن لهم أديان ، ولم تشترك أديانهم في هذا القاسم المشترك إن وجدت، ولا يعد الصراط المستقيم سنام تلك الديانات السماوية، ولا كانت في تلك الديانات تقوى اجتماعية ولاأخلاق، وماكنت أديانهم تحمل الطابع الإنساني العام؟؟؟ عجباً لصاحبنا أنه لم يفكر في النتائج المترتبة على بدعته المزعومة هذه.

وهكذا لاأراني بحاجة لتقديم مزيد من الإيضاح حول النقطة الأولى التي أثارها صاحبنا، فقد باتت واضحة البُطلان يقيناً.

أما مايتعلق بالنقطة الثانية، وهي زعمه أن الله عزّ وجلّ فضّل بني اسرائيل على العالمين بسبب أن آتاهم الصراط المستقيم أو الوصايا العشر المزعومة. مستنبطاً زعمه هذا من قول الله تعالى [وأني فضلتكم على العالمين] فلنرجع إلى الآية التي استدل منها على زعمه، نتفهم معاني الفاظها لنصل إلى استيعاب معناها العام لنرى مدى صحة زعمه.

قال تعالى في سورة البقرة ٤٧ ﴿يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأني فضلتكم على العالمين﴾، فما هي معاني النعمة والتفضيل والعالمين؟

جاء في كتب اللغويين: (النعمة) هي الصفة والمنّه، وماأنعم عليك من رزق ومال وغيره. وورد في الكليات: النّعمة في أصل وضعها الحالة التي يستلذّها الإنسان، ونعمة الله، وماأعطاه الله للعبد ممّا لايتمنى غيره أن يعطيه إيّاه. كما ورد في التعريفات: النعمة هي ماقُصد به الإحسان والنفع، ولالغرض ولالعوض. (والتفضيل) فَضِلَ يفضُل بمعنى الفضيلة والغلبة على شاكلة سخُن، بمعنى الفضل والزيادة، تقول: فضّله على غيره جعل له مزيّة عليه وحَكَمَ له بالفضل وصيّره أفضل منه.

(العالمين) الخلق كله، أو ماحواه الفلك، وكل صنف من أصناف الخلق، وقيل مختصٌّ بمن يعقل. يُجْمع على عالمون وعلالم وعوالم، وقال الرازي أن العالمين يتناول الملائكة أيضاً والجن والانس.

وندخل في معنى الآية الكريمة على ضوء ماسلفناه من معان لألفاظها، نلاحظ أن الله سبحانه يذكّر فيها بني اسرائيل بما رزقهم مما لم يكن اعداؤهم يتمنّون لهم هذا العطاء. ولم يحدد سبحانه نوعية هذه النعمة والعطاء، بل نبههم إلى أن عطاءه ذاك أعطاهم مزية على الناس من معاصريهم، ويقصد بذلك آل فرعون بالذات. هذا المعنى ذهب إليه جميع المفسرين.

ونعود إلى سباق الآية، فنجد أنه سبحانه قد ذكّر بني اسرائيل بنعمته أيضاً، مجردّة غير مخصّصة حيث قال [يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم، وإياي فارهبون].٤٠.

وننتقل إلى مابعد الآية، إلى سياقها. نلاحظ أنه سبحانه وتعالى وضّح موضوع نعمته على بني اسرائيل وما اكسبهم بها فضلاً ومزية على أهل زمانهم وعلى آل فرعون بالذات، فقد قال عزّ وجلّ ﴿وإذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحّون أبناءكم، ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ ٤٩. إنه سبحانه وتعالى جاء بالحرف (إذ) كظرف زمان ماضي حتى دلّنا عمّا أراده من النعمة والتفضيل المتعلقين بالوضع الاجتماعي الذي كان يعاني منه الاسرائيليون في ظل حكم آل فرعون. يذكّرهم سبحانه أنه أنقذهم من هذا الكرب العظيم الذي كانوا يُعانون منه. فأنجاهم من عذاب آل فرعون وأعطاهم فوق ذلك مزية فضيلة عليهم. وزاد سبحانه توضيحاً لما قصده من نعمته عليهم وتفضيلهم على أهل زمانهم، فقال ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم، واغرقنا آل فرعون، وأنتم تنظرون﴾. ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ ٥١ ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾. مُجملاً سبحانه وتعالى مِنَحَهُ وأعطياته، مما لم يكن آل فرعون يتمنّونها لبني اسرائيل. فالمقصود إذن من [العالمين] آل فرعون بالذات وصحّ بذلك ماأجمع عليه المفسرون.

وكل مادل عليه قوله تعالى ﴿ ... وأني فضلتكم على العالمين﴾ هو تخصيص فضله سبحانه بالاسرائيليين من دون سواهم في مقابلة مظالم آل فرعون. وهذا التفضيل مختص بزمانهم. ولايشابه ما اختصه الله بأمة محمد ﷺ حينما خاطبهم بقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس...﴾ أي أفضل من جميع من فضل الله عليهم بنعمائه. وعلى ضوء هذا التفصيل الكلّي الشامل لأمة محمد رسول الله، جاء خطاب الله عز وجل في سورة المائدة ١٦، موجهاً إلى بني اسرائيل بالذات: ﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مّما كنتم تُخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النورَ بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

لاحظوا كيف استعمل سبحانه للقرآن اسم [الكتاب المبين]، في وقت لم يستعمل فيه للتوراة إلا لفظ (كتاب) مجرداً. وهذا ينبهنا أيضاً إلى أن المقصود من الكتاب "كامل التوراة"، ولايقصد منه التشريع وحده. الأمر الذي يكشف زيف رأي الدكتور شحرور حينما قال على الصفحة ٦٥ (وأن الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط، وليس التوراة والإنجيل.). وإنه عندما استدل على زعمه بآية آل عمران ٤٨ [ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل] قام بمحاولة إيهام للقارىء أن الخطاب موجه إلى عيسى بينما الخطاب في هذه الآية موجهاً إلى مريم والدته. فالله عز وجل بشّرها بعيسي وقال ﴿كذلك يخلُق الله مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ويعلمُهُ الكتاب... الآية﴾ فهذه كلمات بشارة إلى مريم من أنه سبحانه سيرزقها إبناً يجعله نبياً ويعلمه الكتاب أي الأمر المفوض إليه القيام به أي ماكتبه عليه، موضحاً الحكمة من هذا التكليف بتلك المهمة، فلا يدعه في غمّةٍ من أمره. وأنه بشرها بأنه سيعلمه التوراة ومأنزل فيها من تعاليم وأحكام، ويؤدي مهمة (الإنجيل) أي البشارة التي كان وعد الله بها بنو اسرائيل. وهي بعثة المسيح وإعادة وجه التعاليم الموسوية الحقيقي بواسطته. فالإنجيل يعني البشارة لُغةً ويعلمه [الكتاب] قصد به ماكتبه الله عليه للقيام به في عالم غيبه.

نخلص من جميع ماذكرناه، أن صاحبنا الدكتور اخطأ في نقطة خطوته الثانية التي زعم فيها تفضيل الله لبني اسرائيل على العالمين بسبب أنه آتاهم الصراط المستقيم. فما كان المراد من التفضيل في الآية إلا معنى الاصطفاء، والانقاذ من عبودية آل فرعون، ومنح الاسرائيليين

مزيّةً لم يكن يرغب آل فرعون أن تكون للاسرائيليين مثل هذه المزية، وهي تحريرهم من العبودية واعطائهم كياناً حُرّاً مستقلاً عنهم بفضل خاص من ربهم.

وإن صاحبنا، عندما استدل بآيات سورة الصافات ١١٤-١١٨ تدعيماً لرأيه، لم يغيّر استدلاله المذكور من الأمر شيئاً. فقد قال تعالى في الآيات المشار اليها: ﴿ولقد مننّا على موسى وهارون، ونجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المبين. وهديناهما الصراط المستقيم﴾ فهو سبحانه أورد واواً عطفت الصراط المستقيم على الكتاب المبين، ليشعرنا بتغايرهما. فالكتاب المستبين هو غير الصراط المستقيم. ثم إنه لايوجد أي ذكر "للنعمة" في هذه الآيات، ثم إنه سبحانه وتعالى قال (هديناهما) ولم يقل (أهديناهما) وقد سبق أن بينت الفرق مابين الإهداء والهداية، ثم إنه سبحانه، وقد أورد (الصراط المستقيم) مُعرّفا بالألف واللام. فقد عرفه على أن تعاليم ابراهيم هي المعهود الذهني في هذا المقام. ذلك لأن سباق الآيات كان يدور محوره حول ابراهيم وتعاليمه. ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم.. وبشّرناه باسحاق نبياً من الصالحين. وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين. ،لقد مننّا على موسى وهارون، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم.. الآيات﴾. وانكم لتلاحظون أنه سبحانه قال بعد هذه الآيات نسبة إلى موسى وهارون نفس الألفاظ التي استعملها لابراهيم حيث قال ﴿وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾.

على هذه الصورة، نكون قد أثبتنا بُطلان وزيف مافهمه الدكتور شحرور من هذه الآيات جميعها. فلم تكن مابين النعمة والتفضيل ومابين الصراط المستقيم أية رابطة من حيث معانيها. ذلك أن النعمة تعني عطاء الله للعبد ممّا لايتمنى عدّوه أن يصله الله به من إحسان ونفع دون عوض. ثم إن فرعون مارأيناه قد سعى لحرمان موسى وهارون من نعمة الصراط المستقيم. ثم إن الصراط المستقيم ماهو إلا عبارة عن اصطلاح قرآني للهداية التي تلقاها جميع أنبياء الله ورسله منذ عهد آدم وحتى محمد رسول الله صلوات الله عليهما. ولم يكن للصراط المستقيم غير هذا المعنى في كتاب الله بأي شكل من الأشكال إلا أن تكون هناك قرينة تمنع معناه الاصطلاحي، وهكذا تبطل النقطة الثانية من خطوة صاحبنا الرابعة، ويبدو زيفها جلياً كضوء الشمس في رابعة النهار.

أما مايتعلق بالنقطة الثالثة، وهي مازعمه الدكتور شحرور من أن الصراط المستقيم يعني الوصايا العشر المزعومة بألفاظ أخرى، وعلى اعتبار أنها لاتتبدل أبداً مع تجدد الرسالات.

فقد ولدت هذه النقطة الثالثة ميتة من يوم ذكرها. وذلك لأن اللغة العربية، ومعاني "الصراط المستقيم" لاتستسيغ هذا المعنى بصورة من الصور. اللهم إلا أن يكون صاحبنا قد توصل إلى معناه عن طريق التخمين والحزر والتنجيم. وهذا شيء غير مستبعد هنا لأنه بات ظاهرة هذه "القراءة المعاصرة" خصوصاً وقد أثبتنا بطلان كون وصايا الآيات الثلاث (١٥١-١٥٢-١٥٣) من سورة الأنعام تمثل الوصايا العشر الموسوية المزعومة. فقد أثبتنا أن هذه كانت وصايا تعاليم ابراهيم عليه السلام، فالخطاب فيها كان موجهاً لمشركي مكة خاصة.

ثم إن صاحبنا زعم (أن الوصايا التي هي الصراط المستقيم لاتتغير أبداً) آخر سطر على الصفحة ٦٦. وكأنه لم يقرأ ماأورده الله عز وجل على لسان عيسى عليه السلام في سورة آل عمران ٥٢: ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحلّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعوني﴾ فها أن عيسى قد بَدّل في الوصايا، فأحلّ وحرم، فكيف تزعم بعد هذا أن الوصايا لاتتغير أبداً؟

وقد جاء التشريع الإسلامي ووصاياه مختلفاً كثيراً عن تشريع موسى ووصاياه.فالتغيير قد حدث ثانية بظهور الإسلام، وهذه حقيقة،بإمكان صاحبنا التحقق منها عن طريق علماء الأديان المختصين.

وماقولك على رأس الصفحة (٦٧): (حيث أن الأخلاق مبادىء إنسانية عامة. وهي من ثوابت الدين الإسلامي، ولاتحمل طابع التغير مع الزمن والتطور والمرونة "الحنيفية" مثلها في ذلك مثل العبادات. وفي الدين الإسلامي الوصايا والحدود والعبادات هي الصراط المستقيم، أي التقوى الاجتماعية في الوصايا، والتقوى الفردية في العبادات) إلا افتراض أمور على أنها مسلّمات، مع أنها لم ترد في أي كتاب ديني على هذه الصورة وعلى اعتبارها مسلّمات. ولما كان لايجوز افتراض مثل هذه الأمور بدون أدلّة ومقدمات. فإننا لانأخذ هذه الأقوال على محمل الجدّ، ولايستحق منّا المناقشة. وإن صاحبنا هو المطالب بتقديم البيّنة على مازعم وخمنّ وافترض.

ولابدّ لي هنا من التنويه إلى الاختلاف في أقوال صاحبنا. فهو قال من جهة أخرى ص٦٦ (وقد سُميت الوصايا الصراط المستقيم لأنها لاتتغير أبداً) بينما قال بعدها على رأس ص ٦٧ (وفي الدين الإسلامي، الوصايا والحدود والعبادات هي الصراط المستقيم..) فشتان مابين النصين، الأول يحدد الصراط المستقيم بأنه هو الوصايا، والثاني يحدد الصراط المستقيم بأنه الوصايا إلى جانب الحدود والعبادات، فبين هذا وذاك فرق واضح. وهل يعني ذلك أن الصراط المستقيم في دين موسى لم يكن يشمل الحدود والعبادات؟ إن صاحبنا مطالب برفع هذا التناقض الذي لايصدر عن باحث ملتزم بأصول وأسس واضحة المعالم، بل يسير في بحثه واستنتاجاته بأسلوب التنجيم والتخمين.

وهكذا بدت خطوة الدكتور شحرور الرابعة واضحة الزيف والبطلان، فلنتقدم معه في خطوته الخامسة، وننظر هل أفادنا من خلالها بشيء مقبول؟

ابتدأ صاحبنا الدكتور خطوته الخامسة بطلبه على الصفحة ٦٧:

(لنلاحظ التسلسل التالي: [وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون] البقرة ٥٣. بعد الوصايا العشر في سورة الأنعام. قال [ثم آتينا موسى الكتاب] وأن الوصية العاشرة هي اتباع الصراط المستقيم [وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه... الآية] الأنعام ١٥٢).

واستجبت أنا لطلب صاحبنا وحاولت أن الاحظ التسلسل الذي أراد لفت نظرنا اليه، على أنني فهمت من كلمة (تسلسل) أي تدرج وتتابع. فلم ألاحظ بين الآيات التي استدل بها أي تسلسل أي لم ألاحظ أي تدرّج وتتابع. فالآية الأولى من سورة البقرة. والآية الثانية من سورة الأنعام. والآية الثالثة هي من سورة الأنعام أيضاً، ولكنها لم تأت بعد الثانية بل قبلها. فأي تسلسل وتدرج وتتابع يقصد في قوله (لنلاحظ التسلسل التالي) ؟؟؟

أضف إلى ذلك أنه عاد فاستعمل اصطلاح الوصايا العشر الذي نقضناه. فقد سبق أن أثبتُنا أن الوصايا التي سبقت قوله تعالى: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ لاعلاقة لها بموسى وماآتاه ربه من كتاب وسواه. بل هي تعاليم ابراهيم عليه السلام. ومعلوم أنّ ماقام على باطل فهو باطل.

وتساءلت: ماذا يريد صاحبنا منّا إن نحن لاحظنا معه تسلسله المزعوم؟ فشاهدته يكتب آيات في مقابل آيات تفصل بينها أسهم وعلى الشكل التالي:

((صراط الذين أنعمت عليهم ⟵ يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم)).

((ولقد مننّا على موسى وهارون ⟵ وآتيناهما الكتاب المبين، وهديناهما الصراط المستقيم)). [ولقد آتينا موسى وهارون الفُرقان] الأنبياء ٤٨

ولاحظته كتب تحت هذه الآيات وأسهمها مايلي ((وهكذا نرى أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم)).

لاحظت اشتراك آيتي السهم الأول في كلمة النعمة. فقد ورد لفظ النعمة في كليهما. ولم ألاحظ نقاط لقاءٍ مابين طرفي السهم الثاني في أي لفظ من الألفاظ. فانتبهت إلى أنه أراد أن المراد من منّة الله على موسى وهارون انحصرت في الكتاب المبين والهداية إلى الصراط المستقيم، ولم أنتبه إلى مراد صاحبنا عندما أورد جزءً من آية سورة الأنبياء [ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان] إلاّ بعد أن قرأت ماكتبه تحتها جميعها من أنه استخلص منها (أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم).

وعُدت هنا إلى الصفحة (٦٦) حيث كتب صاحبنا فيها (لقد وردَ في سورة فاتحة الكتاب الآية [اهدنا الصراط المستقيم] الفاتحة ٤، وحدّد هذا الصراط في قوله [صراط الذين أنعمت عليهم]. فمن هؤلاء الذين أنعم عليهم وجاءهم الصراط المستقيم لأوّل مرّة؟) وربطت بين هذه الأقوال جميعها فاتّضحت لعينيّ حقيقة محاولة صاحبنا عند مقارنته بسهم مابين صراط الذين أنعمت عليهم ومابين يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم. فإن صاحبنا أراد أن يوهمنا بأن دعاء سورة الفاتحة ماهو إلا طلب للنعّمة التي أنعمها الله على بني اسرائيل، وفضلهم بها على العالمين، وأنها الوصايا العشر المزعومة والفرقان. فارتعدت فرائصي مما أراد أن يوهمنا به. لأنه أمر خطير جداً، وتحريف لكتاب الله، مابعده من تحريف، وإنه لأمر ماكان ليخطر ببال اليهود أنفسهم في يوم من الأيام.

إن تذكير الله رسله وأنبياءه وعباده بنعمائه التي أنعمها وينعمها عليهم هو أمر نقلته إلينا عشرات الآيات في كتاب الله تعالى، وقد سبق أن وضّحت لكم معاني النعمة من أنها الصفة والمنّة، وما أنعم الله عليك من رزق ومال وغيره. وأن أصل معنى النعمة الحالة التي يستلذها الإنسان. ومايعطيه الله لعبد ما مما لايتمناه له سواه. والنعمة هي ماقصد بها إيصال الإحسان والنفع من دون غرض أو عوض.

فالسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو لماذا أعرض صاحبنا عن عشرات الآيات التي ذكّر فيها ربنا عباده الصالحين من أنبياء وغيرهم بما أنعم عليهم، وجاء صاحبنا ينتخب من بين هذه الآيات جميعها مانطلق بالنعمة التي أنعمها الله على بني اسرائيل خاصة؟ وإنه لتساؤل جدير بالاهتمام حقاً لقوم يغارون عى دينهم الإسلام، وعلى كتاب الله أن يمسّه أي تحريف كان.

زعم صاحبنا أن نعمة الوصايا العشر المزعومة قد نزلت على بني اسرائيل لأول مرة في تاريخ الرسالات. فقد أثبتّ بطلان زعمه المذكور على حينه. وأقول هنا أن الله عزّ وجلّ يكذّب زعم صاحبنا بصريح الألفاظ في سورة مريم الآية ٥٨ حينما قال سبحانه وتعالى بعدما تعرّض لذكر ادريس واسماعيل وموسى وهارون وابراهيم واسحاق ويعقوب، قال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، وممّن حملنا مع نوح، ومن ذرية ابراهيم، واسرائيل، وممّن هدينا واجتبينا، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجداً وبكيّاً، فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾.

فقد صرح سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بكل جلاء أنه سبق أن أنعم من قبل انعامه على بني اسرائيل، أنعم على النبيين من ذرية آدم ونوح وابراهيم واسرائيل، وجميع هؤلاء بعثهم الله عز وجل من قبل أن يبعث موسى وهارون. فكيف أغفل صاحبنا هذه الآية الصريحة كل الصراحة. وتمسك بآية [يابني اسرائيل اذكروا نعمتي..] فهل جاء هذا الإغفال سهواً؟.

ثم إنّ الله عز وجل نبّه المسلمين بقوله في سورة النساء ٦٩: ﴿ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا﴾. نبّه الله المسلمين إلى هذا تفسيراً منه سبحانه لدعاء سورة الفاتحة الذي أمرهم ليدعوا به في كل صلاة وهو [اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين] وكل مسلم يعلم أن المراد من (المغضوب عليهم) بني اسرائيل خاصة.

وان صيغة[صراط الذين أنعمت عليهم] تتوافق وصيغة آية سورة مريم ٥٨ التي أوردتها لكم والتي قال تعالى فيها[أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين.... الآية].

فألفاظ الآيتين واحدة تقريباً وهذا التوافق كان يستدعي من صاحبنا الاستدلال بآية سورة مريم هذه، وليس بآية سورة البقرة ٤٧.

كما أن نفس التوافق نلاحظ توفّره بين آية سورة الفاتحة وآية سورة النساء ٦٩. فألفاظ الآيتين واحدة تقريباً أيضاً. وكان جدير بصاحبنا، وهو مسلم، أن يستدل ويقارن آية الفاتحة بآية سورة النساء ٦٩ خاصة، لإجماع الأمة الإسلامية على أنها المقصودة من نعمة دعاء الفاتحة.

وقلت سابقاً ولاحقاً إن الدكتور شحرور يكتب في قراءته المعاصرة بإسلوب التنجيم والتخمين والحزر، وليس بأسلوب الباحث الملتزم بأسس وقواعد وأصول، فما كان أسلوبه بأسلوب علمي حتى الآن، وإلاّ فلو كان غير ذلك، فما كانت لتبرز هذه الأخطاء من تحت يديه.

إنّه نسب تعاليم ابراهيم إلى موسى، واطلق عليها مصطلح الوصايا العشر من دون مراعاة السباق والسياق، وانتهى ليزعم أن هذه الوصايا هي النعمة التي اختص الله بها بني اسرائيل لأول مرة في تاريخ الرسالات. خلافاً لجميع نصوص الآيات التي سردتها لكم من قبله. ولم يقف عند هذا الحد من مزاعمه المتهافته. بل زعم أخيراً أن الوصايا والصراط المستقيم والفرقان شيء واحد، مع أنني أثبت بالأدلة اللغوية، والنصوص القرآنية، أنه لاتوجد هناك أيّة رابطة معنوية إطلاقاً مابين الوصايا العشر، والصراط المستقيم، والفرقان.

إن صاحبنا أفرد في مقدمة تمهيده لاصطلاحاته وتقسيماته ومنطلقاته صفحتين ونصف لبحث كلمة (كتاب) فقط، وشجعنا في حينه على متابعة ماكتب. لكنه صدمنا بعد ذلك، لأنه أخذ يتناول ألفاظاً من كتاب الله كالذكر والفرقان والصراط المستقيم وغيرها من الألفاظ، يتناولها من غير اجراء بحث لغوي حول كل كلمة من هذه الكلمات. وحتى يتناول هذه الألفاظ بمعاني ماقال بها اللغويون، ولاكان لها أي أصل في كتبهم، وعلى صورة ضرب بواسطتها آيات كتاب الله بعضها ببعض مُسقطاً من حسابه وعد الله عز وجل: ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون**﴾ الأمر الذي دفعني لتفنيد أباطيل صاحبنا بسلاح الحجة والدليل.

وقد رأيتم تشجيع ربّنا لكل مسلم يطيع الله ويطيع رسوله في آية سورة النساء ٦٩ على أن مثل هذا المسلم المطيع لله ولرسوله، سينال حظا مما أنعم الله به،ليس على بني اسرائيل

وحدهم، كلا، بل مّما أنعمه سبحانه على جميع من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فما معنى، والحال هذه أن يخص الدكتور شحرور طلب النعمة في دعاء سورة الفاتحة بالنعمة التي حظي بها بنو اسرائيل؟؟؟

ندرك مما أسلفنا زيف مقارنة صاحبنا دعاء فاتحة الكتاب، بآية سورة البقرة ٤٧. وننتقل لتدقيق مقارنته الثانية مابين:

ولقد مننّا على موسى وهارون ←—— وآتيناهما الكتاب المبين، وهديناهم الصراط المستقيم. هاتان آيتان من آيات سورة الصافات الأربع التي سبق أن استدل بها صاحبنا، وقمنا حينذاك بنقض مااستدل منها وهو أن الصراط المستقيم في هذه الآيات لايعني الوصايا العشر المزعومة بدليل الواو العاطفة، ودليل لفظ (هديناهما) فلا أرى من ضرورة لإعادة ذكر وشرح مانقضناه فليرجع إليه.

لكني تعجبت من استدلال صاحبنا بألفاظ من الآية ٤٨ من سورة الأنبياء، وهي [ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان] استدل بهذه الألفاظ المجتزأة من الآية على أنها تقابل [ولقد مننا على موسى وهارون] علماً بأن ظاهر الآيتين لايدل على أية رابطة بينهما. وهو بعد أن استدلَّ بألفاظ مجتزأة من الآية قال: (وهكذا نري أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم).

ولنعد إلى الآية بكاملها، فقد قال تعالى فيها: ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفُرقان وضياءً وذِكراً للمتقِين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذكرٌ مبارك أنزلناه، أفأنتم له مُنكرون. ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكُنّا به عالمين**﴾.

إن صاحبنا أغفل (ضياءً وذكراً) فلماذا هذا الإغفال؟ وإنه وازن مابين هذه الآية، ومابين آية سورة الصافات. مع اختلاف ترتيب ماورد فيهما. هناك قدم [الكتاب المبين] على [الصراط المستقيم]. بينما قدم سبحانه هنا (الفرقان) على (ضياءً وذكراً) فلا توازن بين ترتيب معلومات الآيتين، ولا ذكر (للفرقان) في آيات سورة الصافات. فما معنى أن يجتزىء هذه الألفاظ ليخرج بنتيجة مزعومة وهي أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم؟ إلا أن تكون هذه النتيجة المستخلصة من هذا كله تنجيم بتنجيم وتخمين بتخمين؟؟؟ وقد سبق أن

تعرّضت لمعنى لفظ (فرقان) وأثبت حينها أن لاعلاقة بمعاني هذا اللفظ بالأمور السلوكية بشكل من الأشكال. وهل يستسيغ عالم أن يقبل بما أقدم عليه الدكتور شحرور من مخالفات لغوية ونصوصية؟

وقد جاء صاحبنا يزعم، بعد هذه المقارنات المفصولة بأسهم. وبعد النتيجة المزعومة التي نقضناها، قوله على ص ٦٧: (فالكتاب هو الرسالة، والحكمة هي الوصايا، والتوراة هي نبوة موسى، والإنجيل هو نبوة عيسى، ومجموعهم هو الكتاب المقدس. وللدلالة على أن الوصايا هي الحكمة، ذكر تسعاً من هذه الوصايا في سورة الإسراء من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٩، والتي تقول [ذلك ممّا أوحى إليك ربّك من الحكمة... الآية]. فالوصايا العشر بالنسبة لعيسى وللنبي محمد ﷺ هي جزء من الحكمة، حيث ذكر وصايا غيرها في سورة الإسراء، كقوله [ولاتمش في لاأرض مَرَحاً] الإسراء ٣٧. ودمجها تحت عنوان الحكمة. وكذلك في سورة لقمان بقوله [ولقد آتينا لُقمان الحكمة.. الآية] لقمان ١٢. وبما أن لقمان ليس نبياً ولارسولاً. فقد ذكر أن الحكمة "الأخلاق" يمكن أن تأتي لأي شخص في كل زمان ومكان، وذلك في قوله [ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً] البقرة ٢٦٩.

أما بالنسبة لموسى فقد جاءته الوصايا العشر "الفرقان" وسميت بإسمها. ولم يقل عن موسى إنه أوتي الحكمة. أما عن عيسى ومحمد فكلاهما أوتي الحكمة التي تعتبر الوصايا العشر الجزء الأساسي منها، وهي من الصراط المستقيم الذي يجب على كل إنسان ومجتمع إنساني أن يتبعها.). وظاهر أن جميع ماأورده في هذا النص إنما هو تقولات بتقولات، لم يناقش هو نفسه ولا واحدة منها. بل يفترضها مُسلّمات، وإن النفس التي اعتادت البحث والأسلوب العلمي لتُمجّ أسلوب صاحبنا هذا وتقوّلاته. ولتَعَافُ نفسي بحث هذه التقولات المؤسفة التي نقضنا حتى الآن معظمها نقضاً قاطعاً. والجديد فيما ذكره صاحبنا ماذكره عن مفهومه للحكمة ومالحقها من مزاعم وإدعاءات. والظاهر أنه لم يراجع معاني كلمة حكمة إطلاقاً. فلنستمع إلى ماذكره اللغويون حول معني (حكمة). قالوا إن من معاني الحكمة: العدل، العلم، الحلم، النبوة، القرآن، وكل كلام موافق للحق، ووضع الشيء في مواضعه، واتقان القول والفعل وإحكامهما. والرجل الحكيم هو من كانت حجته قطعيّة الدّلالة ترقى إلى مرتبة البرهان. وعلى اساس من هذا المعنى ورد اسم الجلالة (الله الحكيم). والحكمة تعني الفلسفة. فإذا قيل فلان هو من أهل الحكمة فيعني أنه فيلسوف.

فهل يلاحظ القارىء الكريم نسبة مابين معاني (الحكمة)، ومابين الوصايا العشر المزعومة؟

ولقد استعمل الله عز وجل كلمة حكمة في كتابه العزيز بالمعاني التالية:

أولاً - استعملها بمعنى فلسفة الأحكام، وذلك في سورة الجمعة حينما قال ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا لفي ضلال مبين﴾. أي يعلّمهم فلسفة أحكام الكتاب.

ثانياً - استعملها بمعنى وضع الشيء في مواضعه. وذلك في قوله تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ البقرة ٢٦٩.

ثالثاً - استعملها بمعنى الدلالة القاطعة والبرهان وذلك في قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..﴾ النحل ١٢٥.

رابعاً - استعملها بمعنى المؤشر والدليل العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿حكمةٌ بالغة فما تُغن النذر﴾ القمر ٥. أي أن جميع ماأنزلناه من تعاليم، كان كلاماً مؤثراً عظيم التأثير من حيث حجمه وبراهينه واتّزانها، وبالرغم من هذا يصمّ الكافرون آذانهم عن سماعها.

على ضوء هذا تدركون معنى الحكمة في قوله تعالى نسبة إلى عيسى عليه السلام: ﴿ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ آل عمران ٤٨، أي أن الله تعالى بشّر مريم قبل حملها به بأنه سيؤتيه ماآتي موسى، ويعلمه فلسفة تعاليمه. فأين هذا المعنى وماذهب إليه صاحبنا الدكتور، وهو قوله ص ٦٧ (فالوصايا العشر بالنسبة لعيسى وللنبي محمد ﷺ هي جزء من الحكمة، حيث ذكر وصايا غيرها في سورة الإسراء كقوله [ولاتمش في الأرض مرحاً] الإسراء ٣٧، ودمجها تحت عنوان (الحكمة). هذا الإدعاء الذي لايسنده من اللغة دليل كما رأيتم فيما تعلق بمعاني (كلمة) حكمة لغة.

إن خطوة صاحبنا الخامسة المذكورة كانت أكثر خطواته تشويشاً وهلهلة وبُطلاناً. فلننظر في خطوته السادسة والأخيرة. فقد قال على الصفحة (٦٨): (وبما أن الوصية الأولى في الفرقان هي التوحيد، وقد بعث الله الرسل والأنبياء من أجل التوحيد، فعندما ذكر الأنبياء والرسل في سورة الأنعام قال: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكمة والنبوة... الآية﴾ الأنعام ٨٩، وقوله ﴿ومن آبائهم وذرياتهم وأخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ الأنعام ٨٧ وهنا ذكر عبارة ُصراط مستقيمً غير

معرّفة، لأنّ الصراط لم يأت بكامله إليهم جميعاً، بل أتى جزء منه إليهم كلهم، وهو التوحيد على الأقل أي [ألاّ تشركوا به شيئاً] الأنعام ١٥١، وإلى شعيب جاء التوحيد "الوصية الأولى" والوفاء بالكيل والميزان "الوصية السابعة").

خلاصة خطوة صاحبنا الأخيرة تحت عنوان مصطلح "الفرقان" هي أن كلمتي (صراط مستقيم) إذا وردتا مُعرّفتين بالألف واللام أي (الصراط المستقيم) يكون المراد منهما الوصايا العشر الموسوية التي يزعمها. وفي حال ورودهما غير معرفتين بالألف واللام أي (صراط مستقيم) فتدلّان على جزء من الوصايا المذكورة.

والقارىء الكريم أضحى عالماً ومُلماً بمعنى (الصراط المستقيم) كمصطلح قرآني، لايمت إلى الوصايا العشر بصلة من الصلات، من خلال ماسبق أن قدمت للقارىء من شرح لهذا الأمر على ضوء المعاني اللغوية لكلمتي (صراط مستقيم).

واطرح على صاحبنا الدكتور سؤالاً أرجو الإجابة عليه بصراحة تامة: هل تعتقد حضرتك أن محمداً رسول الله لم يؤت ماأوتي موسى، أم أنه أوتي الوصايا العشر؟

فإن قلت أوتي الوصايا العشر وأكثر منها، نسألك أن تفسر لنا، وعلى ضوء مصطلحك لمعنى (صراط مستقيم)، معنى [قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملّة ابراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين] الأنعام ١٦١، فها أن محمداً يقول [هداني ربي إلى "صراط مستقيم"] وليس إلى [الصراط المستقيم].

فياصاحبنا الدكتور شحرور، إذا كنت أنت معتقداً بكمال الوصايا العشر الموسوية المزعومة، وبنقص الوصايا الإسلامية، فإن من المنطق أن تعتنق اليهودية ديناً، أو تفصح عن حقيقة معتقدك.

وهاأني أدرج لصاحبنا آيات وآيات، جميعها تدور حول (صراط مستقيم) وليس حول (الصراط المستقيم).

﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ البقرة ١٤٢ فهل يبخل الله على عباده، على اعتبار أنه لايهديهم إلى (الصراط المستقيم)؟؟؟

﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ الحج ٥٤، فهل أن الإنسان إذا اصبح مؤمناً يظل بحاجة ليهتدي إلى الوصايا العشر ناقصة؟

﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ المؤمنون ٧٣، فهل أن محمداً يدعو إلى وصايا ناقصة؟

﴿إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾ يس ٤، فهل أن محمداً لم يكتمل فهمه للوصايا العشر؟

﴿ويتم نعمته عليك، ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ الفتح ٢، فهل بخل الله على رسوله محمد بالوصايا العشر.

واسألك أخيراً مامعنى ﴿ ومامن دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها، إن ربي على "صراط مستقيم"﴾ هود ٥٦، فهل إن ربّك، دون الوصايا العشر المزعومة والعياذ بالله، فما إنه يقول ﴿ إن ربي على "صراط مستقيم"﴾ وليس على "الصراط المستقيم".

حياءً أيها الأخ المسلم، فقد أثبتنا بطلان مصطلحك "الفرقان".

مراجعنا المعتمدة:

في اللغة:

لسان العرب لابن منظور

المفردات للاصفهاني

تاج العروس للحسيني

محيط المحيط للبستاني

الموجز في تاريخ البلاغة

المفصل في علم اللغة العربية

دلائل الإعجاز

الخصائص

الجمل للجرجاني

في التفسير:

التفسير الكبير للرازي

تفسير الكشاف للزمخشري

تفسير روح البيان للبروسوي

تفسير ابن جرير للطبري

تفسير ابن كثير بأجزائه

في السيرة:

سيرة ابن هشام

السيرة الحلبية

تاريخ الخميس

في الحديث:

جامع صحيح البخاري للبخاري

صحيح مسلم للقشيري

جامع الترمذي للترمذي

سنن أبي داوود للسجستاني

سنن النسائي للنسائي

موطأ الإمام مالك لمالك

الزرقاني للزرقاني

مسند أحمد بن حنبل لابن حنبل

المرقاة للقاري

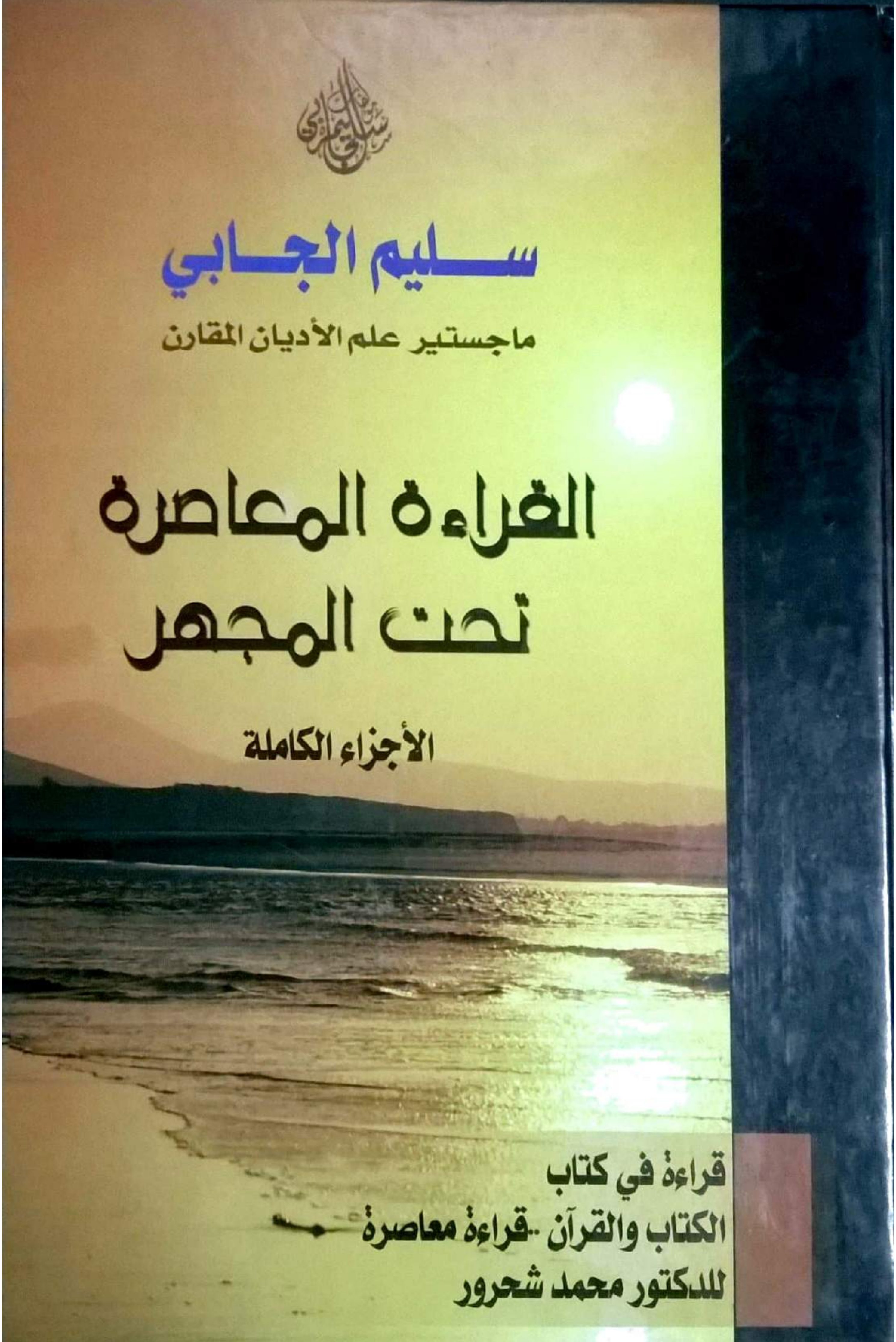
كنز العمال للهندي

السنن الكبرى للبيهقي

سنن الدارقطني للدارقطني

<u>فى الفقه:</u>

كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري.


سليم الجابي
ماجستير علم الأديان المقارن
القراءة المعاصرة
تحت المجهر
الأجزاء الكاملة
قراءة في كتاب
الكتاب والقرآن ..قراءة معاصرة
للدكتور محمد شحرور

الجزء الأول .

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

في مقدّمة الردّ

فوجئت منذ عدّة أشهر، حين سألني بعض الشخصيات الرّسمية وشخصيات غير رسمية، عن رأيي فيما ورد في كتاب "القراءة المعاصرة" الذي ألّفه الدكتور محمد شحرور استاذ مادة ميكانيكية التربة في كلية الهندسة المدنية. ونفيت آنذاك علمي بصدور الكتاب المذكور.

وأرسل لي بعد أيام من ذلك دكتور صديق ومشهور نسخة منه لأوافيه برأيي أيضاً. فأقبلت على تصفّح الكتاب. فوجدت أن صاحبه مهّد بمنطلقات بحث أساسية ومصطلحات وتقسيمات جاء بها على غير المعروف حتى الآن. وأدركت أن الذي ينقض هذه المنطلقات والمصطلحات والتقسيمات، يكون قد نسف كل ماجاء في الكتاب من أبحاث.

ثم علمت بعدها بالضجّة التي أحدثها صدور هذه القراءة المعاصرة على صعيد رجال الدين. الذين خطبوا مندّدين بصاحبها في المساجد وعمقوا كراهيته في نفوس المُصلّين.. ثم جاء من حمل إليّ مجلّة اسلامية معروفة تضمنت مقالاً لعالم شهير. ينقد ويتهم. ولايصرّح بل يلمّح.

تمكنت من الحصول على رقم هاتف الدكتور شحرور نفسه، ولم اتمكن من مكالمته إلا بعد شهر من الزمان. اتفقنا على الاجتماع في مكتبه، وحضرت على الموعد. ودام اجتماعنا مدة ساعة من الزمان. عرّفته خلالها نفسي. أهديت اليه نسخة من مؤلف لي. وأهدى إليّ نسخة من قراءته المعاصرة. وانتهى اجتماعنا بالإتفاق فيما بيننا على أن نجتمع بعد شهر من الزمان. يكون هو قد قدّم ملاحظاته الخطية على كتابي وأكون حاملاً معي ملاحظاتي حول كتابه أيضاً.

لم يف الدكتور محمد شحرور بوعده الذي قطعه على نفسه. وظللت ألاحقه أكثر من شهرين حتى صادفته على الهاتف في أواخر شهر رمضان المبارك. صرّح بأنه لم يقرأ من

كتابي إلا صفحات. ولم يدون ملاحظات، ورجاني أن أمهله عشرة أيام أخرى نجتمع عنده "للدردشة" وليس لأستلم أو يستلم شيئاً مكتوباً. أنهيت المكالمة معه غير راضٍ عن سلوكه هذا. فاعتبرت نفسي في حلّ من اتفاقي معه. والتفت لإصدار كتاب في الردّ على قراءته المعاصرة، على مراحل وأجزاء.

والسؤال المطروح قبل كل شيء هو هل يصحّ قولنا "قراءة معاصرة" نسبة إلى كتاب الله تعالى؟ اجاب على هذا السؤال عالم مشهور في بلدنا وهو أنه لايصح ذلك، ذلك على اعتبار أن النص العربي لايحتمل أكثر من قراءة واحدة.

وأنا أخالفه الرأي وأقول: صحيح أن النص العربي لايحتمل أكثر من قراءة واحدة. إنما ينطبق هذا على الجملة الواحدة بسيطة التركيب، لكنه لاينطبق على ماوراء ذلك، على النصوص الأدبية والأشعار وكتاب الله العظيم. ذلك أن الكاتب والشاعر يتجاوزان التراكيب العادية. ويتفنّنون في الصّنعة ويتبارون في الحقيقة والمجاز والبديع والبيان والاستعارات والتشابيه. فما بالكم بكتاب الله وقد تحدّى العرب في جميع هذه الفنون اللغوية وجاء على مستوى الاعجاز لغة ومضموناً؟ وحُمّل من بحور العلوم والمعارف مالا ساحل له، ليعالج ويعجز أهل كل زمان ومكان؟ كما احتوى على أنباء غيبية لايجلّيها لوقتها إلاّ هو.

لهذه الأسباب جميعها اتفق أنا شخصياً أن تكتب في كل عصر من العصور وكل قرن من القرون "قراءة" جديدة لكتاب الله على ضوء مستجدات العصر نفسه. على أن يتم ذلك من قبل المختصين والعارفين بالله من جهة، وضمن الأصول التي الزمنا بها كتاب الله ووفقاً لمشيئة ربنا الذي أنزله. أما أن يتصدى لهذا غير متخصص، فلا يعتمد الأصول التي لابد من اعتمادها، وينطلق غير الانطلاقة التي ذكرناها، فذلك ماينبغي أن يتجنبه المثقفون، والعلماء منهم خاصة. إذ لابد من ربط حاضرنا بماضينا حتى لاينطبق علينا قوله سبحانه ﴿كلما جاءت أمة لعنت أختها﴾ الأعراف ٣٨ .

من هذا المنطلق لا أراني قد صدمت بخبر ظهور "قراءة معاصرة" بل وكنت مسروراً جداً مبدئياً، أن يأخذ الفكر طريقهُ إلى التعبير بصراحة وجرأة. لكني صُدمت حقاً بعد تصفّحي الأول لهذه "القراءة المعاصرة" فقد لاحظت عدم تخصّص صاحبها، وعدم التزامه

بالأصول التي وضعها ربنا من أجل فهم كتابه العظيم، خطأ الدكتور محمد شحرور قد سار في "قراءته المعاصرة" على اسلوب المنجمين متناسياً قول رسول الله ﷺ (كذب المنجمون ولو صدقوا).

ولا اعتقد أنني أظلم الدكتور محمد شحرور بهذا الأسلوب في التعبير فالذي يتابع ماكتبه في تمهيده واصطلاحاته، ويتابع اجوبتي وردودي عليها سيحكم في مصلحتي يقيناً، بل ربما أحس أني راعيت جانبه، فقصّرت في وصف اسلوبه بما هو أهل له.

وهناك من يسد باب الاجتهاد والبحث في أمور تفسير كتاب الله القرآن. على اساس أن اسلافنا رحمهم الله تعالى ماتركوا لنا أمراً لنجتهد فيه ونبحث. ولربما قصد أصحاب هذا الرأي البحث في الأمور الفقهية.

أما أنا فلا اتفق مع رأي هؤلاء. مالم أجد الأجوبة المقنعة على الأسئلة الخمسة التالية:

السؤال الأول: ماهي معاني الحروف المقطعة التي نلاحظها في أوائل بعض السور القرآنية؟ فإن قيل إن الله تعالى استأثر في علمه بمعانيها، نقول قد نسبتم إلى كتاب الله احتواءه مالايوصف بكلمة [قرآن مبين].

أو قيل إنها أسماء للسور. نقول قد حكمتم على أن كثيراً من سور القرآن نزلت من دون أسماء. من دون أن تقدّموا على ذكر سبب ذلك الدليل والبرهان.

أو قيل إنها أسماء الله الحسنى وحسب. نقول: لزم أن توضحوا لنا: كيف؟ ولماذا؟ أي كيف نفهم أنها أسماء الله الحسنى؟ ولماذا لم تبتدىء أكثر سور القرآن المجيد بأسماء الله الحسنى؟.

فإن اجبتم: نسلّم بقراءة وصلتنا. نسأل: ولم لاتتدبرون كتاب الله بأنفسكم، خصوصاً وانكم مأمورين بذلك من الله بارئكم. وإلا قال سبحانه عنكم إن على قلوب أقفالها. وفي اجابتكم اقرار أيضاً بأن قراءة الاجداد غير كافية أيضاً.

فإن قلتم: روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ قوله (ألم) تعني أن الله أعلم. توجب عليكم حينئذ تقديم تفسير لجميع أحرف المقطعات الباقية بقراءة من الصحابة والتابعين. حتى لانضطر للقول بضرورة "قراءة معاصرة".

فإن قيل إن الأحرف المقطعة قد نزلت لمجرّد التعبّد بها دون معنى لها. قُلنا: هذا مجرد إدعاء ولايدعمه دليل مقنع، فلابد من حكمة ومعنى للمقطعات.

فإن قلتم إن حروف المقطعات وضعت لتبكيت العرب واشعارهم من أن هذا الكتاب مؤلف من هذه الأحرف ومع ذلك فهو معجز لكم. نسألكم: فما هي حكمة وجود سور غير مبتدئة بمقطعات إذن؟ فهل نزلت ولاتحدي فيها؟ ونسألكم: ماحكمة افتتاح سورة بحرف مرة أو بحرفين مرة أخرى، أو بثلاثة أحرف أو أكثر مرة ثالثة. فما هي حكمة قلة عدد هذه الأحرف وكثرتها، فلا يُقْدم ربنا على فعل لغواً ومن دون حكمة بالغة. ونسألكم: هل يحق لإنسان ما أن يُقدم أو يؤخر في هذه الأحرف بصورة من الصور إن كانت قد وضعت لمجرد التبكيت، وليس لحكمة بالغة؟.

السؤال الثاني: لنفترض معكم وجود قراءة واحدة لكتاب الله، وعلى أنها قراءة الصحابة والتابعين فقط، فكيف تفسّرون لنا ظاهرة تعدُّد تفاسير المفسّرين؟ ومامنى أن يردّد أصحاب هذه التفاسير ضمن تفاسيرهم قولهم: قيل وقيل وقيل؟ ورُوي ورُوي ورُوي؟ فإذا انتهوا من تفسير الآية قالوا: والله أعلم؟ فأين القراءة الواحدة للنصوص القرآنية عند صحابة رسول الله والتابعين؟ ثم كيف ولم اختلفت فرق المسلمين في فهم هذه النصوص؟.

السؤال الثالث: هل اتفق الصحابة وتابعوهم على أصول موحّدة لقراءة النصوص القرآنية؟ فإن قلتم: نعم. نسألكم: ماهي هذه الأصول، وكم عددها، وأين مرجعها، ومن وضعها؟ أو قلتم: انهم اختلفوا في عدد هذه الأصول، نسألكم: لماذا، ومن أين استمدوا سلطتهم في جمع هذه الأصول؟ كما نسألكم: ماهو الطريق الأسلم لمعرفة أصول تفسير وقراءة القرآن المجيد، تفسيراً وقراءة لارجعة فيهما.

السؤال الرابع: هل تضمن كتاب الله في نظركم، نبوءات غيبية مستقبلية الوقوع، ولم تتحقق مضامينها حتى يومنا هذا؟ وافرضوا تحقق الانباء الغيبية على غير قراءة الصحابة والتابعين، أفلا يعتبر خطؤهم هذا دليلاً على ضرورة كتابه قراءة جديدة في كل قرن من القرون؟

السؤال الخامس: هل لديكم قراءة واحدة للصحابة وتابعيهم معتمدة من قبل جميع المسلمين في العالم بختلف فرقهم وأقطارهم. وتشرح هذه القراءة الموحّدة كتاب الله على

صورة لاتخالف العقل والمنطق والأحداث والتطورات التاريخية؟ فإن أجبتم بالنفي. نسأل وهل بإمكان أحد القيام بهذه المهمة على الوجه المقبول؟ وأن يجيب كاتب القراءة على مختلف اسئلة السائلين أجوبة مقنعة مُدلّلة ومقبولة؟.

وأقول إضافة إلى مضمون هذه الأسئلة الخمسة. إننا إذا لم نتفق على اجابات صحيحة ومنطقية تتعلق بهذه التساؤلات، فلا يحق لنا أن نمنع ظهور قراءة معاصرة لكتاب الله العظيم.

هناك من المتّدينين وغير المتدينين، من يسارع إلى اتهام سواهم على اساس من الظنون، كما يسارعون إلى التكفير بدون مسوّغ شرعي. وأقول إنني بعيد عن هذا بُعد الأرض عن السماء. ذلك لمنافاة ذلك لتعاليم الإسلام. فالظن لايغني من الحق شيئاً. ولايجوز أن يُكفر إنسان يشهد بكلمة الشهادة، ويأكل من ذبيحة المسلمين. ويستقبل قبلتهم، وينبغي مقارعة الآراء بسلاح الحجة والبرهان. ولايجوز الحجر على العقول وكبتها.، فللهَ الحجة البالغة. وإن العالم المتمكن من علمه لايخشى هذه المنازلة ولاهذه المواجهة. بل يخشاها الذي يكون بيته من زجاج، وإن فاقد الشيء لايُعطيه. وإضافة إلى ذلك فلاينبغي أن يكون البحث للّرفه العقلي، بل بحثاً عن الحقيقة، وسعياً للتطابق مابين النظرية والسلوك.

ومادام صاحب "القراءة المعاصرة" يدعي الإسلام فيها بصريح العبارة. ومادام يُبدي حماسته للدين الإسلامي بصريح العبارة أيضاً. فلايحق لأحد أن يشق صدره وينظر مافيه ويطعن في نيته، ذلك لأن هذه هي مهمة رب العالمين، ولايكون واجبنا في هذه الحالة إلا الردّ عليه بسلاح الحجة والبرهان والخلق الحسن. وأن يُترك للمراقب تحديد النظر إليه، غير متناسين حقيقة القانون الطبيعي الذي سنه الخالق نفسه، والقائل ﴿فأما الزبد فيذهب جُفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ الرعد ١٧ .

وانتقل للكلام على القراءة المعاصرة نفسها، وماورد فيها بقلم الدكتور محمد شحرور فأقول: إن مايميز هذه القراءة اصطلاحاتها وتقسيماتها ومنطلقاتها. هذه التي انتهى الدكتور شحرور من ورائها، لتجزئة كتاب الله إلى مجموعة من عناوين كتب مختلفة، ماقال بها رسول الله واصحابه. ولاقال بها المسلمون على اختلاف أزمنتهم واختلاف اقطارهم.

وأضيف قائلاً: إن صحّت هذه الاصطلاحات والتقسيمات والمنطلقات التي فاجأنا بها الدكتور شحرور. فإنها تحطّ من مكانة كتاب الله وتنزله من عليائه. وتصيبه بالتقزّم والسطحية، فلايعود كتاباً معجزاً لالغة ولامضموناً، بل يعود تابعاً لمصطلحات الفكر الماركسي وفلسفته بِعجَرِ هذا الفكر وبُجَرِه.

والغريب في أمر صاحب القراءة المعاصرة أنّه لم يفطن لهذا الأمر. بل يزهو بما جاء به من منطلقات ومصطلحات وتقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، والأغرب من ذلك ألا يعتمد الأصول والقواعد الضرورية والمُسّلم بها في البحث. متجاوزاً ذلك إلى اسلوب "التنجيم" والحزر والتخمين. هذا الأسلوب الذي شَرّخَ التسلسل الموضوعي لكل سورة من سور كتاب الله، استشهد بإحدى آياتها، مما ستتبينون حقيقة أمره في هذا الكتاب.

ومايلاحظ على صاحب القراءة المعاصرة، ومايؤخذ عليه، هو أنه لايقّدم نفسه كباحث ومجتهد وحسب. بل يخطو خطوة خطرة جداً، وهي التهجم على السّلف الصالح، وتسفيه آرائهم، وبأقذع الألفاظ، كما أنه يقدم نفسه وكأنه المسلم الوحيد الذي تكشفت على يديه حقائق الإسلام وحقائق تعاليم كتابه العظيم. مُعتبراً "قراءته المعاصرة" القدوة على درب المستقبل والإمام في فهم الإسلام وتبنّيه.

إن هذا الأخ المسلم، لو كان وقف عند حدّ الإدعاء بالبحث وتقديم الرأي، لقلنا إنه يثاب على اجتهاده ولو اخطأ الرأي، أمّا وقد تجاوز هذا الحدّ، وسفّه آراء السلف الصالح بألفاظ ستلاحظون نماذج منها في هذا الكتاب، فإننا لانملك أنفسنا أن نشك في نياته ولانجزم في أمره، ونترك أمر محاسبته على اجترائه المشار اليها للمسؤولين وللتاريخ الذي لايرحم.

وإنني بروح الاعتدال هذه، هذه الروح التي غرستها فيّ تعاليم الإسلام، تناولت مصطلحات وتقسيمات ومنطلقات الدكتور محمد شحرور بالدراسة والتمحيص وكشف نواحي الزيف فيها. وقد حاذيت كل خطوة خطاها، ونقضت كل ماقدّمه من أدلة واستشهادات ومعاني منحوتة من عنده، وسلاحي هذا كله مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل. وتغاضيت عن سطحية الدكتور شحرور، وضعفه اللغوي والتواء أساليبه.

وأبرز ماحاوله صاحب القراءة المعاصرة في تمهيده المعنون (بالكتاب والقرآن) هو افهامنا أن النّبوة غير الرسالة، وأن في كتاب الله من الآيات مايقابل النبوة، ومن الآيات

مايقابل الرسالة، وأن آيات النبوة التي اصطلح الله سبحانة على تسميتها (الآيات المتشابهات) وأن آيات الرسالة هي التي اصطلح على تسميتها (الآيات المحكمات).

ولقد كتبت فصلاً مستقلاً في موضوع مفهوم نبي ونبوة. ونقضت فيه كل مازعم هذا من حيث اللغة ومن حيث النص. كما أني كتبت فصلاً مستقلاً آخر في موضوع مفهوم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، قطعت فيه جهيزة قول كل خطيب وكتبت فصلاً في نقض مصطلح (الذكر) وفصلاً آخر في نقض مصطلح (الفرقان). وإني لعلى يقين تام بأن من يطالع هذه الفصول ، لابد أن يتخلّص من كل ماعلق في ذهنه من آثار تركتها هذه القراءة المعاصرة فيه. وأن القارىء سيحكم بعد قراءتها على مصطلحات الدكتور شحرور بالبطلان الصريح.

وإن الدكتور شحرور، حينما فرّق بين النبوة والرسالة، إنما كان يهدف أصلاً إلى تشويه مفهوم الآية السابعة من سورة آل عمران التي تكلمت عن المحكمات والمتشابهات، فهو قد أعطى هذه الآية معنى منطلقاً من هذا التفريق بين النبوة والرسالة، وزاعماً أن الآيات المتشابهات لاسبيل للأخذ بها إلا "بالتأويل"، ووضع أسساً لهذا التأويل ما أنزل الله بها من سلطان.

وهو حينما أفرغ آية سورة آل عمران المذكورة من محتواها، وحمّلها مالاتحتمل، فقد احتاج إلى أدلة من خارجها تدعم لباسه "مسبق الصنع" الذي حاول الباسها إياه، فعمد إلى سورة البقرة، متناولاً ثالث آياتها ليزعم أنها تعني (كتاب الغيب) أو الآيات المتشابهات أو كتاب النبوة، وليزعم أن ﴿ ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ تعني الآيات المحكمات أو كتاب (السلوك والاخلاقيات) أو كتاب الرسالة. وسيرى قارىء كتابي وتتضح لعينيه أن هذا الذي زعمه عاد خراباً يباباً، وسيدرك أن ﴿ يؤمنون بالغيب﴾ ماهي إلا صفة للمتقين، ولاعلاقة لمعنى الغيب لغوياً بما زعم هذا وذهب إليه. وأن هذه الصفة متعلقة بالسّلوك وليس بالمتشابهات.

حيث تحمل صفة الغيب هنا، استناداً إلى المعاني اللغوية التي اوردها اللغويون، منهجاً لاصلاح النفس، وأسس التعامل الاخلاقي مع الآخرين، والتزام فكر علمي في البحث والدراسة بعيداً عن الأوهام والظنون. والالتزام بفكر نابع عن فلسفة حياتيه جاء بها كتاب

الله العظيم. والوصية بلابتعاد عن دروب النفاق وازدواج الشخصية على جميع صُعُد الحياة، مع التزام الخط الذي أشارت إليه الأنباء الغيبية التي تضمنها كتاب الله عز وجل. ومادام هذا كله أموراً سلوكية، فقد بطل زعم الدكتور شحرور أن يؤمنون بالغيب يعني النبوة والمتشابهات وسوى ذلك.

ومذهب الآخ المسلم هذا يبتر آية عن سباقها وسياقها، ويفرغها من محتواها، ويلبسها لباساً مزعوماً مسبق الصنع من عنده. فيشوّه بهذه العملية معاني الآيات افظع تشويه.

ولقد تصدّيت لخطواته المذكورة، خطوة خطوة، وآية آية، حتى بلغ عدد خطواته تلك تسعُ خطوات، حاول من خلالها ايهام القارى أن القرآن شيء وأن الكتاب شيء آخر. وانتهى إلى اتهام السلف الصالح بالضلال وتحجّر العقول. ولم يستثن حتى صحابة رسول الله الكرام من اتهامه البشع المذكور. ولا أريد اطالة عرض ماورد في "القراءة المعاصرة" من ترهات، لأن القارىء الكريم، إذا طالع كتابي هذا سيلاحظ كل شيء وتفنيده على كل حال.

ومن أبرز مايؤخذ على الدكتور شحرور أنه خصص لشرح كلمة (كتاب) مثلاً صفحتين ونصف صفحة، وبدا فيها وكأنه يلقي درساً على الأطفال في برنامج (افتح ياسمسم)، في الوقت الذي ماكان هذا اللفظ يحتاج إلى شرح يتجاوز الأسطر، ومن جهة ثانية أهمل شرح كلمات كثيرة ككلمة (الغيب) مثلاً من الوجهة اللغوية، فلم يخصص لمعناها أكثر من سطر ونصف سطر، وهذه الظاهرة جاءت تشكك القارىء العالم في زاد الدكتور شحرور اللغوي كباحث، هذا الزاد الذي خلف وراءه غيوماً سوداء على درب ماكان يهدف إليه.

والذي لاحظته أن هذا الأخ المسلم تبنى جميع مصطلحات الفلسفة الماركسية، بعُجَرها وبُجَرِها، بحيث يشعرنا أنه ماركسي في طويته، ولما كان هذا الأمر من قبيل الظن، ولايرقى إلى حدّ اليقين فإننا نسكت عليه على مضض، إلى أن يكشف لنا الله عز وجل حقيقة أمره بشكل لالُبس فيه.

ومهما كان الأمر، فإن الدكتور شحرور، أظهر في آخر كتابه أنه قدّم لأمته مالم يقدمه إنسان آخر سواه. فهو كتب على الصفحة (٧٣٠):

(إن العالم الآن على أبواب استقبال القرن الحادي والعشرين الميلادي ولا أعتقد أنه يوجد شيء عند العرب والمسلمين ليدخلوا به هذا القرن. فكأنه كتب عليها "حاشا الله" أن نعيش عالة على العالم في السّلع والأفكار. إن مانعيشه الآن ليس قدرُنا الإلهي، ولكنه قضاؤنا الذي اخترناه بأنفسنا نتيجة جهلنا، وعدم وجود نظرية معرفية إنسانية لدينا. إنني أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. وأن أكون من الناس الذي استطاعوا أن يقدّموا شيئاً لأمتهم وشعبهم، ولا أدعي الكمال في حياتي الشخصية، ولا أعيش حياة الناسكين...)

ومن خلال هذا النص يتضح أن الدكتور شحرور:

أولاً - يجرّد العرب والمسلمين قاطبة من أي شيء يدخلون به القرن الحادي والعشرين.

ثانياً - ويجرّد العرب والمسلمين من أن يكون لديهم نظرية معرفية إنسانية.

ثالثاً - ويعتبر نفسه أنه الإنسان العربي المسلم الوحيد الذي قدّم هذه النظرية المعرفية الإنسانية، ليدخل بواسطتها الأمتين العربية والإسلامية القرن الحادي والعشرين.

هذه الأمور، كما ترون، ماهي إلاّ سقطات قلمه نفسه.

ولاشك أن من يقرأ كتابي في الردّ عليه، وتفنيد ماجاء به، ستتضح لعينيه حقيقة مُرّة جداً، هي على عكس مازعمه الدكتور شحرور في هذا النص الأخير.

وللأسف الشديد، قد أخذت المادة والمواد، من عقل الدكتور شحرور مأخذها فيه. حتى أنسته دور القيم الروحية الحاسم في حياة الإنسانية والشعوب. فما تساءل: هل أفادت الفلسفة الماركسية المادية شعوب المعسكر الاشتراكي في شيء اللّهم إلا تجويع تلك الشعوب وتكديس آلات الحرب والدمار؟ وهل أفادت شعوب أوربا وأمريكا فلسفتها المادية وتكنولوجيتها المتفوقة في القضاء على الطبقية وروح العنصرية والفقر بين أبنائها؟ اللهم لانشر الموبقات والإدمان على المخدرات؟ ألا إن جميع العقلاء باتوا يدركون أن المرض لايكمن في الفلسفات والمبادىء، إنما يكمن في انعدام الحياة الروحية وفقدان الأئمة الروحانيين.

وليسأل الدكتور شحرور نفسه بنفسه: هل أفادته ذاتياً نظريته المعرفية الإنسانية التي يقدمها لإصلاح العالمين العربي والإسلامي؟ هل تناسى أنّه مُدمن على التدخين؟ فهل تقر نظريته هذا الإدمان؟ فأين النظرية وأين التطبيق؟ ثم إنه أبرم معي عهداً أن يقدم ملاحظاته كتابياً على

كتابي الذي أهديته إليه بعد مطالعته وخلال شهر من الزمان، وإنه أخلف وعده. فهل تقرّ نظريته المعرفية الإخلاف بالوعد، ولاتفرض على صاحبها تقديم الاعتذار من فوره؟ أما أنا فقد وفيت بوعدي. وها أني نقضت له منطلقاته ومصطلحاته وتقسيماته المزعومة، وكما وعدته. وأن اخلافه بوعده اضطرني لنشر ردي عليه على شكل كتاب.

على كل حالٍ لاحاجة للتوسع في ضرب الأمثلة من واقعه، وعليه أن يعلم بأن مرض الأمتين العربية والإسلامية لايكمن في افتقارها إلى هذه النظرية المعرفية الإنسانية أو تلك. إنما يكمن في عدم تمسكها بقيمها الأخلاقية والروحية التي قدمتها لها تعاليم دينها. وإن وراء هذا الانحلال، هذه التيارات الفكرية المادية التي عرضها ويعرضها الملحدون والماركسيون وأمثالهم مشوبة بزخرف الحياة الدنيا ومباهج المادة. وإن على الدكتور شحرور أن يتذكر بأن رائد الأمة العربية محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، ماكان على ثقافة الدكتور شحرور "العلمية". وبالرغم من هذا فقد استطاع هو أصحابه والذين كانوا على شاكلته الروحية، توحيد أمتهم ورفعها إلى مصاف أعظم الأمم في الأرض. فلم يحققوا ذلك عن طريقة نظرية الدكتور شحرور المعرفية الإنسانية. خصوصاً وأنه اعترف بجهلهم لجميع جوانبها، بل استطاعوا ذلك باخلاقياتهم وروحانياتهم وصلاتهم بالله خالقهم. واليوم لايصلح أمر هذه الأمة إلا بما صَلُح به أولها.

وإنّه ليأخذني الأسف الشديد على الدكتور شحرور إنه لم يعط الأمور الأخلاقية والروحية وزناً في نظريته، بل إن كل من يتابع ماكتبه، من هذا المنظار، يوقن بأن الدكتور شحرور حاول المستحيل لقتل الأخلاقيات والروحانيات ومايمت إليها بصلة من الصّلات. والعجيب أن الدكتور شحرور، من خلال مانقلته لكم من كلماته الأخيرة يرجو الله سبحانه وتعالى، على حدّ قوله أن يتقبل عمله خالصاً لوجهه الكريم.

فلو كان متيقناً من وجود الله عز وجل لكان أبدى يقينه وليس رجاءه ولكان قال إني أفتخرُ أن وفقني ربي إلى هذا وكتب لي السعادة من عنده. أما وقد قال أرجو، فدلالة هذا اللفظ تعني أنه لاصلة له بربه أولاً، وأنه غير متيقن ممّا أقدم عليه ثانياً. وأنه يتهّم ربّه بأنه قد يتقبل عمله أو لايتقبله. أي أن ربّه يقيس الأمور بمقاييس غير ثابته. يتقبل عملاً صالحاً ولايتقبل عملاً صالحاً آخر (والعياذ بالله).

وأعقّب أنا بدوري على كلمات الدكتور شحرور المذكورة فأقول جازماً أن من أبسط البديهيات ألا يتقبل الله عز وجل عمل من سعى لتجزئة كتابه القرآن العظيم. والذي أجهد نفسه لتشويه معاني آياته. والذي انتقص من فهم رسول الله وصحابته وجميع المسلمين. هذه الأمور التي بدرت من الدكتور شحرور، من حيث يدري، ومن حيث لايدري. فهي أمور اضحت واضحة البطلان. وها أني أقدّم لقارئي العزيز بعضاً من نماذج مّما فعله الدكتور شحرور:

أولاً - هل يصّح قوله بأن جميع المسلمين على اختلاف أزمنتهم "بلا عقول ومتحجرون"؟؟

ثانياً - هل يصّح قوله بأن "دارون" هو من "الراسخين في العلم" الذي نص عليهم كتاب الله، أما محمد رسول الله وأصحابه فماهم من الراسخين في العلم؟؟

ثالثاً - هل يصّح قوله بأن الله عز وجل قد اصطلح صفة "أحسن الحديث" لأحرف المقطعات التي يتمتم بها المؤمن. بينما لم يصطلح إلا صفة (الحديث(لآيات القرآن العظيم؟ فهل جاءت المقاييس عند الله مقلوبة ومعكوسة والعياذ بالله؟؟

رابعاً - هل يصّح الاستشهاد بآية كريمة على شيئين متغايرين كما فعل هو بآية سورة الزخرف (٢٣) استشهد بها تارة على أنها تعني كتاب الآيات المتشابهات، واستشهد بها تارة أخرى على أنها تعني "سبع المثاني" أي أحرف المقطعات؟؟

خامساً - هل يصّح بتر كل آية قرآنية عن سباقها وسياقها، ليبدو كلام الله ووحيه وكأنه لارابطة تربط آياته، حتى احتاج إلى "تنجيم" الدكتور شحرور لفهم معانيه؟؟

وإني لأقسم بالله العظيم الذي لايفلح الظالم المفتري عليه. أنه أيدّني في هذا الرد الذي رددت به على الدكتور محمد شحرور، تأييداً عجيباً. وإني لعلى يقين من أنه سبحانه وتعالى أحبط مافعله الدكتور محمد شحرور. والأيام بيننا، ولكل حادث حديث. والحمد لله رب العالمين.

سليم الجابي

الفصل الأول

الآيات المحكمات والآيات المتشابهات

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول
الآيات المحكمات والآيات المتشابهات

مازال موضوع الآيات المحكمات والآيات المتشابهات مثار جَدَلٍ واختلاف في الرأي منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا، حتى طلع علينا كتاب "قراءة معاصرة" بمفهوم جديد للمحكمات والمتشابهات، لايستند لأساس لغوي، ويتنافى وسباق الآية وسياقها.

ولما كان من حق كل فرد من افراد البشرية أن يبدي رأيه واجتهاده، شريطة أن يكون متجرداً ومنزّهاً ومخلصاً ومتخصصاً. فقد وعد رسول الله ﷺ كل مجتهد بثواب من ربه إن أخطأ، أما إذا أصاب فله حسنتان. وقد حثنا ربنا عز وجل أن نتدبر كتابه الكريم، فلا نكون مع من على قلوب أقفالها.

ومنهجي الشخصي هو ألا أحكم على إنسان، مالم تجتمع عندي معطيات السمع والبصر والفؤاد لإدانة هذا الإنسان، لأن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان المؤمن عنه مسؤولا.

ولقد بحثت في هذا الفصل مفهومي للآيات المحكمات والمتشابهات مؤيداً إياه بمعطيات اللغة، والنصوص القرآنية، مع محاولة تبيان انسجام ذلك كله مع سباق الآية التي هي محل البحث وسياقها.

فاعلموا أن الآية السابعة من سورة آل عمران بحثت هذا الموضوع، موضوع المحكمات والمتشابهات. علماً بأن سورة آل عمران قد أنزلها الله عز وجل على رسوله في المدينة المنورة. ويبلغ عدد آياتها مائتي آية، عدا آية البسملة. وقبل أن أدخل في توضيح رأيي، أجد لزاماً عليّ أن أضعكم في الإطار العام لموضوع سورة آل عمران وتسلسله المنطقي حتى تتكون عندكم فكرة أولية عن هذا التسلسل الموضوعي. وحتى تدركوا مدى انسجام المعنى الذي سأشرحه لكم حول المحكمات والمتشابهات، مع تسلسل السورة الموضوعي.

لقد ابتدأ ربنا عز وجل هذه السورة بدعوى ذات منطلقين رئيسيين، فالدعوى هي وجود ذاته سبحانه، وأن ذاته تتصف بصفتي الحي والقيوم، عَبر عن هذا كله بقوله ﴿آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾.

وتلاحظون أن هذه الدعوى بمنطلقيها، قد جاء نصفها على أسلوب الاختزال، ونصفها الآخر علي اسلوب انشائي.

وإن الاختزال منها أي [آلم] فسّر معناه رسول الله ﷺ رواية عن ابن عباس، من أن (ألم) تعني أنا الله أعلم، وإني ساتعرض لشرح مبدأ الاختزال وفنه كما كان يستعمل في الجاهلية في حينه.

أعود إلى الدعوى التي تضمنتها هذه الآية الكريمة ذات المنطلقين. إنها دعوى تقول بوجود خالق لهذا الكون. وإنها لدعوى فيها التلميح إلى من اختلف من الناس حول وجود هذا الخالق العظيم. التلميح إلى ماوضعوه من نظريات، وإلى ماقدموه من أدلة وآراء. والتصريح بأن أصحاب هذه النظريات جميعهم، والذين سلّموا بوجودي منهم خاصة. قد صوروني وكأني لاعين لي ولا أذن ولا لسان. ومن خلال هذا التلميح والتصريح انطلقت دعوى التحدي في هذه الآية الكريمة لتسفه جميع ماوضع من نظريات في هذا الموضوع، موضوع الذات الإلهية ووجودها وصفاتها.

ففي أحرف الاختزال [آلم] أعلن الله عز وجل أنّ علمه هو الغالب على علم جميع أصحاب هذه النظريات. بسبب أنه هو (الله) جامع الأسماء الحسنى من جهة، وبسبب أنه (لا إله إلا هو) أي لايستحق التأليه والمحبة سواه عز وجل.

ولما كان هناك سؤال يطرح نفسه وهو لماذا وكيف؟ فقد قدّم سبحانه الجواب في اسمي الحي القيّوم وكأنه سبحانه أجاب بقوله:

لايستحق التاليه والمحبة سواي لأنني مصدر الحياة في هذا الكون وعندي قوام كل شيء. وإلى هذا الاستغراق في الدلالة وردت صفتا الحي القيوم معرفتين بالألف واللام، ولاشك أن الاتصاف بالحي القيوم لمن سلمّ بهما وآمن، ينسف جميع النظريات التي وضعها الفلاسفة على مدى التاريخ. ذلك أن الله سبحانه بهاتين الصفتين اللتين نسبهما لنفسه هنا يكون قد افهمنا أموراً لم يفطن اليها أصحاب هذه النظريات، وهو أنه سبحانه وتعالى متدخّل عملياً

في شؤون عباده -وهو وراء كل مظاهر الحياة عند الأمم على الصعيدين الفردي والجماعي - وأن كل شيء هو مصدر وجوده، ودونه لاتقوم له قائمة.

هذه خلاصة الدعوى التي تضمنتها الآيتان الأوليتان من سورة آل عمران، وهي دعوى ذات أبعاد كبيرة جداً، وجاءت لنقض جميع ماتوصل إليه الفلاسفة من نظريات قائمة على التفكير المجرد عن أي عامل مساعد يدعمها.

ذلك العامل المساعد الذي نلاحظ ضرورة وجوده إلى جانب جميع حواسنا وأجهزتنا، فالعين لاتعمل دون الضوء، والأذن لاتعمل دون الهواء، والأنف لايعمل دون وجود الروائح، والعقل إذن لايستطيع اعطاء أحكام كاملة دون عامل مساعد له. وهو وحي الله الخالق نفسه. وهذه النظريات الفلسفية خالية من هذا العامل المساعد، فهي أحكام ترجيحية لا أقل ولا أكثر.

وإن عظمة وخطورة هذا الإدعاء الذي افتتح الله سورة آل عمران به، اقتضت ألاّ تُقدَّم دون البرهنة عليها، ببراهين لاتقل عن الدعوى مكانة وأهمية وشأناً.

لذلك نلاحظ أنه سبحانه قدّم لنا، في مجال دعواه، دليلين هامين جداً، دليلاً تاريخياً من خلال آيتين فقط. ودليلاً علمياً من صلب واقعنا المادي ومن خلال آيتين تاليتين فقط أيضاً.

ومن ثم دخل سبحانه الموضوع الذي أراد بحثه ووضعه بين أيدينا وبعد أن شكلت دعواه ومنطلقاته ودليلاه التاريخي والعلمي مقدمة لهذا الموضوع.

وقد عرض الله عز وجل موضوع سورة آل عمران ضمن أربع عشرة آية فقط، فانتهى عند الآية العشرين. ثم عاد يتبسَّط في شرح وتوضيح ماهو ضروري ومتعلق بالدليل التاريخي، ليضع بين أيدينا الأبعاد الصحيحة لهذا الدليل، فانتهى من ذلك عند الآية المائة.

ومن ثم تبسّط في شرح وتوضيح ماهو ضروري ومتعلق بالدليل العلمي، وليضع بين أيدينا الأبعاد الصحيحة لهذا الدليل الثاني أيضاً، فانتهى إلى آخر سورة آل عمران. هذا هو الإطار العام لهذه السورة العظيمة، وهو كما تلاحظون إطار مدروس ومحكم التسلسل الموضوعي في أفكاره. وسأتناول في هذا المبحث الآيات الأولى من سورة آل عمران وحتى الآية الثانية عشرة فقط. شرحاً وتفصيلاً، وحتى تتمكنوا من الحكم على معنى الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، كما فهمناه، ومن خلاله ستتمكنون من الحكم على خطأ ماذهب

هذه النبوءات كانت تشغل أذهان أصحاب التوراة والأنجيل، ولذلك رأينا اليهود يهاجر بعضهم إلى أرض العرب، فيبنون الصّياصي والمستعمرات لتستقبل أجيالهم هذا النبي العظيم الذي تنبّأت عن بعثته أديانهم.

وحتى يتأكد لكم من أن (ال) العهدية الداخلة على كلمة (كتاب) هنا تعني لنا، أن هذا الكتاب جاء مصداقاً لتلك النبوءات فإني أورد لكم بعضاً من هذه النبوءات التي لازالت موجودة في بطون التوراة والأنجيل المعاصرتين بالرغم من عبث أصحابها بمحتوياتها. وحتى يتأكد لكم أن تعريف الكتاب في هذه الآية الكريمة يحمل هذه الدلالة المعهودة في أذهان أصحاب هذه الكتب السماوية.

في التوراة المعاصرة المحرّفة:

وعدّ الهيّ لإبراهيم عليه السلام، في تكوين ١٥/١٣: (إن جميع الأرض التي أنت ترى، لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد.). فأين سكن إبراهيم وابنه اسماعيل؟ الجواب في تكوين ٣٠/٢٠: (وكان الله مع الغلام (أي اسماعيل) فكبُر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برِيّة فاران. وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.). أي سكن مكة المكرمة. هذا الوعد الإلهي يعني أن أرض الحجاز ستكون لنسل إبراهيم على أقل تقدير، ولكن مامعنى هذا الوعد الإلهي؟ سنجد الجواب في النبوءة المتعلقة ببعثه محمد بن عبد الله القاطن في أرض فاران، أي الحجاز، والذي تنقّل في الأصلاب التي هي من نسل إبراهيم وابنه اسماعيل. ففي التثنيه ١٨/١٨-٣٠ وعدّ إلهي لموسى عليه السلام (يقيم لك الرب إلهُك نبياً من وسطك، من اخوتك، مثلي.... أقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغى، فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهةٍ أخرى، يُقتل ذلك النبي). هذا الوعد يعني ظهور نبي من بني اسماعيل، أخوة بني اسحاق ويكون صاحب شريعة مثل موسى، يجعل الله كلامه في فمه بمعنى لاينطق عن الهوى، وأن على جميع بني الإنسان أن يؤمنوا برسالته وإلاّ استحقوا العقاب الإلهي. وكان اليهود ينتظرون بعثة ثلاثة أنبياء على حسب نبوءات كتابهم. وهؤلاء هم : إيليا، والمسيح، والنبي. وقد بين عيسى عليه السلام أن إيليا الموعود هو يحيى عليه

السلام أي يوحنا المَعْمَدان، وبين أنه أي عيسى هو المسيح الموعود ظهوره أيضاً، وأن النبي الموعود ببعثته سيظهر من بعد موته. ففي يوحنا ٣٠/١ ورد سؤال موجه من اليهود إلى المسيح (فسألوه، وقالوا له: فما بالك تُعَمِد إن كنت لست المسيح ولا إيليا، ولا النبي؟) أجاب المسيح في متى ١٤/١١ (وإن أردتم أن تقبلوا، فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع.)

أشار بقوله إلى يوحنا المعمدان، على اعتبار أنه هو إيليّا الموعود. وقد صرّح بأن النبي الموعود ظهوره في أرض فاران، أي جزيرة العرب سيظهر من بعد موته، وذلك في يوحنا ٧/١٦-١٤ (لكني أقول لكم إنه خيرٌ لكم أن أنطلق. لأنه إن لم انطلق، لايأتيكم المُعَزي...).

هذه بعض نبوءات التوراة والأنجيل المعاصرة المحرفة، والتي يثبت من خلالها أن اتباع التوراة والإنجيل كانوا يتداولون فيما بينهم نبوءات عن ظهور نبي عظيم في بلاد العرب. على شاكلة ماتداوله المسلمون من نبوءات عن ظهور مهدي آخر الزمان. ولذلك استوطن كثير من اليهود مناطق قرب المدينة المنورة بانتظار ظهور هذا النبي العربي الموعود ببعثته وأنه ينزل عليه شرع جديد غير شريعة موسى التي يعرفونها. ولقد أورد سبحانه وتعالى لفظ (الكتاب) في آية المحكمات والمتشابهات، مُعَرّفاً بالألف واللام العهدية تنبيهاً لأذهان السّامع إلى ماهو معهود في أذهان اليهود والنصارى من نبوءات أوردتها التوراة والإنجيل متعلقة ببعثة نبي عربي من نسل اسماعيل عليه السلام وفي أرض مكة بالذات.

إن تعريف الكتاب هنا فيه الإشارة إلى نبوءات التوراة والإنجيل خاصة - لورود ذكرهما في سياق هذه الآية وفي سباقها أيضاً. ولم يفطن صاحب "القراءة المعاصرة" إلى هذا المعهود الذهني، بالرغم من أنه أحسّ بضرورة تعليل تعريف الكتاب بالألف واللام، ويبدو أنه لم يخطر له أي معهود ذهني، لذلك برّر هذا التعريف بقوله وضع ليعني أن الكتاب هذا مؤلف من عدّة كتب، وأنكم ستوقنون بخطل رأية هذا وتعليله المذكور من خلال ماستقرؤونه في هذا المبحث. أما لفظ (كتاب) فدلالته المعنى العام المتداول بين جميع أم الأرض، إنه عبارة عن موضوع ذي معنى متكامل ومتسلسل، وقد دُوّن بين دفتين، يفتتح موضوعه بمقدمة، ويختتم بخاتمة، ويكون مابينهما تفصيل هذا الموضوع المتسلسل الأفكار ومتكاملها.

وإن سورة الفاتحة هي مقدمة (الكتاب) الوارد ذكره في هذه الآية الكريمة، وأن السّور المعوذات الثلاث الأخيرة هي خاتمته، ومابين الفاتحة والمعوذات موضوع هذا الكتاب وهو مؤلف من سور. كل سورة مقسمة إلى آيات.

وإذ وجد أن دلالة تعريف الكتاب هنا منحصرة في الإشارة إلى نبوءات التوراة والإنجيل، والمتعلقة بنزوله، وهي التي تشكل المعهود الذهني. لذلك وَجَبَ علينا اعتبار أن (الكتاب) قد استعمل في هذا المقام كناية عن الشريعة السماوية المنبأ عن نزولها مع بعثة النبي العربي المشّرع، المماثل لموسى نَبيٍّ بني اسرائيل.

نعود إلى الآية لنتفهم معنى المحكمات والمتشابهات وأم الكتاب. فالمحكم يعني المُتقن وعلى صورة لايحتمل التبديل والتغيير، والمتشابه يعني تشابه شيئين لابد من توفر عناصر ثلاثة فيه، مُشبه، ومُشبّه به، ووجه شبه.

ندرك من هذا إن المحكم لايجوز استعماله وفهمه على أنه في المعنى ضد المتشابه. ولا أن المتشابه ضد المحكم. ذلك أن معنى المتشابه كما رأينا لاينفي كونه مُحكماً، فالآيات المحكمات والآيات المتشابهات، جميعها محكمة بمعنى مُتقنة لاتقبل التبديل والتغيير. خصوصاً وأن الله عز وجل لفت انظارنا إلى هذه الحقيقة في سورة هود حيث افتتحها بقوله عز وجل: ﴿ألر، كتاب أُحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير.﴾ أي تبدو عظمة هذا الكتاب من كون جميع آياته (المحكمات والمتشابهات) منها مُحكمة فهي من ترتيب حكيم يعلم كيف يرتبها وخبير بكل فنون اللغة والعلوم لذلك يستحيل بقاء أي ثغرة في ألفاظها وجملها ومواضيعها.

إذن الإحكام حاصل في الآيات المحكمات والمتشابهات، وجاء الفرق في التسمية من حيث الجدّة والتمايز في التعاليم في الآيات المحكمات التي تشكل بمجموعها (أم الكتاب) أي أصل تعاليمه وأساسها وعمادها. أما الآيات المتشابهات في مضامينها مع تعاليم سابقة وردت في التوراة والإنجيل، فهي مع كونها آيات مُتقنات لاتقبل التبديل والتغيير، فهي من جهة مُشابهتها لتعاليمٍ سابقةٍ لاتصل إلى درجة الامتياز الحاصل لآيات أم الكتاب ولذلك لاتُعدّ من آيات الأحكام الأساسية، على اعتبار معنى (أم الكتاب) أساسه وأصله وعماده، كما بيّن اللغويون.

وانتقل إلى بيان قوله عز وجل ﴿ فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ماتشابه منه، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله،﴾

الزَّيغ: معناه الميل عن الصراط والحق، والعين الزائغة هي التي لاتنظر نظرة مستقيمة. والزّيغ: معناه الشّك أيضاً، كما يعني الجور، هذا مابينه اللغويون.

والقلب: هو العضو المودع أيسر الصدر، صنوبري الشكل. ويستعمل على سبيل الاستعارة تعبيراً بواسطته عن العقل الذي كان أسمى أجهزة جسم الإنسان، على شاكلة القلب أسمى الأجهزة الباطنية عند الإنسان، بهذه الاستعارة نزل قوله الله عز وجل في سورة قَ ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ أي كان له عقل سليم.

واستناداً إلى هذه المعاني، يكون ربنا، وبعد أن ابتدأ موضوع سورة آل عمران أخذ ينبهنا إلى كون الكتاب جاء مصداقاً لنبوءات التوراة والإنجيل، وإنه كتاب مؤلف من مقدمة وموضوع وخاتمة، وإن من تعاليمه ماهو جديد كلية، وماهو مشابه لتعاليم التوراة والإنجيل، جاء يوضح لنا سبحانه أنّه بسبب وجود هذين النوعين من مضامين الآيات فسيُواجَهُ هذا الكتاب بفريق مستغل لهذا التمايز، ومن أتباع التوراة والإنجيل خاصة، تملؤ افئدتهم الشكوك، ولايبغون وجه الله والحقيقة. فلا يؤمنون بهذا الكتاب، ويقومون باستغلال هذا الامتياز الواقع بين تعاليم آيات هذا الكتاب بطريقة غير شريفة واضعين نصب أعينهم تحقيق هدفين رئيسيين: فتنة المؤمنين عن دينهم، وردهم عن إيمانهم، أو على الأقل تشكيكهم في حقائق دينهم عن طريق تأويل آياته وافراغها من معانيها الأُصلية.

وضح سبحانه كل هذا حينما قال ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله.﴾ بمعنى أن هذا الفريق من الناس الزائغ عن طلب الحق سيجعل الآيات المتشابهات مع تعاليم دينه، مادة تحركاته كما يفعل بعض القساوسة والمستشرقين في القرون الأخيرة، مما لايخفى على المتابعين لتحركات هؤلاء الزائغين.

وينتقل سبحانه خطوة أخرى، منبهاً المؤمنين إلى طريق الأمان للحفاظ على إيمان أنفسهم، وصيانه قلوبهم من شرور هذا الفريق الزائغ عن طريق الحق، فيقول: ﴿ومايعلم تأويله إلاّ الله، والراسخون في العلم يقولون كلٌ من عند ربنا﴾.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا استعمل الله عز وجل كلمة (التأويل) في هاتين الآيتين، ولم يستعمل كلمة (البيان) أو (التفسير)؟ الجواب نجده في معنى كلمة (تأويل) نفسها.

فالتأويل معناه احتمالات معنى لفظ من الألفاظ أو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي، فإذا كان ثمة دليل على النقل، كان التأويل مستبقى يحدد به المعنى، فيكون به، وإلا كان التأويل بالمعنى بين احتمالات لاسّد لها، على غير هدى. ولايقع في مجال الاحتمالات، إلا من سار على غير هدى دون الاستناد إلى أسس واضحة لأخذ معنى من دون معنى آخر.

والله سبحانه بين لنا أن التأويل بلا سند هو دأب من زاغ عن الحق ومال عنه. وأن الله منزه، من حيث المبدأ عن هذا النقص، لذلك يجوز استعمال لفظ التأويل منسوباً إليه، خصوصاً وأنه هو الذي صاغ هذا الكتاب، ومحيط بعلمه على صورة لايرقى إليها شك. هذا ما أشار إليه في قوله: ﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾. وإن الله عز وجل وضح هذه الحقيقة من أن علم القرآن فوق علم البشر جميعهم وحتى يوم الدين، وأنه بحرٌ خضمٌ زاخر لاحدود لعطائه. وأن بيان القرآن على الوجه الصحيح بيده مقاليده سبحانه وتعالى وأنه سيكشف على مافيه أوّل بأولّ وفقاً لمقتضيات الزمان والمكان. وضح سبحانه وتعالى هذه الحقيقة بجلال مابعده من جلال حينما قال في سورة القيامة ﴿ إن علينا جمعه وقُرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه.﴾ فلنلاحظ أن (ثُمّ) هنا تفيد الترتيب. وأن بيان القرآن بجميع معانيه مرتبط بمختلف عصور التاريخ. ولايمسّ معاني القرآن إلاّ المطهرون. فهذه الأمور جميعها تضمنها قوله تعالى ﴿ومايعلم تأويله إلاّ الله﴾.

ويتساءل المرء هنا وكيف يدرك المؤمنون علم هذا الكتاب مادام كامل علمه عند الله من جهة، وأنه سبحانه التزم بيانه في جميع العصور على قدر الحاجة الضرورة من جهة ثانية، وأنه لايمسّه إلا المطهرون من جهة ثالثة؟

ويجيب الله عز وجل على هذا بقوله: ﴿ والرَّاسخونَ في العلمِ يقُولونَ كُلٌ من عند ربنا ، ومايذكّر إلاّ أولوا الألباب.﴾.

فالواو هنا تبيّن حال الراسخين في العلم، لدخولها على هذه الجملة، وليست هي مجرد حرف عطف لفرد على مفرد فلا ينبغي عطف علم الراسخين في العلم على علم الله، لكون الواو قد دخلت على جملة المبتدأ والخبر (والراسخون... يقولون...)، وهذه الواو شبيهة بالواو في قوله تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.﴾ الواو في الآية للحال. أي والشيء خيرٌ لكم، ومنهم من جعل الجملة صفة، بالرغم من ثبوت (الواو) كما ذهب الزمخشري. ومايؤكد عدم عطف الواو هنا هو جواز الوقف عندها، ولإشارات الوقف دلالاتها عند المتفقهين.

قلت إن الله عز وجل يجيب على التساؤل المذكور أعلاه في ألفاظ هذا الشطر من الآية الكريمة، فهو يصف لنا حال فئة الراسخين في العلم القرآني. موضحاً لنا الأسس التي يعتمدونها في تحقيقاتهم القرآنية، والقائمة على منطلق آرائهم ومعتقداتهم هذه الأسس التي استحقوا معها اسم (الراسخين في العلم). هذا من منطلق أن رسخ معناه ثبت، وماعاد يتزلزل أو يتحرك عن مكانه، بمعنى أن محاولات فئة الزائغين لاتقدر أن تحقق في نفوس هذه الفئة المؤمنة أي هدف من أهدافها.

وقد ورد لفظ (العلم) معّرفاً هنا بالألف واللام تنبيهاً إلى أنّ علم الكتاب يشكل مدار موضوع سورة آل عمران، فهو علم الفرقان، وليس هو بعلم طبيعة أو فيزياء وكيمياء ورياضيات، كما ذهب إلى ذلك ذهن صاحب (القراءة المعاصرة) فاعتبر (دارون) من الراسخين في العلم، المشار إليهم في هذا المقام.

ذلك أن الكلام هنا عن فئة المؤمنين بالفرقان وبالله الذي أنزل الفرقان، بينما لايمت (دارون) وسواه إلى هذا الأمر بصلة من الصلات. فلا هو مؤمن بالله، ولايقدم إلاّ نظرية تحتمل الخطأ والصواب. ولايلتزم بالأسس الإيمانية التي عبّرت عنها آراء ومعتقدات الراسخين في العلم (كلٌّ من عند ربنا). فالألف واللام الداخلة هنا على كلمة (علم) عهدية ذهنية. ولامعهود ذهني في السياق إلا ذكر الكتاب المسمى (فرقان).

وبإمكاننا التخصيص أكثر فنقول أنّ تمييز المحكمات من المتشابهات لايقدر عليه من المؤمنين بالله إلا هذه الفئة الملتزمة بأسس (كلٌّ من عند ربنا).

كررت لكم القول إن الفاظ (**كلٌ من عند ربنا**) تضمنت الأسس التي يعتمدها الراسخون في العلم عند تدبرهم لكتاب الله الفرقان، ولتساعدهم في تمييز الآيات المحكمات عن المتشابهات خاصة.

وقبل الدخول في بيان ماكررت ذكره. ألفت نظركم إلى حقيقة يعرفها كل عالم ومفكر، وهي أن الانحراف الذي يقع في المنطلقات، يؤدي لا محالة إلى البعد عن الحقيقة بُعداً شاسعاً في نتائج مقولاته، وهذا الأمر شبيه بمن ينحرف درجة واحدة عن طريق مساره عند أول خطوة يخطوها. فمثل هذا يستحيل أن يبلغ المكان الذي يسعى إليه. أو يشبه المدفعّي الذي ينحرف تصويبه لمدفعه شعرة عن الهدف فيؤدي هذا الانحراف إلى عدم إصابته لهدفه.

وقد حدثت غفلة بعض المفسرين هنا، في أنهم لم يفطنوا إلى أن لفظ (**يقولون**) هنا، لم يكن المراد منه ترداد ألفاظ (آمنا به...) بل استعير هذا اللفظ للتعبير بواسطته عن الرأي والمنهج، فأنتم تقولون: هذا قول أبي حنيفة، وذاك قول الشافعي، وتريدون من قولكم وتعبيركم هذا بيان رأي هذا وذاك، وليس ترديد جُمَل مّما رُوي عنه من أقوال، وبصيغة الاستعارة هذه جاء لفظ (**يقولون**) في هذا المقام لم تأت الواو قبل الراسخون لتعطف المفرد على المفرد. بل جاءت تعطف الجملة على الجملة، كما يدل على ذلك السيّاق. فالراسخون في العلم، يقولون ﴿آمنا به، كلٌ من عند ربنا﴾. فيها بيان الأُسس المعتمدة في رأي الراسخين في العلم حول موضوع فهم واكتناه معاني آيات الكتاب العظيم.

هذه الأمور والملاحظات، وجّهني إليها ربي بفضل خاص منه. والله ذو الفضل العظيم، ويختص بفضله من يشاء من عباده، وقد كشف علّي أسساً ستة تضمنه قوله عز وجل ﴿آمنا به، كلٌ من عند ربنا﴾. وإليكم هذه الأُسس:

الأساس الأول:

تضمنه [آمنا به]. والإيمان لغةً يحتوي على عناصر ثلاث: هي الاعتراف أولاً والتصديق بالقلب ثانياً والعمل بالجوارح ثالثاً. هذا مابينه اللغويون. وعلى هذا الأساس تكون الفاظ (آمنا به) قد وضعت بين أيدينا الأساس الأول لفهم القرآن الكريم، على اعتبار أن ضمير (به) يعود إلى اسم الجلالة (الله) كما يعود إلى الكتاب أيضاً.

وهذا الأساس يتوافق مع قوله تعالى في مقام آخر [لايمسه إلا المطهرون] أي العاملون على تعاليم الكتاب والذين تزكت نفوسهم من جراء تطبيقهم لتعاليمه، فبلغوا مرتبة تؤهلهم لفهم وتدبر هذا الكتاب.

وكأنه سبحانه وتعالى يؤكد لنا زيغ الكافرين بهذا الكتاب وبالذي أنزله عن جادة الصواب في جميع أحوالهم، ويؤكد شرط الإيمان بمعنى ضرورة اجتماع مانقتضيه معادلة النظرية والتطبيق معاً في شخصيات من يريدون القيام (بقراءات) لهذا الكتاب، فمن كان غير مؤمن فلايستطيع أصلاً اكتناه مافي هذا الكتاب كذلك فإن المؤمن بهذا الكتاب نظرياً لايؤهله الإيمان النظري لاكتناه مافي هذا الكتاب مالم يكن من العاملين بأحكامه، ومن المُنتهين عن منهياته، هذا أساس أول في نظر الله عز وجل يؤهل المؤمن ليكون من الراسخين في علم القرآن المجيد.

الأساس الثاني:

تضمن قولهم [كلٌّ] الأساس الثاني الذي يتطلبه فهم القرآن و (كلٌّ) ضدّ جزء أو بعض. بمعني أنه ينبغي أن يؤخذ القرآن عند محاولة فهمه على صورة متكاملة، فلا تُفهم آية منه على صورة تتضارب مع معاني آيات أخرى من آياته، فهو كتابٌ كُلٌّ من سورة الفاتحة وهي مقدمته، وحتى السين في سورة الناس وهي ضمن خاتمته، وهو كُلٌّ محكم المعاني ومتسلسلها ويفسر بعضه بعضاً.

وكأنه سبحانه ينبهنا، عند بيانه لهذا الأساس إلى الأسلوب الذي ينتهجه من في عقولهم زيغ، وهو القطع والوصل، وافراغ الألفاظ والآيات من محتوياتها، والأخذ ببعض احتمالات لمعاني ألفاظها بغاية الفتنة والتشكيك.

هذا **الأساس الثاني** يفرض على كل إنسان الالتزام والتقيد بأمرين هامين الأول التقيد بالمعنى الذي يفرضه سياق الآية وسباقها، والثاني عدم تبني أي معنى يتناقض ومعنى آخر تفيده أية آية أخرى في هذا الكتاب.

فهل اعتمد صاحب "القراءة المعاصرة" هذا الأساس الثاني الذي تضمنه لفظ (كلٌّ) ، ماأظن ذلك فمن يطالع كتابه ستتراءى له ظاهرة بُعده عن التقيد بمقتضيات السياق والسباق المعنوية.

الأساس الثالث:

ووردت كلمة (كلٍّ) مُنَوَّنَةً في آخرها، وماجاء هذا التنوين من باب اللغو والعبث ودون أية حكمة عظيمة.

والمعلوم أن اللغويين درجوا على اعتبار التنوين أداة تعبير عن عظمة شيء ما وكماله، وقد جيء بالتنوين هنا لبيان أساس ثالث من أسس فهم القرآن، وهو الأخذ بمبدأ عظمة القرآن وكماله في تعاليمه وأحكامه وصياغته.

ومن تنوين [كلٍّ] نستنبط كون هذا الكتاب الفرقان آخر الكتب السماوية لأنها دونه عظمة وكمالاً، وهو جاء على ذروة الكمال، وهذا يؤيده قول الله عز وجل في مقام آخر ﴿اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾. ومعلوم أن الكامل هو غني عن أن يكمله شيء آخر.

وهكذا، ومن جرّاء تنوين [كلٍّ] يكون الله عز وجل قد وضع أمامنا **أساساً ثالثاً** لفهم كتابه الفرقان، ويلتزم به من كان من الراسخين في العلم، ويتلخص في كلمتين :لاشرع بعد نزول شريعة القرآن. ولانبي مشّرع من بعد بعثة محمد بن عبد الله.

الأساس الرابع:

ووضح لنا الله عز وجل الأساس الرابع لننتهجه عند محاولتنا تدّبر كتابه، وهو نهج الراسخين في علمه، وذلك من خلال [كلٍّ من عند ربنا] ويتلخص هذا الأساس على أن يؤخذ بجميع آياته نصاً وحكماً، وهذا الأساس، هو بتعبير آخر نفيٌ كلي لوجود مبدأ الناسخ والمنسوخ فيه. وهذا الأساس الرابع يحثنا على تفهم آيات كل موضوع من مواضيع الأحكام الشرعية بشكل لاوجه لأي تناقض بينها، فلا ننسخ حكم أحدها بحكم آية أخرى منها.

هذا الأساس الرابع عبّرت عن مضمونه كثير من الآيات، كقوله تعالى في هود ﴿كتاب أحكمت آياته، ثم فُصلّت من لدن حكيم خبير﴾. ونعلم أن معنى (أحكمت) هو (أتقنت)، فمن أتقنها؟ الجواب [من لدن حكيم خبير]، ومن أبسط البديهيات أن يُراعي (الحكيم) الموقع والمحل وفائدة عباده، خصوصاً وأنه (خبير) أي واقف على حقائق الأشياء وأحوالها وعالم ببواطنها.

الأساس الخامس:

ومعطيات هذا الأساس الخامس تفيدها نفس ألفاظ قوله تعالى [**كلٌ من عند ربنا**] وكأنه يبيّن لنا سّر عظمة القرآن وكماله من خلال كلمة (ربنا)، لأن الرب لُغةً هو الذي يطور الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرحلة الكمال، ومن هنا جاءت تسمية رب المنزل ورب العالمين، فمن أسس عائلة، وكان سبباً في وجود أبناء وبنات واشرف على تربيتهم وتطوير قواهم وملكاتهم يكون قد استحق اسم رب منزل أو رب عائلة أو اسرة، أما إذا لم يقم بهذه المهمة وترك أولاده في حالة تشرد وجهل، فلا يستحق هذا اللقب بحال من الأحوال.

على ضوء هذا ندرك معالم **الأساس الخامس** الذي اشارت إليه كلمة (ربنا) وهو النظر إلى اعتبار هذا الكتاب حلقة أخيرة من **حلقات الربوبية التي طورت الأمم** عن طريق الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، ويعتبر هذا الأساس تعريض بفئة الزائغة قلوبهم، الذّين يلاحظون النقص والتناقض والتحريف في كتبهم السماوية، وحتى انهم يقرؤون ما احتوته من أنباء ونبوءات عن هذا الكتاب وضرورته. وبالرغم من ذلك كله لايستقبلون هذا الكتاب على اعتباره حلقة أخيرة من حلقات ربوبية الله لعباده، ويقومون مستغلين مافي هذا الكتاب من آيات متشابهات مع تعاليم كتبهم، فيما احتوته من تعاليم وأحكام، مستغلين هذه المشابهة لصد المؤمنين بهذا الكتاب عن دينهم وتشكيكهم في تعاليمه وأحكامه.

هذا الأساس أن ننظر إلى الكتب السماوية نظرة احترام وإيمان ~~وأن نربط~~ مابينها ومابين مانزل في هذا الكتاب، على أنها **حلقات مترابطة** ، وليس على أن بعضها مأخوذ أو مسروق من بعضها الآخر كما تفعل زمرة من الرهبان والمستشرقين ومن سار على شاكلتهم. أي أن هذا الأساس يعلمنا كيف نتناول تعاليم هذا الكتاب على أساس أنه الفرقان الذي انزله ربنا ليوضح لنا بواسطة ما أنزل فيه الحق من الباطل مما وصلنا من التوراة والإنجيل، لأن هذا الكتاب [من عند ربنا] الذي أنزله لتطويرنا وانقاذنا من الآثار السيئة التي تكمن وراء تعاليم التوراة والإنجيل المعاصرة، فيما لو اكتفينا بها وحدها منهجاً لحياتنا.

الأساس السادس:

ونفس الفاظ [**كلٍ من عند ربنا**] وضعت لنا **الأساس السادس** لتدبر كتاب الله الفرقان. وهو صلاح هذا الكتاب لكل زمان ومكان. ذلك أن هذا الكتاب يتسم بمرونة فائقة ومعجزة تكسبه صلاحيته لكل زمان ومكان.

فمهما تقدمت الأيام، ومهما تقادمت عصور نزول هذا الكتاب فسيظل هناك من يفهمون هذا الكتاب ويقرؤونه على مستوى عصورهم وضروراتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الفكرية.

هذا **الأساس السادس** يسمح بوجود "قراءة معاصرة" في كل عصر إنما شريطة التقيد بالأسس الخمسة السابقة نصاً وروحاً إلى جانب التقيد بهذا الأساس السادس الذي يجيز لهم "قراءتهم" من منطلق مرونة هذا الكتاب وصلاحيته لكل زمان ومكان.

فمن التزم بهذه الأسس الستة، اعتُبر في نظر ربه من الراسخين في علم هذا الكتاب، وإن الله عز وجل **يكشف لهذه الفئات من الراسخين خفايا كتابه الفرقان وكنوزه على قدر مكانتهم وعلى قدر الحاجة الزمانية والمكانية التي تقتضي الكشف عن هذه الخفايا وتلك الكنوز، وهؤلاء هم الذين دخلوا في زمرة المطهرين من خلال قوله تعالى [لايسمه إلاّ المطهرون].**

إن استنباط هذه الأسسَ الستة من قوله تعالى [آمنا به، كلٌّ من عند ربنا.] ماكان فيه تحميل للألفاظ أكثر من دلالاتها. خصوصاً وأن الله تعالى جاء ينبهنا إليها من خلال لفظ (يقولون) بمعنى يرتؤون وينتهجون، وليس يرددون ألفاظاً معينة. ذلك أن القول المجرد يحتمل النقص أو الكمال من حيث معناه. الأمر الذي يتنافى مع معنى الرسوخ والثبات الذي تضمنه معنى (الراسخون في العلم). فمن اتصف بالرسوخ والثبات لايقول قولاً يحتمل بعض النقص والخطأ أحياناً. والرسوخ قرينة تمنع المعنى المتبادر من يقولون. للانتقال منه إلى معنى أعظم دلالة، وهو الرأي والمنهج. وبهذه الصورة لايعود يفيد قول الراسخين في العلم إلا الخير المحض، فتدبر.

وكيف لانأخذ بهذا المعنى هنا، مراعاة منا لمقام الراسخين في العلم. والعلم يفيد اليقين أيضاً. إلى جانب وصف الرسول ﷺ للراسخين في العلم، كما رواه أبو الدرداء رضي الله

عنه (إنهم مَنْ بَرَّتْ يمينُه، وصدَقَ لسانه، واستقام قلبه، ومن عفّ بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم)؟

بّر اليمين تعني حسن المعاملة، **وصدق اللسان** تعني الأمانة والصدق في الرأي والُمعتقد والمنهج. **واستقامة القلب** تعني صفاءُه وشفافيته وتوجهه نحو ربه. **وعفة البطن والفرج** تعني لجم النّفس عن هواها وميولها الفاسدة وشهواتها. ولاريب أنّ من اجتمعت فيه هذه الأوصاف، لابد أن يكون من الُمطَهَّرين، الذين أشار إليهم قوله تعالى [**لايمسه إلا المطهرون**].

ولقد أنهى الله عز وجل آية المحكمات والمتشابهات بقوله [ومايذكّر إلا أولوا الألباب.] وبهذه الألفاظ حسم ربنا الأمر. حيث نبه هنا إلى ماصرح به في مقام آخر من الكتاب حيث قال: ﴿ **يضلّ به كثيراً، ويهدي به كثيراً، ومايضلّ به إلا الفاسقين.**﴾ البقرة ٢٦. أي أن هذا الكتاب (مكنون) بمعنى مغلق المعاني، لذلك يحتاج من يتدبره إلى طهارة العقيدة والسلوك والاستعانة بالله منزل هذا الكتاب ليسدّد خطاه، فلا يزيغ عقله، كحال الفئة الفاسقة التي قال عنها ﴿ **وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه**﴾.

نبه إلى أن هذا الكتاب (المكنون) [لايذكّر] به أي لاينتفع منه أو لايهتدي إلى معانيه الحقيقية إلا [**أولوا الألباب**]. فما قال هنا [أولوا العقول]. لماذا؟ تنبيهاً إلى أن العقل المجرد عن عامل الوحي المساعد، وهو هداية الله للمعنى المقصود، لايكفي الإنسان للكشف عن أسرار وخفايا معارف هذا الكتاب، فالله هو الهادي، والله يضل عن سبيل فهم كتابه من كان بعيداً عن نهج أولي الألباب. وتعلمون أن كل ثمرٍ يكون مكوّناً من قشر ولُبّ، ولايبلغ لُب حقيقة هذا الكتاب (إلا أولوا الألباب) فهو سبحانه نبهنا هنا فحسم الأمر وذكرنا إلى أنه لايهدي غير هؤلاء.

والآن، وبعد أن شرحت لكم المعاني التي تضمنتها آية المحكمات والمتشابهات، أعود لأشرح لكم سورة آل عمران من أولها، حتى تلاحظوا ارتباط ماشرحته لكم بسياق الآية ارتباطاً عضوياً، وحتى يبدو لكم عدول صاحب "القراءة المعاصرة" عن سبيل معطيات هذه الآية الكريمة. هذا الأخ المسلم المحترم الذي لم يتبحر في معنى كلمتي (المحكمات والمتشابهات) كما أنه لم يتقيد بسياق الآية وسباقها.

ابتدأ الله عز وجل سورة آل عمران بقوله [ألم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم.] وسترون كيف أن هاتين الآيتين تضمنتا دعوى إلهيه على غاية الأهمية، وقد اتخذ سبحانه وتعالى هذه الدعوى منطلقة إلى الدخول في الموضوع الذي شاء أن يبحثه ويعرضه لنا في سورة آل عمران العظيمة.

فما معنى (آلم)؟ روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ فسّرها وقال أن معناها (أنا الله أعلم). وهذا هو المعنى الذي تبيّناه .

فاعلموا أن [آلم] أحرف تدخل في فن الاختزال اللغوي الذي عرفه العرب فناً من فنون لغتهم في الجاهلية، كانوا يقتطعون حرفاً من أول كلمة. أو حرفاً من منتصف كلمة أو حرفاً من آخر كلمة، ويضمنون أشعارهم هذه الحروف على أن يفيد مصرع بيت الشعر الذي يتضمن حرفاً، معنى الكلمة التي اختزلوا منها هذا الحرف، واليكم بعض الأشعار الجاهلية، كما رواها ابن كثير في تفسيره.

بالخير خيراتٌ، وإن شراً (ف) ولا أريدُ الشّر إلاّ أن (ت)

الفاء مختزلة من كلمة (فشّر)، والتاء مختزلة من كلمة (تبدؤه). بمعنى انك إذا عاملتني بالخير ، ضاعفت لك الخير. أما إذا عاملتني بالشّر، فلا أردّ على الشّر إلا بمثله. وإنّ من خلقي إنني اتجنب الشّر، فلا ابادئك به إلا أن تبدؤه أنت،

وقال شاعر : **قُلنا لها قفي فقالت (ق)**

القاف مختزلة من كلمة (وقفت) أي أنها استجابت لطلبهم.

ولما كان دارس القرآن ومتدبره يعلم بتحدي ربنا بلغاء اللغة العربية أن يأتوا ولو بسورة مثله. وكان هذا التحدي يشمل الصياغة والمضمون. فقد كان ضرورياً أن نجد معالم هذا التحدي حتى في فن الاختزال الذي تفنن فيه الجاهليون.

ومن هذا المنطلق نحاول ربط [ألم] بالآية [الله لا إلا إلا هو الحي القيوم] على ضوء ماقدمه لنا رسول الله ﷺ من معنى.

ولنلاحظ أن تفسير رسول الله تضمن ثلاث كلمات في مقابل ثلاثة أحرف، وكأنه يفهمنا أن الألف أختُزلت من كلمة (أنا) من أول الكلمة وأن اللام اختُزلت من كلمة (الله). من منتصف الكلمة ،إن الميم اختُزلت من كلمة (أعلم) من آخر الكلمة، فأصبح معنى (ألم) (أنا الله

أعلم). وعلى هذه الصورة يكونَ منزل الكتاب عز وجل قد طرق الأبواب الثلاث لفن الاختزال في آن واحد، وهذا اعجاز منه سبحانه مابلغنا مثيلاً له في تراث الجاهليين.

والآن لنتدبر ماتضمنه قوله تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ من معاني، لننظُر هل بالإمكان أن تفيد جملة (أنا الله أعلم) التي جاءت بصيغة التفضيل. أي أنه يستحيل أنْ يظهر أي عالم ينقض علمي، أو يثبت من خلال علمه أنه يفوقني علماً. هل يثبت هذا المعنى من خلال هذه الآية الكريمة؟

جملة [الله لا إله إلا هو الحي القيوم] صيغت على مبتدأ و خبر فالله مبتدأ، و (الحي القيوم) خبر ثاني لهذا المبتدأ. ومابينهما (لا إله إلا هو) نتيجة حتمية لهذا المبتدأ وخبره. بمعنى أنّ الذات الإلهية المتصفة (بالحي القيوم) لايستحق سواها التأليه والمحبة. على هذه الصورة تحمل هذه الآية الكريمة دعوى هامة جداً كما ذكرت. خلاصتها أن هناك خالقاً لهذا ألكون وهو (الله). وأن هذا الخالق يتصف بصفتين بارزتين يستحيل أن يتصف بهما وجود سواه وهما (الحي والقيوم). ولنحاول فهم أبعاد معاني هاتين الصفتين.

(الحَي) يأتي ضدّ الميت. كما يكوْن الاحياء مادياً ومعنوياً أيضاً. (والقيّوم) اشتق من قام ضد قعد. وقام بأمره: تولاه، وقام عليه: راقبه، وقوّم الشيء: عدله فجعله قائماً. منه ندرك معنى القيوم الذي هو اسم من اسماء الله الحسنى. فهو يعني يقظة الله عز وجل لكل أمر، وتولي الله لكل أمر، ومراقبة الله لكل أمر. وتعديل الله كل أمر معوج من الأمور، وجعله قائماً.

ولما لاحظنا ايراد هاتين الصفتين (الحي القيوم) مُعّرفتين بالألف واللام، فقد أضفى تعريفهما على مَعْنييهما أبعاداً في منتهى العظمة والكمال. وبالاختصار، فمن خلال هذا التعريف جاء تذكيرنا بجميع ماتوصل إليه الفلاسفة والمفكرون من نظريات حول وجول الله وصفاته، تذكيرٌ لنا ببطلان جميع النظريات المتعارضة مع كون الله موجوداً، وكونه متصفاً بصفتي (الحي القيوم) وعلى أوسع دلالاتهما.

فمن الفلاسفة من زعم أزلية المادة وأبديتها، ومنهم من زعم خلق الله لهذا الكون، وتركه إياه يجري لنفسه دون أي تدخل منه سبحانه. ومنهم من زعم خلق الله لهذا الكون وأنه أسمى من أن يتدخل في شؤون مخلوقاته أو أن يحاسبهم على أعمالهم.

وقد جاء في مضمون هذه الآية الكريمة الإعلان عن بطلان جميع هذه النظريات، لأنها تتناقى مع كون الله هو الحي القيوم. جاء الإعلان عن وجود خالق لهذا الكون ومافيه يتصف بجميع مظاهر الحياة، ويحمل جميع مقومات الإحياء سواء على صعيد الأفراد وسواء على صعيد الشعوب، وإحيائهم مادياً ومعنوياً، وحتى يملك قوة تأديبهم إن هم مالوا عن طريق مشيئته. كما جاء الإعلان عن أن هذا الخالق يتصف بضفة القيوم الكاملة. بمعنى أنه سبحانه وتعالى هو قوام كل شيء، وأنه لايقوم شيء من دونه، فهو يتدخل في شؤون عباده صغيرها وكبيرها، لأنه لاتأخذه سنة ولانوم، فهو متولي كل أمر من أمور عباده، وهو مراقب كل أمر من أمور عباده، وهو المعدّل عوج كل أمر من أمور عباده. وإنه مما لاشك فيه هو أن جميع نظريات الفلاسفة تتنافى مع هذه الدعوى التي جاء الكشف عنها من خلال الفاظ هذه الآية الكريمة. فإن صّح مضمون هذه الدعوى، فالنتيجة الحتمية لها هي أن يستحق هذا الإله وحده التأليه والمحبة، من دون سائر الموجودات وهو ماعبرت عنه الفاظ [لا إله إلا هو] ذلك أن الإله مشتق من الوله أي المحبة، فالله محبوب الأشياء كلها، أو من ألِهَ فلان يأله، بمعنى عبد. فالإله هو المعبود. وتألّه معناه تعبّد. ومن التأليه أي العبادة لمن كان إلهاً.

الآية إذن حملت دعوى ونتيجة مترتبة عليها. فإذا صحت هذه الدعوى وتلك النتيجة، وبطلت بسببها جميع نظريات الفلاسفة والمفكرين. فقد ثبت بالتالي أن صاحب هذه الدعوى ونتيجتها كونه أعلم الفلاسفة والمفكرين. وهذا ماعبّر عنه قول رسول الله ﷺ من أن (ألم) معناها (أنا الله أعلم).

إلى هنا نكون قد أحطنا بإطار دعوى ومنطلق سورة آل عمران. والتي قدمها ربنا من خلال آيتين كريمتين فقط. الآية الأولى بأسلوب الاختزال، والآية الثانية بأسلوب الاخبار.

وقد علمنا إمام زماننا أصلاً ذهبياً في تفسير القرآن الكريم. وهو أن نفتش عند كل دعوى في كتاب الله، عن أدلتها وأن هذه الأدلة تأتي بعد الدعوى مباشرة. إذ أن هذا هو دأب من كان عالماً، فما بالنا بمن كان عليماً؟.

والحق الذي لاريب فيه هو أن الله عز وجل قدمّ بعد هذا الإدعاء لا دليلاً واحداً؛ بل قدمّ دليلين. قدم كُلّ دليل من خلال آيتين فقط. الدليل الأول تاريخي، والدليل الثاني علمي واقعي.

الدليل التاريخي:

دلّل الله عز وجل على صحة مدّعاه بقوله ﴿نزّلَ عليك الكتاب بالحق، مصدّقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل. من قبلُ هُدىً للناس، وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام.﴾.

عرض سبحانه وتعالى دليله التاريخي من خلال هاتين الآيتين الكريمتين، وضمنه الأمور التالية:

الأول : كون هذا الكتاب مصداق نبوءات التوراة والإنجيل. عبّر عن هذا في قوله ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق،﴾، ودلّنا على هذا تعريف الكتاب بالألف واللام المخصوصتين بالعهد. رجوعاً بنا إلى ماهو معهود في أذهان اتباع التوراة والإنجيل من نبوءات تبشّر ببعثة نبيٍّ عربي من نسل اسماعيل، يظهر في أرض (فاران) وهي مكة المكرمة، وينزل معه كتاب تشريعي سماوي جديد، على شاكلة ما أنزل على موسى، ولقد سبق أن ذكرت لكم بعضاً من هذه النبوءات السماوية المعهودة.

ونبهّتكم إلى أن اليهود لم يؤسسوا مستعمرات خيبر وغيرها حول المدينة المنورة إلا بسبب انتظارهم لبعثة هذا النبي من أرض فاران.

كما دلنا على هذا العنصر الأول الذي ارتكز إليه هذا **الدليل التاريخي** كلمة [بالحق]. فالحق معناه: الأمر المقضي، والعدل والصدق، والموجود الثابت. وهو يستعمل ضد الباطل، هذه المعاني تضمنتها كتب اللغويين. واستناداً إلى هذه المعاني فإن كلمة [نزّل... بالحق] تعني أن نزول هذا الكتاب من عند الله شيء ثابت، وأمر قضى الله به ويتضمن حقائق صادقة لاغبار عليها، وهذه الحقائق والتعاليم والأحكام تجسّم العدل بأوسع معانية، وهو دائمي لايُنسخ.

ومن خلال قوله تعالى [نزّل عليك..] دلنا سبحانه على أن محمد بن عبد الله العربي، الذي هو من نسل اسماعيل، هو النبي الذي بشّر موسى وعيسى عن بعثته بصورة خاصة. ودلت عليه الفاظ نبوءاتهم.

الثاني: كون هذا الكتاب قد نزل للشهادة على صدق التوراة والإنجيل، إذ دونه يفقد هذان الكتابان مصداقيتهما، لعبث أيدي أصحابهما بضامينهما وتحريفهم لكثير من دلالاتهما،

وبسبب أن رقي البشرية وتطور مجتمعاتها، قد جعلت تعاليم التوراة والإنجيل ناقصة وغير كافية للعمل على منهاجها، وهذا الأمر يستدعي الشهادة على كونهما من عند الله من جهة، مع تبيان عدم صلاحيتهما المطلقة لكونهما قد نزلا لمعالجة أقوام معيّنين فقط وفي أزمنة معينة. ودلّنا على هذا الأمر قوله تعالى [مُصدِّقاً لما بين يديه،]. أي مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

وكأنه سبحانه وتعالى يلفت نظرنا للاهتمام بهذا الكتاب من ناحية كونه نزل لأداء مهمة تاريخية عظيمة تربط مابين سلسلة الكتب السّماوية، وتنفي كونها أساطير، أو من تأليف أصحابها.

كما أنه سبحانه وتعالى نبهنا في قوله ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ إلى أن نزول هذا الكتاب بمهمة جليلة مثل هذه المهمة، يدل على أنه لم ينزل دون ضرورة أو حاجة إليه، بل اقتضت نزوله كون الله تعالى هو (الحي) بمعنى أنه أساس حياة الشعوب وأساس وتطورها.

الثالث: ومن خلال قوله تعالى ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل﴾ نبهنا إلى وحدة مصدر الكتب السماوية، فما دام قد نزل هذا الكتاب [مصدقاً لما بين يديه] من التوراة والإنجيل، هذا الاهتمام بصدق هذين الكتابين يعني بألفاظ أخرى أن الله تعالى هو الذي أنزلهما يقيناً، وإلا فما هي حاجته لتصديقهما، لوكانا من وضع أشخاص؟ خصوصاً وأن هذا الكتاب بغنىً عن تعاليمهما، من حيث محتوياته وكمال أحكامه.

الرابع: والأمر الرابع الذي تضمنه هذا **الدليل التاريخي** ، عبّر عنه سبحانه بقوله ﴿من قبلُ هدى للناس،﴾ بمعنى أن التوراة والإنجيل لم يُنزلهما الله عبثاً في وقتيهما، بل أنزلهما لتحقيق هدف معين. وهذا الهدف هو [هدى للناس]. أي أن أقوام منطقتهما كانت قد خيم عليها ظلام دامس، وانحدرت إلى هاوية الشرك والظلم، وأضحت بحاجة إلى من يهديها سبيل الرشاد. ولما كان الله هو (الحي) (القيوم)، فما كان باستطاعة وجود سواه أن يمدّ يد المساعدة لأقوام هذه المنطقة سوى الله الحي القيوم. ولذلك فهو كان قد أنزل التوراة والإنجيل وسيلة هداية وإنقاذ لهم. فالمراد من (الناس) هنا، أناس تلك الفترة الزمنية، وقد حقق الله أهدافه.

الخامس: وأضاف سبحانه قوله ﴿ وأنزل الفرقان﴾ أي أن نفس تلك الضرورة الزمنية قد ظهرت من جديد، واحتاجت البشرية للأخذ بأيديها، بعدما عمّ الفساد في البر والبحر، وهذه الضرورة لاتنحصر في أمر هداية الناس اليوم فقط، بل تحتاج إلى الفصل في أمر جميع ماوصل إلى أيدينا من هدايات، وتصحيح وقائعها، وبيان مواقع العبث الذي اعتراها، إلى جانب تمحيص كل ماذهب إليه الفلاسفة والمفكرون من آراء ونظريات باسلوب الحجة والبرهان.

هذه الضرورات جميعها اقتضت نزول [الكتاب] لأداء مهمتين رئيسيتين هما: هداية الناس بتقديم تعاليم كاملة وصالحة. وأن يكون في هذا [الكتاب] مايفصل به بين الحق والباطل فيما تعلّق بالكتب السماوية السابقة،وبجميع النظريات الفلسفية التي ضللت البشرية في عصر الحاجة إلى هذا الكتاب، وماسيوضح منها بعد نزوله، الأمر الذي يعطي هذا [الكتاب] صفة (الفرقان) عن جدارة واستحقاق.

السادس: وقال وعزّ من قائل ﴿إنّ الدين كفروا بآيات اله لهم عذاب شديد﴾ مجيباً بهذه الحقيقة التي تضمنتها هذه الألفاظ على سؤال يطرح نفسه، وهو: إننا نرى أن رب البيت يملك صلاحية معاقبة أبنائه، إن هم لم يلتزموا بنصحه وارشاده وأن رئيس الدولة يملك صلاحية ردع من يخالف قوانين دولته. فهل أنزلت هذه الهدايات السماوية، لهداية الناس، مجردة عن هذا الضوابط أم أنزلت مُعزّزة بالوسائل التأديبية أيضاً؟ إذ لاقيمة حقيقية لقانون غير معزّز بعقوبات.

أجاب الله تعالى على هذا التساؤل هنا بصورة آلية، إذ لفت أنظارنا إلى ماحاق بالمخالفين والمكذبين من [عذاب شديد] وكأنه قال هاكم راجعوا تاريخ هؤلاء أفلا ترون كيف كان لهم عذاب شديد)؟

وجميعنا يدري ماحاق باليهود من عذاب شديد مازالوا يرزحون تحت سوطه، فقد جمعهم الله مرة أخيرة في الأرض المقدسة لتكون القاضية عليهم بإذن الله (الحي القيوم).

السابع: وأضاف سبحانه وتعالى ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾. نبهنا إلى أنه سبحانه لايتصف بصفتي (الحي القيوم) وحسب، بل يتصف بصفتي (عزيز) و (ذو انتقام). فالعزيز هو المنيع الذي لاتطوله قوة شيء في هذا الوجود. وذو انتقام هو الذي لايدع كافراً

بهداياته أو مخالفاً لتعاليمه إلا أن يطوله بعقاب على مستوي كونه عزيزاً، إشارة إلى أنه لا إمكانية ولامجال لأحد ليتمرد على مشيئته كما يحدث في الاسر أن يصبح أحد الأبناء عاقاً لأبيه مُنفصلاً عنه ويتمرد على ارشاداته، وكما يحدث في الدول أن يقوم قطاع من المواطنين بالعصيان والتمرد والانفصال.

هذه الأمور السبع تشكل بمجموعها عناصر الدليل التاريخي الذي قدمه ربنا للتدليل على كونه [الله لا إله إلا هو الحي القيوم].

وتتلخص عناصر هذا الدليل التاريخي، هذه التي ذكرناها في أن الإنسان إذا نظر نظرة تاريخية، واستعرض تاريخ شعوب هذه المنطقة بالذات، تتجلى لعينيه يد سماوية وقد امتدت إلى شعب كان مستعبداً، وقد انقذت هذه اليد السماوية هذا الشعب مما كان فيه من عبودية،وبطشت بكل من حاول وقف فعالية هذه المساعدة. واستخدم هذا الشعب ليصبح نموذجاً لمن حوله من الأقوام للتأثير في أوضاعها وتطويرها نحو الأفضل، ولما كانت الهداية التي انزلت لمساعدة هذا الشعب المستعبد مؤقتة وذات طابع قومي اقليمي وكان تطور الشعوب وتقاربها يقتضي نزول هداية كاملة، فقد تضمنت هذه الهداية السابقة نبوءات عن المستقبل، وعن النبي الذي سيُبعث بالهداية الكاملة، وهاهي تلك النبوءات قد تحققت، وإن في تحققها دليلاً قاطعاً تاريخياً يثبت وجود خالق هذه الشعوب جميعها، كما يثبت كون هذا الخالق مامات ومازال، بل مازال هو الحي القيوم، هو أداة احياء الشعوب وايقاظها وتطويرها، فهو الإله اليقظ لكل أمر والمتولي والمراقب والمعدل لكل أمر من أمور عباده، ولابد أن ينال كل كافر بهذا الكتاب جزاءه على قدر كفره، لأن الله عزيز ذو انتقام، وقد قضى الله أن يكون هذا الكتاب فرقاناً من جهة ، ودائماً لايُنسخ إلى أبد الآبدين من جهة أخرى، ويثبت من ذلك كله أنه لايستحق التأليه والمحبة سواه.

الدليل العلمي: ودلّل الله عز وجل على صحة مُدّعاه ماجاء به في هذه الآية: «إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، هو الذي يُصوّركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.» عرض سبحانه وتعالى دليله العلمي الواقعي من خلال هاتين الآيتين الكريمتين على شكل مقدمة ونتيجة. المقدمة تضمنتها الآية الأولى، والنتيجة تضمنتها الآية الثانية، وهذه النتيجة مستخلصة من هذه المقدمة.

عبر سبحانه عن مقدمة دليله العلمي بقوله ﴿ إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .﴾ بمعنى أن الاكتشافات العلمية هي أساس كل تقدم تقني، وعلى قدر مايبلغه الإنسان من اكتشافات علمية، على قدر مايساعده ذلك على التفوق تقنياً.

وهذه المعادلة يسلم بها جميع علماء العالم. فمن المعروف أن أدوات النقل المعاصرة كالباخرة والقطار والسيارة والطائرة، ماكانت لِتُخترع لولا أن اكتشفت قوانين البخار كقوة دافعة. هذه المعادلة العلمية. تضمنها قول الله عز وجل ﴿ إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .﴾. فهو سبحانه وتعالى استعمل لفظ (**الخفاء**) في مقابل لفظ (**الاكتشاف**)، لأن الخفاء يضاد الاكتشاف في المعنى، فإذا استبدلنا لايخفى بكلمة (مكتشف)، تصبح الآية [إن الله مكتشف كل شيء في الأرض وفي السماء] أي أنه مطلع على حقائقها وقوانينها اطلاعاً كاملاً غير ناقص في ناحية من نواحيه. ومادام على هذا المستوى من الكشف والإحاطة بالحقائق والقوانين، يلزم الإقرار بأن تقنياته تكون على مستوى لا تضارعه أية تقنيات كانت، **هذه مقدمة الدليل**، فإن ثبت ايجاده عز وجل لأشياء على هذا المستوى من التقنية فلزم استخلاص نتيجة من ذلك أنه سبحانه [لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جهة، وكونه سبحانه [الحي القيوم] الذي [لا إله إلا هو] من جهة ثانية].

وانتقل سبحانه وتعالى ليضع النتيجة المستندة إلى هذه المقدمة بين أيدينا، ومن واقع حياتنا، فقال ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .﴾. وقد تضمنت الفاظ هذه الآية الكريمة الأمور التالية:

الأول: تضمن قوله [هو الذي يصوركم في الأرحام] اشارة إلى الحيوان المنوي الذي يستحيل رؤيته إلا عن طريق المجهر لكونه بالغ الدقة، وهذا الحيوان المنوي بالرغم من دقته المتناهية، فهو يحمل صورة الإنسان: هيئته، وحواسه، وأجهزته الباطنية ودورته الدموية وأجهزته التناسلية ولون مورثه.

كما اشار إلى مافي هذا الحيوان المنوي من مورثات وصبغيات. وعلى احتوائها على (شيفرة) غاية في الابداع والدقة والاختراع، حير اكتشافها جميع علماء الوراثة، وقد سجلوا اكتشافهم هذا وحيرتهم تلك في كُتُبٍ ألفوها، وأضحت في متناول كل قارىء يتابع مثل هذه الاكتشافات.

وإن هؤلاء العلماء سلموا أنه يستحيل أن يتأتى مثل هذا التصوير البالغ الدقة من نفسه، أو من خلال تطور طويل الأمد. ورفضوا من خلال اكتشافهم هذا نظرية "دارون" أيضاً، إذ بينوا استحالة تصميم هذه "الشيفرة" للصبغيات والمورثات من خارجها، بدليل أن الصبغيات جاءت داخل النواة على شكلٍ لولبي ملفوف، بطول (١٥٠) مليون كم أي بطول المسافة الكائنة مابين الأرض والشمس هذا بالرغم من دقتها المتناهية التي يستحيل أن تُرى إلاّ بالمجهر. واستناداً إلى حسابات قاموا بها، قدروا للتفاعلات اللازمة لظهور هذه الشيفرة عن طريق قانون النشوء والارتقاء، قدروا زمناً يتجاوز عمر كوكبنا الأرضي، مما دفعهم للجزم بسقوط نظرية دارون، وأنه لامجال في تكوين هذه "الشيفرة" المورثة للتكوّن عن طريق المصادفة بأي شكل من الأشكال.

هذا هو الأمر الأول الذي يكون الدليل العلمي الذي قدمه لنا خالقنا من صلب واقعنا المادي، ومن خلال قوله عز وجل: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام﴾. بمعنى لاتتعجبوا من هذا الاكتشاف، ولاتكفروا بكون [**الله الذي لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء**] هو مصوركم في الأرحام، وهو الذي صوركم على هذا المستوى المعجز من التقنية المذهلة.

وكأنه سبحانه وتعالى يعود هنا بنا إلى دليله التاريخي وليقول لنا هاكم نموذجاً حياً على صدق هذا الدليل العلمي، وهو شخصية محمد بن عبد الله. فكيف كان بالإمكان الإنباء قبل عصور طويلة عن أنه سيمتد نسل اسماعيل إلى وقت يظهر من صلبه هذا النبي العظيم مصداقاً لتلك الأنباء، إلا أن يكون الذي أنبأ عن بعثته من نسل اسماعيل وفي أرض فاران ومعه هذه الشريعة السماوية الكاملة أن يكون [هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء] ؟؟؟

الثاني: والأمر الثاني اشار إليه كلمة (**الأرحام**) من حيث جاءت غير مقيدة بأمهات أو سواها، لينبهنا إلى النشأة الثانية من بعد الموت من أنها ستتم على شاكلة النشأة الأولى في هذه الحياة الدنيا، وهذه الحقيقة لفت سبحانه اذهاننا إليها في مقام آخر حيث قال ﴿ **وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال مَنْ يُحي العظام وهي رميم. قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم.**﴾ يس ٧٨ .

فمن خلال ايراده سبحانه اسم الرحم على صيغة الجمع مطلقاً، نبهنا إلى حكمة دفن الميت، التي وضح أنها ظاهرة ماكانت لِتُوجَدْ لولا تعاليم الكتب السماوية. كما قال في مقام

آخر ﴿أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره﴾ بمعنى أن قبر الإنسان هو بمثابة رَحِمٍ آخر يكون أساس النشأة الثانية بعد الموت، والقائمة على مجموعة آثار أعمال الإنسان في حياته الدنيا التي تتشكل منها الحيوان الحياتي الذي سيتطور وتنشأ عنه حياة الآخرة. ولذلك رأيناه سبحانه يقول منذراً الكافرين [وأمه هاوية]. مشبهاً القبر ومايكون فيه بالأم ورحمها الذي يتكون فيه جنينها، فلا تعسر على الله هذه النشأة أيضاً.

الثالث: وبقوله [في الأرحام كيف يشاء] كأنه يحثنا على تقصي النبوءات السماوية والقيام بإحصائيات نتأكد من خلالها قوة تحدي [كيف يشاء]. وإني شاهد على صحة هذا التحدي، إذ أن الله عز وجل بشرني بأولادي قبل ولادتهم، وإنهم سيكونون شفاء للناس أيضاً.

الرابع: وفي قوله عز وجل ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ تحدي عظيم في مجال دليله العلمي، فهو نبهنا إلى أن "شيفرة" المورثات التي يصوركم بواسطتها وصفها (**العزيز**) أي المنيع إشارة إلى عدم إمكانية اجراء أي تبديل فيها من قبل أية قوة أخرى سواه، وبدون موافقته ومشيئته. وإن الذي وضع هذه الشيفرة (الحكيم) الذي لايقدم على فعل أو عمل أي شيء بدون دراسة وتخطيط وهدف مرسوم. ومن هنا فلا إله إلا هو. بمعنى لايستحق التأليه والعبادة والمحبة أي وجود سواه، وإن هذه التقنية المذهلة تدل لامحالة على أنه لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. ولاشك أن هذا كله يشكل في حد ذاته دليل كون الله هو الحي القيوم، وأنه أعلم العالمين.

هذه **الأمور الأربع** شكلت بمجموعها **الدليل العلمي المادي**، والذي قدمه ربنا للتدليل بواسطته على كونه [لا إله إلا هو الحي القيوم.] وقد جاء هذا الدليل كنتيجة حتمية لمقدمة هذا الدليل والتي تضمنها قوله عز وجل ﴿ إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .﴾. وبإمكاننا تلخيص هذا الدليل العلمي على الشكل التالي:

يتألف الدليل من مُقدمة ونتيجة، وترتبط هذه المقدمة والنتيجة بمعادلة رياضية، إذا صح أحد طرفيها صح الطرف الآخر. وهذه المعادلة متعلقة بالاكتشافات العلمية والتقدم التقني، تقول هذه المعادلة إن التقدم التقني يتناسب طرداً مع الاكتشاف العلمي، فكلما ازدادت الاكتشافات العلمية، ازدادت الاكتشافات العلمية، ازدادت التقنيات تقدماً ورفعه وسُمُواً وكمال التقنيات مرتبط بكمال الاكتشاف وانتفاء الخفاء كلية.

واستناداً إلى هذه المعادلة، ومن منطلق هذه المقدمة وتلك النتيجة قدم الله عز وجل دليله العلمي، قدم كمال تَقَنِيّة خَلْقِهِ كنتيجة تثبت كمال علمه واكتشافه وانعدام كل خفاءٍ من أمام عينيه في الأرض والسماء. وقدم بتركيبة الحَيْوان المنوي مثالاً عملياً على ماله من كمال على المستوى التقني. هذه التركيبة التي اضطرت العلماء في مجال الوراثة، للاعتراف دون أي اكراه منه سبحانه، بعظمة هذه التقنية واستجاله تأتيها مصادفة، أو تأتيها بطريق التطور والارتقاء وفي الوقت نفسه قدم محمداً بن عبد الله شهادة علمية تثبت أنه سبحانه تنبأ عن ظهوره قبل عشرات القرون، مما يثبت أنه هو سبحانه الذي صوره في الأرحام كيف يشاء، وحتى حقق نبوءاته الغيبية على أجلى صورة واكمل وجه. واغتنم سبحانه وتعالى هذه الفرصة لينبهنا إلى أن النشأة الثانية من بعد موتنا، ستكون على شاكلة نشأتنا الأولى. وهي يقينية الحدوث لانتفاء الخفاء من كل شيء أمام أعين خالقنا ورب العالمين، وقد جعل أعمالنا أساساً تقنياً لإنشائنا النشأة الآخرة من منطلق أنه عزيز وحكيم.

على هذه الصورة ندرك ادراكاً عميقاً وواعياً بأن الدعوى التي تضمنها قوله تعالى في أول آيتين من آيات سورة آل عمران ﴿ الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾، إنما هي دعوى قائمة على أساس متين من الحقيقة ولايتطرق إليها الشك بأي حال من الأحوال، ذلك لأن الله تعالى قدم للتدليل على حقيقة هذه الدعوى دليلين: أحدهما تاريخي، والآخر علمي وواقعي، مما لامحال للطعن بهما بحال من الأحوال.

والآن، وبعدما فرغ ربنا من هذه المقدمة التي قدمها كمنطلق للدخول في موضوع سورة آل عمران. ابتدأ موضوع سورة آل عمران بآية المحكمات والمتشابهات التي شرحتها لكم باديء ذي بدء، ابتدأ هذه الآية بضمير (هو) ليعود بنا إلى الدعوى والمنطلق، ولينبهنا أن تقدم هذين الدليلين كان اعتراضياً بين دعواه، أي بين مقدمته وموضوعه.

فإن تساءل أحدنا هنا: لماذا قدم ربنا دليلين ولم يكتف بتقديم دليل واحد؟ أجيب بأن دعواه سبحانه تدور حول محورين اثنين هما (الحي القيوم). وقد اقتضى إثبات صفة الله (الحي) تقديم دليل تاريخي يثبت من خلاله صورة إحيائه للأمم والشعوب وانتشالها من وهدة الانحطاط. كما اقتضى إثبات صفة الله (القيوم) تقديم دليل تاريخي يثبت من خلاله صورة كون كل شيء لايقوم إلاّ به عز وجل.

وأن جميع مابينته لكم حتى اللحظة يشكل في حقيقته سباق آية المحكمات والمتشابهات، هذه الآية الكريمة التي تعتبر العمود الفقري لموضوع سورة آل عمران، وهي كما رأيتموها وبالمفاهيم التي عرفتكم عليها، ترتبط بهذا السباق المؤلف من مقدمة مؤلفة من دعوى ودليلين، أقول ترتبط ارتباطاً عضوياً موضوعياً لامجال لملاحظة أية ثغرة تفصل بينهما يقيناً.

فقد جاء في السباق الكلام عن التوراة والإنجيل، وكونهما حلقات مترابطة، كمظاهر لوجود الله الحي القيوم، كما جاء الكلام عن نزول هذا الكتاب كحلقة أخيرة تكمل تلك الحلقات وتُهيمن عليها من منطلق كون هذا الكتاب (فرقاناً).

وحتى يقوم هذا الكتاب **بمهمته الفرقانية** كان لابد من التعرض فيه لتعاليم التوراة والإنجيل نقداً وتمحيصاً، رفضاً وتثبيتاً، من هنا بات ضرورياً وجود آيات من هذا الكتاب متشابهات في مضامينها وأحكامها مع ماورد في التوراة والإنجيل من تعاليم وأحكام. كما بات ضرورياً وجود آيات في هذا الكتاب جديدة التعاليم، متقنة كل الاتقان وعلى مستوى الكمال.

وإلى نفس هذه الدلالات جاء قوله عز وجل ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات مُحكمات ، هن أم الكتاب، وأخر متشابهات...**﴾.

وانطلق سبحانه يشرح لنا انقسام الناس إلى فريقين تجاه هذا الكتاب، وكان هذا التشابه الواقع في بعض آياته مع بعض تعاليم التوراة والإنجيل يشكل السبب الرئيسي لهذا الانقسام، ولم يكن الخطأ، خطأ هذا الكتاب ومتشابهاته، بل هو خطأ الفريق الكافر بها، الزائغ عن الحق، والذي لايطلب الحقيقة بل يبغي الفتنة والتأويل. وعبر سبحانه عن ذلك بقوله ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ، فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.**﴾.

إن لمن البديهي أن يكون علم تأويل هذا الكتاب كاملاً عند الله الذي أنزله، هذه بديهية لاتحتاج للطرح والنقاش، لأن من المعروف أن كل كاتب يعلم مضمون مادونه وكتبه، لذلك يقولون (المعنى في قلب الشاعر). وهذا الأمر البديهي يعتبر قرينة تدفعنا لنفهم لهذه الجملة[**ومايعلم تأويله إلا الله**] معنى أعمق من معناها السطحي المتبادر لأذهاننا.

ويزيد تساؤلنا هذا تأكيداً الأسس الستة التي ينتهجها من كان من الراسخين في علم هذا الكتاب، فهل يعني هذا أن الكتاب قد نزل على صورة لاتفهمه إلا **فئة الراسخين في**

العلم، أم أنه قد نزل لجميع الناس كافة، وأنه بمتناول فهم كل إنسان مهما كانت طبقته ومنبته؟ ونظل نتساءل: ماالمعنى الحقيقي لقول الله عز وجل : ﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾.

وقد أجاب ربنا سبحانه وتعالى على هذا التساؤل، ذي الشعبتين بأسلوب رائع الأداء في الآيتين اللتين أعقبتا آية المحكمات والمتشابهات مباشرة، في قوله عز وجل ﴿ربنا لاتُزغ قلوبنا ، بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ، ربنا إنكَ جامعُ الناس ليومٍ لاريب فيه، إن الله لايخلف الميعاد﴾.

أجاب سبحانه وتعالى على تساؤلنا المذكور من خلال آيتين فقط، لم يتجاوز عدد كلماتها عشرين كلمة، مُوضحاً لنا أن تأويل وفهم هذا الكتاب هو بمتناول كل إنسان، وإنه نزل لجميع طبقات الناس، لكنه من حيث عظمته وكونه (كتاباً مكنوناً) فهو متعلق بكل زمان ومكان.

وراح سبحانه يتكلم عن الفريق الثاني المؤمن بهذا الكتاب موضحاً بأنه فريق مؤمن يجمع بين النظرية والتطبيق في حياته ويلتزم بالأسس التي لابد من تبنيها للاستفادة من هذا الكتاب الفرقان، وعبر سبحانه عن ملامح هذا الفريق وعن الأسس التي يلتزم بها لفهم هذا الكتاب بقوله عز وجل:

﴿ ومايعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به، كُلٌّ من عند ربنا، ومايذكّر إلا أولوا الألباب﴾.

أظنكم، قد تبينتم ملامح الارتباط العضوي الموضوعي مابين آية المحكمات والمتشابهات ومابين سباقها. هذا الارتباط الذي بَعُد بُعداً كبيراً عن تبينه وادراكه صاحب "القراءة المعاصرة" وهو الآخ المسلم الذي فرض عليه ربنا عدم التسرع وعدم إهمال السباق والسياق حفاظاً على التسلسل المعنوي لموضوع أية سورة من سور هذا الكتاب العظيم.

إن آية المحكمات والمتشابهات هذه والتي تعد في نظرنا العمود الفقري لموضوع سورة آل عمران وبداية له، ماكانت هذه الآية بمنفصلة عن سباقها بأي شكل من الأشكال، بل كان بينها وبين مقدمة السورة، كما بينت لكم، ارتباطاً عضوياً معنوياً مدهشاً.

واللافت للأنظار، من خلالها فقط قوله عز وجل: ﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾، فما هي مناسبة هذا الإعلان، وماهي الحكمة الكامنة وراءه؟

الحكمة هي في الحاجة إلى مفتاح يكشف عن مكنوناته التي لايحيط بعلمها إلاّ الله عز وجل.

قد يستغرب الإنسان هذا الأمر لأول وهلة حيث سيقول ماسمعنا أن أحداً كتب كتاباً، وجعل له مفتاحاً، لكن هذا الإنسان يزول عجبه هذا بعدما يطلع على ما امتاز به هذا الكتاب، ومن خلال المبادىء الستة التي جاءت في منهج الراسخين في العلم. هذا الامتيار الذي لم يحصل لأي كتاب سماوي سابق، بلهْ الكتب الأرضية الوضعية.

فما كانت الكتب السماوية تنزل إلا بمعايير قومية ومرحلية. ولمعالجة أقوام مُعّينين، لذلك فما كان هناك من داعٍ لدوام حفظها بحال من الأحوال، بينما أنزل الله عز وجل هذا الكتاب، كما تبين من خلال الأُسس الست المذكورة، لمعالجة جميع الناس وفي مختلف الأزمنة والأمكنة، ومهما تطورت الأحوال لذلك وعد الله سبحانه بحفظ هذا الكتاب وجعله على صورة (كتاب مكنون) وبحاجة إلى مفتاح، بإمكان كل إنسان تناوله، لفتحه والأخذ من مكنوناته على قدر ظرفه ووعائه وحاجته. كما نصّ على ذلك في سورة الواقعة ﴿لا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسمٌ لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون، لايمسه إلاّ المطهرون تنزيل من رب العالمين.﴾.

والقسم كما تعلمون، لايكون إلا عند استحاله تقديم شهادة مادية، فالمنكر يقسم بمعنى أنه يقدم الله عز وجل شاهداً على مايقول. أما إذا أقسم الله نفسه، فلا يختلف معنى القسم، إلا من جهة أن الله تعالى يكون في حالة تقديم دليلٍ حسي من مخلوقاته.

وهو هنا عندما أقسم سبحانه وتعالى بمواقع النجوم، فقد قدمها كدليل حسي للتدليل على عظمة تكوينه لهذه السماء ومابث فيها من أفلاك وسيارات ونجومٍ، ووفق قوانين محددة لايطولها التبديل والتغيير، وكيف أنها بمجموعها تهدي عابر الصحراء في الليالي الحالكات.

ولفت سبحانه وتعالى انظارنا بهذه الشهادة المادية المحسوسة إلى تكوين كتابه (القرآن الكريم)، وقد سماه هنا (قرآنا) كنبوءة عظيمة على أنّ أدوات النسخ والطباعة ستتطور إلى درجة، يُطبع هذا الكتاب من جرّائها بأعداد هائله، ويكون بذلك في متناول كل إنسان يتلوه ويقرؤه ويتفحصه، كما اعطاه سبحانه صفة (كريم) تنبيهاً إلى مكنونات هذا الكتاب وعطائه الذي لايعرف حدوداً من جراء كونه أنزل لهداية البشرية إلى يوم الدين.

وعندما قال سبحانه في هذه الآية [في كتاب مكنون]، نبهنا إلى ضرورة ومبررات وجود مفتاح ذهبي، يفتح هذا الكتاب بواسطته وليستفيد الإنسان من عطاء هذا الكتاب ومكنوناته برّر ربنا هذا الامتياز الذي جعله لكتابه من دون جميع الكتب السماوية المنزلة، بقوله[تنزيل من رب العالمين.] بمعنى أنه أنزل كتابه هذا لتربية جميع عوالم الناس في مختلف الأزمنة والعصور ومن جميع الطبقات والأجناس .وقد علمنا سابقاً معنى كلمة (ربّ). ولذلك وجدناه سبحانه وتعالى وقد افتتح سورة الفاتحة ، وهي خلاصة تعاليم هذا الكتاب بآية[الحمد لله ربالعالمين] بمعنى أن جميع أنواع الحمد لا يستحقها على سبيل الأصالة، إلا وجود واحد ، وذات واحدة ، وهي ذات[رب العالمين].

أجل، هذا هو الفارق العظيم مابين هذا الكتاب ومابين الكتب الوضعية الأرضية، وحتى الكتب السماوية السابقة، لذلك اقتضى الأمر أن يكون هذا الكتاب مكنوناً وبحاجة إلى مفتاح ذهبي، يتناسب مع عظمة هذا الكتاب ومكنوناته، شريطة أن يوضع هذا المفتاح الذهبي في متناول كل إنسان، ولاتكون الصعوبة إلا في استعمال هذا المفتاح إذ أن من حق صاحب الكتاب أن يجعل مفتاح كتابه المكنون كيفما شاء.

وقلت لكم إن معالم هذا المفتاح الذهبي تضمنته هاتان الآيتان اللتان صاغهما الله عز وجل على صيغة تضرّع ودعاء. فلماذا صاغهما سبحانه على صيغة دعاء؟ نجد جواب ذلك في قانون الاحتياج العام لعامل مساعد، ذلك أن الدعاء هو العامل المساعد على المستوى الروحي، ويتلخص هذا القانون إلى احتياج كل شيء إلى عامل مساعد يساعده على اداء وظيفته، دونكم عين الإنسان إنها بالرغم من عظمة تكوينها فلا تستطيع تأدية وظيفتها إلا بمساعدة الضوء، والأذن بالرغم من عظمة تركيبها فهي لاتؤدي وظيفتها إلا بمساعدة الهواء، والعقل لايعطي أحكاماً جازمة ويقينية إلا بمساعدة وحي السماء، على هذه الشاكلة، فإنكم مهما قلبتم الأنظار في مختلف الاتجاهات وعلى مختلف الصُعد، لابد ستلاحظون احتياج كل شيء إلى عامل مساعد، يعينه على اداء وظيفته، فالنقص والاحتياج ظاهرة طبيعية في جميع اشياء هذا الكون، ومن خلال قانون الاحتياج المذكور يثبت الكمال لله الخالق، وكون كلّ شيء مخلوقاً، كما تثبت وحدانية الخالق بسبب ظاهرة وحدة عملية الخلق.

وعندما علمنا ربنا أن ندعو في سورة الفاتحة [إياك نعبد وإياك نستعين] علمنا هذا الدعاء من باب قانون الاحتياج العام الذي ذكرناه، ولم يستثنِ ربنا من هذا الدعاء أحداً من

عباده، حتى محمداً المصطفى سيد الرسل وخاتم النبيين ﷺ. فقد ورد في الصحاح من كتب الأحاديث، عن طريق عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان كثيراً مايدعو (يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) فسألته عائشة ذات مرة: ما أكثر ماتدعو بهذا الدعاء؟ فأجابها: (ليس من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمان، إذا شاء الله أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه. ويؤيد ذلك قوله [ربنا لاتُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.]؟ فانظروا من خلال هذه الرواية كيف استشهد رسول الله ﷺ بنفس الآية التي نحن بصدد تفسيرها والتي قلت أنها تضمنت معالم المفتاح الذهبي لفهم القرآن.

وتعالوا نتعرف على أوجه معالم مفتاح الكتاب المكنون:

الوجه الأول: أن ندعو [ربنا] بمعنى أن تقر بوجود الله ويكونه (ربنا)، وقد سبق أن فهمنا معني كلمة (رب)، فهي تعني الله الذي يطورنا من حال إلى حال، إلى أن يصل بنا مرتبة الكمال. فمن أقرّ بوجود الله، كما اعتقد بأن هذا الإله هو الذي يشرف على تربيتنا وتطويرنا، وتوجه إليه متضرعاً أن ياربنا، كما يتضرع الطفل بين يدي أبويه، يكون هذا الإنسان قد أمسك بطرف من اطراف هذا المفتاح الذهبي.

الوجه الثاني: أن يكون دعاؤنا [ربنا لاتزغ قلوبنا] بمعنى أن نكون معتقدين بكون قلب كلّ فرد منا بين اصبعين من أصابع الرحمان إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه. فلا هادي إلاّ الله، ولايُصيب العقل مكمن الحقيقة إلا بتحريكه والهامه الخفي، فمن أقر بهذه الحقيقة وأعتقد بصحتها، وتوجه إلى ربه متضرعاً إليه أن يصونه من سيئات أعماله وآثارها السيئة على فؤاده، يكون هذا الإنسان قد مسّ الوجه الثاني من أوجه المفتاح الذهبي.

الوجه الثالث: أن نعترف بفضل الله علينا أن هدانا للإيمان به وبكتابه وأن يُقِرّ بهذا الاعتراف بقوله متوسلاً [لاتُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا]. ،إن الذي يقدم على هذا الاعتراف، يقدم لربه دليلاً على أنه من طلاب الحقيقة، الذين لايبغون الفتنة والتأويل دون وجه حق، ويكون قد أمسك بالوجه الثالث من أوجه المفتاح الذهبي.

الوجه الرابع: أن يعتقد بكون خزائن هذا الكتاب هبة من الله ورحمة، فلا يحاول فهم آياته من منطلق الشك والنقد، بل من منطلق كونها جميعها تحمل للإنسانية الهبات والرحمة، متوسلاً أن يخصه ربه بما يلائم ظرفه ووعاءه وحاجته من هبات هذا الكتاب ورحمته قائلاً

[وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.] على اعتبار أن بعثة محمد بن عبد الله ﷺ كانت رحمة للعالمين، وعلى اعتبار أن الله تعالى قد كتب على نفسه الرحمة لعباده المؤمنين لقوله « ورحمتي وسعت كل شيء ،فسأكتبها للذين يتقون....»الأعراف ١٥٦علماً بأن الهبة هي عطاء بلا عوض، وأن الرحمة رقةٌ وعطفٌ وغفرانٌ وعطاءٌ زيادة عن الاستحقاق، كما بَيَّنَ اللغويون.

فمن توسل من ربه طالباً هباته من هذا الكتاب على اعتباره رحمة للعالمين، يكون قد أمسك بالوجه الرابع لهذا المفتاح الذهبي.

الوجه الخامس: وعلى المرء الذي يريد الاستفادة من مكنونات هذا الكتاب ألاّ يتوسل ويتواضع فقط بين يدي ربه، بل وأن يبرر توسله وتواضعه بأن يبدي اعتقاده بالحياة الآخرة، ومايت إليها، وأنه آخذها بعين الاعتبار عند كل خطوة يخطوها. أن يقدم لربه هذا المبرر لطلبه بقوله: [ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه] فإن أقدم على توسله هذا، متواضعاً ومعتقداً بنتائج أعماله التي ستظهر آثارها في الحياة الآخرة، نوراً أو ناراً، ومبرراً توسله بهذا الاعتقاد، يكون قد لامس الوجه الخامس للمفتاح الذهبي الذي يمكنه من فتح الكتاب المكنون، والاستزادة منه على قدر ظرفه ووعائه وحاجته، هبة من ربّه ورحمة.

الوجه السادس: وعلى المرء أن ينطلق من هذه الأوجه جميعها ومن اعتقاد جازم ويقين راسخ بوعود الله التي وعدها المتقين من عباده المؤمنين، يخاطبه مستيقناً بوعوده [إن الله لايخلف الميعاد]، وهذا التذكير من منطلق التوسل والرجاء يثير حمية الله وغيرته، فيلتفت إلى هذا الداعي بفتح كنوزه التي أودعها كتابه بالمفتاح الذهبي الذي وضعه بين يديه ويهبه على قدر ظرفه ووعائه وحاجته، غير آخذ سبحانه وتعالى بعين الاعتبار طبقة هذا الداعي ولامنبته ولا لونه ولأي اعتبار آخر إلا ماسلف.

على هذه الصورة يكون الله عز وجل حينما قال ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه، إنك لاتخلف الميعاد﴾. يكون قد وضع بين يدي كل فرد من بني نوع الإنسان مفتاحاً ذهبياً، يفتح به هذا الكتاب المكنون لسيتزيد من هباته ورحمته شريطة أن يستوفي أوجه هذا المفتاح الذهبي، مستعملاً إياه استعمالاً صحيحاً.

ويكون قد برر قوله عز وجل[ومايعلم تأويله إلا الله] على اعتبار أنه كتاب مكنون غير محدود العطاء، ومتعلق بجميع الناس ومن مختلف الأزمنة والأمكنة، وإلى يوم الدين. ومثل هذه الخزائن يستحيل أن يحيط بها تأويلاً إلا الله الذي أودعها هذا الكتاب.

وبعد أن قطع الله عز وجل هذا الشوط من موضوع سورة آل عمران، لم يشأ أن يترك فئة المكذبين بكتابه وبرسوله دون أي تحذير أو انذار، بل توجه بالخطاب نحوهم محذراً ومنذراً بسوء العاقبة قائلاً ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أولئك هم وقود النار.﴾ أي لن تفيدهم أموالهم ولا أعدادهم في تحقيق أمانيهم وأهدافهم الدنيئة، وذكرهم بالمكذبين من آل فرعون ومن سبقهم من المكذبين بكتب الله ورسله، وكيف أخذهم الله بذنوبهم واشتد في معاقبتهم، معبراً عن هذا بقوله ﴿كدأب آل فرعون، والذين مِن قبلهم كذبوا بآياتنا، فأخذهم الله بذنوبهم، والله شديد العقاب.﴾.

ثم تحدى سبحانه وتعالى هؤلاء المكذبين وتنبأ جازماً باندحارهم قائلاً ﴿قل للّذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.﴾.

واكتفي بهذا القدر من الآيات لأنني لست بصدد تفسير هذه السورة، بل أنا بصدد مبحث أوضح من خلاله سباق وسياق آية المحكمات والمتشابهات مع بيان معناها الحقيقي المرتبط بهذا السباق والسياق ارتباطاً موضوعياً يستحيل معه الموافقة على معنى المحكمات والمتشابهات هذا التسلسل المنطقي الذي تجلّى في الخطوات والمراحل التالية:

أولاً - تضمنت الآيتان الأولى والثانية دعوي ومنطلقات، وهي بحاجة للإثبات.

ثانياً - تضمنت الآيات الثالثة والرابعة دليل إثبات تاريخي لتلك الدعوى ومنطلقاتها.

ثالثاً - تضمنت الايات الخامسة والسادسة دليل إثبات ثانٍ علمي واقعي، لإثبات تلك الدعوى ومنطلقاتها.

رابعاً - ودخل الموضوع في الآية السابعة حيث اشار إلى أن تعاليم هذا الكتاب ليست جديدة كلّها، بل منها ماهو جديد لم ينزل في أي كتاب سماوي سابق، ومنها ماهو مشابه لتعاليم الكتب السماوية السابقة.

خامساً - وفي نفس هذه الآية السابعة أخبر عن انقسام الناس تجاه هذا الكتاب إلى فريقين، فريق كافر اساليبه مبتذلة دنيئة، وفريق مؤمن يحترم هذا الكتاب، ويعطيه مكانته مًنطلقين من أسس ستة واضحة.

سادساً - وتضمنت الآيتان الثامنة والتاسعة مفتاحاً ذهبياً خاصاً بهذا الكتاب المكنون، يثبت من خلاله أنه لايعلم تأويل هذا الكتاب إلا الله وحده، ومن استعمل هذا المفتاح الذهبي استعمالاً صحيحاً فإنه يأخذ من كنوز ومعارف هذا الكتاب على قدر ظرفه ووعائه وحاجته هبة ورحمة.

سابعاً - وتضمنت الآية العاشرة انذاراً للمكذبين من أن عَدَدَهُم وعُدَدَهُم لن تغنيهم شيئاً.

ثامناً - وتضمنت الآية الحادية عشرة منطقاً تاريخياً من خلال ماوقفه آل فرعون والذين من قبلهم، من مواقف تكذيب لكتب الله ورسله، وكيف اخذهم الله جميعهم بذنوبهم بعذاب شديد.

تاسعاً - وتضمنت الآية الثانية عشرة تحدياً إلهياً على شكل نبوءة تؤكد أن مكذبي هذا الكتاب سيُغلبون ويُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.

عاشراً - ووضح سبحانه وتعالى في الآية الثالثة عشرة أن المكذبين لاقِبَلَ لهم بمقاتلة المؤمنين قتالاً ناجحاً بسبب أن المؤمنين مزودين بأسلحة غير متوفرة للمكذبين.

أما بعد للقارىء أن يقتنع بما قدمته له من رأي وبيان، أو أن يسير وراء رأي صاحب "القراءة المعاصرة" فيفتح باب التأويل بلا سند ولادليل، والله ولي المتقين.

الفصل الثاني

بطـــــلان

منطلقات ومصطلحات وتقسيمات

القــراءة المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني

بطلان منطلقات ومصطلحات وتقسيمات القراءة المعاصرة

فرّق صاحب "القراءة المعاصرة" بين الكتاب والقرآن. فزعم أن الكتاب شيء، والقرآن شيء آخر. ففي رأيه تعتبر كلمة (الكتاب) مصطلح لقسم من آيات كتاب الله العظيم. وتدور مواضيعها حول السلوك الإنساني فيما تعلق بالحلال والحرام، وتوازي "الرسالة"، وإن كلمة (قرآن) مصطلح لقسم من آيات الله، تدور مواضعها حول الحق والباطل، وهي توازي "النبوة"، وأفرد لهذا التفريق مابين الكتاب والقرآن فصلاً خاصاً يدور حول مصطلحات مزعومة استجدثها من دون المسلمين جميعهم، مضيفاً وجود آيات "تفصيل الكتاب" معتبراً إياها مستقلة عن القرآن والكتاب. مضيفاً أن جميع هذه الأقسام تشكل بمجموعها المصحف الشريف.

لاشك أن مثل هذه المصطلحات والتقسيمات، لم يذهب إليها المسلمون بمختلف أزمنتهم وطوائفهم ومدارسهم الفكرية. ويتساءل أحدنا أول مايتساءل: كيف لم ينتبه أحد من المسلمين إلى ذلك التقسيم؟ أو أن يكون هذا التقسيم بدعة لاتثمر غير التشكيك، ولاتلقّح غير الريبة، الالتباس، والإشكال. كما يتساءل أحدنا: من هي هذه الشخصية "الروحية" التي جاءتنا بهذا الفهم الجديد؟ وماهي ثقافتها ومكانتها العلمية؟؟

ويتساءل: هل تكون هذه "القراءة المعاصرة" أول القراءات وآخرها، في تاريخ الإسلام. أم أن علينا، وعلى أجيالنا أن تنتظر ظهور (المصحف الشريف) بأمثال، من هذا اللباس الجديد "المسبق الصنع" حتى ويأتي يومٌ لايعود يرى المسلم نفسه مشابهاً فيه لمسلمي صدر الإسلام لا في فكرهم، ولا في سلوكهم، ولا في تطلّعاتهم؟؟؟

ولقد أدّبنا ربنا في مواجهة هذه الأمور، فأحسن تأديبنا، علمنا ألاّ نسارع إلى تكذيب كل جديد، وأن نتبين، فلا نتهم على اساسٍ من الظنون وبلا دليل وبرهان ساطع، وأمرنا ألاّ نصفّد العقول فلا نحجرها؛ بل أن نشجعها لتتفتح زهورها وتتعاظم قواها، على اعتبارها جوهرة اختص الله الإنسان بها من دون سائر مخلوقاته. وحثنا على رفع شعار: إذا اخطأ المجتهد فله حسنه، وإذا أصاب فله حسنتان.

من منطلق هذا الأدب القرآني، وضرورة الالتزام بحدوده وإطاره كتبت هذا الفصل من هذا الكتاب، حاولت نقض ماجاء به صاحب "القراءة المعاصرة" من اصطلاحات وتقسيمات، بسلاح الحجة والبرهان معتبراً في النهاية أن الدكتور محمد شحرور لم يأت بشيء يصح قبوله وتبنيه، وأرجح أن تكون هذه "القراءة المعاصرة" غير سليمة الأصول والجذور. وها أني أتمشى خطوة خطوة مع خطواته، مفنداً، ومعرياً، ومبرهناً.

١- وكانت **أولى خطواته** بحثه لفظ (كتاب) على صفحة (٥١)، استغرق منه صفحتين ونصف صفحة لخصه بقوله (إن الكتاب هو جمع أشياء بعضها مع بعض، لإخراج معنى مفيد، أو لإخراج موضوع ذي معني متكامل).

وأدهشني أن يخصص صفحتين ونصف صفحة لبحث كلمة (كتاب) وهي التي لاتحتاج لشرحها أكثر من سطرين ونصف سطر، وتساءلت بداهة:

هل فعل هذا لدى تناوله كل لفظ من مصطلحاته؟ فأجريت القاء نظرة سريعة، من هذه الزاوية، على جميع ماتناوله في فصل مصطلحاته فلم أجد نظيراً لهذا التطويل بشكل من الأشكال، فضمرت في نفسي أن أتتبع هذا الأمر في كل خطوة من خطواته، لعلي اكتنه سر إسهابه.

٢- **وثاني خطوة خطاها** هي قولة ص ٥٣ (عندما نقول كتاباً ونقف. يبقى المعنى ناقصاً، حتى نقول كتاب ماذا؟ وهذا بديهي، فإذا ورد كتاب نكرة، كان المعنى ناقصاً حتى يُعرف أو يُخصص بإضافةٍ أو وصف. أما إذا كان مُعَرّفاً بأل، فإن (أل) هذه تُعَرّفه، وقد يتطلب المعني الزيادة في تعريفه بالوصف، وقد لايتطلب، فيكتفى بتعريفه باللام. واستدل هنا بآية كريمة من سورة هود، لم يقدم منها سوى الألفاظ [**كتابٌ أحكمت آياته**]؛ للتدليل على ضرورة أن نقول "كتاب ماذا؟" أي تبيان موضوع الكتاب، وإلا

يبقى المعنى ناقصاً على حدّ قوله. أمعنت النظر في[كتاب أحكمت آياته] التي اجتزأها من كامل الآية . فلم أطمئن لاستدلاله . لأننا بحاجه إلى صيغة مضاف ومضاف إليه لنؤدي فحوى (كتاب ماذا) كأن نقول كتاب المحكمات مثلاً . ثم إن جملة [أحكمت آياته] هي جملة تصف الكتاب، ولاتبين موضوعه فنحن عندما نقول (ذَكَرٌ أبيضٌ شعرُه) لانكون قد وضحنا جنسه أذكر إنسان هو أم ذكر سواه، كما أن موضوع ابيضاض شعره، هو وصف، وليس هو تعيين جنس أو تعيين موضوع.

وخرجت بنتيجة، وهي أن استدلال هذا الأخ المسلم خاطئ، في هذا المقام، فما الذي أداه إلى الخطأ؟ أعن قصد وسابق تصميم؟.

لنعد نستعرض كامل الآية الكريمة ﴿الر، كتاب أحكمت آياته ثم فصلّت، من لدن حكيم خبير، ألا تعبدوا إلا الله، إنني لكم منه نذير وبشير...﴾. (الر) أحرف مقطّعات تعني (أنا الله أرى)، هذا فنّ اختزال عربي، أفضت في شرحه في مبحث (المحكمات والمتشابهات) في هذا الكتاب، فليرجع إليه، الألف مختزلة من (أنا)، واللام مختزلة من (الله) والراء مختزلة من (أرى). على نسق (الم) التي فسرها رسول الله ﷺ أنها تعني أنا الله أعلم.

و(كتابٌ) هنا هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذا كتاب)، ونُوّن إشارة إلى مكانته وعظمته، ولانجد إشارة وقف جائز على آخره دلالة على أنه لايحق لمرتل القرآن الوقوف على هذا اللفظ (كتابٌ) كيلا يحرمه تنوينه ودلالته.

ثم أن[أحكمت آياته ثم فُصلت] تعني أن هذا الكتاب قد صيغ على أسلوب خاص، فمنه آيات هي بمثابة مواد دستورية، ومنها آيات هي بمثابة مواد قانونية، (آيات محكمة، وآيات تفصيل المحكم).

هذه حقيقة غابت عن اذهان بعض من اعتبروا (ثم) هنا مجرد حرف عطف أريد بها بيان الترتيب الموضوعي، بينما الحقيقة في نظري أنه اريد بها هنا الترقي في الإخبار والترتيب معاً: الترقي في الإخبار تنبيهاً إلى ماشرحته وهو كونها آيات مجملة دستورية، وآيات مفصلة قانونية، إلى جانب الترتيب الموضوعي. وإن الذي يؤيد وجهة نظري هذه قوله عز وجل في آخر الآية: ﴿ من لدن حكيم خبير﴾ كقرينة اشعار لنا بأن الذي قام بهذه الصياغة إنما هو [حكيم خبير]، إشارة إلى أن مثل هذه الصياغة

تقتضي توفر عنصرين رئيسيين: أولهما الإحاطة بفلسفة جميع الأشياء وبطرق معالجتها، ولايتوفر هذا العنصر إلا عند (حكيم). وثانيهما الإحاطة بشؤون الناس فمن تُسن لأجلهم القوانين، من حيث مستويات تفكيرهم واساليب معاشهم، وسوى ذلك على اختلاف الزمان والمكان، ولا يتوفر هذا العنصر إلا عند (خبير).

بهذا الفهم ندرك ارتباط الرؤية الإلهية التي تضمنتها أحرف (الر). بقوله تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.﴾، ففيها تنبيه إلى أن الذي أنزل هذا الكتاب العظيم، لاتغيب عن ناظره شاردة أو واردة، لا في السماء ولا في الأرض، وأنه من هذه الرؤية أدرك بلوغ البشرية مرحلة تطور فكري معينة، استلزمت سن مثل ماتضمنه كتابه هذا سواء من حيث الصياغة وسواءً من ومن حيث المضمون، حتى يكون ماسنّ في هذا الكتاب كافياً لإصلاح شؤون عباده على اختلاف الزمان والمكان.

وأضرب لكم مثالاً بسيطاً يوضح الإجمال والتفصيل الذي عَنَتْهُ هذه الآية الكريمة في هذا المقام. القصاص على سبيل المثال، بمختلف أشكاله، ينبع من دستور أساسي، وتعليم إجمالي، على كل مشّرع أخذه بعين الاعتبار. وهذا الحكم الأساس عبّر عنه قوله عز وجل: ﴿ وجزاء سيّئة، سيئة مثلها، ومن عفا وأصلح فأجره على الله.﴾ ففي هذه الآية المحكمة الدستورية توجيه للمؤمن والشارع معاً، ألا يتسّرع فينزل القصاص بالمذنب، قبل أن يوازن ويتحقق أي الأمرين أصلح وأكثر فائدة للمذنب: القصاص أو العفو.

هذا الإجمال والتفصيل في تعاليم الإسلام يشكل أساس مرونتها ومن منطلق هذه المرونة، خالف عمر بن الخطاب رضي الله عنه صريح نص آية قصاص السارق، فعفا عن السارق أيام القحط، آخذاً بعين الاعتبار روح النص، من منطلق فهم هذا الدستور.

نعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصددها، ومايؤكد المعني الذي بينته فيما يتعلق بمضمونها، هو قوله عز وجل بعدها مباشرة ﴿ ألاّ تعبدوا إلا الله، إنني لكم منه نذير وبشير..﴾، فهو سبحانه نبّه بذلك إلى أن محمداً قد بعثه الله لإصلاح شؤون العباد بدستور وقانون وضعه لخيرهم (حكيم خبير) من منطلق كونه لاتغيب عن رؤيته شاردة ولا واردة من أحوال عباده، محذراً سبحانه وتعالى العرب خاصة، والبشر عامة،

أنهم إذا رفضوا هذا التشريع، فإن عاقبتهم ستكون كمثل عاقبة الذّين سبقوهم من الأمم والشعوب الذّين نزلت سورة هود تقصّ قصص عذابهم، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ قوله إثر نزول هذه السورة (**شيبتني هود قبل المشيب**).

تدركون من كل ماذكرت، أن تنوين لفظ (كتابٌ) ماورد عبثاً بل إن وراء هذا التنوين، هذه الحكمة العظيمة التي شرحتها، وهي أن عظمة هذا الكتاب تنبع من حيث أن أحكامه صيغت على شكل دستور عام وقوانين مجمل ومفصل، عام وخاص.

كما تدركون من ذلك أن جملة[أحكمت آياتة ثم فصلت من لدن حكيم خبير] جاءت كجملة تصف ماتضمنه هذا الكتاب العظيم، وهذا كله يُبطل ماذهب إليه صاحب "القراءة المعاصرة" من أن[كتابٌ أحكمت آياته] يعني (كتاب المحكمات) أو بيان (كتاب ماذا؟) ويبطل استدلاله بهذا النص على هذه الصورة. وتزل قدمه من أول الطريق.

٣- **وثالث خطوة** خطاها هذا الأخ المسلم، هو استدلاله مجدداً على الصفحة (٥٣) بلفظين اجتزأهما من آية طويلة من سورة الزمر، على اسلوب القطع والوصل الذي لجأ إليه في خطوته الثانية، حيث كتب:

(وعندما قال [كتاباً متشابهاً] الزمر ٢٣، فإنه لايعني كُلّ المصحف، وإنما يعني مجموعة آيات متشابهات.) ويريد أن يصور لنا بأن هذين اللفظين لايعنيان كامل المصحف، بل (كتاب المتشابهات).

ولنستعرض الآية كاملة، قال تعالى ﴿ **الله أنزل أحسن الحدث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يُضْلل الله فما له من هاد .**﴾.

وتلاحظون أنه عندما اجتزأ من هذه الآية لفظين هما [كتاباً متشابهاً] أهمل كلمة [مثاني] التي تقوم بنفس عمل [متشابهاً] فلماذا صدر عن هذا الأخ المسلم هذا الإهمال لهذا اللفظ بالذات في هذا المقام، ثم إن استدلاله هذا خاطىء أيضاً، لايفيد ما أراد أن يقنعنا به، ذلك أن قوله عز وجل هنا: ﴿ كتاباً متشابهاً مثانّي﴾ هو على شاكلة قولك (زيداً أحمر أبيض) وتعني غلبة الحمرة في مكان، وغلبة البياض في مكان آخر. وبين هذا وذاك مابين اللازم والملزوم من علاقة، فلا يجوز بترهما بعضهما عن بعض بأي شكل من

الأشكال، إن (متشابهاً) تعد صفة (ومثاني) تعد صفة أخرى للكتاب، فكيف حقّ لهذا الرجل أن يزعم أن [كتاباً متشابهاً] وحدها تعني كتاب المتشابهات؟ أوليس هذا تحريفاً لمعنى الآية الكريمة؟

لقد وصفت آيات الكتاب في هذه الآية بصفتين رئيسيين هما (متشابهاً مثاني) ولاتدل هاتان الكلمتان على موضوع الكتاب حتى نقول أنها تعني "كتاب الآيات المتشابهات" ذلك ولأنها لم ترد أيضاً على صيغة مضاف ومضاف إليه حتى نقول عنها (كتاب كذا وكذا).

فأي خطأ أخطأه صاحبنا حين أغفل رُكناً من أركان الوصف في الجملة، لينتهي بالمعنى إلى مايريد هو دون ماتعنيه الجملة وتقتضيه اقتضاءً. فقد كان بإمكانه تقديم شاهد أجدى إن كان عالماً وباحثاً كما يقدم نفسه للناس.

ولنتناول كلمة [مثاني] التي أهملها، فماذا تعني؟ وماهو المعني الذي يستقيم لها في هذه الآية الكريمة.

لهذه الكلمة عدة معاني منها: المثاني من الوادي معاطفه والمثاني من الدّابة ركبتاها ومرفقاها، ومثاني الشيء قواه وطاقاته، والمثاني هي أوتار الألة الموسيقية (العود) من بعد الأول فيها، ومفردها مثنى. والسؤال أي معنى من هذه المعاني يستقيم هنا؟ وحتى نحدد ذلك علينا مراجعة الآية من أولها. حيث أن في كلام الله تسلسل منطقي عجيب.

قال تعالى: ﴿ الله أنزل أحسن الحديث كتاباً ...﴾. فما معنى (أحسن الحديث)؟

إذا قيل: حدث فلان بكذا معناه أخبر خبراً جديداً، والحادث، والحديث هو كل جديد من الأمور، وعليه فإن معنى [أحسن الجديث] أفضل ما أنزل الله ربنا من أخبار وكلام سابقين، ويكون معنى [أحسن الحديث كتاباً] أي انزل أفضل وأعظم ما أنزل الله من كتب سماوية سابقة، احتوت على كلام الله واخباره. وكُنّا علمنا أن التنوين يؤتى به على آخر الكلمة لتفخيم دلالتها، ولقد ورد لفظ (كتاباً) على هذه الصيغة بسبب أنه مفعول به لفعل (أنزل الله).

وسؤال يطرح نفسه هنا تلقائياً وهو أنه مادام قد كان هذا الكتاب أحسن وأفضل ماأنزل من كتب سماوية سابقة، فبماذا يمتاز عن تلك الكتب من صفات تجعله أفضلها وأعظمها؟ وجاءنا الجواب تلقائياً أيضاً من خلال قوله عز وجل [متشابهاً مثانيَ] بمعنى أنه إلى

جانب كون بعض تعاليمه مشابهة لتعاليم الكتب السماوية السابقة، فإنه كتاب قد أتى بتعاليم جديدة بكل ما للكلمة من معنى، وهذه الآيات التي حملت هذه التعاليم الجديدة، كأنها نغمات آلة موسيقية مطربة. فهي مؤثرة إلى درجة أنها [مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم] أي توقظ إحساسات الإنسان وتوجهها باتجاه ربها. [ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله] وهذه كناية تعبر عما تحمله هذه التعاليم من جاذبية خارقة على نسق جاذبية النغمات الموسيقية المؤثرة في افئدة أقسى العتاة من الناس، على هذه الصورة نكون قد أخذنا بهذا المعنى لكلمة [مثاني] بصورة طبيعية غير متكلفة. هذا المعنى الذي ينفي عن تعاليم هذا الكتاب العظيم أحسن الحديث كل نقص أو نشاز.

وهكذا ترون كيف ظهرت معاني هذه الآية الكريمة وتسلسلها الموضوعي المنطقي، وماتضمنهما لفظا [متشابها مثاني] من مكنون الدلالات، وعليه فكيف أجاز صاحب القراءة المعاصرة لنفسه أن يفصل بين هذين اللفظين، ليأتي بمعنى غير مُستْساغ لغوياً، ولا يربط معاني الآية بعضها مع بعض؟ أفما كان يُحسن أن يأخذ بعين الحسبان سياق الآية وكيف جاء سبحانه وتعالى يباهي بكتابه هذا بقوله ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾. فما رأيناه قد قال: ﴿هذا هدى الله﴾ بل قال: ﴿ذلك هدى الله﴾، وقد سبق أن علمنا دلالة استبدال اسم الإشارة القريب بالبعيد، ولماذا لم يراع هذا التسلسل المعنوي المنطقي، الذي عبّر عنه سبحانه وتعالى بانذاره كلّ منكر لعظمة هذا الكتاب بقوله: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

٤- ورابع خطوة خطاها هذا الأخ المسلم قوله على الصفحة (٥٣) مانصه:

(من الخطأ الفاحش أن نظن أنه عندما ترد كلمة كتاب في المصحف، فإنها تعني كل المصحف، عندما تأتي كلمة كتاب معّرفة بأل التعريف (الكتاب) فأصبح مُعرّفاً، عندما قال تعالى[ذلك الكتاب] في ثاني آية، في سورة البقرة، بعد (الم) [ذلك الكتاب لاريب فيه]، قالها مُعّرفة، ولم يقل [كتاب لاريب فيه]. لأنه لو قالها، لوجب تعريف هذا الكتاب،ويؤيد ذلك أن سورة الفاتحة تسمى فاتحة الكتاب).

خلاصة هذا النص هو أن كلمة (كتاب) لاتدل على كامل المصحف، مالم ترد مُعّرفة، بدليل تسمية سورة الفاتحة (فاتحة الكتاب)، وكأن التعريف هنا معهود ذهني يعود على المصحف

الشريف. وهو قد اخطأ هنا أيضاً، لأن هذه الآية التي استدل بها هي ثاني آية من سورة البقرة، ولم يرد قبلها أي ذكر للمصحف الشريف، حتى يعتبر معهوداً ذهنياً، وكان من الواجب عليه بحث هذا الأمر والتدليل عليه، ومادام لم يبحثه بأسلوب الباحث، فقد عُدَّ ماذكره إدّعاءً غير مسند، ولا علاقة لتسمية سورة الفاتحة هنا باسم فاتحة الكتاب، بادعائه، من قريب أو من بعيد.

وإني ساستعرض لكم هذه الآية، وصياغتها،ودلالاتها لتستوثقوا من خطأ ما استدل به صاحب القراءة المعاصرة منها لجانبه ومصلحته.

ابتدأت الآية الكريمة بـ[ذلك] وهو اسم إشارة للبعيد، وسؤال يطرح نفسه هنا وهو: ما الداعي لذلك، أفما كان يكفي أن يقول سبحانه {هذا الكتاب لاريب فيه}؟ أي أن يبتدىء الآية بـ (هو) وهو اسم إشارة للقريب. فالكتاب قريب في متناول كل يد؟ ويستحيل أن يعمد سبحانه وتعالى إلى مثل هذا الاستبدال دون حكمة منظورة.

نعود إلى بلغاء لغة الضاد. عندما يقولون: هذا رجل أسد. ويريدون تعظيمه، يستبدلون (هذا) بـ (ذلك) فيقولون: ذلك الرجل الأسد، على اعتباره أكثر شجاعة ورجولة.

وعلى هذا الأساس نفهم مدلول استبدال (هذا) بـ (ذلك) في أول هذه الآية الكريمة، فقد حملت [ذلك] هنا حقيقة عظيمة من الله عز وجل وهو أن كتابه المنزل هذا، وإن شابه الكتب السماوية السابقة من حيث كونه منزلاً وموحى به من الله تعالى، إلاّ أنه أعظم ماأنزل الله من كتب وحي حتى تلك الساعة. ومادامت هذه الحقيقة جاءت مطلقة فقد شمل الصياغة والمضمون لكتاب الله. وكانت دلالة[ذلك] أن هذا الكتاب المنزل هو كتاب منقطع النظير صياغة ومضموناً.

وننتقل خطوة أخرى، فهو سبحانه وتعالى قال: [ذلك الكتاب]، وسؤال آخر يطرح نفسه ثانية هنا وهو: لماذا أورد سبحانه وتعالى لفظ (كتاب) مُعّرفاً بالألف واللام؟ هل عُرِفَ (كتاب) هنا أصطلاحاً على حسب ادعاء صاحب "القراءة المعاصرة" ودون أي مبرر لهذا التعريف، فمازلنا في ثاني آية من كتاب الله، ولايوجد عندنا في سياق الكلام أي معهود ذهني؟ ولايصح ادعاء هذا الرجل من دون أن يقدم لنا دليلاً مُقنعاً.

نعود إلى كتب اللغويين، قسموا المعهود الذي يؤتى بأل التعريف للدلالة عليه إلى ثلاث:

الأول: **معهودٌ ذكري**، نحو اشتريت فرساً ثم بعت الفرس، والفرس في هذه الجملة هي المعهود الذكري.

الثاني: **معهودٌ ذهني**، نحو جاء القاضي، والقاضي هنا هو نفسه معهود ذهني سواء في ذهن المتكلم وسواء في ذهن المخاطب.

الثالث: **معهودٌ حضوري**. نحو جاءني هذا الرجل، إشارة إلى أن هذا الرجل قد حضر عندي.

وفي الحالات الثلاث، لابد من مصاحبة (معهود) بـ (أل) التعريف: ذكري أو ذهني أو حضوري، حتى يسد هذا مسد المحذوف في الجملة، ذلك أننا حينما قلنا اشتريت فرساً ثم بعت (الفرس) نكون قد حذفنا مالابُدّ من تقديره (الفرس المذكور).

ولنعد الآن إلى الآية موضوع بحثنا. قال تعالى: ﴿**ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين**.﴾. فلنمعن نظرنا في الفاظها جيداً، فلن نجد أي معهود من الأنواع الثلاث المذكورة قد صاحب كلمة (كتاب) التي جاءت معرفة [الكتاب]، فهل نحمل عدم ورود هذا المصحوب هنا على أن تعريف (الكتاب) جاء اصطلاحاً كما زعم صاحب القراءة المعاصرة، الأمر الذي لايحق لنا ادعاؤه دون البرهنة عليه وهو لم يقدم عند ادعائه أي برهان مقبول؟

وأنا أقول إن تعريف [الكتاب] جاء أصولياً في هذه الآية الكريمة ولم يرد اصطلاحاً، إذ يوجد معهود ذهني، ومعهودٌ يعرفه أتباع الديانات السابقة، وهو نبوءات كتبهم التي كانت قد تنبأُت عن ظهور هذا الكتاب العظيم منذ ألوف السنوات. وقد كان منطقياً أن يشار إلى تلك النبوءات وتحقق ماأنبأُت عنه بظهور هذا (الكتاب) عند أول آيات هذا الكتاب العظيم، فما كان ينبعي أن يهمل ذكر المعهود الذهني لتلك النبوءات وإلا اعتبر هذا الإهمال في هذا المقام نقصاً كبيراً، وحاشا أن يتطرق إلى كلام الله مثل هذا النقص.

والحق يقال أن خير الكلام ماقل ودل. ومصداقاً لهذه المقولة أشار ربنا إلى نبوءات الكتب السماوية السابقة المتعلقة بظهور هذا الكتاب، وذلك أنّه ضمن هذه الإشارة اسم كتابه معّرفاً بالألف واللام، وقائلاً (ذلك الكتاب)، والمعنى أن كتابي هذا الذي انزلته اليكم والذي أضحى بمتناول أيديكم، هو أعظم كتبي التي أنزلتها حتى الآن صياغة

ومضموناً وقد أنزلته لأصدق بواسطته نبوءاتي التي تنبأتها عنه في كتبي السابقة، حتى تعلموا أني أنا رب من سبقكم وربكم ورب الناس أجمعين، فما أعظم هذا الإيجاز، وماأعظم دلالاته، فسبحان الله والحمد لله رب العالمين.

ونقوا أنني فتشت عن مبرر لاصطلاح صاحب القراءة المعاصرة، فلم أعثر له على أي مبرر مقبول، وها أني أوضحت لكم الصورة، فلكلٍ منكم حق تمحيص رأيه، ورأيي، واختيار مايطمئن له فؤاده، علما بأن هذا الأخ المسلم توصل إلى اصطلاحه المزعوم عن طريق الحرز والتخمين والتنجيم كما ورد في مقدمة كتابه، وهو طريق لايصح لفهم كتاب الله العظيم.

وسؤال ثالث يطرح نفسه هنا وهو أن كل إدعاء لابد من الدليل عليه، ومادام اسم الإشارة [ذلك] حمل إلينا إدعاءً عظيماً كما رأينا، فقد كان واجباً أن يُتْبَعَ هذا الإدعاء بدليل عظيم على مستواه أيضاً.

واستناداً إلى هذا الأصل الذهبي للتفسير، نلاحظ أن ربنا قدم لنا بدلاً من الدليل الذي يثبت به إدعاءه المذكور دليلين تطميناً لنا وتأكيداً، دليله الأول تضمنه قوله عز وجل [لاريب فيه] ودليله الثاني تضمنه قوله عز وجل [هدى للمتقين].

وحتى نتبين معالم الدليل الأول لابد لنا من تفهم معنى (ريب)، قال اللغويون: إن الريب يعني الظنه والتهمة، والشك والحاجة كما تسمى الآفات ريب المنون. وإن جميع هذه المعاني مأخوذ بها في هذا الدليل. يؤكد لنا هذا ورود آيات قرآنية في مختلف سور القرآن بجميع المعاني المذكورة، كقوله تعالى في سورة البقرة، مستعملاً الريب بمعنى الظن والتهمة ﴿ وإن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله.﴾، واستعمل سبحانه الريب في سورة الحج بمعنى الشك ﴿ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث..﴾ وبمعنى الآفات ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون.﴾، وحتى في حديث رسول الله ﷺ جاء [دع مايريبك إلى مالايريبك] الترمذي.

ويكون الدليل الأول بهذه المعاني لكلمة (ريب) قد تكون على الشكل الآتي:

وهو أنه مهما قلبنا هذا الكتاب، من حيث صياغته، أو من حيث مضمونه، فلن تقع أعيننا على أي شيء ينتقص من كماله، فهو كتاب لايقيم أحكامه على شك وظن، وهو كتاب

متكامل مع نفسه، ومستغن عما سواه، لذلك يفسر بعضه بعضاً، ثم إن العمل على أحكامه يقي الإنسان آفات الزمان، كما أن عطاء هذا الكتاب يتناسب مع عظمته ومكانته ومهمته التي نزل للقيام بها وتحقيقها.

ولقد صدّقت القرون الماضية هذا الدليل بكل وضوح، فنحن رأينا كيف أنه لم يستطع إنسان الطعن بهذا الكتاب العظيم، لاصياغة ولامضمونا، بشكل مقبول.

وحتى نتبين معالم الدليل الثاني الذي تضمنه قوله عز وجل [هدى للمتقين] والذي قدمه لنا ربنا تطمينا لنا وإثباتاً على عظمة كتابه كما جاء في ادعاء [ذلك الكتاب] علينا أن نتفهم معاني (هدى) و (المتقين).

قال اللغويون أن الهدى يعني الرشاد والبيان والدلالة بلطف. ولنلاحظ من خلال تدبرنا كتاب الله أنه نزل بهذه المعاني جميعها، فقد قال تعالى في سرة طه ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.﴾، أي وهب كل شيء قواه المناسبة وهداه للعمل بموجبها، إشارة إلى أن الحياة تقتضي توفر عنصرين اساسيين هما تكوين وتحريك كالسيارة لايكفي صنعها، بل لابد من جهاز ومفتاح لقيادتها، فهو سبحانه وتعالى ينبهنا إلى أن من مظاهر ربوبيته الكاملة توفير هذين العنصرين لكل شيء ولجميع مخلوقاته، وقال تعالى في سورة محمد ﴿الذين اهتدوا زادهم هدى.﴾ أي أنه وعد المؤمنين بفتح مزيد من أبواب نجاحاتهم التي يحققونها على صعيد الفكر والبحث العلمي، كما قال في السجدة ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا.﴾ أي يرسل من يساعد المؤمنين على تحقيق هذه الأهداف.

وقال اللغويون أن (المتقين) جمع المتقي اشتق من الاتقاء بمعنى محاذرة السقوط في الحفر أو التأذي بالأشواك. وسنرى كيف امتاز كتاب الله بتقديم نهج للتقوى ماسبق أن عرفته البشرية من قبل نزول هذا الكتاب العظيم.

ويتألف **الدليل الثاني** على ضوء المعاني التي ذكرناها على الشكل التالي:

ستثبت تجارب المؤمنين بهذا الكتاب من بعد اكتمال نزوله أن تعاليمه ستؤلف الحجر الأساس في تقدم هؤلاء وتجنبهم مواقع الزلل والأذى وتفتح لهم أبواب تقدم على صعيدي الفكر والعلم مافُتحت لمن سبقهم من الأمم والشعوب، وسيثبت لهؤلاء أن دلالات آيات هذا الكتاب ألطف من دلالات جميع ماسبقه من كتب سماوية.

ولقد صدقت القرون الماضية ابعاد هذا الدليل وحقائقه. فلايوجد من يجهل كيف كان العرب قبل تقبلهم للإسلام، وكيف أصبحوا بعد تقبلهم لهذا الدين الحنيف هم وجميع من تقبلوا الإسلام ديناً. لهذا علمنا ربنا دعاء الفاتحة لندعو به في كل ركعة من ركعات صلواتنا، فهو قد حثنا على التخلق بأخلاقه وطلب بركات هداه لنكون مصداقا لوعد ربنا الذي تضمنه قوله [هدى للمتقين].

والآن، وبعد هذا الشرح لقوله عز وجل [ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين] يتضح لكم معالم ترابط دلالاتها وتماسكها وعظمتها، فهي قد حملت حقيقة عظيمة متعلقة بكتاب الله المُنزل، وإنه جاء مصداقاً لنبوءات التوراة والإنجيل. وقدمت على صحة هذه الحقيقة دليلين لم يستطع المكذبون نقضهما علي مدى أربعة عشر قرن من الزمان.

فهل يصح والحال هذه، أن نغمض أعيننا عن هذه الدلالات جميعها، المترابطة المتماسكة، لنسلم مع صاحب القراءة المعاصرة بأن كلمة [الكتاب] هو اصطلاح مجرد ولا علاقة لتعريفه بالألف واللام بنبوءات كتب سماوية سابقة، ولايوجد هنا أي إدعاء وأدلة؟ ولا أظن أنه يوجد مسلم غيور على كتاب الله ويقبل هذا المصطلح الذي أشرنا إليه.

إن هذا الأخ المسلم قد اخطأ في زعمه هذا يقيناً، وقد نقضت بما قدمت مصطلحه المذكور.

والحق أن شكوكي تعاظمت حول مصطلحه، عندما عدت إلى كتابه نفسه، ولاحظت أن صاحب القراءة المعاصرة هذا لايتقيد نفسه بهذا المصطلح في كتاباته. فقد ورد في الصفحة (٥٦) (فالكتاب المتشابه هو كل آيات الكتاب ماعدا آيات الأحكام (الرسالة) وماعدا آيات تفصيل الكتاب...).

فلو كان صاحبنا متقيدا بمصطلحه نفسه، لتوجب عليه أن يقول:

(فكتاب المتشابه من الآيات هو كذا....) بينما لم يفعل ذلك أي لم يستعمل (كتاب كذا) على صيغة المضاف والمضاف إليه ومجرداً من أل التعريف، وهو يكون بذلك ناقض وباعد بين نظريته وتطبيقه.

وبعد مقدماته التي رأيناها من خلال خطواته الأربع السالفة الذكر. رأيت هذا الأخ المسلم ينتقل من المقدمات إلى نتائجها. انتقل فجأة إلى الجزم بأمور أثبت لكم أنها ماقامت على آراء صائبة، بل على مقدمات مهلهلة واهنة وعلى أرض رملية متحركة لاتصلح لإقامة أي بناء عليها، وما قام على باطل فهو باطل.

كتب على الصفحة (٥٤) مايلي:
«هذا الكتاب يحتوي على مواضيع رئيسية، هي:
١- [الذّين يؤمنون بالغيب] البقرة ٣ (كتاب الغيب).
٢- [ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون] البقرة ٣ (كتاب العبادات والسلوك) (سلوك)». وأضاف قوله:
«أي أن هناك نوعين من الكتب: النوع الأول هو الذي يتعلق بسلوك الإنسان ككتاب الصلاة الذي يتألف من الوضوء والقيام والركوع والسجود، وهذه الكتب غير مفروضة على الإنسان حتماً، بل له القدرة على اختيار الالتزام بها، أو عدم التقيد بها. ويعني ذلك أن الإنسان هو الذي يقضي «يختار» موقفه منها. وأطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح «القضاء»»، والنوع الثاني قوانين الكون وحياة الإنسان، ككتاب الموت وكتاب خلق الكون والتطور والساعة والبعث، وهذه الكتب مفروضة على الإنسان حتماً. وليست له القدرة على عدم الخضوع لها، واطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح (القدر)، وعلى الإنسان أن يكتشف هذه القوانين، ويتعلمها، ليستفيد من معرفته لها، ولما كان محمد ﷺ هو رسول الله، وهو نبيٌّ، فهذا الكتاب يحتوي على رسالته ونبوته. فالرسالة هي مجموعة التعليمات التي يجب على الإنسان التقيد بها «عبادات، معاملات، أخلاق»» «الحلال والحرام» وهي مناط التكليف، والنبوة من «نبأ» هي مجموعة المواضيع التي تحتوي على المعلومات الكونية والتاريخية «الحق والباطل»» إلى هنا ينتهي كلامه.
وخلاصة هذا الكلام:
١- يحتوي المصحف على كتابين أي موضوعين رئيسيين هما كتاب الغيب وكتاب السلوك.
٢- كتاب الغيب موضوعه الحق أو الباطل. ويمثل النبوة أو يوزيها. ويدور حول (القدر).
٣- كتاب السلوك موضوعه الحلال الحرام، ويمثل الرسالة أو يوازيها، ويدور حول (القضاء).
وإنه أوهمنا بأن أول سورة من سور القرآن وهي سورة البقرة تضمنت هذه الأمور في أوائل آياتها على زعمه. وجاء بهذا التقسيم والمصطلحات من ثالث آية من سورة البقرة. دون أن يربط هذه الآية بسباقها وسياقها، ودون أن يعطينا فكرة عن موضعها من تسلسل السورة الموضوعي، وكأن هذا الأمر لايحتل في نفسه أية أهمية كانت. وأن علينا التسليم بما قسّم واصطلح دونما جدال، وكأن الأمر على خطورته، ليس في حاجة إلى نقاش.

وهو البحّاثه الذي يُتوقع أن يعتمد في كل خطوة سلاح البرهان، وهو أعظم سلاح.
وإني سأثبت لكم بالدليل المقنع أن لاعلاقة [للذين يؤمنون بالغيب] بكتاب الغيب، ولابموضوع القدر أو النبوة، فإذا تمكنت من اقناعكم أكون قد اخللت بتقسيمه واصطلاحه اخلالاً لايُرجى إصلاحه، ويبطل من وراء ذلك تقسيمه واصطلاحه، وأكمل مهمتي حين أشرح لكم موقع الآية من تسلسل السورة الموضوعي بشكل مقنع لامجال لإحداث أي خرق فيه.

أولاً-أوهمنا صاحبنا بكلامه بادىء ذي بدء أنه استشهد بآيتين من أول سورة البقرة. والواقع هو أنه قسم الآية إلى قسمين، دون أن يحق له ذلك، فلايوجد على أيٍ من الفاظ الآية علامة وقف اجباري أو علامة وقف جائز. وهو بعمله هذا قد استهان بعلامات الوقف ومصطلحات الضبط الأساسية في كتاب الله العظيم. مستهيناً بمكانة دلالات علامات الوقف هذه التي تعود إلى صدر الإسلام فلا يجوز لمرتل القرآن، ولالمفسّر إهمالها بأي شكل كان. وقد رأيتم حينما قلت عند تفسير [لاريب فيه هدى للمتقين] بأن هنا دليلين منفصلين. وماأقدمت على هذا التقسيم إلا اعتباراً لإشارة جواز الوقف الكائنة فوقهما. التي لولاها لما حق لي أصلاً مثل هذا التقسيم. فهل ألغت "القراءة المعاصرة" التي جاء بها هذا الأخ المسلم علامات الوقف ومصطلحات الضبط دون مبرر ودليل؟.

ثانياً- نسي هذا الأخ المسلم، أو تناسى أن الآية التي استدل بها، تشرح علامات المتقين الذين يستحقون هدى الله وانعاماته قد ابتدأت باسم الموصول [الذين] أي [للمتقين الذّين].

ثالثاً - وقطع هذا الأخ المسلم هذه الآية عن سباقها الذي يُكْمل علامات المتقين، وهو قوله تعالى بعدها ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾.

فلماذا أوهمنا بأنه استدل بآيتين؟ ولماذا تناسى أن الآية تتضمن علامات المتقين؟ ولماذا أهمل الآية التالية لها والتي تكمل العلامات التي ينبغي أن يتحلى بها المتقون؟ فكيف تأتي كلُ ذلك عفواً وسهواً؟

والآن أثبت لكم بالدليل القاطع أن لاعلاقة لقوله تعالى [يؤمنون بالغيب] بوجود كتاب للغيب بزعمه. وأن لاعلاقة له بموضوع القدر أو النبوة.

عندما قال تعالى [هدى للمتقين] يطرح سؤال نفسه وهو أي نوع من المتقين؟ أيقصد سبحانه المتقين الذين عرفتنا بهم تعاليم الأديان السابقة؟ أم أن الإسلام جاء بنهج تقوى جديد؟ له أسسه ومقوماته؟

وجواباً على هذا السؤال الذي طرح نفسه هنا جاء قول الله عز وجل ﴿والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾.

وأتناول من أسس ومقومات نهج التقوى الذي جاء به القرآن الكريم قوله تعالى [الذين يؤمنون بالغيب] ابطالاً لما ذهب إليه الدكتور شحرور منه.

لاشك أنه سبحانه نبهنا بكلمة [يؤمنون] هنا إلى ضرورة توفر عناصر ثلاثة كأرضية لدى المؤمن اساساً ومنطلقاً وهو الاعتراف والتصديق والعمل بالجوارح، أي يدعو لتوافق مابين النظرية والتطبيق. وهذا ماتضمنه قوله [الذين يؤمنون].

ولنتناول كلمة [بالغيب] فماذا يعني الغيب في لغة الضاد؟

لاشك أن هذا الأخ المسلم اغفل ضرورة الاستشهاد هنا بأقوال اللغويين الدائرة حول معاني الغيب. فلماذا أغفل ذلك سامحه الله؟ نترك الأمر لرب العالمين.

قال اللغويون: الغيب مصدر غاب يغيب، نقول غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، واستعمل الغيب في كل غائب عن الحاسة، وعما غاب عن علم الإنسان بمعنى الغائب سواء أكان محصلاً في القلب أو غير محصل. وأضافوا قولهم: إن كل مكان لايُدرى مافيه فهو غيب، كذلك يدل الغيب على مالايدري وراء موضع ما. كما نقول غاب الرجل غيباً: سافر وأبان. وبإمكاننا تلخيص ماقالوه بالآتي:

معنى الغيب:

١- كل مالايقع تحت الحواس، ولاتقتضيه بداية العقول.

٢- كل ماغاب عن علم الإنسان كأنباء الغيب السماوية.

٣- كل مكان لايُدرَى مافيه ولا ماوراءه.

٤- ويستعمل الغيب بمعنى الغياب، وعدم الحضور.

تلاحظون أن جميع معاني الغيب هذه لاعلاقة لها ببيان حقيقة الوجود الموضوعي أو التفريق بين الحق والباطل أو الحقيقة والوهم. وهذه الأمور التي سماها الدكتور شحرور كتاب الغيب وأدخلها في معنى الغيب خطأ، ودونما دليل لغوي.

فهو الذي قال على الصفحة (٥٥): (الكتاب الأول - ويقصد به كتاب الغيب على حسب تسميته - يحوي كتاب النبوة، ويشتمل على بيان حقيقة الوجود الموضوعي ويفرق بين الحق والباطل، أي الحقيقة والوهم.).

واتناول المعنى الأول الذي بينه لنا اللغويون وهو كل مالايقع تحت الحواس ولاتقتضيه بداية العقول، فأقول أن هناك حقائق ثابتة لاتقع تحت حواسنا ولاتقتضيها بداية عقولنا، وقد جعلها الله تعالى كذلك ليملك زمام المبادرة في أمرها. وهذه الحقائق الثابتة بالدليل والبرهان والتي لاتكفي حواسنا وعقولنا المجردة للإحاطة بموضوع وجودها هي (الفطرة) أو (النفس البشرية) و (القوانين القدرية) و (حياة ما بعد الموت). واشترط الإسلام على المؤمنين به الإيمان بهذه الحقائق الغيبية بعد أن سلحهم بأدلة وجودها. هذه الحقائق التي لايعرفها الماديون الملحدون إلا عن طريق الأديان.

الفطرة، هي هذه القوى الطبيعية التي يحملها الإنسان، والتي تكون نفسه والتي نزلت تعاليم الإسلام موافقة لقواها الفطرية. وموجهة إياها الوجهة السليمة غلى صعيد السلوك.

الفطرة هي التي قال تعالى عنها [لاتبديل لخلق الله]، وهي نفس الإنسان التي قال تعالى عنها ﴿ ونفسٍ وماسواها فألهمها فجورها وتقواها، قد افلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾ الشمس ٨ .

وقد جعل ربنا عز وجل أمر الفطرة، أو النفس البشرية أمراً غيبياً، وأمر المؤمنين أن يؤمنوا بهذا الأمر الغيبي، حتى يثبت من خلال ذلك وجوده، وكونه لايخفى عليه غيب السماوات والأرض كما قال [إن الله يعلم غيب السماوات والأرض] الحجرات، فهو استعمل فعل (يعلم) من العلم ضد الجهل. أي أن هناك حقائق علمية لاتدرك بالحواس ولابداية العقول، ويحتاج الإنسان لإدراكها إلى الإيمان بوجودها إيماناً غيبياً عن طريق مانزل به وحي الله، واستناداً للأدلة التي قدمها كتاب الله. وهذا أمر يمتاز به المؤمنون بالإسلام عمن سواهم من الكافرين به. وقد وضع الإسلام هذا الامتياز للمؤمنين، لأن خالقهم بيده (مفاتح الغيب) فهو خالقهم، وهو مالكهم، وهو رب العالمين.

على هذه الصورة نفهم قول الله عز وجل [هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب..] فهو سبحانه اشترط على المؤمنين، وحتى يكونوا [متقين] أن يؤمنوا بالفطرة أي بأنهم ليسوا مجرد أجساد مادية ذات حياة كما يظن الماديون. بل أن وراء أجسادهم هذه فطرة هي نفسٌ ذات قوى طبيعية ظواهرها: الحب والكره، والشجاعة والجبن، والكرم والبخل وما إلى ذلك من قوى. وقد جُعل مابين أجسادهم وفطرتهم تبادلاً في التأثير، حيث يؤثر ظاهر الإنسان على باطنه وبالعكس. وقد جاءت تعاليم الإسلام تهذب هذه النفس مما علق بها عن طرق الوراثة والثقافة وغيرها لتعيدها إلى توازنها الطبيعي الذي يوازي الصفات الإلهية الخالقة، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ قوله (تخلقوا بأخلاق الله).

بهذا الفهم ليؤمنون بالغيب، يكون فيه دعوة عامة من الله لعباده. المؤمنين لإنتهاج سلوكية متميزة عما سواها من سلوكيات الماديين وغيرهم قائمة على أسس أخلاقية ذات منطلق روحي.

وهذا الفهم يكشف عن فلسفة روحية مستندة إلى حقائق ثابتة هي فطرة الإنسان ونفسه وقواه الطبيعية - فمن أراد التوسع في فهمالفطرة فليراجع كتابي وعنوانه (جذور الأخلاق).

وهذا النهج الغيبي التقووي هو الذي ميز المؤمنين به على صعيد الجهاد، والتضحيات المالية، وفعل الخيرات، ورعاية الفقراء، والانتظام في نظام الخلافة، وماحققه كل ذلك من سيادة لمسلمي صدر الإسلام.

ننتقل إلى ثاني الحقائق الثابتة التي دلّنا عليها لفظ (الغيب) في قوله تعالى **[يؤمنون بالغيب]** وهي ماقلت عنه أنه (القوانين القدرية). إن الماديين الملحدين لايعتقدون إلاّ بوجود (قوانين طبيعية) تنظم ظواهر الكون المادي.

أما الدين الإسلامي فقد زاد على هذا الفهم المادي، ونبه المؤمنين به إلى وجود (قوانين قدرية) مستقلة عن (القوانين الطبعية) والتي يمكن تعرفها عن طريق البحث العلمي المجرد. فمن هذه القوانين القدرية على سبيل المثال، ماتضمنه قوله تعالى **[لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز]** بمعنى أنني وضعت قانوناً قدرياً مرتكزاً إلى صفتين رئيسيتين من صفاتي هما (قوي وعزيز)، وهذا القانون يعمل في حقل بعث المرسلين، فمهما كان شأن الرسول الذي أرسله إلى عباده، لابدّ أن تكون له الغلبة أخيراً وفقاً لهذا القانون. -

فمن أراد التوسع في موضوع القدر والقوانين القدرية فليراجع كتابي الذي عنوانه (القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة).

وامتاز الإسلام بالكشف عن هذه القوانين القدرية، انطلاقاً من أن الله تعالى بيده (مفاتح الغيب) وأنه (عالم الغيب والشهادة)، وقد فرض على المؤمنين به من خلال قوله [يؤمنون بالغيب] الإيمان بهذه القوانين ووجودها كحقائق ثابتة شبيهة بوجود (القوانين الطبيعية) التي تنظم الكون المادي، على اعتبار أن (القوانين القدرية) تنظم العالم الروحي.

وبهذا المعنى لقوله [يؤمنون بالغيب] نتلمس دعوة عامة من الله لعباده المؤمنين لإنتاج نهج علمي في حياتهم اليومية علي صعيد روحي إلي جانب الصعيد المادي، نهج بعيد عن الخرافات والظنون والأوهام، ونابع من تعليم سماوي.

وننتقل إلى ثالث الحقائق الثابتة التي دلّنا عليها لفظ (الغيب) الذي تضمنه قوله تعالى [يؤمنون بالغيب]، هذه الحقيقة الثابتة الثالثة وهي: (حياة مابعد الموت)، الحياة التي تشمل حياة البرزخ والبعث والنشور، وهذه حقيقة لايؤمن بها الماديون الملحدون، ويلتزم بالإيمان بها المؤمنون بالدين الإسلامي وعن طريق ماقدمه لهم من حجج وبراهين قاطعة على وجودها.

وإن الاعتقاد بوجود حياة مابعد الموت كحقيقة ثابتة يشكل عند المؤمن معالم فلسفة تدور حول خلق الإنسان ومصيره، وهي فلسفة ذات أصول علمية تشدّ الإنسان إلى حقائقها شداً، وتدفعه لنبذ كل ماجاء به الفلاسفة الماديون من ترهات.

كما أن الباحث في هذا النهج الفلسفي الحياتي يستطيع أن يربط بينه وبين جميع ماجاء به الإسلام من تعاليم على صعيد العبادات.

هذه الأمور جميعها، هي مما لايقع تحت الحواس، ولاتقتضيه بداية العقول، وتؤلف جميعها المعنى الرئيسي لكلمة (الغيب) على حسب مابينه لنا أقطاب اللغويين. وقد لاحظتم لامحالة كيف أن هذه الأمور جميعها لاعلاقة لها ببيان (حقيقة الوجود الموضوعي أو التفريق بين الحق والباطل، أو الحقيقة والوهم) هذه الأمور التي حشرها الدكتور شحرور حشراً في معني (الغيب) رغماً عن أنوف اللغويين.

وإن المعنى الثاني والثالث للغيب أي انباء الغيب، وكل مكان لايُدرى ماوراءه، فهما معنيان شائعان لايحتاجان منا للشرح والتطويل.

أما المعنى الرابع والذي يستعمل بمعني الغياب وعدم الحضور فقد أخذ به كتاب الله أيضاً ففي سورة يوسف [أني لم أخنه بالغيب] أي لم أخنه في غيابه.

وبالنظر إلى هذا المعنى فإن قوله تعالى [الذين يؤمنون بالغيب] يطالب المؤمنين المتقين أن يكون حضورهم وغيابهم سيان. بمعنى أن يبتعدوا عن مظاهر النفاق وازدواج الشخصية. وأن يتحلوا بالصراحة والجرأة الإيمانية، ولاشك أن هذا المعني للغيب يشكل مَعلماً بارزاً من معالم أطر نهج التقوى الذي جاء به الدين الإسلامي.

هذه هي معاني [الذّين يؤمنون بالغيب] ودلالاتها، التي تدخل في صلب إيمانيات المسلم، إيمانه بالفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، وأن معالجة نفس الإنسان لاتقوم إلا بتعاليم هذا الكتاب العظيم. الذي جاء يعلمنا نهجاً اخلاقياً واضحاً على هذا الطريق.

وإيمانه بالقوانين القدرية الموازية للقوانين الطبيعية وانتهاج نهج علمي نابع من وجود هذه القوانين.

وإيمانه بعالم مابعد الموت من برزخ وبعث ونشور على اعتباره مجسداً للآثار التي تتركها أعمال الإنسان في الحياة الدنيا ويؤلف هذا الأمر نهجاً حياتياً فلسفياً.

وابتعاده عن النفاق وازدواج الشخصية. واعتماده الصراحة وقول الحق مهما ترتب على ذلك من نتائج خطيرة.

فأين هذه الدلالات من التقسيمات والمزاعم التي جاء بها الدكتور شحرور؟ هل نُغفل دلالة [يؤمنون بالغيب] على أنها نهج تقووي اخلاقي وفكر علمي وفلسفة حياتيه وبعد عن النفاق، انطلاقاً من معاني كلمة (الغيب) لنستسلم لما زعمه هذا الأخ المسلم من أن [يؤمنون بالغيب] يعني (كتاب الغيب، وكتاب النبوة، ويشتمل على بيان حقيقة الوجود الموضوعي ويفرق بين الحق والباطل أي الحقيقة والوهم.) ص ٥٥ ؟؟؟

ألا إن نهج التقوى الذي بينه لنا قوله تعالى [للمتقين الذين يؤمنون بالغيب...] هو نهج سلوكي وليس هو تفريقاً بين الحقيقة والوهم أو تفريقاً بين الحق والباطل، أو أنه بيان لحقيقة الوجود الموضوعي.

ثم ماعلاقة هذا النهج التقووي بالقضاء والقدر؟ كيف يبيح هذا الأخ المسلم لنفسه أن يذهب إلى هذه المعاني دون الرجوع إلى معاني كلمة (الغيب) كما فهمها اللغويون؟ كيف

يستنفذ صفحتين ونصف صفحة من كتابه ليشرح لنا كلمة (كتاب)، ولايخصص ولاسطراً واحداً ليشرح لنا معني كلمة (غيب)؟ ليحكم القارىء في أمر هذه التناقضات والتجاوزات.

ويكفي أن كلمة (غيب) في [يؤمنون بالغيب] قد جاءت معّرفة بالألف واللام، لتستغرق جنس جميع ماغاب عن حواس الإنسان وبداية العقول. ولتعّرف لنا ماهية هذه الأمور وحقائقها.

قلت لكم إن الدكتور شحرور في خطوته هذه انتقل من مقدمات واهنة فجأة إلى نتائج لاعلاقة لها بتلك المقدمات. وقد أوضحت لكم حقائق ماذكرت. فهل تعني "القراءة المعاصرة" والحال هذه، افراغ النصوص من معانيها ودلالاتها، وإلباسها لباساً "مسبق الصنع"، وإن أدى هذا الأمر إلى تفكيك تسلسل السور القرآنية الموضوعي، وتقزيمه، وتشويهه ؟؟؟.

إنّ هذا الأخ المسلم حاد عن الأصل في نظري في خطوته التي بحثناها. وقد تبينتم أنتم هذا الحيد، وتعلمون أن انحراف درجة في أول الطريق يؤدي بصاحبه إلى البعد عن هدفه مئات بل ألوف الكيلومترات، وهذا أمر يوقن به الدكتور شحرور نفسه، خصوصاً وأنه مدرس هندسة مدنية، فإن أثبت لكم الآن بُعده عن هدفه هذه المسافة الشاسعة، أكون قد أيدت إمامكم ماأثبته لكم من أنه حاد في خطوته الحاضرة درجة أو أكثر، وهاكم الدليل:

لقد كتب في الصفحة (١٥٧) من كتابه مستخفاً بالتراث وقائلاً:

(إن سوء فهم هذا الموضوع - الانزال والتنزيل - وعلى رأسه عدم التفريق بين الرسالة والنبوة، وبين الكتاب والقرآن، جعل من المسلمين أناساً مُتحجرين ضيقي الأفق. وضاع العقل نهائياً، وضاع مفهوم القضاء والقدر، والحرية الإنسانية ومفهوم الثواب والعقاب (المسؤولية) وأعتقد - مشيراً إلى نفسه - أن ماكُتِبَ عن الحرية والمسؤولية الإنسانية والقضاء والقدر، ونظرية الدولة والمجتمع في الأدبيات الإسلامية، مُسقطاً هذا الفرق، لم يكن أكثر من عَبَثٍ ولفٍ ودوران.). هذه هي النتائج البعيدة لإنحراف صاحب القراءة المعاصرة درجة أو درجتين في أول طريقة كما أثبته لكم بالدليل القاطع، إن هذه الألفاظ سقطات قلمه، وأنتم ترون كيف انتهى به انحرافه إلى تسفيه كافة المسلمين من

أخوانه واجداده، وإلى الاستخفاف بهم، وإلى التعالي عليهم، وهذا أعظم برهان على انحرافه.

ومما لاحظته أن الدكتور شحرور لم يستوعب معنى (أنباء الغيب) لغوياً لأنه كتب على الصفحة (٥٦): (وميزة هذه الآيات أنها إخبارية، ولايوجد فيها أوامر ونواه، ولكنها آيات خبرية «أنباء» فمثلاً بعد سرد جزء من قصة نوح، في سورة هود، قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ هود ٤٩.

إنه يخلط في هذا النص مابين الخبر ومابين النبأ ويساوي بينهما، أفما لاحظتم قوله (ولكنها آيات خبرية «أنباء»). والحقيقة أن بين الخبر وبين النبأ الغيبي فرق كبير،ويكفي أن نقول بأن (النبأ) في اللغة العربية معناه خبر ذو شأن عظيم.

ولابأس أن أبين لهذا "الباحث" الفروق الكائنة مابين كلمتي (خبر ونبأ) لعلها تفيده في قراءة أخرى معاصرة، فليعلم أن الخبر في الأصل هو نبأ منقول بطريق ما، فإن كان الناقل قد نقله بأمانة يكون هذا الخبر كلمة صدق، ذلك لأن الخبر مجرداً يحتمل الصدق، كما يحتمل الكذب، هذا في الوقت الذي لايكون النبأ إلا خبرًا صادقاً خصوصاً إذا كان من أنباء الغيب الموحى بها، إضافة إلى كون مضمون النبأ الغيبي ذو شأن عظيم وفي حين لايتعلق الخبر المجرد إلا بالزمنين الماضي والحاضر، فإن مضمون النبأ مجرداً لايتعلق إلا بالزمن المستقبل، ثم أن الخبر لاشك أنه غيب نسبي أما النبأ فهو غيب كله خصوصا النبأ الغيبي.

وإن عدم احاطة الدكتور شحرور بهذه الفروق المعنوية الكائنة مابين لفظي (خبر ونبأ) دفعه هذا إلى أن يساوي بينهما كما لاحظتم ذلك من خلال قوله (كلها آيات خبرية «أنباء») وهو غير عالم أن الخبر يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب لذلك لايجوز مساواته مع كلمة (أنباء الغيب) التي ورد استعمالها في كتاب الله العظيم. وإننا إذا اضطررنا لاستعمال أخبار وخبر حكاية عن أنباء الغيب القرآنية فإن من واجبنا أن نأتي بها على صيغة مضاف ومضاف إليه، وقولنا (أخبار يقينية).

ولابد لي من الإشارة هنا إلى أن الدكتور شحرور استشهد في نصه المذكور أعلاه، بآية من سورة هود بدلالة خاطئة، وبفهم خاطىء لمضمون سورة هود نفسها، واليكم التفصيل:

أولاً- من قوله (فمثلاً بعد سرد جزء من قصة نوح في سورة هود قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين.﴾ لاحظ قوله أنباء وقوله غيب).

قوله هذا أنه فهم من[تلك من أنباء الغيب] أن قصة نوح هي المشار إليها على أنها (أنباء غيب)، خصوصاً وأنه أكد فهمه هذا على ماذكرت في أمكنة أخرى من كتابه.

إن كان هذا هو فهمه لهذا الأمر فقد أخطأ لأن قصة نوح تأتي قبل جملة[تلك من أنباء الغيب] فهي أمر قريب ويُشار إليه باسم الإشارة للقريب (هذا) وليس باسم الإشارة للبعيد (تلك). ولايعقل أن ننسب الخطأ في هذا إلى الله على هذا النحوالمشار إليه.

ثانياً -لقد ثبت من خلال أرقم أساطير مختلف الأمم، معرفة شعوبها بقصة طوفان نوح، فلو كان قوله تعالى متعلقاً بالقصة ذاتها لكان من الخطأ أن يقول سبحانه وتعالى عن هذه القصة [ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا] خصوصاً وأنه كان من بين العرب من يدين باليهودية والنصرانية، ممن اطلعوا على قصة نوح، وهي مدرجة في التوراة، ولاسبيل للزّعم بأن العرب ماكانوا يدرون عن قصة نوح هذه شيئاً.

ثالثاً - وإن الفاظ [من أنباء الغيب] لتؤكد أن الكلام غير متعلق بقصة نوح نفسها، لأن كلمة (أنباء) جمع (نبأ) ومعناه في اللغة خبر ذو شأن عظيم، وكلمة (الغيب) تعرفنا معانيها من قريب، فهي تتعلق بالمستقبل، وماغاب عن علم الإنسان. ومادام هذا اللفظ جاء مقترناً بكلمة أنباء (أنباء الغيب) فهو يعني خبراً مُستقبلياً ذا شأن عظيم، وليس بقصة نوح الماضية.

رابعاً - لو كان الكلام في هذه الألفاظ متعلقاً بقصة نوح الماضية لكان هذا الكلام [تلك من أنباء الغيب] قد ورد بعد الفراغ من سرد قصص جميع من كلمتنا عنهم سورة هود، وليس بعد أول قصة من هذه القصص.

هذه الأمور جميعها تثبت خطأ فهم الدكتور شحرور لمضمون هذه الآية الكريمة، وتسألونني: وماذا تفهم منها أنت؟ أجيبكم: إنها نبوءة غيبية تنبأ الله عز وجل فيها عن طوفان المقاومة التي سيواجهها محمد واصحابه بعد نزول هذه السورة في أواخر سنوات الدعوة في مكة المكرمة، وقد تحققت هذه النبوءة الغيبية بشكل مدهش عجيب.

تعودون تسألونني: كيف عرفت هذا ومادليلك؟ وهل حدث بعد نزولها مثل طوفان نوح؟

رسول الله ينذرهم بها ويطالبهم بالعمل عليها [ولقد ارسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين، ألا تعبدوا .إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم.] فالإنذار ..والمطالبة واحدة في القصتين، والاختلاف واقع فقط في وصف (اليوم) في قصة نوح أنه (أليم) بينما وصف هذا اليوم في الإنذار الموجه لقوم رسول الله على أنه (يوم كبير). هذا الفارق في الوصف، تجلى في غرق قوم نوح وزوالهم، فكان يوماً أليماً، بينما لم يُقض على قوم محمد إلا من قضى نحبه خلال المعارك الكثيرة التي دارت بين محمد وأصحابه وبينهم خلال اثنتا عشرة سنة من بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وهدى الله سبحانه الباقين إلى الإسلام إلى هذا الفرق جاء الفرق في وصف اليومين المذكورين وإشارة إلى الإنذار باليوم الكبير جاءت النبوءة الغيبية التي تضمنها قوله تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب...﴾. هذه النبوءة التي أضحت معجزة عظيمة تجلت من خلال تحققها إحاطة الرؤية الإلهية بكل خفايا الأمور وبكل ماهو غائب عن علم الإنسان. فما كان يخطر ببال أهل مكة في يوم من الأيام أن محمداً سينجو من بين أيديهم، وأن أهل المدينة سيفتدونه، وأنهم سيضطرون لدفع جميع القبائل العربية للتصدي لمحمد وقوته التي ستبرز إلى حيز الوجود، كما أنه ماكان ليخطر ببالهم ولا للحظة من اللحظات إلى أن العاقبة ستكون إلى جانب محمد وأصحابه، هذه الحقائق جميعها تضمنتها هذه النبوءة العظيمة التي أمر الله فيها رسول الله ﷺ بالتحلي بالصبر لأن الأيام ستثبت صحتها وستكون العاقبة للمتقين، وهذا هو الأمر الذي دفع رسول الله ليقول (شيبتني هود قبل المشيب). على هذه الصورة يبدو لأعينكم التسلسل الموضوعي لسورة هود. وتدركون بالتالي خطأ فهم الدكتور شحرور لمضمون هذه السورة، وكيف أن فهمه كان سطحياً، فهو يتصور السورة على أنها مجرد سرد لقصص من قصص الأمم الخالية، كلاً ثم كلاً فما كان ربنا مغرماً بتكرار هذه القصص عبثاً في كثير من سور كتابه العظيم، والأسف ألاّ ينتبه هذا الباحث إلى حكمة استبدال هذا بتلك في آية النبوءة، وألا ينتبه إلى أن قصة نوح كانت معروفة لدى أكثر شعوب الأرض، وألا ينتبه إلى حكمة توصية رب محمد، محمداً بالصبر، وألا ينتبه إلى علاقة كل هذا بقوله عز وجل (والعاقبة للمتقين). بل الذي أعجب له حقاً كيف يلاحظ ورود [تلك من أنباء الغيب] بعد قصة نوح ولايتساءل عن ضرورة مجيئها بعد سرد القصص جميعها؟. وإنني كثيراً ماتأملت توالي هذه الأخطاء

وتواترها الصادر عن الدكتور شحرور في "قراءته المعاصرة" ولكم خالجني شعور بأنه كان يحمل أفكاراً قد أعدت سلفاً، فهي مسبقة الصنع، يحاول الباسها هذه الآيات كيفما اتفق. وهذا ما آل به الأمر إلى أن يستخف بآراء جميع المسلمين في مختلف حقبات التاريخ واصفاً اياهم على الصفحة (١٥٧) بكونهم "مُتحجرين" "ضيقي الأفق" "وضاع العقل" نهائياً عندهم حتى وضاع عندهم مفهوم "القضاء والقدر" ومفهوم "الحرية الإنسانية" ومفهوم "الثواب والعقاب"، وأن جميع ماكتبوه في هذه المواضيع - ويقصد جميع المسلمين ماضياً وحاضراً - (لم يكن أكثر من عَبَثٍ ولفٍ ودوران).

إلى هنا أكون قد أثبت أن [الذين يؤمنون بالغيب] لاتعني إلا (كتاب السلوك) على حدّ تعبيره، ولاتعني (كتاب الغيب) وما إليه من تقسيم ومزاعم.

ومادام قد ثبت أن [يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة] كلاهما (كتاب سلوك) بتعبيره، ينتفي معه بالبداهة تقسيمه المصطنع الذي يقول فيه إن المصحف يحتوي على كتابين أو موضوعين رئيسيين هما (كتاب الغيب) و (كتاب السلوك) كما ذكر ذلك على الصفحة (٥٤). كما يبطل من خلال ذلك علاقة هذا كله بموضوع القضاء والقدر أو موضوع الحق والباطل أو الحقيقة والوهم.كما يثبت أنه لم يتدبر معنى كلمة (غيب)، ولايعطي التسلسل الموضوعي لسور كتاب الله أية أهمية تذكر، هذه الأخطاء كلها اثبتت وقوع الدكتور شحرور فيها.

اشحذوا اذهانكم جيداً: هل يصح اطلاق اسم (كتاب الغيب) على نهج التقوى الذي تضمنته الآيات [هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.. إلى آخرها] ماعلاقة المعلومات الكونية والتاريخية بنهج التقوى؟ وماعلاقة الحقيقة والوهم أو الحق والباطل بنهج التقوى؟ إن نهج التقوى هو نهج سلوك، ولاعلاقة له بجميع هذه الأمور. اللهم إلاّ إذا جئنا بمعني "مسبق الصنع" وافرغنا هذه النصوص من محتواها، وحاولنا تحميلها هذا المعنى المغاير قسراً دونما رحمة أو خوف من الله عز وجل.

٥- والخطوة الخامسة التي خطاها هذا الأخ المسلم على صعيد تقسيماته واستنتاجاته، تضمنتها الصفحة (٥٥) من كتابه، حيث قسم هناك كتاب الله عز وجل إلى كتاب مُحكم، وكتاب متشابه الآيات. واستند في تقسيمه المذكور إلى نص الآية السابعة من سورة آل عمران. وهي قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنّ

أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، ومايذكّر إلا أولوا الألباب﴾.

وقد رأيت كيف أن صاحب القراءة المعاصرة،يحاول الاستدلال بمعاني "مُسبقة الصنع" من مختلف الآيات الكريمة التي يستدل بها، وقد حاول هنا في خطوته الخامسة نفس المحاولة. وإن طول هذه الآية من جهة، واختلاف المفسرين في فهمها من جهة ثانية، وضرورة وعي مضمون سورة آل عمران وموقع هذه الآية الكريمة من تسلسله الموضوعي من جهة ثالثة، كل هذه الأمور ألّحت علي أن أخصها بفصل خاص بها. لذلك أفردت فصلاً خاصاً أسميته (مبحث في المحكمات والمتشابهات) بإمكانكم العودة إليه في كتابي هذا لتجدوا من خلاله أدلة قاطعة تثبت بطلان ماذهب إليه هذا الأخ المسلم من تقسيم لكتاب الله إلى كتاب المحكمات وكتاب المتشابهات. وإني لعلى يقين تام بأن هذا البحث سيفي بجميع تساؤلاتكم وسيجنبكم الفهم الخاطىء الذي ذهب إليه صاحب القراءة المعاصرة من خلال استدلاله بالآية السابعة من سورة آل عمران.

٦- **والذي حدث** هو أنّه لما كان قد استشعر في قرارة نفسه أنه ابتدع تقسيماً من خلال آية سورة آل عمران المذكورة، ماأنزل الله به من سلطان، فقد عمد في الفقرة الثانية من نفس الصفحة (٥٥) إلى الاستدلال بآية أخرى تأييداً لتقسيمه المزعوم، فاستدل بآية جوهرة من آيات سورة يونس (٣٧) زاعماً أن هذه الآية تدلّنا على مواضيع ثلاث هي:

١- القرآن، ٢- الذي بين يديه، ٣- تفصيل الكتاب، فهو يزعم أن هذه الآية الكريمة قسمت المصحف إلى نفس التقسيم: قرآن وكتاب. أو محكمات ومتشابهات، إنما زادت على ذلك تنبيهنا إلى وجود كتابين آخرين هما "الذي بين يديه" و"تفصيل الكتاب".هذه الخطوة السادسة التي خطاها صاحب القراءة المعاصرة في الفقرة الثانية المذكورة. أضحكتني وأبكتني. ضحكت لسذاجة فهمه البالغة في السطحية وبكيت رثاءً لحال عصرنا الذي تمخّض عن مثل هذه الآراء الواهنة يأتي بها باحث مجتهد كالدكتور محمد شحرور، ولا أحب أن استرسل في هذا الأمر. وكل رجائي أن تتابعوا معي ماحملته الينا جوهرة سورة يونس من كنوز. والأمر متروك لكم في النهاية للموازنة والمقارنة والرفض أو القبول.

وقبل أن أورد لكم نص الآية، آخذ بأيديكم إلى ماقبلها لتكونوا في الجو الموضوعي للآية المذكورة. فقد قال سبحانه وتعالى منددا بعقائد المشركين ﴿ومايتّبع أكثرهم إلاّ ظناً، إن الظن لايغني من الحق شيئاً، إن الله عليم بما يفعلون.﴾. وإنه سبحانه وتعالى قد شن على المشركين هجوماً صاعقاً بأن عرّى الأساس الذي تقوم عليه عقائدهم، وهو "الظن والوهم"، وكأنه سبحانه نبه بأن "الظن والوهم" رمال متحركة، لاتصلح كأساس يُبنى عليه. وأن العلم يقضي بضرورة قيام كل عقيدة على أساس علمي مُدعّم بالحجة والدليل، فلا تكون العقيدة "حقاً" إذا كان "الظن" أساسها، ولايغني الظنّ من الحق شيئاً.

وتعلمون أن لكل فعل ردة فعل. إن المشركين تجاه هذا التفنيد لعقائدهم لابد أن يطالبوا بنفس المطالبة، أن يطالبوا بكون القرآن غير مُفترى من محمد رسول الله، لابد لهم أن يطالبوا بما يثبت كون القرآن الكريم مُوحىً به من الخالق نفسه. هذه ردة فعل طبيعية وهذا حق شرعي ومنطقي.

بمثل هذه المحاكمات نتمكن من الانتقال خطوة خطوة على درب التسلسل الموضوعي لكل سورة من سور القرآن الكريم. إن المنطق السليم يقتضي بعد قراءة الآية التي ذكرتها، أن يُقدَّم الدليلُ القاطع على كون القرآن موحى به من الله عز وجل.

من هذا المُنطلق، وعلى أساس من هذا الفهم السليم، قال الله بعدها مباشرة، وهي الآية التي استدل بها صاحب القراءة المعاصرة، قال" ﴿وماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لاريب فيه، من رب العالمين.﴾ وهذه الآية تضمنت، ليس دليلاً واحداً فقط على كون القرآن منزلاً من الله عز وجل، بل أقول إنها تضمنت خمسة أدلة مجتمعة لإثبات ذلك، وهذه الأدلة جاءت مصوغة صياغةً لغويةً معجزة. وعلى هذا الأساس أطلقت أنا على هذه الآية الكريمة اسم (الآية الجوهرة)، وعلى هذا الأساس من التسلسل الموضوعي ورد التحدي الإلهي بعدها مباشرة ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾ وعلى هذا الأساس من الفهم قال سبحانه بعد هذا التحدي مباشرة ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله، كذلك كذّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين.﴾.

والآن اليكم تفصيل هذا الكلام:

الدليل الإلهي الأول: ورد الدليل الأول في قوله تعالى ﴿**ماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله**﴾، والمعنى هو أن الإنسان العاقل الذي يتدبر هذا القرآن، تدبراً حقيقياً، سيلاحظ أنه يحتوي على علوم فوق إمكانيات الإنسان من حيث حقائقها، وهذا الأمر في حالة صحته، يجعل من المستحيل الزعم بإمكان أن يكون هذا القرآن مفترى على الله من قبل محمد رسول الله. وللقارىء أن يسألني: كيف عرفت أن هذا الشطر يشكل مثل هذا الدليل؟ أجيب: أنني توصلت إلى ذلك بدلاله اسم الإشارة (هذا) الذي ورد خلال هذه الألفاظ من الآية، ذلك أن وراء (هذا) هنا حكمة بالغة أرادها سبحانه منه، ليلفت بذلك أنظارنا إلى أنه يقدم على صدق القرآن أول دليل.

إنكم إذا رأيتم شخصاً يقول: أمِثْلُ زيد يكذب؟ فماذا يتبادر إلى ذهنكم أول مايتبادر؟ يتبادر لذهني أن القائل يعطي زيداً مقاماً من القداسة، فلا يمكن التسليم بما يُتَّهَمُ به من الكذب. وبألفاظ أخرى فإن طهارة زيد المعروفة تُقَدِّم في هذه الجملة. كدليل ينفي أن يكون زيد كاذباً، على نفس الشاكلة كوّن ربنا دليل هذا الشطر من الآية فهو قال: ﴿**ماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله.**﴾ أي يستحيل على هذا القرآن وهو محتوٍ على مثل هذه العلوم التي تفوق مقدرة الإنسان أن يكون مفترى على الله من قبل محمد رسول الله، فبواسطة إضافة اسم الإشارة (هذا) هنا قلب سبحانه وتعالى النفي إلى دليل، لأنه كان يكفي القول [ماكان القرآن أن يفترى من دون الله] فهو بإضافة (هذا) أدخل مضمون الدهشة والاستغراب إلى المعنى ليفيد الكلام دليلاً على كون القرآن منزلاً من قبل الله عزوجل.

الدليل الإلهي الثاني: وقدم سبحانه دليلاً ثانياً على كون القرآن غير مفترى على الله، وهو كون القرآن [تصديق الذي بين يديه] أي تصديق مابين يديه من أنباء تنبأت بها التوراة والإنجيل عن بعثة محمد رسول الله ومعه هذا القرآن العظيم، وبكلمة [تصديق] يُبكّت المشركين عامة وأهل الكتاب خاصة، قائلاً لهم إن نبوءات كتبكم لاتصح إلا بإيمانكم بالقرآن ورسوله، فأنتم إذا كذبتموه تكونون كمن كذب نفسه، جاء سبحانه وتعالى بهذا الدليل المنفصل عما سبقه من دليل، بحرف الاستدراك (ولكن) على اعتباره غير عاطف، قائلاً ﴿**ولكن تصديق الذي بين يديه**﴾.

الدليل الإلهي الثالث: والدليل الثالث الذي قدمه سبحانه وتعالى عبر عنه بقوله ﴿وتفصيل الكتاب﴾ عاطفاً هذا الدليل على الدليل الثاني الذي سبقه بالواو العاطفة لتجانس الدليلين. ومعّرفاً لفظ (كتاب) بالألف واللام على اعتبار التوراة ونبوءاتها معهوداً ذهنياً.

يقول الدليل إن التوراة عبثت بتعاليمها أيدي أصحابها حتى باتت مشوهة الوجه السماوي، وقد جاء هذا القرآن لإعطاء التوراة وجهها الحقيقي مفصلاً ماكان فيها على الوجه الصحيح، ومصححاً ماشوهه أصحابها من تعاليم.

وتتجلي قوة هذا الدليل من مراجعة التوراة المتداولة اليوم كيف تقص علينا قصص الأنبياء مشوهة، وتنسب إلى هؤلاء الاطهار الكذب والفساد في الأرض وسيء الأخلاق، وارتكاب الموبقات، والخداع ومعصية الله، مما يتنزه عن القيام به رجال أطهار، فلولا نزول القرآن وتفصيله للتوراة لالتبس على الناس صدق هؤلاء الأطهار.

وكلمة [تفصيل] ذات دلالات واسعة تفيدنا إطار هذا الدليل.

تقولون: فصل الشيء جعله فصولا متمايزة. وفصّل القماش قطعه بقصد خياطته ثوباً. كما تقولون: فصّل الكلام خلاف أجمله بمعنى بينه، وتقولون: سيف فصّال أي قاطع، والفصل هو القضاء بين الحق والباطل. والفصل مصدر: الحاجز بين الشيئين والحدّ بين الأرضين.

وبدلالات كلمة [**تفصيل الكتاب**] تكونت معاني هذا الدليل على اعتبار القرآن نزل بمعلومات وبينات وحدّ فاصل لقبول التوراة كما أنزلت على موسى أو رفضها كما هي متداولة اليوم بين أتباعها من اليهود والنصارى.

إن هذا الدليل الثالث والدليل الثاني الذي سبقه، هما من قبيل الأدلة الملزمة للخصم، لذلك ربط الله سبحانه بين هذين الدليلين بواو العطف تنبيهاً إلى ترابط الدليلين الموضوعي. أما فيما بعد فستلاحظون غياب هذه الواو العاطفة من وسط الأدلة. الأمر الذي يعطينا دلالات مابعدها من دلالات.

الدليل الإلهي الرابع: وحينما قال سبحانه وتعالى ﴿لاريب فيه﴾ يكون قد قدّم دليلاً رابعاً على كون القرآن مُنْزل من قبل الله عز وجل، وهذا الدليل رأينا أبعاده عندما شرحنا ثاني آية من سورة البقرة[**ذلك الكتاب لاريب فيه**].

ويعني هذا الدليل أن الذي يتدارس القرآن سيصل إلى مرحلة اليقين بأنه كتاب لايقيم أحكامه على أساس الأوهام والظنون كما يفعل المشركون، كلا، فهو كتاب مهما قلبتموه صياغةً ومضموناً، فلن تقع انظاركم على ماينتقص من كماله، وستجدونه متكامل المواضيع، مستغنياً عما سواه. ويفسّر بعضه بعضاً، وتقي تعاليمه ريب المنون، كما ستجدون أن عطاءات هذا الكتاب تتناسب مع عظمة الذي أوحى به، فهو كتاب ترتاح نفس الإنسان لتلاوته، وتستشعر أنه ليس من كلام بشر، وتثبت تجارب المؤمنين به، كونه هدى للمتقين.

الدليل الإلهي الخامس: وقدّم سبحانه وتعالى دليلاً خامساً يثبت من خلاله كون القرآن غير مفترى على الله وكون آياته من كلام رب العالمين، بقوله[**من رب العالمين**].

وفي هذه الصياغة، وبهذه الألفاظ حض سبحانه وتعالى قارىء القرآن على دراسة القرآن من زاوية كونه كتاباً عالي الصبغة في أحكامه، ويستحيل أن تتأتى هذه المزية فيه إلا أن يكون تنزيلاً من رب العالمين.

ينبه في ألفاظ هذا الدليل إلى القفزة النوعية التي حققها نزول هذا القرآن سواء من حيث الزمان وسواء من حيث المكان، فبينما كانت الكتب السماوية السابقة مرحلية التعاليم وقومية الصبغة، نزلت أحكام هذا القرآن صالحة لكل زمان ومكان ولكافة الناس في أرض الله، وإن مثل هذه القفزة يستحيل أن تتحقق على هذه الصورة إلا أن تكون صادرة[**من رب العالمين**].

هذا الرب الذي كان ومازال يشرف على تطوير وتربية مخلوقه الإنسان. على اختلاف قوميات هذا الإنسان، واختلاف ألسنته واختلاف مستويات فهمه، وهذا الرب الذي أنزل هذا القرآن هو الذي أوصل الإنسان إلى مستوى تلقي تعاليم هذا القرآن بقبول حسن. لأن هذا الإنسان سيجد في أحكام وتعاليم هذا القرآن كلّ مايساعده على مواجهة مشاكله، وإلى يوم الدين.

وكأنه سبحانه في قوله (**من رب العالمين**) ينبهنا إلى مرونة تعاليم القرآن من حيث كونها لاتتأثر بالمتغيرات الزمنية، لأنها أخذت بعين الاعتبار مراعاة مقتضيات الفطرة البشرية، ومختلف الطبائع والأحاسيس. والآن لابد أنكم تبينتم كيف تضمنت آية سورة يونس التي سميتها الآية الجوهرة وهي قوله تعالى ﴿ **ماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لاريب فيه، من رب**

العالمين﴾. أقول تضمنت تقديم خمسة أدلة عظيمة قاطعة الدلالة على أن الدين الإسلامي لايقيم عقائده وتعاليمه إلاّ على أساس علمي مُبرهن عليه وبعيد عن الظنون والأوهام.

فأين هذا الشرح لهذه الآية الكريمة، من فهم صاحب القراءة المعاصرة لها، التي قال فيها: (إن هذه الآية تدلّنا على مواضيع ثلاث هي: ١- القرآن، ٢- الذي بين يديه، ٣- تفصيل الكتاب)؟ فبدلاً من أن يربطها بتسلسل السورة الموضوعي، قطعها عن سباقها وسياقها، ليستدل بواسطتها على اصطلاحاته وتقسيماته التي تخيلها وابتدعها والتي لايسندها دليل.

إنه نسي أو تناسى أنه سبحانه وتعالى لفت أنظار المكذبين من أول السورة إلى ضرورة كون الله الخالق (هادياً) من الوجهة العقلية والمنطقية، ومن ثم بكّت المشركين بعد هذا بقوله: ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق، قل الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحقّ أن يُتّبَعُ، أمن لايهدي إلا أن يُهدى، فما لكم كيف تحكمون؟﴾ وكأنه قال لهم مالنا نرى احتياج معبوداتكم إلى معونتكم لنقلها من مكان إلى مكان، فأنتم تهدونها طريقها بدل أن تهديكم هي طريقكم.

وبعد هذا التبكيت لمعتقدات المشركين، اتهمهم إتهاماً صارماً بقوله: ﴿ومايتبع أكثرهم إلا ظنا، إن الظن لايغني من الحق شيئاً، إن الله عليم بما يفعلون﴾. وإثر هذا الهجوم الصاعق، قدم خمسة أدلة قاطعة على كون كتاب الله القرآن وحي الله وكلامه وغير مفترى على الله فأكمل بذلك بناء سدٍ فولاذي في وجوه هؤلاء، ماعاد بإمكانهم أن ينالوا منه شيئاً، ولا أن يتجاوزوه.

فكيف اغفل صاحب القراءة المعاصرة هذا التسلسل الموضوعي وعلاقة هذه الآية الجوهرة التي استدل بها، بهذا التسلسل الموضوعي، وموضعها منه؟؟؟ أفظن أن الخوض في تفسير الآي بلا سند ولادليل أمرٌ يسيرٌ هينٌ، لاتهتز له قلوب المسلمين؟.

وتعالوا إلى سياق هذه الآية أيضاً، فانظروه سبحانه كيف تحدى المشركين بعد تقديم هذه الأدلة، وقال: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله، إن كنتم صادقين.﴾ فما هي مناسبة هذا التحدي العظيم في هذا المقام؟ إلاّ أن يكون سبحانه قد أجمل تقديم خمسة أدلة مجتمعين في الآية الجوهرة التي سبقت هذا التحدي، ثم تحدى سبحانه أن يأتوا بمثل هذه الآية وعلى مستوى هذه الصياغة وبأبعاد الأدلة التي قدمّتها في مواجهة هؤلاء المكذبين.

أجل إن التحدي هنا ينحصر في طلب صياغة آية على مستوى آية الأدلة الخمسة صياغة ومضموناً. هذا مايفرضه منطق التسلسل الموضوعي. إذ المقصود من [فأتوا بسورة مثله] هنا تقديم مثيل لهذه الآية بالذات. لأن من معاني السورة: المنزلة والرفعه والفضل والشرف وماطال من البناء إلى جهة السماء وحسن، والقطعة المستقلة من القرآن، والعلامة. وإني أرجح معنى العلامة في هذا المقام الذي يعني الدليل، وليس كما ذهب ذهن المفسرين رحمهم الله إلى معنى القطعة المستقلة من القرآن، لأن التحدي في هذا المقام التحدي بالإتيان بآية مثيلة للآية الجوهرة التي ذكرناها، ولاعلاقة للتحدي هنا بالقطعة المستقلة من القرآن. وإن أمكن تجاوزا حدوث مثل هذا التحدي.

يؤيد وجهة نظري هذه أن الله عز وجل تحدى نفس التحدي في سورة البقرة وبنفس الألفاظ مع اختلاف بسيط، هنا قال: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾، وفي سورة البقرة قال: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾، حيث أدخل (من) البعضية الدلالة إشارة إلى بعض الآيات التي أجمل سبحانه وتعالى فيها منهج التقوى الذي جاء به الدين الإسلامي، والذي تكلمنا عنه من قبل، لذلك كان التحدي هناك أن يأتوا بعدة علامات أي عدة آيات شبيه بآيات نهج التقوى وعلى نسقها إن استطاعوا. أما هنا فقد تحداهم أن يأتوا بعلامة واحدة مماثلة لهذه العلامة أي الآية التي تضمنت خمسة أدلة قاطعة وبصياغة معجزة كل الإعجاز.

إن التحدي في سورة البقرة لم يكن دائراً حول طلب تقديم أدلة، وإنما كان التحدي دائراً حول الإتيان بمنهج تقووي مثيل. ولو احتاج أمر تقديمه إلى صياغة عدة آيات.

إن التحدي هو واحد في سورة البقرة وفي سورة يونس، بدليل أن قال سبحانه في نهاية آيتي التحدي في السورتين [إن كنتم صادقين] وجاء الاختلاف فقط في النوعية والتعددية، وهذه الدقة لايمتاز بها سوى كلام رب العالمين.

ثم إن مايؤيد وجهة نظري هذه هو قوله سبحانه بعد هذا التحدي مباشرة: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولماّ يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾، إن الضمير في قوله (بعلمه) يعود إلى مضمون الآية الجوهرة، أي إلى ماتضمنته من أدلة مصوغة صياغة اعجازية، لم يحيطوا بعلمها، وحين لم يُحط صاحبنا بعلم هذه الآية، اندفع يستدل بها على مصطلحاته وتقسيماته غير المستساغة نقلاً أو عقلاً أو منطقاً.

ويكفي قارىء "القراءة المعاصرة" هنا أن يسائل نفسه، بعد أن استعرض معي هذا التسلسل الموضوعي للسورة، أن يسائل نفسه: لو صح استدلال صاحبنا فما مناسبة ذكر هذه التقسيمات من هذا التسلسل الموضوعي؟ وأتحدى أن يجد صاحب القراءة المعاصرة لنفسه مسوغاً هنا لمثل هذا التقسيم.

٧- وبمناسبة موضوع التحدي القرآني، اندفعت ألاحق ماكتبه هذا الآخ المسلم حوله، وذُهلت بما اطلعت عليه وقد تبين لي الأمور التالية:

أً- يزعم أن الكتاب شيء والقرآن شيء آخر، وإن الإعجاز والتحدي بهذا الإعجاز واقعٌ قابلاً للتأويل، وإن تأويله متحرك وفق الأرضية العلمية لأمةٍ ما، في عصر ما. على الرغم من ثبات صيغته، ولايتأتى اعجاز القرآن فقط من جماله البلاغي.

٢ً- وخلافاً لاتفاق الأمة واجماعها بمختلف فرقها ومدارسها الفكرية، فهو يحصر التحدي والإعجاز القرآني في أربع آيات فقط، بينما كانتا خمس آيات التي ورد فيها هذا التحدي والإعجاز، فهو أسقط من بينها التحدي القرآني الذي تضمنته سورة الطور.

إنه أورد الآيات الأربع: آية الاسراء، وآية يونس، وآية هود، وآية سورة البقرة. وأهمل آية سورة الطور وهي قوله عز وجل: ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين.﴾، مع أن الآية التي سبقتها قيل فيها ﴿ أم يقولون تقوّلة بل لايؤمنون﴾ وهو سبحانه وتعالى ردّ على اتهامهم رسوله بأنه تقول هذا الكتاب، فتحداهم أن يأتوا بحديث متقول مثله إن كانوا صادقين في اتهامهم، إن التحدي ومبرره كلاهما متوفر في هذا المقام.

أما الأمر الأول، وهو تقسيمه كتاب الله إلى الكتاب والقرآن، أو المحكمات والمتشابهات، فقد نقضته في (مبحثي حول المحكمات والمتشابهات) فليرجع إليه من أراد أن يستيقن ذلك.

وأما حَصْرُهُ أمر التحدي والإعجاز في القرآن من دون الكتاب. فهو أمر باطل، ويبدو بطلانه من جهة أن التحدي ورد منسوباً إلى لفظ (كتاب) في ثلاث سور هي البقرة والطور وهود، بينما لم يرد التحدي منسوباً إلى لفظ (قرآن) إلاّ في سورتين فقط هما سورة يونس والاسراء، فكيف أجاز لنفسه تجاهل هذا الأمر؟

وأما زعمه بأن التحدي ورد عن القرآن وحده، من حيث كون القرآن قابلاً للتأويل، وليس من جماله البلاغي فقط، فقد ورد في مبحثي حول (الآيات المحكمات والآيات المتشابهات) نقض كون القرآن قابلاً للتأويل، وأوضحت هناك من خلال معطيات الآية السابعة من سورة آل عمران أن التأويل لله وحده لكمال علمه، وأن نص الآية يقول بصراحة تامة: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾. وهل يَعْمى عن فحوى هذا النص إلاّ من كان ضل عن فهمه أو كان في قلبه زيغ؟ هذه معادلة: زيغ القلب = تأويل المتشابهات.

وأضيف قائلاً بأن التحدي القرآني، الذي ورد في خمس سور من سور كتاب الله، قد شمل الصياغة والمضمون معاً، وليس الصياغة البلاغية وحدها. ودليلي هو أن التحدي في جميع هذه المواضيع جاء مُطلقاً غير مقيد، مما يعني أن التحدي لم ينحصر في جهة الصياغة وحده، بل انحصر وشمل المضمون أيضاً، وأورد لكم هنا هذه الآيات لتلاحظوا من خلالها صحة ماذهبت إليه:

أولاً- ففي سورة البقرة (٢٣) قال تعالى متحدياً ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا، فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾. إن قوله [من مثله] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا (من مثله صياغة وبلاغة). وكنت ذكرت لكم أن التحدي يدور مضمونه حول نهج التقوى صياغة ومضموناً.

ثانياً- وفي سورة يونس (٣٨) قال تعالى متحدياً ﴿ أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾، إن قوله [فأتوا بسورة مثله] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا [بسورة مثله صياغة وبلاغة]، بل جاء تحديه مطلقاً غير مقيد.

وكنت ذكرت لكم أن التحدي يدور مضمونه حول الآية التي جمع فيها ربنا خمسة أدلة وبصياغة مُعجزة، هذه الآية التي قال تعالى فيها ﴿ ماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لاريب فيه، من رب العالمين.﴾.

ثالثاً- وفي سورة الاسراء (٨٨) قال تعالى متحدياً ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض

ظهيراً.﴾ إن قوله [بمثل هذا القرآن] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا (بمثل هذا القرآن صياغة وبلاغة) بل جاء تحديه دائراً حول الصياغة والمضمون معاً، ولايجوز لأحد أن يقصر هذا التحدي على الصياغة البلاغية وحدها. أو أن يزعم أن التحدي يدور هنا حول التشابه وإمكانية التأويل، لأن هذا زعم لايسنده برهان أو يقوم عليه دليل.

رابعاً – وفي سورة هود (١٣) قال تعالى متحدياً ﴿ **أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾.

إن قوله [فأتوا بعشر سورٍ مثله] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا (بعشر سورٍ مثله صياغة وبلاغة) بل جاء تحديه دائراً حول الصياغة والمضمون معاً، ولايجوز لأحد أن يحصر هذا التحدي في الصياغة من دون المضمون. وإن التحدي هنا شبيه بتحدي سورتي البقرة ويونس.

خامساً – وفي سورة الطور (٣٥) قال تعالى متحدياً ﴿ **فليأتوا بحديثٍ مثله، إن كانوا صادقين**.﴾، إن قوله تعالى [بحديثٍ مثله] كلام مطلق غير مقيد، فلم يقل ربنا (بحديث مثله صياغة وبلاغة) حتى تحصر التحدي في الصياغة البلاغية دون المضمون. بل جاء النص مطلقاً غير مقيد جاء مطلقاً ليشمل الصياغة والمضمون معاً.

على هذه الصورة تبين لكم خطأ الدكتور شحرور في زعمه أن إعجاز القرآن تأتي عن كونه قابلاً للتأويل، كلاّ فلا تفيد نصوص الآيات الخمس المتحديات آية إشارة إلى هذا الزعم أو إلى تأييده. وأتحدى الدكتور شحرور أن يقدّم على زعمه هذا دليلاً مقنعاً إذا كان على يقين راسخٍ مما يزعم ويقول، وهذا التحدي من جانبي جاء حمية لكتاب الله القرآن، وليس استهانة مني بمقام الدكتور شحرور نفسه.

- **وإن صاحب القراءة المعاصرة خطا خطوة ثامنة تأوّل من خلالها الواو العاطفة في** قوله عز وجل ﴿**الر تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين**﴾ الحجر. فقد كتب على الصفحة (٥٦): (لنرجع إلى قوله تعالى في أول سورة الحجر : [الر تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين.].. هنا نلاحظ كيف عطف القرآن على الكتاب. وفي اللسان العربي لاتُعطف إلا المُتغايرات، أو الخاص على العام، فهنا لدينا احتمالان:

- إن القرآن شيء، والكتاب شيء آخر، وعطفهما للتغاير..
- أن يكون القرآن جزء من الكتاب، وعطفهما من باب عطف الخاص على العام...

فأي الاحتمالين هو المقصود؟؟؟...).
ألاحظتم من أين ابتدأ؟ ابتدأ من الواو العاطفة، محاولاً تأويل عملها وفقاً للقاعدة العامة المتعلقة بذلك.
إن خطوته هذه لاغُبار عليها من حيث ظاهرها، ولكن تأويله يتضح هنا حين أوهم القارىء أن هذه الواو العاطفة واقعة بين اسمين وليس بين صفتين. ذلك أن عطف المتغايرات أو عطف الخاص على العام لايقع بين الصفات بسبب أن الصفات هي متغايرة أصلاً، والكلام على عطف المتغايرات، وعطف الخاص على العام يقع بين الأسماء خاصة، وإن الدكتور شحرور عندما بدأ يوجه ذهن القارىء إلى عمل الواو العاطفة، يكون قد لقن هذا القارىء بصورة غير مباشرة، أنها واو عاطفة في هذه الآية وقد عطفت اسمين احدهما على الآخر، وهذه عملية تأويلية إن هو استطاع أن يثبت أن الكتاب والقرآن قد استعملا هنا كصفتين وليس كإسمين. ومادام الدكتور شحرور يدعي أنه بحاثة فكان من واجبه أولاً إثبات كون الواو قد عطفت في هذه الآية اسمين ومن ثم ينتقل إلى عمل الواو المذكورة. فلماذا لم يفعل ذلك؟
وأقول على رُسْلك ياصاحب القراءة المعاصرة، إن الواو في آية سورة الحجر المذكورة عطفت صفتين وليس اسمين كما تصورت وتخيلت. ومن البديهيات المعروفة لدى كل إنسان أن الأسم قد يستعمل كإسم في مكان، وقد يستعمل كصفة في مكان آخر، وإن الكتاب والقرآن كلمتان وردتا في هذه الآية الكريمة كصفتين ولم تردا كإسمين.
ولا أنكر هنا وجود من تطرق لموضوع الواو العاطفة قبلك على شاكلتك ولكنك باحث ومبتدع قراءة جديدة لكتاب الله، وكان من واجبك ألاّ تجزم في هذا الأمر، قبل أن تقلبه على جميع الوجوه، ولاتأخذ إلا بما يتفق والتسلسل الموضوعي للسورة.
فلنعلم أن موضوع هذه الآية والسورة بكاملها دائراً حول الصفات وليس حول الأسماء أو حول تقسيم المصحف إلى كتاب وقرآن، وسأقدم لكم القرائن التالية التي ترجح لكم صحة ماذهبت إليه.
أولاً- أفلا تلاحظون كيف قال سبحانه وتعالى بعد هذه الآية مباشرة [ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين.]؟ إن الإنسان يتساءل: وماهو الدافع الذي يدفع الكافرين هنا ليتمنوا [لو كانوا مسلمين]؟ إلا أن تكون هذه الأمنية نابعة مما اتصف به كتاب الله من

صفات؟ هذه الصفات الجذابة التي جذبتهم نحو هذا التمني، أما إذا كانت الآية التي قبلها تتكلم عن تقسيم المصحف إلى كتاب وقرآن فهل يُعقل أن يُشكّل مثل هذا التقسيم قوة جذابة؟.

ثانياً- ونتساءل أيضاً: ولماذا نقل سبحانه وتعالى إلينا بعد هذه الآية قول المكذبين [وقالوا ياأيها الذي نُزّل عليه الذكّر إنك لمجنون.]؟ وهل يُعقل أن يصطفي سبحانه لفظ (الذكر) في هذه الآية عبثاً ودون دلالة عظيمة؟ أو أن نقول أنه سبحانه عبّر بهذا اللفظ عن الصفات؟ الذكر معناه الصيت والشرف والشهرة والرفعة. وإن المذكبين يتهمون رسول الله بالجنون على اعتبار أنه يدعي نزول كتاب عليه سيشكل أساس رفعة المسلمين وصيتهم وشهرتهم وشرفهم. وهذه كلها مجموعة صفات. وهذه قرينة ترجح كون لفظي الكتاب والقرآن وردا كصفتين.

ثالثاً- ونتساءل أيضاً: ومامعنى أن يعد الله سبحانه وتعالى بعد ذلك بحفظ كتابه مستعملاً له لفظ الذكر خاصة؟ أفلم يقل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾؟ فلو كان تسلسل الكلام دائراً حول الكتاب والقرآن، كان يلزم أن يقول سبحانه [إنا نحن نزلنا الكتاب والقرآن] أو يقول [إنا نحن نزلنا المصحف وإنا له لحافظون]، ومادام قد استعمل لفظ الذكر، وكان الذكر يعني الصيّت والشرف والشهرة والرفعة، وكان المشركون قد استعملوا هذا اللفظ بالذات لكتاب الله المصحف، فقد استعمل سبحانه وتعالى نفس اللفظ تعبيراً عن كتابه ومايحمله للناس من صفات.

وإننا بعد استعراضنا للقراءة المعاصرة نفسها لاحظنا أن صاحبها قد قال على الصفحة (٦٢) مانصه (ولاننسى أن الذكر ليس القرآن نفسه، بل هو أحد صفات القرآن..) وهذا اعتراف منه صريح بأن موضوع آيات سورة الحجر يدور حول الصفات خاصة، وليس حول الأسماء والتقسيمات التي زعم.

رابعاً- ورابع قرينة تستحق الاهتمام هي كون سورة الحجر قد نزلت في أواخر سنوات الدعوة في مكة، نزلت يوم لم يكن هذا الكتاب العظيم قد اكتمل نزوله بعد، ولم يتخذ شكل كتاب حتى ذاك التاريخ. إن هذه قرينة تؤكد أنّ آية [الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين.] جاءت تتكلم عن رؤية الله المستقبلية التي تحققت فيما بعد بإعجاز منقطع النظير، خصوصاً وأنها ابتدأت بأحرف المقطعات [الر] التي تعني أنا الله أرى.

هذه القرائن الأربعة ترجح رأيي وهو أن موضوع سورة الحجر يدور حول الصفات، ولايهتم بالتقسيمات والأسماء إلا من حيث دلالاتها الصفاتية ،إليكم بعد هذا تفسير قوله عز وجل[الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين].
[الر] أنا الله أرى. لذلك أنبئكم [تلك آيات الكتاب] إن هذه الآيات المنزلة العظيمة ستتخذ شكل كتاب كامل الخصائص، إضافة إلى أنه (وقرآن مبين) أي سيصبح مقروءاً من الناس بكثرة ظاهرة، إلى جانب أنه يحمل أدلة صدقه وبراهين مضامينه معه بحيث يكون في ذروة الفصاحة والدلالة، حتى إنه [ربما يود الذين كفرو لو كانوا مسلمين] من شدة تأثرهم بجميع خصائصه وتعاليمه.
وأضاف سبحانه قائلاً ومتبنأ أيضاً عن حال المكذبين بأنهم بالرغم من تأثرهم الفاضح فإنهم سيظلون مكبين على ملاذهم وتحقيق اهوائهم وميولهم، غير عابئين بما أنزل الله رب العالمين لذلك ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون..﴾.
من هذه المعاني يتراءى لأعينكم تسلسلٌ موضوعيٌ مُحكمٌ ومنطقيٌ، هذا إذا أخذتم بوجهة نظري من أن لفظي (الكتاب والقرآن) قد استعملا في هذه الآية كصفتين، لكنكم إذا أخذتم بوجهة نظر صاحب القراءة المعاصرة فلا يعود يتراءى لأعينكم أي تسلسل موضوعي، لأن معنى الآية سيصبح الر هذه آيات المصحف المؤلف من الكتاب والقرآن المبين.
وكم كان بودي أن أقرأ بقلم صاحب القراءة المعاصرة نفسه تفسير هذه الآية ومابعدها، وبشكل مقبول ومنطقي.
وانتقل من الإيجاز إلى التفصيل المُدَعَّم بالأدلة والبراهين.
أقول إن كل كاتب من الكتاب يمتاز بأسلوب خاص به في كتابته، ويتميز كل كاتب عمن سواه من خلال هذا الأسلوب. والذي يطالع كتاب الله القرآن يلاحظ امتيازه بأسلوب خاص به يأخذ بالألباب، وماسبقه من أسلوب على شاكلته، وهذا أحد أوجه إعجازه.
إنه سبحانه طرق في جميع ماأنزل جميع فنون الكلام، ولما كان الاختزال أحد هذه الفنون. فلم يهمل هذا الفن في جميع ماأنزل.
وهو قد قسّم كتابه إلى مقدمة هي سورة الفاتحة التي سماها رسول الله فاتحة الكتاب.

وانهى كتابه بثلاث سور موجزات هي سور المعوذات كخاتمة لكتابه، ومابين هذا وذاك هو مضمون الكتاب.

وقسم سبحانه هذا المضمون إلى سور مستقلة بعنوان خاص بكل منها، ورفع على كل سورة شعاراً تضمنته البسملة التي تنبه كل قارىء إلى أن جميع ماأنزل من وحي في هذا الكتاب إنما ينبع من نبعي رحمانية الله ورحيمية. الرحمانية تعني عطاء دونما مقابل. والرحيمية تعني عطاء أزيد من الاستحقاق. هذا الشعار جاء ليشعرنا بأن محمداً ورسالته هي عطاء من دون أي مقابل منّا نحن عباد الله، وأنها رحمة للعالمين بمعنى أن من ينطوي تحت لواء محمد ورسالته يؤتى من الهُدى والخير أكثر من استحقاقه.

وكنت تكلمت في مبحثي عن (المحكمات والمتشابهات) عن فن الاختزال بشيء من التفصيل، فمن أراد الإحاطة به، فليرجع إلى ذلك المبحث ضمن هذا الكتاب.

وعلى ضوء تلك المعلومات ابتدأ ربنا عز وجل سورة الحجر، وعلى إسلوبه المذكور، على سبيل الجدّة والتحدي فيه، ابتدأ بقوله: ﴿الر﴾ بمعنى أنا الله أرى. ويواجهنا هنا سؤال يطرح نفسه وهو: هل الرؤية الإلهية في هذا المقام متعلقة بالماضي، لأن الكلام الذي يليها متعلق بالماضي أم إن هذه الرؤية حاضرة والكلام عن الحاضر، أم أنها رؤية مستقبلية تتعلق بأنباء غيب يعبر عنها ويحملها ماوراءها من كلام؟

الجواب نبهتنا إليه كلمة [تلك] التي حلّت محلّ (هذه) فقد كان يكفي القول [هذه آيات الكتاب وقرآن مبين]، فما حكمة هذا الاستبدال؟. ونعلم أن هذه تستبدل بتلك للتفخيم والتعظيم. وإن التعظيم هنا جاء لكلمة آيات وليس تعظيماً لكتاب أو قرآن كما هو واضح من صياغة الآية الكريمة[تلك آيات الكتاب]، والذي نعلمه من تاريخ الدعوة، يدلنا على أن الآيات القرآنية في الحياة المكية لم تكن قد اتخذت شكل كتاب. وكانت تنزل مُنجمة كما هو معروف. وإن كان جبريل يوصي رسول الله أن يرتبها غير الترتيب التي كانت تنزل عليه، وهذا التعظيم المتأتي عن استبدال هذه بتلك إلى جانب كون الآيات لم تتخذ شكل كتاب حتى تاريخ نزول سورة الحجر، يدفعنا دفعاً للاتجاه نحو اعتبار الرؤية الإلهية في (الر) هي رؤية مستقبلية وتحمل للمؤمنين وسواهم نبوءة غيبية. وهي أن عظمة هذه الآيات تنبع من كونها ستتخذ شكل كتاب له مقدمة وموضوع وخاتمة، إن في قوله عز وجل[تلك آيات الكتاب] هذا الإنباء المتعلق بالمستقبل بمعنى

أن هذه الآيات عظيمة لأنها آيلة لتصبح جزءاً من كتاب.
والسؤال الذي يطرح نفسه أيضاً هو: مادام الأمر كذلك فما هي دلالة تعريف الكتاب بالألف واللام، ولماذا لم يقل الله سبحانه [تلك آيات كتاب قادم] أو ماشاكل من ألفاظ وماهي دلالة هذا التعريف في هذا المقام؟
وجوابي أن تعريف الكتاب هنا بالألف واللام ماحدث للدلالة على معهود ذهني، بل للدلالة على كمال خصائص هذا الكتاب الذي ينبىء سبحانه عن أنه سيكتمل ويتخذ شكل كتاب، وأدلّتي على سداد رأيي بهذا الخصوص **أولاً**: أن الكلام في هذه الآية محمول على عمومه وليس على آيات مخصوصات. **ثانياً**: لكون سورة الحجر قد نزلت في مكة المكرمة قبل أن تتخذ الآيات شكل كتاب، **ثالثاً**: لإمكانية أن نُتبع كلمة (كتاب) بكلمة (كُلّ) مجازاً، فنقول [تلك آيات الكتاب كُلّه]. هذه الإضافة الممكنة التي تنقل المعهود الذهني إلى معنى جديد للتعريف في هذا المقام وهو (كمال الخصائص)، وهذا الأمر يفهمه اللغويون المتخصصون. ويصبح للنبوءة معنى بارزاً، وهو إنباؤنا عن ظهور كتاب غير عادي، إنباءنا عن ظهور كتاب كامل الخصائص، أي سيكون هذا الكتاب معجزة حية صياغة ومضموناً.
وجاء دور الواو العاطفة، وقد رأينا مما ذكرناه أن النبوءة متعلقة بظهور كتاب كامل الخصائص، أي متعلقة بالصفات التي ستبرز في ثوبها وحلّتها هذه الآيات الكريمات، فالواو العاطفة هنا تؤدي دور عطف الصفات على بعضها، ولابد لنا من فهم قوله تعالى [وقرآن مبين] على حمله على الصفات، وعلى اعتبار كلمة [قرآن] هنا صفة جديدة ينبئنا بها ربنا إضافة إلى كمال الخصائص، ولذلك علينا أن نفهم أولاً معنى كلمة [قرآن] قبل أن نتقدم خطوة أخرى في هذا المقام.
القرآن: من قرأ الكتاب يقرؤه قراءة وقرآنا. منه اشتق اسم الفاعل القارىء والذي يجمع على قُرّاء وقارئون.
الذي يهمنا هنا هو وزن (فُعلان) وصفاً وليس إسماً، وإن قرآن على وزن فُعلان يفيد كثرة القراءة، وهذا المعنى يضيف إلى كمال خصائص الكتاب المُتنبأ عن ظهوره، صفة أخرى وهي أنه لن يتخذ شكل كتاب ويُنسى ويهمل، بل إن الله سبحانه وتعالى قدر لهذا الكتاب أن يُستنسخ ويطبع بكثرة ظاهرة، ويُقرأ بالتالي بكثرة ظاهرة أيضاً، فلا

تحول دون ظهور هذه الصفة أية قوة في الوجود، وحينما ننظر اليوم إلى حولنا نلاحظ تحقق هذه الصفة من النبوءة أيضاً بشكل مدهش وعجيب.

ونتساءل أيضاً، مامعنى أن يوصف القرآن بصفة (مبين)؟ وجوابي أن تنوين [قرآنٍ] كان لتفخيم هذه الصفة المتعلقة بالكتاب. وهو أن الكتاب سيُقرأ بكثرة ويطبع بكثرة شبيهة بالإعجاز، وكلمة (مبين) هنا جاءت لتضيف صفة ثالثة للكتاب، وليس للقرآن، لأن الكلام دائر حول الكتاب وصفاته، فمعنى [قرآنٍ مبين] هو أن هذا الكتاب كامل الخصائص، والذي سيُطبع ويُقرأ بكثرة مدهشة، سيحمل في طياته أسلحته وأدلته القاطعة على صدق كونه منزلاً من الله عزّ وجلّ وعلى صدق تحديه المتعلق بإعجاز صياغته ومضامينه، فهو كتاب مُستغن عما عداه، ويفسر بعضه بعضاً في جميع الأحوال، فهو كتاب (مُبين) أي واضح الدلالات من أبان، وفصيح، مما يتبين به الشيء من الدلالة، هذه دلالات كلمة مبين على حسب ماقاله سلفنا اللغويون رحمهم الله تعالى، وقد قال رسول الله ﷺ: إن من البيان لسحراً. وقال صاحب الكشاف: البيان هو المنطق الفصيح المعبر عما في الضمير، وقد يستعمل بمعى الإثبات بالدليل.

على هذه الصورة نفهم قول الله عزّ وجلّ الذي افتتح به سورة الحجر: ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ إني أنا الذي أوحى إلى محمد رسولي بهذه الآيات،أنبئكم أيها الناس مبشراً المؤمنين ومنذراً المكذبين الكافرين،بأن آياتي المنزلة ستتخذ شكل وهيئة كتاب كامل الخصائص،ومقروء بكثرة وحاملاً فصاحته وأدلّة إعجازه ضمن سوره وآياته.

تلقى محمد وأصحابه هذه النبوءة المبشره، فهان عليهم احتمال اضطهاد المشركين إياهم في مكة، وانتشر خبر نزول هذه النبوءة بين المكذبين فسخروا منها، واغرقوا في تكذيبهم واستهزائهم، بدل أن يتبصروا كلام الله وانذاره وعواقب الإنذار الوخيمة. فما كان ليخطر للمكذبين ببال أن يتمكن محمد رسول الله من مغادرة مكة سالماً، وماكان ليخطر ببالهم أن الله الهادي يهيء أهل المدينة المنورة لاستقبال محمد بالزغاريد والهتاف كمؤمنين به وبدعوته. وماكان يخطر لأحد منهم أن يتصور إمكان قيام دولة دستورها كتاب الله، ورأسها محمد بن عبد الله. لذلك نقل سبحانه إلينا صورة حالهم،وهو قولهم [ياأيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون]، إنهم استعملوا كلمة (الذكر) التي تشمل

معطيات آية[الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين] ودلالاتها الصفاتية، إذ أن كتاباً هذا وصفه إذا صح ظهوره لابد أن يصبح أداة عزة المؤمنين وشرفهم وصيتهم وشهرتهم. وهذه دلالات كلمة [الذكر] المُعّرف بالألف واللام كمعهود ذهني، ولامعهود ذهني قبلها سوى هذه النبوءة المتعلقة بظهور هذا الكتاب العظيم. إن المشركين استعملوا كلمة (الذكر) كناية عن تفهمهم لنبوءة آية سورة الحجر المذكورة، واستعملوا كلمة (مجنون) مؤكدة (بأنك) تعبيراً عن عدم قناعتهم بصدقها، متهمين رسول الله بفساد عقله، أي كيف تتنبأ بهذه النبوءة وأنت تحت رحمتنا، ونحن على وشك القضاء عليك؟

وبسبب موقف المشركين الذي أشرنا إليه، توجّه ربنا بخطابه إلى رسوله قائلاً: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾.

هذا هو فهمي لهذه الآية الكريمة[الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين] ومابعدها من آيات، بهذا التسلسل الموضوعي أفهم هذه الآيات الكريمات. وبعد هذا فإن للعاقل أن يتدبر هذا الفهم، وأن يوازنه بفهم صاحب القراءة المعاصرة التي سبق أن ذكرناه، وللعاقل أن يحكم على هذا وذاك بموازين العقل واللغة والمنطق السليم.

٩- لم يشأ صاحب القراءة المعاصرة أن ينهي تمهيده وتقسيماته واصطلاحاته بسلام، بل كان آخر ماكتبه على الصفحة (٦١): (وعندما قال - يقصد رسول الله ﷺ - القرآن ومثله معه، فإنه عنى شيئاً آخر متجانساً مع القرآن معطوفاً عليها، وهي مجموعةٌ من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية، لذا جاء القرآن معطوفاً عليها. وهي «سبع من المثاني» حيث عطف القرآن العظيم عليها في قوله [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] الحجر ٧٨).

والمعروف أن كل مسلم، على اختلاف مذهبه ومدرسته الفكرية، وحيثما كان، عندما يقرأ آية [وآتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] يذهب ذهنه في السبع المثاني إلى سورة الفاتحة لكونها مؤلفة من سبع آيات مستقلات، ولكونها تُثنى أي يكررها المصلي في كل ركعة من ركعات صلواته، ولكونها تشكل فاتحة القرآن العظيم وتوازيه من حيث كونها خلاصة، ومن حيث أنبأ الأنبياء السابقون عنها من قبل في الكتب السماوية السابقة.

وإن صاحب القراءة المعاصرة، أعرض عن جميع هذه الحيثيات التي دعت المسلمين لاعتبار سورة الفاتحة هي السبع المثاني، وجاء يزعم أن السبع المثاني هي (الم، المص، كهيعص، يس، طه، طسم، حم) على اعتبار أن أحرف المقطعات هذه هي وحدها أطراف المصحف، أما باقي أحرف المقطعات فلا تدخل في مفهوم السبع المثاني، وكيف توصل إلى هذا الاكتشاف "العظيم" فأمر ستلاحظونه لاحقاً.

وتتملك افئدتكم الدهشة والذهول أن كيف غاب هذا المفهوم عن المسلمين جميعهم، وإلى يومنا هذا؟ وكيف حقق الدكتور شحرور هذا "الكشف العظيم"؟ وإني أقول هنا إنه إن صحّ اكتشافه هذا، فإنه جدير بكل احترام وتقدير.

أنتم قرأتم مانقلته لكم آنفاً مما كتبه على آخر الصفحة (٦١)، وإليكم ماكتبه لاحقاً على الصفحة (٩٨) في نفس الموضوع: (فما هي إذن جوامع الكلم التي قال عنها النبي (ص) في قوله، إن صحّ، (أُعطيت جوامع الكَلِم) و (اختُصر لي الكلام اختصاراً)؟ لقد طغى علي الأذهان أن هذين التعبيرين يراد بهما البلاغة النبوية، ونقول أن الكلام في اللسان العربي يعني الأصوات، وأن كل كلام الناس قاطبة هو أصوات، وَأن نشأة الألسن هي نشأة صوتية، وأن السبع المثاني ماهي إلاّ حروف أي أصوات، هي جوامع الكلم، وهي (اختصار ألكلام). إذ لو عنت (جوامع الكلم) البلاغة النبوية، كما يقول بعضهم. فيصبح القرآن هو بلاغة محمد (ص)، وعلينا أن نعلم أن النبي (ص) كان على بلاغته بشراً، وبلاغته فيهم بلاغة متميزة، مع أنها مألوفة، وحين ندعي أنه يفوق ببلاغته البشر، نفسح الطريق لمتهمٍ يظن أن القرآن من صُنعه [قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ] الكهف ١١٠، إن الذي اوقعنا في هذا الإشكال، هو أننا لم نفرق بين الكلام والقول، فالبلاغة في القول، لا في الكلام، فالكلام أصوات يصدرها الإنسان، والقول معنى هذه الأصوات في الذهن.). وأبتدىء من حيث انتهى قول صاحب القراءة المعاصرة.فأقول إنه استدل بالحديث الشريف (أوتيت جوامع الكلم) زاعماً أن جوامع الكلم هي أحرف مقطعات سبعة ذكرها من بين جميع أحرف المقطعات الواردة في القرآن الكريم. وجاء زعمه هذا على نقيض فهم المسلمين قاطبة من أن جوامع الكلم تعني البلاغة النبوية. وكان دليله في زعمه هذا هو أن القول غير الكلام، وأن الكلام يعني أحرفاً وأصواتاً ذات معاني، وأن القول هو معاني هذه الأصوات داخل الذهن البشري، هذه خلاصة ماكتب.

ولنوجه هنا إلى الدكتور شحرور سؤالاً ونقول له أن افرض أن رسول الله أراد أن يقول لنا (أوتيت البلاغة)، فهل كان يجب عليه حينئذٍ أن يعبر عن ذلك بقوله (أوتيت جوامع القول) عوضاً عن (جوامع الكلم)؟ نسألك هذا على اعتبار أنك لم تعترض على كلمة (جوامع) فيما نقلناه من كتابك.

فإن كان جوابك: أي نعم، نقول لك إن جملة (أوتيت جوامع القول) لاتعني في نظرنا، وبميزان اللغة (البلاغة) بأي حال من الأحوال، بل تعني أوتيت جميع ماقيل حتى تلك اللحظة سواء أكان ماقد قيل كلاماً صالحاً، أو كان كلاماً فاسداً، بدليل الألف واللام التي تستغرق جميع ماقيل، وهذا المعنى لايدل على بلاغة متميزة ولا على فضيلة تُذكر.

ثم إذا كان الكلام يعني الأصوات، ولايستدل بالكلام عن معنى هذه الأصوات في الذهن، نسأل الدكتور شحرور: ولماذا قال الله عز وجل عن نبيه موسى [وكلّم الله موسى تكليماً]؟ فهل يُستدل من هذه الآية عن أن الله تعالى صوّت لموسى أصواتاً، ولاتعني أنه سبحانه كلم موسى وقال له شيئاً؟ نسألك وكيف فهم موسى كلام ربه؟

نعود إلى ماكتبه اللغويون: كلّم: حدّث، والأسم الكلام، والكلام هو القول، يقال: أتى بكلام طيب: قيل هو في أصل اللغة عبارة عن أصوات متتابعة لمعنى مفهوم، وهو اسم جنس يُطلق على الكثير والقليل، أفاد واحدة أم لم يفد.

يتبين مما نقلناه، أن اللغويين مافرقوا بين الكلام والقول، كما رأيتم، ذلك أن الكلام يستعمل من جهة الأصوات، والقول يستعمل من جهة إفادة معانيها، لذا قيل: الكلام هو القول. وقال الأصفهاني: إن الكلام يقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعاني التي تحتها، وعند كثير من المتكلمين لايقع إلاّ علي الجملة المركبة المفيدة، وهو أخصّ من القول، فإن القول يقع عندهم على المفردات، والكلمة تقع عندهم على كل واحد من الأنواع الثلاثة (أي الأسم والفعل والحرف)... وقد تعني الكلمة معنى الكلام كقوله تعالى: ﴿كبرت كلمة تخرج من افواههم..﴾ و﴿ فتلقى آدم من ربّه كلمات..﴾.

ولكن الدكتور شحرور عاكس قول اللغويين زاعماً أن الكلام هو غير القول، وبدون دليلٍ يُذكر، وإننا إذا ناقشنا الأمر نلاحظ أن الكلام هو الأصل، وأن القول ماهو إلا تحصيل حاصل، وتبعاً لذلك تكون البلاغة في الكلام وليس في القول، فالبلاغة أن يصوّت الإنسان أي يتكلم أصواتاً ذات معاني بليغة في الذهن.

واستناداً إلى ذلك يعني قول رسول الله ﷺ (أوتيت جوامع الكلم) أي أوتيت (بلاغة الكلام)، وهذا هو المعنى الذي ذهبت إليه أذهان جميع المسلمين، ويبطل بذلك مازعمه الدكتور شحرور، فهو قال على عكس ماقاله اللغويون من جهة، وحصر البلاغة في القول من جهة أخرى، وهذان أمران باطلان كلاهما، لأن الكلام هو القول، وإن البلاغة في الكلام وليس في القول، من حيث الأصل.

وهكذا ترون أنني ابتدأت في الردّ عليه من حيث انتهى كلامه، وأثبت أن هذا الأخ المسلم اختلق إشكالاً، حيث لايوجد في الأمر إشكال، ووقع في نفس المصيدة التي نصبها، وأترك للقارىء مهمة التمييز بين الخبيث من الطيب من قوله وكلامه.

وأعود الآن إلى حيث ابتدأ في خطوته التاسعة التي نتكلم عنها، إن الدكتور شحرور انطلق هناك من حديث رسول الله ﷺ أيضاً وهو (أوتيت القرآن ومثله معه)، ففسر (ومثله معه) على أنها تعني (السبع المثاني) بألفاظ أخرى، فهو كتب على الصفحة (٦١): (القرآن ومثله معه، فإنه عنى شيئاً آخر متجانساً مع القرآن أي مثله، وهو مجموعة من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية، لذا جاء القرآن معطوفاً عليها، وهي (سبع من المثاني) حيث عطف القرآن العظيم عليها في قوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ الحجر).

ونلاحظ من خلال هذا النص أموراً ثلاثة:

١- اعتمد الحديث الشريف بمعنى مغاير لإجماع المسلمين زاعماً أن (مثله معه) هو مجموعة من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية.

٢- تأوّل الواو العاطفة قاصراً إياها على معنى المتغايرات، ليساوي بين السبع المثاني وبين القرآن العظيم.

٣- وانتهى إلى الزعم بأن (مثله معه) الذي قال إنها مجموعة من الحقائق العلمية، انتهى إلى الزعم بأنها تشير إلى السبع المثاني التي ذكرها القرآن المجيد في سورة الحجر.

أما بما يتعلق بالأمر الأول، فندع الدكتور شحرور يفهم من حديث رسول الله ماشاء أن يفهمه، لأن الأمر يخصه وحده.

وأما مايتعلق بالأمر الثاني وهو تأوله واو العطف، فهو أمر موضع نقاش. وأتناوله بادىء ذي بدء من مسلّمات الدكتور شحرور نفسه. وانتهي ببحثه من مُسلماتي.

أولاً- من مسّلمات هذا الأخ المسلم أن الواو العاطفة إما أن تعطف المتغايرات وإما أن تعطف الخاص على العام. وهو قد أصّر في المقتبس من كلامه، على عطف المتغايرات من دون أن يقدم أي مبرر مقبول لإعراضه عن عطف الخاص على العام. فهو كتب ص ٩٦ (لقد عطف القرآن على السبع المثاني، فهذا يعني أن القرآن شيء والسبع المثاني شيء آخر) فهو يعني أن الواو العاطفة قد عطفت في آية [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] عطفت متغايرات، ولم تعطف الخاص على العام، وفعل هذا من دون تقديم أي مبرر معقول، إلا إذا كان قد اعتبر الحديث الشريف الذي أورده حجته في هذا المقام، فإن صحّ ظننا نقول إن الأمر المختلف فيه لايُقدم ولايُقبل عند التحكيم كدليل، فهو اعطى الحديث معنىً مغايراً للمعنى المتعارف عليه، وعليه فما عاد الحديث الشريف حجة بين يديه.

ثانياً- نلاحظ تناقضات في مُسلمات الدكتور شحرور وأقواله وعدم استقراره على قول محدد، فهو قد قال عن السبع المثاني على الصفحة (٦١) (إنها مجموعة من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية)، في وقت قال عن السبع المثاني على الصفحة (٩٦). وإن السبع المثاني ليست جزء من القرآن، وقد وضعها الله سبحانه وتعالى قبل القرآن، حيث ميزها عليه بالأفضلية من ناحية المعلومات)، إن الدكتور شحرور ساوى مابين السبع المثاني والقرآن في النص الأول من حيث القيمة العلمية، أما في النص الثاني فقد ميز السبع المثاني وفضلها على القرآن من ناحية المعلومات. وهذا اختلاف واضح بين النصين بحاجة إلى تبرير. لقد ساقه ظنه للاستدلال بحديث شريف على غير معناه، واضطر هناك للمساواة وفقاً لمنطوق الحديث، أما وقد واجه في الآية الكريمة واو العطف فقد اضطر للأخذ بمبدأ المتغايرات، ولما قدم سبحانه السبع المثاني على القرآن العظيم اضطر ثانية للتناقض مع نصه الأول، وأعلن أفضلية السبع المثاني على القرآن العظيم، على مبدأ أن الخطأ يجر الخطأ، ونقول: **هل هذا هو شأن من يجلس لكتابة قراءة معاصرة؟** ولم يقف الأمر عند هذا الحد من التناقض، لأنه عاد في نص ثالث يساوي بين السبع المثاني والقرآن العظيم دون أي تفضيل لأحد على الآخر. فهو كتب على الصفحة (٩٦): (بما أن القرآن العظيم هو نبوّة محمد (ص)، والنبوّة علوم، فهذا يعني أن السبع المثاني هي من النبوة وفيها علوم... فإذا كانت السبع المثاني هي مثل القرآن فهذا يعني أن

المعلومات الواردة فيها لاتنقل كماً ونوعاً عن المعلومات الواردة في القرآن، ولكن جاءت بطريقة تعبيرية مختلفة عن طريقة القرآن).

ونقول إن في المساواة بين شيئين أولاً، ومن ثم تفضيل احدهما على الآخر، ومن ثم العودة للمساواة بينهما، إنما هو تردد وتخمين لايتأتى عن باحث رصين.

وقلت إن هذا تردد بسبب أنني لاحظت عودته إلى التفضيل ثانية أيضاً في قوله ص (٩٦) (٤- لقد ميز السبع المثاني عن القرآن، بأن أطلق عليها مُصطلح (أحسن الحديث) وذلك في قوله تعالى ﴿ الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد .﴾ الزمر ٢٣) ونستفتي قارئنا بما يتعلق بهذا التردد ونسأله على أي أمر نستقر، وهل يتأتى أن يصدر مثل هذا عن بحّاثه يكتب قراءة معاصرة لكتاب الله؟

ثالثاً- ولابد أنكم لاحظتم إدعاءه بأن كتاب الله اصطلح للسبع المثاني اسم (أحسن الحديث) بينما اصطلح للقرآن اسم حديث فقط، وأكد هذا الإدعاء على الصفحة (٩٧) حيث كتب: (فقد اطلق على القرآن مصطلح الحديث، واطلق على السبع المثاني مصطلح أحسن الحديث، إنّه تم تمييزها، وهذا التمييز بأن القرآن آيات متشابهات فقط، وأحسن الحديث يحمل بالإضافة إلى التشابه صفة المثاني (كتاباً متشابهاً مثاني) أما القرآن فكتاب متشابه فقط، فما هي المثاني؟).

وترون أن إدعاءه المذكور إنما هو مجرد ادعاء، ومعلوم أن الإدعاء يحتاج دوماً إلى دليل لينقلب إلى حقيقة، وإننا لانعثر فيما ادعاه على أي دليل قدمه لنا ليقنعنا به، ومادام لم يقدم أي دليل فيحق لنا اعتبار ادعاءه هذا تخرصاً ووهماً.

والحقيقة هي أن ادعاءه المذكور يحتوي على ادعائين فرعيين، أولاهما أن القرآن هو آيات متشابهات واصطلح على تسميته حديثاً، وثانيهما أن السبع المثاني آيات متشابهات أيضاً، لكنها تحمل صفة (المثاني) لذلك اصطلح على تسميتها (أحسن الحديث)، ولربما كان فيما كتب على الصفحة (٩٦) (أن السبع المثاني ليست جزءاً من القرآن، وقد وضعها الله سبحانه وتعالى قبل القرآن، حيث ميزها عليه بالأفضلية من ناحية المعلومات) قد أشار بهذا إلى الواو العاطفة وأنها قد عطفت المتغيرات في قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك

سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾، فإن صحّ نظرنا فقد أضاف الدكتور شحرور بذلك تناقضاً جديداً إلى تناقضاته التي كشفنا عنها.

وحتى لانذهب بعيداً، فإننا نسلم جدلاً بأن السبع المثاني هي مصطلح (أحسن الحديث). لنتقدم خطوة مع الدكتور شحرور لنتعرف على مفهومه لصفة (المثاني) التي ميزت وفضلت السبع المثاني على القرآن العظيم على حسب ادعائه، خصوصاً وأننا لاحظناه نفسه وقد تساءل: [فما هي المثاني؟]

ونتابع ماكتبه كجواب على سؤال قد طرحه بنفسه، إنه كتب على الصفحة (٩٧): (جاء في مقاييس اللغة مايلي: «الثاء والنون والياء أصل واحد، وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين»، وجاء فيه «المثناة طرف الزمام في الخشاش، وإنما يثن الشيء من أطرافه، فالمثاني هي الأطراف... ومن هنا كان لكل سورة مثناة أي طرف، فالمثاني إذاً اطراف السور، وهي إذاً فواتحها.)

فلنلاحظ أن الدكتور شحرور في نصه هذا الآنف الذكر:

أولاً - أخذ بمعنى الاطراف لكلمة (مثاني).

ثانياً - وقال (إنه كان لكل سورة مثناة، أي طرف.

ثالثاً - وزعم أن السبع المثاني هي اطراف السور.

رابعاً - وأضاف ادعاء جديداً على المسلمين وهو أن سورة الفاتحة ليست هي السبع المثاني، على اعتبار أنها فاتحة واحدة، وأن السبع المثاني هي سبع فواتح.

وأول مانلاحظه هو أن الدكتور شحرور أهمل معنى التكرار الذي أورده صاحب مقاييس اللغة لكلمة (مثاني) من دون أن يأتي بقرينة ترجح لنا المعنى الذي وجد هوى في نفسه. فلماذا رجحّ معنى الاطراف للمثاني ولم يرجحّ معنى التكرار؟ هذا مانطالبه بالإجابة عليه إجابة منطقية معقولة.

وننتقل إلى ماقاله من (أنه كان لكل سورة مثناة أي طرف) ثانياً، إنه كتب (كان أن توجّب أن يكون لكل سورة مثناة أي طرف)، ووفقاً لرأيه هذا فإنه يجب أن نعثر على (١١٤) طرفاً على عدد سور القرآن المجيد، ولكن الدكتور شحرور نفسه يقيد هذا العدد بسبع اطراف أي سبع مثاني. وهل يجوز لباحث مثله أن يمر على هذا التفاوت مرور الكرام؟ أم أنه لايخطر بباله مثل هذا السؤال؟

لنستمع إلى ماكتب: (بما أن الكتاب واحد، وبما أنه مؤلف من ١١٤ سورة فيلزم أن تكون السبع المثاني، هي سبع فواتح للسور، كلٌّ منها آية منفصلة في ذاتها).

ونسأله: ومن أين جاء (لزوم) أن تكون السبع المثاني هي سبع فواتح للسور؟ وماهو مبرر هذا (اللزوم)؟ مادام العدد ١١٤ سورة فاللزوم أن تكون هناك مائة وأربعة عشر مثاني إذا أخذنا بمعنى الأطراف على حد ترجيحك، أما أن يكون عدد السور ١١٤، ولايكون لها إلاّ سبع أطراف مثاني، ولاتوجد سواها أطراف غير مثاني لتساوي عدد ١١٤ فأمر مستغربٌ ولايستعمل له لفظ (لزوم)، ونترك للقارىء أن يتفكر ويتحزر لعله يتفق مع هذا (اللزوم).

ونسأله أيضاً: وماهو مبرر أن تقول: (كلٌّ منها آية منفصلة في ذاتها)؟ نسأله: ماهو مبرر هذه الإضافة وهي ضرورة كون كل طرف من السبع المثاني آية مستقلة بذاتها؟

إننا سلمنا معك جدلاً للمرة الأولى بأن المقصود من المثاني الأطراف، وسلمنا معك جدلاً للمرة الثانية بأن المقصود من هذه الأطراف فواتح السور. وتطالبنا أن نسلم معك للمرة الثالثة، وجدلاً، بلزوم أن تكون هذه الأطراف آيات مستقلات، ومن دون أن تقدم لنا أي مبرر مقنع في جميع الحالات. تضطرنا في هذه الحالة لرفض جميع مسلماتك المذكورة، لافتقارها إلى الاسناد والبراهين.

ويكفي أن نقول أن هذا الشرط الأخير يتنافى والوقائع الملموسة كلية، فانظر إلى أصابع يديك، هل تلاحظ أن أطرافها مستقلة عن يدك بحال من الأحوال. أم تراها جزء لايتجزأ من يدك الفاضلة؟ أم إنك ستزعم بأن أصابع يديك من دون أطراف؟ وبكل أدب نرجوك أن تتراجع عن شرطك الأخير. الذي يؤسفنا أن نراه باطلاً، فلا يجوز لك ولالسواك أن يفترض كون السبع المثاني آيات مستقلة، وفواتح للسور وتعني سبعة أطراف، ومن دون أن يؤكد فروضه التي افترضها بأدلة قاطعة تقلبها إلى حقائق ناصعة لاغبار عليها.

والحق أني تساءلت في نفسي طويلاً: كيف يحاول الدكتور شحرور هذه المحاولة ذات الشعب الثلاث، فهل هي مجرّد كبْوة. أوليس في ذلك تعجّل وتسرّع لايتّسع لهما هذا المقام؟.

ونتيجة لمتابعتي ماكتب تبين لي أن الدكتور شحرور قد حاول فرض هذه الفرضيات علينا ليصل بنا إلى شيء لاعلاقة له بالسبع المثاني من قريب ولامن بعيد. إنه فضح نفسه عندما كتب على الصفحة (٩٩) (تؤيد ماتوصل إليه المحدثون من علماء اللغويات واللسانيات، من أن العدد (١١) يشكل الحد الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم، وإنهم يمثلون لها بلغة البروتوكاس (Protekas) وهي لغة أهل سيشل.).

أرأيتم كيف أراد أن يربط مابين السبع المثاني ومابين العدد (١١) للحروف، ومابين لغة البروتوكاس، ليخرج من هذا كله إلى نتيجة وهي أن "قراءته المعاصرة" إنما تؤول السّبع المثاني، على أساس منهج علمي مدروس يوفق مابين كتاب الغيب، ومابين آخر ماتوصل إليه العلم من فرضيات حتى ولو كانت هذه الفرضيات اللسانية المعاصرة لم تكتسب حتى الآن صفة الحقائق العلمية، لأنه لربما تكتشف في المستقبل لُغات لأقوام قد بادت، وكانت ذات لغة لها حروف أقل من العدد (١١) وتكون إنسانية أيضاً.

ونقول إذا كان الدكتور شحرور، فيما يريد أن يوصلنا إليه، على حق فإنه يستحق منا ومن جميع مسلمي العالم الشكر والثناء، أما وأننا قد رأيناه ينتقي لكلمة [مثاني] معنى الأطراف، من دون أن يثبت صحة هذا المعنى وتوافقه مع تسلسل الآية الموضوعي، ومن دون أن يربطها بسباقها وسياقها من آيات، ومن دون أي تبرير مقبول لعدم وجود أطراف لجميع سور القرآن البالغة ١١٤، ومن دون تبرير قوله بلزوم كون طرف السورة آية مستقلة.

أما وقد رأيناه يحاول أن يفرض علينا "لزومياته"، من دون أية مناقشة لها من جانبنا، ومن دون أن يقدم لنا مايبررها ويثبت صحتها. إن هذه الأمور مجتمعة تستلزم منّا ألاّ نُسلّم بهذه اللزوميات مادامت لم تُبن على دعائم محكمة من لغة أو منطق. وتشكل مؤشرات غير صحية في نظرنا، وترسم في اذهاننا علامات استفهامات كبيرة حول "لزومياته" و "نهجه" في قراءته المعاصرة، فليتفضل، وليبرر "لزومياته" المذكورة بشكل معقول ومقبول.

لقد بينت لكم من قبل أن كلمة (مثاني) لاتحمل معنى واحداً ولامعنيين، بل إن لها معاني عديدة. كما بينت لكم المعنى الذي يتوافق مع الآية بطولها، ومع تسلسل السورة الموضوعي، وأن جميع معاني (مثاني) الأخرى غيرمقبولة في هذا المقام.

والمدهش ألا يحاول الدكتور شحرور نفس محاولتي ونراه يذهب إلى معنى لايتوافق والتسلسل الموضوعي، بل يصبح معه معنى الآية نشازاً. إن معنى الأطراف الذي انتهى منه إلى اعتبار السبع المثاني، كأحرف مقطعات، هي ماإصطلح الله تعالى على تسميته (أحسن الحديث)، وبسبب كونها تمتاز عن القرآن من حيث معلوماتها العلمية بالرغم من كونها سبع آيات، وكون القرآن مؤلفاً من مئات الآيات.

المدهش ألا يحاول الدكتور شحرور محاولتي كباحث، والأعجب من ذلك أنه بمزاعمه هذه قد أتى بعدة ادعاءات لابد من مناقشتها موضوعياً قبل اقرارها. ولابد من تقديم البراهين القاطعة على صحتها، حتى تعود مقبولة ومُسلّماً بها من الباحثين العقلاء، والمؤسف أنني لم اعثر فيما كتبه على مناقشة هذه الادعاءات ولا على أدلة اثباتها وبراهين منطقيتها. فلماذا هذا الإهمال؟

والاغرب من هذا وذاك أن يستدل حضرته بنفس الآية مرة على وجود كتاب القرآن، ومرة أخرى على وجود كتاب السبع المثاني، في وقت يعترف هو نفسه أن القرآن هو غير السبع المثاني، وأن السبع المثاني هي (أحسن الحديث).

وقد كنت شرحت لكم معنى هذه الآية الكريمة، ومن خلال مابينه اللغويون من معاني لكلمة (مثاني) تناولت المعنى الذي اعطى الآية وضوح معنى، وانزلها منزلة منسجمة مع تسلسل السورة الموضوعي. ولكل واحد أن يقارن مابين ماشرحته ومابين هذه الادعاءات التي أتى بها الدكتور شحرور، من دون تقديم أية مناقشة لها. ومن دون تقديم أي دليل يدعمها.

وأطرح على القارىء الكريم هنا سؤالاً وجيهاً وهو هل أنه إذا سُمع رجلٌ يتمتم بأحرف مصففة، ودون النطق بأية كلمة توضح معنى هذه الأحرف.

أتطاوعكم انفسكم على الزعم بأن هذا المتمتم بهذه الأحرف "يتحدث" أم انكم تقولون أننا نسمعه يتمتم؟

إن الحديث يتألف عادة من جُمل وكلمات واضحة. أما النطق بأحرف مجردة فلايدخل فيما نسميه حديثاً لا من قريب ولا من بعيد". أما كتاب القرآن العظيم هو في نظره مجرد "حديث" إنه خصص من كتابه صفحتين ونصف ليشرح لنا كلمة (كتاب)، وفي ادعائه الآنف الذكر لم يخصص أكثر من سطر واحد حيث قال (ولكن جاءت بطريقة تعبيرية

مختلفة عن طريقة القرآن) أي أن السبع المثاني هي طريقة تعبيرية مخصوصة ليس إلاّ، ولاحاجة لإثبات هذا القول بشكل من الأشكال، على هذا القياس قيسوا "قراءة الشحرور المعاصرة".

وكنت قلت لكم إن هذا الأخ المسلم، كان يهدف من جميع محاولاته هذه، أن يصل بنا إلى أن معلومات السبع المثاني أو المقطعات، علمية وتتوافق مع لغة أهل سيشل التي لاتتجاوز أحرفها أحد عشر حرفاً، وهاكم تفصيل ماذكرت.

زعم أولاً أن السبع المثاني هي (الم، المص، كهيعص، يس، طه، طسم، حم) زعم هذا من منطلق "لزومياته" التي لايسندها برهان ولادليل، وهي أن تكون (المثاني) آية مستقلة.

إنه لم يفسر لنا أمر انتخابه لأحرف المقطعات هذه، وإهماله جميع الآيات المستقلة التي ابتدأت بها سور القرآن المجيد. إذ المفروض أن تكون للسور أطراف بعددها أي (١١٤) طرفاً. كما أنه لم يقدم لنا مبرراً يبرر لزوم أن يكون طرف السورة آية مستقلة.

وواجه مشكلة وهي أن سورة الشورى ابتدأت بـ (حم، عسق) خلافاً لبقية السور. وأهمل (عسق) على اعتبار منه أنها جملة مستقلة غير (حم) التي هي جملة مستقلة أيضاً في نظره، أهمل (عسق) دون أن يبين لنا معنى كلا المقطعين (حم وعسق). فكيف تكونان جُملتين وهما خمسة أحرف فقط؟ وهل يجوز لباحث أن يمر على هذا الأمر مرور الكرام من دون مناقشة وتقديم الدليل المقنع. أم إنه لاحظ التنقيط بين (حم) وبين (عسق)، فاعتبرهما جملتين من دون أي نقاش؟ سلّم بهما كجملتين لأن ذلك الأمر وافق ظناً أو حدساً أو هوى لديه.

وواجه مشلكة أعظم. مادامت السبع المثاني هي هذه الأحرف المقطعة السبعة التي ذكرها. فماذا يفعل ببقية أحرف المقطعات التي ابتدأت بها سور القرآن العظيم؟ إنها مقطعات على كل حال، ولايجوز إلا الكلام عنها وربطها بالسبع المثاني بشكل من الأشكال، وإلاّ فإنها تشكل ثغرة لديه ولايجوز السكوت عليها، وهذه الأحرف هي (الر، المر، طس، ن، ق، ص) بالإضافة إلى (عسق) التي أهملها.

أفادته "لزومياته" على اعتبار أن هذه الأحرف جزء من آيات، ولاتشكل آيات مستقلة في نظره، ومادام هو يريد أن يتوصل إلى سبعة أطراف فقط ليقول إنها السبع المثاني. ومادام قد نخّل المقطعات واكتفى بسبع منها، فليكن من أمر هذه مايكون.

هنا جلس صاحب "القراءة المعاصرة" يستريح من عناء معاناته الطويلة، وقد استفاد من استراحته هذه، حيث قلبها إلى "رياضة" وهذه "الرياضة" هي القيام بجملة استنتاجات أخيرة مما توصل إليه حتى تلك اللحظة.

والهكم ماتوصل إليه من استنتاجات لاحظناها على الصفحة (٩٨):

(أول مانستنتجه من حروف (أصوات) السبع المثاني مايلي:

١- أنها أعطت "مقاطع صوتية" يتألف منها أصل الكلام الإنساني، وليس اللغة العربية فقط).

ونتناول هذا الاستنتاج قبل الانتقال منه إلى سواه، فنقول ماشاء الله، إنه لاستنتاج عظيم ومدهش، ولايستطيع التوصل إليه سوى صاحب "القراءة المعاصرة" يقيناً. "السبع المثاني" كأصوات، أعطت "مقاطع صوتية"، ويتألف منها أصل الكلام الإنساني، وليس اللغة العربية فقط، كلام جميل ومنمق، لكنه غير مفهوم. كيف انقلبت "السبع المثاني" وهي "أحسن الحديث" إلى كونها أعطت "مقاطع صوتية" وأصل الكلام الإنساني؟ ولاحاجة لمناقشة هذا الاستنتاج، لأنه فوق فهمنا جميعنا، ولننتقل لنستمع إلى استنتاجه الثاني، قال:

٢- إن عدد الأصوات الأحد عشر، في الآيات السبع الفواتح، تشكل الحد الأدنى لأي كلام إنساني، أي أنه "لايمكن" أن توجد لغة إنسانية، يُقال عنها لغة، إلا إذا كانت أصواتها الأصلية من أحد عشر صوتاً على الأقل، و "يؤيد" هذا ماتوصل إليه المحدثون من علماء اللغويات واللسانيات من أن العدد (١١) يشكل الحد الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم ويمثلون لها بلغة البروتوكاس، وهي لغة أهل سيشل).

ونقول هنا أيضاً ماشاء الله، وهذا استنتاج ثانٍ عظيم ومدهش، ولايستطيع التوصل إليه سوى صاحب " القرآءة المعاصرة" يقيناً. السبع المثاني كأصوات أعطت "مقاطع صوتية" أولاً، واعطت "أحد عشر صوتاً" ثانياً، وهذا هو الحد الأدنى لأي كلام إنساني، وتوافق هذا مع ماتوصل إليه علماء اللغويات واللسانيات.

وتساءلت كيف توصل إلى رقم (١١) أحد عشر صوتاً. عددتُ أحرف السبع المثاني فكان عددها (٢١) إحدى وعشرين صوتاً، حذفت منها الأحرف المتكررة فبقي منها (١١) أحد عشر صوتاً.

وكأن السبع المثاني لغة مستقلة، احتوت على أحد عشر صوتاً، ولكن كيف خطر لهذا الأخ المسلم أن يعتبر (أحسن الحديث) لغة مستقلة، وركبت جميع "المثاني" فيها من أحد عشر صوتاً؟ أجبت نفسي بأنه لو لم يكن الدكتور شحرور بارعاً في فن "التخمين والحرز" وماهراً في حلّ "التمتمات والشيفرات" لما كان باستطاعته التوصل إلى هذه الاستنتاجات المدهشة "الأخاذة" بجامع القلوب، إنه ربط مابين السبع المثاني، كأطراف للسور، وكأحرف صوتية، بآخر ماتوصل إليه علماء اللغويات واللسانيات، ليثبت من ذلك كله أن السبع المثاني تحتوي على معلومات علمية تفضُل مايحتويه القرآن العظيم من معلومات علمية، على كثرة آياته وقلّة آيات السبع المثاني، وحتى نؤكد بذلك أن الواو العاطفة في آية [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] قد عطفت المتغايرات ولم تعطف الخاص علي العام، وحتي نؤكد من وراء ذلك كلّه ضرورة كتابة "قراءة معاصرة" في كل عصر من العصور، لنساير ركب العلم ومنجزاته.

شيء مذهل حقاً، لو نوقشت مفرداته من قبله، وأُيدّت كل واحدة فيها بدليل قاطع الدّلالة، وبرهانٍ ساطعٍ تراه الأعين العاقلة لكانت مقبولة مبدئياً، ولكني أقول بأسف شديد إن هذه الاستنتاجات ارتكزت كما رأينا جميعنا على "لزوميات" واهية، وافتراضات واهنة ولاتقوم على أساس، وعلى "لايمكن" و "يؤيد" وعلى "غربلة" ونتائج "مسبقة الصنع" ولاأدري كيف تقوم هذه كلها وتستقر على "رمال متحركة" ذات قراءة معاصرة تصدر عنها كل حين بإذن من الدكتور محمد شحرور.

واغمضت عيني، فلم تطاوعني نفسي لمتابعة هذه الاستنتاجات.

ذكرت لكم المشاكل التي واجهها صاحبنا، والطريقة التي حل بها معضلاتها، وهو الذي استثنى أحرف المقطعات (الر، المر، طس، ن، ق، ص) التي لم يعتبرها فواتح، بل أجزاء من آيات. وفكر حضرته بالإستفادة من هذه الأحرف ليغني قراءته المعاصرة، وتوصل إلى اكتشاف جديد، حيث شرح هذا الاكتشاف على الصفحة (٩٨) بقوله: (فنرى أن فيها ثلاثة حروف "أصوات" غير موجودة في آيات السبع الفواتح، وهي ١- القاف، ٢- الراء، ٣- النون... ومن هذه الأصول تتألف كلمة (القرآن) لأن كلمة القرآن مشتقة من قرأ. ومعني قرأ الجمع كما في المقاييس... فالقراءة والقرن جمع، وفيها استقراء ومقارنه).

علمية، وقد كان من الواجب عليه هنا، وعلى أقل تقدير أن يأتي بمعلومة قرآنية ومعلومته التي استخلصها من معنى سبع المثاني، وأن يقوم بمقارنتهما وموازنتهما،وإثبات علميتهما وأفضلية الواحدة علي الأخرى، فهذا ماتقتضيه الروح العلمية على أقل تقدير، والعجيب أنه بالرغم من ادعاءاته العلمية في البحث، فإننا رأيناه يفتقر إلى الأدلة، ويعتمد اسلوب "اللزوم" وطريقة التخمين والحزّر.

أما وجهة نظري فهي وجهة نظر رسول الله ﷺ نفسها، والتي رواها لنا أبو هريرة رضي الله عنه (عن النبي ﷺ أنها - أي سورة الفاتحة - هي السبع المثاني، وأم القرآن، وفاتحة الكتاب، وسميت كذلك لأنها تثنى في كل ركعة)، وأيد وجهة النظر هذه، مما وصلنا، عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وجماعة من جمهرة علماء المسلمين.

وهناك من أضاف إلى معنى التكرار للمثاني، معنى الثناء على الله عز وجل، حيث أجازه الزجاج والنحوي، واعترض عليه ابن عطيه على اعتباره مخالفاً لقواعد الصرف، لكن أبا حيان ردّ علي ابن عطيه معتبراً "مثاني" جمع مُثنى، وعلى وزن مُفعل، الرباعي من أثنى، وقال أنه يعني الثناء، وقد رأيتم كيف عَمَدَ صاحب كتاب المقاييس إلى عدم انكار معنى التكرار "للمثاني". في وقت رأينا صاحب القراءة المعاصرة يغمض عينيه عن هذا، مرجحاً معنى الأطراف للمثاني بدون قرينه ترجيحية مقبولة.

على هذه الصورة تكون وجهة نظر رسول الله ﷺ التي لاتُردّ بالنسبة إلى جميع الصحابة ومن على مسيرتهم، هي الصحيحة لغوياً، فقد اعتمدت معنى التكرار لكلمة "مثاني"، ولم تعتمد معنى الطرف بحال من الأحوال.

ولما كان ماطرحه صاحب القراءة المعاصرة، لم يُطرح على هذه الشاكلة في عهد رسول الله ﷺ فلا تكفينا المنقولات من النصوص لإثبات وجهة نظرنا بشكل مفصل. لذلك فسأحاول سد هذا النقص على قدر ماآتاني الله تعالى من علم واستطاعة تعبير، وتكون خطواتي كالتالي:

أولاً - اعطيكم ملخصاً عن موضوع سورة الحجر ومساره ومحل الآية موضع بحثنا فيه.

ثانياً - شرح آية سبع المثاني نفسها شرحاً يفيدنا في تأييد وجهة نظرنا.

ثالثاً - ربط معنى آية سبع المثاني بالتسلسل الموضوعي لسورة الحجر، حتى تطمئن أفئدتكم

إلى صحة وجهة نظرنا، لإنسجامها مع هذا التسلسل الموضوعي.

رابعاً- إثبات أن معنى صاحب القراءة المعاصرة لاينسجم مع التسلسل الموضوعي بل يشرحه.

أولاً- ابتدأت سورة الحجر بالإنباء عن أن الآيات النازلة في مكة ستتخذ شكل كتاب، بالمفهوم العام، وإن هذا الكتاب سيكون مقروءاً بكثرة، لامتيازه بكمال الخصائص وقوة البينات.

وفي الآيات (٢-٩) شرح سبحانه وقع هذا النبأ الغيبي في نفوس المشركين، ووعد في الآية العاشرة بالمحافظة على هذا الكتاب بتيسير جميع الأمور التي تحقق ذلك.

وفي الآيات (١١-٢٦) توجه سبحانه وتعالى منذراً كل من سيحاول التصدي لهذا الكتاب من المشركين، من أنه سيواجه نفس ماواجهه المكذبون لكلام الله من قبلهم، على اعتبار أن الله تعالى غيور على كلامه الزاخر بما يفيد ترقية عباده المؤمنين، خصوصاً وأن بيده أسباب الإماته والإحياء.

وفي الآيات (٢٧-٨٧) ضرب عدة أمثلة من ماضي الأمم في هذه المنطقة ليتعظ من خلالها من شاء أن يتصدى لكتاب الله العظيم، فقد ضرب مثل بعثة آدم. وبعثات لوط، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر، لأن مناطق سكن هذه الأقوام واقعة على طرق مواصلات المشركين من أهل مكة، لأن أخبارهم غير بعيدة عنهم. ونبههم سبحانه وتعالى إلى أنه لايضره هلاك هؤلاء لأنه هو الخلاق العليم، لايهلك قوماً إلى ويخلق بدلاً عنهم (وعليم)، كيف يستبدلهم بأحسن منهم.

وبعد أن فرغ سبحانه من ذلك كله، عاد بالحديث إلى النبأ الغيبي الذي ابتدأ به سورة الحجر، وذلك في الآية (٨٨)، مبشراً الرسول وأصحابه أن اكتمال هذا الكتاب بات على الأبواب، وأنه في طريقه إلى الظهور، وأنه عطاء من الله لهم لايماثله مالدى مكذبيهم من متاع وعتاد، مضيفاً مزية خامسة لهذا الكتاب، ماامتاز بها كتاب كاتب من قبل، وهي أن مقدمة هذا الكتاب تتألف من سبعة آيات. وبالرغم من قلة عدد هذه الآيات، فإن هذه المقدمة تكاد توازي القرآن العظيم في خزائنها العلمية، فهي خلاصة تعاليم القرآن العظيم، وبسبب عظمتها هذه فقد أمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يكرروا تلاوتها في كل ركعة من صلواتهم لأنها فاتحة كتاب الله ومفتاح علومه وخلاصة بركاته الروحية.

وفي الآية (٨٩) أكد عز وجل شأن هذا العطاء الذي لايوازيه أي متاع لدى الكافرين.
وفي الآيات (٩٠-٩٧) حث سبحانه وتعالى رسوله والمؤمنين على الثبات على طريق المجاهرة بالدعوة، غير هيابين بين مايواجهونه من قبل مكذبيهم وأقسم عز وجل لرسوله أنه ليعاقب هؤلاء، آخذاً مسؤولية ذلك على نفسه.
وفي الآية (٩٨) رفع سبحانه وتعالى من معنويات رسوله، موصياً إياه ألاّ تؤثر فيه الوسائل الإعلامية التي يقودها مكذبوه ضده، كما أوصاه في بقية آيات السورة بالاعتماد دوماً على الدعاء كوسيلة أساسية وحتي النفس الأخير، وأن يهتم بتربية المؤمنين لتأهيلهم لحمل المسؤوليات القادمة.
على هذه الصورة تلاحظون وجود تسلسل موضوعي واضح في سورة الحجر، ابتدأت بإعلان نبوءة، وتعرضت لوقع النبأ في نفوس المكذبين، وأكدت أن النبوءة لابد واقعة وستتهيأ جميع وسائل المحافظة على الكتاب.
وضربت أمثلة تحذيرية من قصص أمم يعرفها المكذبون وتقع أمكنة أصحابها على طرق مواصلاتهم، من ثم عادت فأضافت ميزة للكتاب خاصة بفاتحته ملفتة أذهان المؤمنين إلى شأن هذه الفاتحة ومكانتها في عبادتهم، وأنها عطاء من الله عز وجل هي والقرآن العظيم لايوازيه عطاء، رافعة بذلك همم المؤمنين للمثابرة على تحمل كل ابتلاء للجهر بدعوة ربهم. منبهة إلى أن ربهم للمكذبين بالمرصاد، مؤكدة على رسول الله زيادة الدعاء لتحقيق هذه الأمور كلها في أقرب وقت ممكن بيقين كامل لاتزعزه الأعاصير.
ثانياً- ونتوجه الآن لتفهم مضمون قوله تعالى [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] وأول مانتساءله: لماذا التأكيد بحرف [ولقد]؟ وقبل الإجابة ننتقل إلى [آتيناك] فهي تعني وبصيغة الماضي، سُقْنا إليك. ولكننا نعلم أن اكتمال نزول القرآن حدث في المدينة وليس في مكة. وهذه الآية مكية، هذا الأمر يدلنا على الحكمة من ايراد حرف التأكيد (ولقد). فالله سبحانه شاء أن يفهم رسوله الكريم بأن اكتمال هذا الكتاب أضحى يقيناً، وهكذا يكون قد ورد التأكيد من ناحيتين: الناحية الأولى هي أن نبوءة ظهور الكتاب ماكانت خاصة ضرورية، والناحية الثانية هي أن سباق الكلام وسياقه اقتضى هذا التأكيد.

أما من حيث الناحية الأولي فصحيح أن نبوءة افتتاحية السورة اشتملت على جميع الصفات العامة البارزة للكتاب بدون الدخول في التفاصيل، ومعلوم أن الكتاب هو عبارة عن مقدمة وموضوع وفاتحة. ولمّا كانت هذه الصفة تدخل في خصوصيات الكتاب وليس في عموميات صفاته، لذلك اقتضى الأمر منه عز وجل أن يفرد لهذه الخصوصية آية كاملة يبرزها بواسطتها، ولذلك تدارك هذا في قوله [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم].

وأما من الناحية الثانية فإن سباق هذه الآية وسياقها اقتضيا ابراز هذه الصفة المتميزة لمقدمة الكتاب لتأكيد رجحان العطاء الإلهي على ماعند المشركين من متاع وعتاد، لذلك رأيناه سبحانه وتعالى، بعد هذه الآية يوصي رسوله ﴿ لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين.﴾. فهو أكد بوصيته رجحان ماأصبح لدى المؤمنين على مالدى الكافرين، لأن المال الحقيقي هو هذه التعاليم التي لايتحقق تقدم الأمة دونها.

وإن في قوله تعالى: ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين﴾ تنبيه إلى ضرورة تثقيف المؤمنين بما نزل من تعاليم حتى تلك اللحظة، وتحمّل كل مايساعدهم على هذا الأمر، إشارة إلى مكانة المرحلة المقبلة. وهي ماكان مقدراً في علم الله عز وجل من أمور الهجرة إلى المدينة وتأسيس أول دولة إسلامية في تاريخ الدعوة. ولايستطيع المؤمنون تحمل مسؤوليات هذه الدولة مالم يكونوا قد تثقفوا بعلوم الإسلام وتهذبوا بها تهذباً صحيحاً وكاملاً.

هذا كله فيما تعلق بقوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك﴾، وأضاف سبحانه قوله ﴿سبعاً من المثاني﴾؟ ويراودنا هناسؤال وهو: لماذا قال سبحانه [سبعاً من المثاني] ولم يقل (سبع مثاني)؟ فالسؤال: لماذا أورد (سبعاً) منونة؟ ولماذا أورد (المثاني) معرفة بالألف واللام؟ ولماذا فصل بينهما بحرف (من) البعضية؟ هذه نقاط ثلاث لابد من تفسيرها وبيان حكمها.

أما بالنسبة للنقطة الأولى، فالجواب أن التنوين أداة إظهار عظمة الشيء وفخامته، وجاء تنوين [سبعاً] في هذه الآية تنبيهاً إلى عظمتها وفخامتها.

وأما بالنسبة لكلمة (مثاني) وإضافة الألف واللام في أولها، فالجواب أنالألف واللام لم ترد هنا تعريفاً للمثاني، بل وردت زائدة ولتنكيرها.

فكانت الألف واللام لازمة هنا لغلبة المعنى لما هي له في الأصل. ذلك أننا نذكر سورة الزمر، والآية (٢٣) منها بالذات، والتي تكلمنا عنها من قبل، وكيف أنها استعملت صفة (مثاني) للآيات المحكمات التي تضمنهن كتاب الله العظيم. وقد جيء هنا في قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ بنفس الصفة المذكورة مضافاً إليها الألف واللام لتنكيرها كما قلت على أنها صفة غالبة على الآيات المحكمات.

وأما بالنسبة إلى (من) البعضية، فقد أوردها سبحانه وتعالى لغرضين اثنين، الغرض الأول لتنكير مجرورها وقد ذكرناه، والغرض الثاني التنبيه إلى أن العدد [سبعاً] يقصد به سبع آيات محكمات تشكل سورة الفاتحة ومقدمة الكتاب العظيم الذي تنبأت به آية سورة الافتتاحية، على اعتبارها أن جميعها آيات محكمات.

على هذا الأساس من الفهم نقول أن الواو العاطفة مابين [سبعاً من المثاني] ومابين [القرآن العظيم] قد عطفت متغايرات، ذلك أن فاتحة الكتاب بهذا المعنى الذي ذكرناه أضحت شيئاً، وأضحى القرآن العظيم شيئاً آخر، فالقرآن العظيم عُطف على مقدمته لاستقلال هذه الفاتحة من جهة ولكونها جميعها آيات محكمات من جهة ثانية، ولاحتوائها على معارف واسرار القرآن العظيم بصورة إجمالية من جهة ثالثة، ففاتحة الكتاب بهذه المزايا استحقت أن تُقدم في الآية التي نحن بصددها، على القرآن العظيم.

وهكذا، ومن خلال ماذكرت، نكون قد وجدنا جواباً شافياً على سؤالنا الذي طرحناه، وهو: لماذا قال تعالى [سبعاً من المثاني] ولم يقل (سبع مثاني)، فلو أنه عز وجل كان قد قال (سبع مثاني) لكان رأي الدكتور شحرور مقبولاً ومحتملاً، أما وقد قال سبحانه [آتيناك سبعاً من المثاني] فقد ضخم من منزلتها، واعتبرها آيات محكمات جميعها، ووازى علومها بعلوم القرآن العظيم.

واستناداً إلى هذه الأمور، رأينا كيف أن رسول الله ﷺ نفسه، ذهب إلى أن المقصود من السبع المثاني فاتحة الكتاب بالذات.

وإننا نأخذ بمعنى التكرار لكلمة مثاني أيضاً، لأنه معني يفسر لنا سر قول رسول الله ﷺ (لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب) فلابد من تكرار سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعات صلواتنا، فهي مثاني بهذا المعني.

وإننا إذا أخذنا لكلمة مثاني معنى الثناء، فاننا لانجد وسيلة أعظم من سورة الفاتحة للثناء على الله عز وجل، من هنا نفهم سر ورود نبوءات خاصة متعلقة بنزول سورة الفاتحة في الكتب السماوية السابقة أيضاً.

وننتقل إلى قوله تعالى: ﴿والقرآن العظيم﴾ متسائلين: وماهي حكمة وصف كتابه القرآن في هذه الآية بصفة [العظيم]؟ والجواب هو أن الله عز وجل لخص في هذين اللفظين [القرآن العظيم] الصفات الأربع العامة التي تضمنتها نبوءة آية الافتتاحية. فكلمة [القرآن] احتوت هنا صفتي الكتاب وإنه سيصبح مقروءاً بكثرة ظاهرة، وأن كلمة (العظيم) احتوت صفتي كمال الخصائص والبينات، حيث اشار تعريف القرآن إلى كتاب، واشار تعريف (العظيم) إلى كمال الخصائص.

وبهذه الصورة يكون الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ قد عاد يبحث نفس موضوع نبوءة آية الافتتاحية لينبه رسوله إلى أن هذا الكتاب الذي بشره بظهوره، تمتاز مقدمته وفاتحته بامتياز ما امتازت به مقدمة وفاتحة أي كتاب آخر. فهي بالرغم من كونها مؤلفة من سبع آيات فإنها أجملت جميع معارف القرآن، وجاءت على أسلوب محكم ماشابهه اسلوب، هذا مافتحه الله سبحانه عليّ من معاني هذه الآية، ولاهادي إلا الله.

ثالثاً- والآن لنربط معني هذه الآية الكريمة بسباقها وسياقها، وننظر مدى ارتباطها بهذا السّباق والسّياق موضوعياً. حتى إذا اطمأنينا إلى انسجامها نكون قد اطمأنينا في الوقت نفسه إلى ماقدمناه من معانٍ للآية المذكورة.

نلاحظ أنه سبحانه وتعالى قد ضرب عدة أمثلة من تاريخ أمم ماضية حتي يتّعظ المكذبون بما كان منها ومن عواقبها. ونلاحظ أنه سبحانه انتهى من ذلك ليقول ﴿فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴾ ثم اتبع ذلك قوله ﴿ وماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل، إن ربك هو الخلاق العليم، ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

وأول مانتساءله هنا: مامعنى كلمة (الحق)؟ وقد بين اللغويون لكلمة (الحق) معاني عديدة منها: الحق ضد الباطل. والحق هو الأمر المقضي، والعُدل، والملك، والموجود الثابت،

واليقين بعد الشك، والموت، والحزم. ولقد ضربوا لنا من آيات القرآن الكريم أمثلة على جميع هذه المعاني لامجال لذكرها.

ونتساءل مامعنى الصفح الجميل؟ وقد بين اللغويون أنك إذا قلت: صفح عنه معناه اعرض عنه وتركه وحقيقته وولاه صفحة وجهه وصدّ عنه، وأعرض عن ذنبه، وعندما تقول: صفح الناس: تعني نظر في أحوالهم، وصفح في الأمر نظر فيه، والصفح هو مصدر، ومعناه الجانب من الإنسان. وإننا، استناداً إلى معاني كلمتي الحق والصفح المذكورين ندرك معاني آيات السباق - التي أوردناها - فالله سبحانه وتعالى ينبه ويقول أفلا ينظر المكذبون إلى ماهو كائن مابين السماوات والأرض ومابينهما من ارتباط وثيق يستحيل فصمه وتفتيت عراه بأي شكل من الأشكال؟ أفلا يرون كيف أن الأرض بحاجة إلى السماء وامطارها ورياحها وشمسها وقمرها ونجومها وكل مافيها، وإن الأرض آيلة إلى الموت والزوال إذا انقطعت عنها السماوات بأشيائها هذه؟ فلم لايقيسون الأمور الروحية على الأمور المادية؟ ولم لايتعظون بهذا الأمر من خلال ماجرى للأمم التي سبقتهم؟ والتي ذكرناها، وتقع مساكنها على طرق مواصلاتهم؟ ألا فليعلموا أنه لاحياة للنفوس البشرية دون مدد وحي السماء. هذه حقيقة ثابتة من خلال تواريخ الأمم التي ذكرناها. فماثبت في النهاية إلا ماشاءت السماء أن يثبت في الأرض، هذا ماكان نتيجة صراع الكافرين مع رسل الله ورسالاته. فقد حاقت بهم عاقبة السوء و ﴿ما اغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴾. ومادام مشركوا مكة وسواهم يسيرون على نفس خطى هؤلاء فإن الساعة، ساعة زوالهم لآتية عليهم يقيناً، وإنه من الله عز وجل وعظ وانذار وإقامة للحجة عليهم أجمعين.وهنا لاحظنا كيف توجه الله عز وجل بعد هذا الوعظ والانذار بخطابه إلى رسوله الكريم بقوله ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ فإذا تذكرنا أن سورة الحجر قد نزلت في أواخر سنوات الحياة المكية، نزلت عندما بلغ اضطهاد المشركين للمؤمنين ذروته، ندرك حكمة هذا الخطاب الإلهي الموجه إلى رسوله الكريم، فهو يعني أنه ماعاد هناك من رجاء من مشركي مكة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى قدر لرسوله أن يهاجر من مكة. إذ أعدّ له أهل المدينة المنورة لقبول دعوته وتأسيس دولة اسلامية قوامها مايتنزل عليه من تعاليم عظيمة، وهذه الأمور أثبتت صحتها الأحداث التاريخية المعروفة ولاحاجة للتدليل عليها بدليل اعظم من ذلك.

والمعلوم أن تأسيس دولة يتطلب جهازاً صالحاً ومثقفاً يتحمل مسؤوليات الحكم وهذا الأمر بالذات كان وراء قوله عز وجل ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ أي وفر أوقاتك بعد اليوم لإعداد هذا الجهاز الذي ستحتاج إليه بعد الهجرة، وقلل من نشاطك تجاه تبشير المشركين، وانتقل في هذه الخطوة باتزان وحكمة فائقين. وأنت معتقد بأن ساعة هؤلاء المكذبين قد أضحت على الأبواب. وإن ربك هو الخلاق العليم، فهولايأبه لزوال هؤلاء لأنه خلاق وعليم أيضاً.

وإن فكر الإنسان بعد سماعه لهذا التوجيه الإلهي، ينتقل آلياً إلى الدستور والقوانين التي يحتاج إليها تأسيس دولة من هذا النوع، لأن تأهيل الاجهزة الصالحة لبناء دولة لايتم ولايتحقق إلاّ بالإحاطة بمايتعلق بهذه التعاليم التي جاء بها هذا الدستور الإلهي.

ولقد جاءت الآيات منسجمة مع هذه الحركة الفكرية الطبيعية لذلك رأيناه عز وجل يعود بالذاكرة إلى ماافتتح به سورة الحجر من موضوع الإنباء عن ظهور كتاب كامل الخصائص ومقروء بكثرة ظاهرة ويحمل معه بيناته. أعاد إلى ذاكرة رسوله موضوع النبوءة المذكورة ليُعلمه بأن الكتاب العظيم المذكور قد حَمَلَ إليه الدستور الذي تقتضيه الدولة القادمة. واغتنمها سبحانه مناسبة ليزيد على مضمون تلك النبوءة شيئاً جديداً متعلقاً بمقدمة الكتاب المذكور، وليبين له أن فاتحة هذا الكتاب بالرغم من كونها مؤلفة من سبع آيات مُحكمات فإنها تمتاز بمزية ماسبق أن امتازت بها مقدمة أي كتاب آخر، وهذه المزية هي أن هذه الفاتحة تنفرد من القرآن العظيم بكونها آيات محكمات جميعها ولامثيل لها في تعاليم الأمم السابقة إلى جانب أنها تحتوي على كنوز ومعارف القرآن العظيم. وضرورة تلاوتها في كل ركعة من ركعات الصلوات، والتقيد بها بلا انقطاع، فلا صلاة دون تلاوتها في كل ركعة من ركعاتها، فهي مفتاح علوم القرآن العظيم للإشارة إلى هذه المزية التي تتمتع بها فاتحة القرآن العظيم نزل قوله عز وجل ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾.

ونلاحظ أنه سبحانه وتعالى، بعدما ذكّر رسوله بالدستور الذي أنزله ليكون قوام الدولة المقبلة، ومايمتاز به من مزايا عامة وخاصة، قال ﴿ لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

ومن خلال هذه الكلمات نلاحظه سبحانه وقد عاد إلى موضوع وعظه لرسوله ليصفح الصفح الجميل، وليتوجه إلى تأهيل الأجهزة التي هداها الله للإيمان به وبرسالته، تأهيلها بتعاليم هذا الدستور الذي سيأخذ شكل كتاب قريباً، مُبيناً لرسوله حقيقة علمية ثابتة تتلخص في أن المال والمتاع لايغنيان شيئاً إذا لم يقترنا بالمثل العليا وبالأخلاق، وبالإنسجام مع القوانين الكونية لافتاً نظر رسوله الكريم إلى أن بيئة المشركين خالية من هذه المثل العليا، وهذه الأخلاق وهذه المعرفة الكونية وقوانينها. لذلك عليه ألاّ يهتم بالفارق الكبير مابين جماعته ومابين مكذبيه، من الوجهة المادية، وعليه أن يتصرف من منطلق يقينه بأن ساعة هؤلاء وعاقبة السوء دائرة عليهم قريباً، فلايحزن عليهم لأنهم لايستحقون منه هذا الاحساس. وهذه اشارة إلى سمو أحاسيس رسوله الكريم الإنسانية بشكل لطيف. هذه معاني [لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم].

كما نبهه إلى أن تثقيف المؤمنين وتهيئة الأجهزة الصالحة يتطلب منه تحمل عناء ليس باليسير، فلايستطيع المربي النجاح في تربية تلاميذه وتأهيلهم إلا بتحمل مايصدر عنهم من ضعف، لذلك نصحه بقوله: ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

ومن خلال كل مابيناه يتجلى للقارىء الكريم التسلسل الموضوعي الكائن مابين سياق الآية التي نحن بصددها ومابين سياقها. وكيف هو منسجم إلى أبعد الحدود. ومن خلال هذا الإنسجام نوقن بأن مافهمناه من معاني ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ كان فهماً سليماً ومنطقياً، ومن روح التسلسل الموضوعي لسورة الحجر. وهكذا لايعود يخامرنا شك فيه، ويدفعنا هذا إلى رفض كل فهم مغاير له ومنافيه.

رابعاً- والآن فهيا نطابق مابين المعني الذي تخيله الدكتور شحرور ومابين تسلسل السورة الموضوعي، وننظر هل بالإمكان أن يتطابقا وينسجما. أم أنه سيبدو معنىً ناشراً لاعلاقة له بهذا التسلسل الموضوعي من قريب أو بعيد.

إننا نفترض أن الدكتور شحرور لم يخالفنا إلا في معنى سبع المثاني والقرآن العظيم. فهو يقّر معنا بأن الله سبحانه ضرب أمثلة من أمم خالية تقع مساكنها على طرق مواصلات أهل مكة. وأنه قال في النهاية ﴿ فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴾. ولفت نظر هؤلاء إلى مابين السماوات والأرض ومابينهم من ارتباط وثيق. وأنبأ أن ساعة هؤلاء آتية أيضاً. ونصح رسوله بهجرهم بقوله: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ وبعد

ذلك قال الله عز وجل لرسوله - على حدّ ماذهب إليه الدكتور شحرور - [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم] اي أننا سُقنا اليك سبع أطراف لسبع سور من أصل (١١٤) سورة من سور الكتاب. وهذه الأطراف سُقناها إليك بلغة تعبيرية مختلفة عن لغة القرآن العظيم. وقد احتوت على احد عشر صوتاً على عدد اصوات لغة أهل سيشل. ولقد اصطلحت على تسمية هذه الأطراف السبعة "أحسن الحديث" بالرغم من كونها أصواتاً وأحرفاً. بينما اصطلحت على تسمية القرآن العظيم اصطلاح "الحديث" فقط. هذا بسبب أن هذه المعلومات العلمية التي احتوت عليها هذه الإطراف السبعة تفوق وتفضل المعلومات التي احتوى عليها القرآن العظيم.

وعليك أن تعلم أن القرآن العظيم الذي سُقناه إليك أيضاً إنما هو مجموعة آيات متشابهات تشكل "كتاب الغيب" ولاعلاقة له بالأمور السلوكية والأخلاقية، ولايمكن فهم مضامينه إلا على أيدي الراسخين في علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك وعلم الأحياء وما إلى ذلك. وعليك ألا تعجب إذا قلنا لك أنك لاتقدر على فهم هذا القرآن العظيم لا أنت ولا أصحابك، لأنكم لستم من هؤلاء الراسخين في العلم، لذلك ﴿ فلا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم، ولاتحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

هاأني أنزلت لقارئي الكريم المعاني التي تخيلها الدكتور شحرور في تفسير الآية التي نحن بصددها، فهل شعر أحد من القراء بأي ارتباط كان مابين هذه المعاني، ومابين تسلسل سورة الحجر الموضوعي؟؟؟

وكنت قد ذكرت أن المؤمنين كانوا عند نزول هذه السورة مقبلين على مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية وهي الهجرة إلى المدينة وتأسيس دولة. فهل لما تخيّله الدكتور شحرور هذه أية علاقة بهذه المرحلة الحساسة من تاريخ الإسلام؟ ثم ماذا كانت هذه المعلومات تفيد الرسول ﷺ وصحابته إن كانت مجرد طلاسم بالنسبة لهم، ولايفهمها إلا "دارون" وأمثاله؟

فوا أسفاً على أن الدكتور شحرور أنه امضى قرابة عشرين عاماً على حدّ قوله، وقد اضاع هذه السنوات من عمره، ويحاول اقناع أمته أيضاً باخيلته التي لايدعمها منطق أو تسلسل موضوع، أو سندٌ صلب من لغة الضاد.

ما الذي حال بين الدكتور شحرور ومابين أن يطرح على نفسه سؤالاً وهو: لماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ سبعاً من المثاني﴾ ولم يقل ﴿ سبع مثاني﴾؟

ثم لماذا لم يطرح لنا الدكتور شحرور مثالين علميين احدهما من سبع المثاني وثانيهما من القرآن العظيم، ويوازن لنا بين أفضلية علمية الأولى على الثانية.

وأكثر من هذا وذاك لِمَ لَمْ ينظر الدكتور شحرور في موضوع إمكان انسجام معانيه المزعومة مع سباق الآية وسياقها ليؤكد لنا صحة مزاعمه؟

وتعالوا معي إلى ميزان آخر لتزنوا بواسطته ماجاء به الدكتور شحرور. فأنتم تعلمون أن سورة الزمر الآية (٢٣) وضعت لنا دليلاً وعياراً لتأثير الآيات (المثاني) فالله سبحانه وتعالى قال فيها: ﴿ الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فماله من هاد.﴾ ففي قوله عز وجل [تقشعر منه جلود الذي يخشون ربهم ثم تلين جلودهم إلى ذكر الله] هذا الدليل وذاك المعيار الذي نميز بواسطته صحة معنى (مثاني) التي أرادها الله تعالى منها.

واني اسأل قارئي العزيز أن يستذكر معاني (مثاني) كما بينها الدكتور شحرور، ويتحسس جلد جسمه هل تقشعر من هذه المعاني ومن ثم تلين إلى ذكر الله؟ هل تؤثر فيه هذا الأثر "لزوميات" و "تخمينات" و "أصوات أهل سيشل" و "تمتمات أحسن الحديث" ؟؟؟ ألا إن هذا ميزان دليل وعيار توزن به هذه "القراءة المعاصرة" التي مزقت تسلسل سور كتاب الله الموضوعي، وفرقت معاني آياته وأفرغت نصوصه من معانيها ومحتواها، لتلبسها أفكاراً ومصطلحات "مسبقة الصنع". هذه "القراءة المعاصرة" التي سودت تاريخ أمتنا، وصورت عُظماء أجدادنا غاية في سذاجة الرأي وعجزه وسخفه لم يفهموا من القرآن العظيم إلا قشوراً وترهات. هذه "القراءة المعاصرة" التي لم تأتنا من مستشرق حاقد. بل جاءتنا وللأسف الشد يد من "عُصارة" أيدي أخ يعتنق الإسلام. من أيدي مهندس مدني ليس بحث آيات الله من ضمن اختصاصه المشهور به. ولكنه اختص سنوات طوال في دراسة الرياضيات وعلم الاستفادة منها في التعمير والبناء، جاءنا من هذا الشخص الذي يدرك جيداً قيمة الاختصاص ودوره في العطاء، وهل نسي هذا الأخ المسلم ضرورة الاختصاص في اللغة العربية وعلوم الدين؟

الفصل الثالث

معنى كلمة نبوة ونبي

دراسة لغوية ونصوصيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث

مامعنى كلمة نبوة ونبي ؟

إذا أردنا الإحاطة بمعنى النبوة، وَجَب علينا فهم معنى كلمة «نبي» ولما كانت معاجم اللغة العربية هي مرجعنا في هذا المجال، وهي معاجم متكاملة في دلالاتها ومناهجها، فما كان يجوز لنا الاقتصار على معجم واحد منها.

وبالرجوع إلى جميع ماأوردته معاجم اللغة العربية بما يتعلق بكلمة «نبي»، ومصادر اشتقاقها، تبّين لنا أن اللغويين قد ذهبوا إلى إمكان اشتقاق هذه الكلمة من مصادر ثلاثة:

الأول - اشتقاقها من النبّو بمعنى الارتفاع والسّمو.

الثاني - اشتقاقها من النّبيء بمعني الطريق الواضح.

الثالث - واشتقاقها من النبأ وهو الخبر الصادق ذو الشأن العظيم.

وإننا لانرى مايمنع من الأخذ بهذه الاشتقاقات جميعها وفي آن واحد، وإن كان الاشتقاق الثالث جدير بالرعاية والعناية لسعة دلالته.

وعندما نعود إلى النصوص القرآنية، فإننا سنلاحظ أن جميع دلالات هذه الاشتقاقات قد اعتمدت فيها بصورة واضحة.

لنتناول اشتقاق كلمة «نبي» من مصدرها الأول وهو النبّو، فهي تدل على اكتساب مقام النبوة الروحي السامي والرفيع. الأمر الذي جعل صاحب هذا المقام يستحق عند بارئه لقب نبي.

وبألفاظ أخرى فإن هذا الاشتقاق متعلق بسيرة الشخص وأخلاقه لأنها الأساس لنيل هذا المقام الروحي السامي والرفيع، وإن مثال سيرة محمد بن عبد الله ﷺ قبل الرسالة لأكبر مثال يشرح هذا المعنى الذي يفيده هذا الاشتقاق.

ولنتناول اشتقاق كلمة «نبي» من مصدرها الثاني، وهو النبيء الذي يعني الطريق الواضح، فكلمة نبي من هذا المصدر تعني المنهج الحياتي الواضح الذي يسلكه كل شخص بلغ مقام النبوة. ويتلخص هذا المنهج بالإيمان بوجود خالق لهذا الكون. وبالسعي للتخلق بأخلاق هذا الخالق في الأرض، والمحافظة على إنسانية الإنسان وذلك بعدم مشابهة الأنعام وعدم اتباع الهوىٰ والشهوات والأطماع الشخصية. هذا المنهج الذي لابدّ من انتهاجه لبلوغ مقام النبوة السامي عند الله عز وجل، وبألفاظ أخرى فإن الأنبياء يمثلون في منهجيتهم طريقاً واضحاً في الحياة، والذي يراجع سيرة محمد قبل النبوة سيلاحظ حتماً معالم هذا الطريق الواضح الذي اختطه لحياته، وأبسط مايقال فيه هو أن محمداً كان ينزوي عن بقية شباب مكة، ليتعبد ربه في غار حراء. بينما كان بقية الشباب يلهون ويتفاخرون، ثم أن محمداً بعد أن تزوج خديجة، وهب عبيدها حريتهم دونما مقابل. ولم يتصرف بأموالها لإشباع اهوائه ونزواته، فعل هذا من منطلق قوة واقتدار، وهو الذي لم يوافق على الزواج من خديجة الثرية إلا بعد أن اشترط عليها أن تعطيه حق التصرف بأموالها، وفعلت ذلك.

ولنتناول اشتقاق كلمة «نبي» من مصدرها الثالث وهو النبأ، والذي يعني الخبر الصادق ذو الشأن العظيم، فكلمة «نبي» من هذا المصدر تشير إلى العلوم اللدنيه والأنباء اللّدنيه الهامة ذات الشأن العظيم التي يتلقاها الشخص الذي يبلغ مقام النبوة الروحي السامي.

ولقد نبهنا الراغب الاصفهاني في معجمه مفردات الراغب أن النبأ يعني الخبر ذا الفائدة العميمة، والذي يتحصل منه علم صادق حقيقي منزه عن الكذب والافتراء. كما نبهنا إلى أن لفظ نبي مشتق من النبأ ، لذلك يحتمل صاحبه احتواءه على العلوم الصادقة الحقيقية المنزهة عن الكذب والافتراء، والتي يتلقاها النبي من جانب ربه الذي شرفه بمقام النبوة ولقبها.

وإن مثال الكتاب والعلوم والأنباء الغيبية العظيمة الشأن التي تلقاها محمد بن عبد الله ﷺ لأكبر دليل يثبت صدق اشتقاق كلمة نبي من النبأ وبهذه المعاني المذكورة.

ويمكن تلخيص ماذكرناه من أن كلمة نبي لها اشتقاق من النبّو لتدل على السيرة الطاهرة التي أهلت صاحبها لبلوغ مقامٍ روحيٍ رفيع. ولها اشتقاق من النبيء، لتدل على المنهجية في حياة الشخص المذكور، وهو مايسمونه فَلسَفَةُ الحياة. أي أن سيرته قبل النبوة

تتسم بخط فلسفي واضح لايتزعزع، ولها اشتقاق من النبأ. لتدل على الناحية العلمية والغيبية وماينزل على النبي من لدن ربه. وبالإمكان التلخيص أكثر بالقول أن كلمة نبي لقب يناله من الله عز وجل من تخلق باخلاق ربه القدوس على أساس من منهج حياتي واضح وفاز بتلقي بركاتِ مقام النبوةِ من علوم وأنباء غيبية عظيمة الشأن.

ونحن نضيف أن اجتماع هذه الأمور في شخص ما، وقد دلتنا عليها اشتقاقات كلمة نبي من النبّو والنبيء والنبأ، لاتكفينا لنطلق على هذا الشخص اسم «نبي»، وبالمفهوم الشرعي، مالم يخاطبه ربه في كلامه إليه بلقب نبي، ذلك لأننا لانعلم من الأمور إلاّ ظواهرها، لكن الله عز وجل هو المطلع على سرائر الأفئدة وخفاياها. لذلك فهو العليم المختص بمنح هذا اللقب أو عدم منحه إياه. ولابد من الإشارة هنا إلى أن كلمة «نبي» وردت صياغتها على وزن "فعيل" بمعنى فاعل. والذي نعلمه هو أن صيغة فعيل هذه ترد حين تدعو الحاجة إلى المبالغة في حقيقة شيء ما، كأن نقول (هذا عالم)، فإذا شئنا المبالغة في علمه نقول (هذا عليم) على صيغة "فعيل" وهذه الصياغة نلاحظها فيما وردت عليه اسماء الله الحسنى كعليم وسميع وبصير، وأن كلمة «نبي» وهي مصوغة على وزن "فعيل" تحثنا على الأخذ باشتقاقات هذه الكلمة من مصادرها الثلاثة، مؤكدة احتواء هذه الكلمة على جميع معطيات هذه المصادر المعنوية، أضف إلى ذلك أنها تؤكد لنا كمال معنى كل اشتقاق أيضاً، أي أنه لايستحق لقب نبي إلا من اتصف بكمال قداسة السيرة قبل الدعوة. وبكمال المنهج الحياتي، وبكمال المقام الروحي، وبكمال المكالمة مع ربه أي مكالمة ربه إياه وَحْياً، ومن وراء حجاب، وعن طريق ملك من ملائكة الله تعالى، هذه الطرق الثلاثة التي نص عليها قوله عز وجل ﴿ماكان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء﴾. ولاننس هنا أنه لايوجد تعريف آخر لكلمة «نبي» في تاريخ الإسلام، داخل كتب اللغويين، وخارجها، أشمل وأعم، وأصح، مما بينته من تعريف لكلمة «نبي» حتى الآن. وهو أن كلمة «نبي» تعني أنّ شخصاً ماحاز على:

١- مقام روحي رفيع كثمرة لسيرته المقدسة قبل النبوة.

٢- فلسفة للحياة متكاملة وواضحة قبل النبوة.

٣- علوم وأنباء غيبية عظيمة الشأن والأهمية بعد النبوة.

٤- وخاطبه ربه بلقب «نبي».

وعلينا ألاّ ننس أيضاً في هذا المقام أنّها لم تكن هناك من فلسفة حياتيه منذ وجود البشر إلا فلسفتان: الأولى فلسفة روحية ترتكز على فلسفة وجود خالق لهذا الكون، والثانية فلسفة مادية، ترتكز على أزلية المادة وعدم وجود خالق قد أوجدها، وأن سلسلة أنبياء الله الكرام يمثلون فئة الفلاسفة الروحيين التجريبيين، ولم يذكر لنا التاريخ أي نبي شذّ عن هذا الطريق الواضح إطلاقاً، بينما اختلف الفلاسفة الماديون في كل أجزاء فلسفتهم، وكانت المادية التاريخية التي يمثلها المعسكر الاشتراكي آخر هذه الفلسفات المادية والتي زعمت أنها تفلسفت بما هو أصح النظريات المادية من بين جميع من ظهر من الفلاسفة الماديين حتى اليوم.

توافق القرآن واللغة في معنى نبوة ونبي

ونتيجةً لتدبرنا كتاب الله، وجدنا توافقاً عجيباً بينهما.

فالله سبحانه وتعالى خاطب محمداً ﷺ بلقب نبي في سورٍ عديدةٍ من كتابه الذي أنزله على قلبه. في سورة الأنفال: ﴿ ياأيها النبي..﴾، وفي سورة الاحزاب: ﴿ياأيها النبي..﴾، وفي سورة التوبة: ﴿ ياأيها النبي...﴾، ويكون القرآن الكريم قد استوفى شرط مخاطبته بلقب نبي.

وحينما قال تعالى: ﴿فلايظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول﴾ الجن ٢٦ يكون قد أخذ بشرط تلقي النبي علوماً وأنباءً غيبية ذات شأن كبير وبكثرة واضحة، وهذا الأمر دلّ عليه قوله: ﴿ لايظهر على غيبه..﴾ فالإظهار يعني الكثرة الظاهرة، وعندما نقول (ظهر الشيء) نعني بدا بكليته للعيان وبجميع أجزائه، ولايعني قوله تعالى [ظهر الفساد في البر والبحر..] إلاّ عم الفساد وغلب على أعمال الناس، ومنه ندرك أن قوله تعالى [لايُظهر على غيبه أحداً..] أي لايطلع على أمور غيبه بكثرة واضحة [إلا من ارتضى من رسول..] أي من استحق لقب نبي وتقرر تكليفه برسالة سماوية، هذا لأن مجرد اطلاع رجل صالح على أمور غيبية معينة ومعدودة يحدث للصالحين من عباد الله، إنما لايستحقون معها لقب «نبي» لأنها لاتدخل في باب الإظهار وهو الكثرة والغلبة، إذ أن مغيبات الأنبياء تختلف عن مغيبات سواهم كمّاً ونوعاً.

والقرآن الكريم اشترط قداسة سيرة من استحق اسم نبي حينما قال على لسان محمد في القرآن الكريم ﴿ فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون.﴾ يونس ١٦ ففي هذا النص تنبيه للأذهان إلى استيفاء شخصية محمد رسول الله عنصر قداسة السيرة قبل النبوة، حتى سماه

قومه "بالصادق الأمين" وماقول قوم صالح عليه السلام [لقد كنت مرجّواً فينا] إلا اعتراف منهم بقداسة سيرة النبي صالح قبل أن آتاه النبوة، وحاز هو وجميع أنبياء الله الكرام مقام النبوة الروحي الرفيع.

كما أن القرآن الكريم اتفق مع اللغويين بأن جميع الأنبياء كانوا قبل نبوتهم ملتزمين بلفسفة حياتية واحدة، وكان نهجهم واضحاً وكان طريقهم مختلفاً مختلفاً عن فلسفات الماديين، فقد كان جميع الأنبياء قبل نيلهم مقام النبوة يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون، وأن المقصد من خلقهم أن يصبحوا عباداً للرحمان، وأن الإنسان يُحاسب على أعماله من بعد موته، حتى وكان كل واحد منهم يطبق ماوصل إليه من تعاليم سماوية سابقة لوجوده.

هناك من زعم غير هذا، مستدلاً علي زعمه بقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ وبقوله تعالى: ﴿ ماكنت تدري ماالكتاب ومالإيمان﴾. وزعمه هذا يضرب القرآن بعضه ببعض، ومادام الله تعالى قد قال عن رسوله محمد ﷺ ﴿ماضل صاحبكم وماغوى﴾، فلايجوز لنا والحال هذه أن نفسر قوله [ضالاً] بمعنى غير مُهتدي، بل يقصد من قوله [ضالاً] هنا مندفعاً بكليتك للاتصال بربك ومعرفته إذ يقال: هذا ضال في محبة فلانة أي مندفع بكليته للقائها والتعرف إليها، ثم إن قوله تعالى ﴿ماكنت تدري ما الكتاب وما الإيمان﴾ لاينفي ماذكرناه لأ القرآن ورسالته لم يكن رسول الله قد تلقاها قبل فوزه بمقام النبوة الرفيع.

وهكذا يتبين لنا مما ذكرناه من الشواهد القرآنية وجود توافق تام بين اللغة والقرآن الكريم فيما يتعلق بمعاني كلمة نبي المشتقة من مصادرها الثلاثة والتي ذكرناها سابقاً، وعلى ضوء هذا كله فإن النبوة أيضاً تحمل نفس عناصر كلمة نبي ومعانيها.

لاتتهافت هذه المعاني بميزان العقل والمنطق

وإننا بعد أن رأينا توافق اللغة والقرآن في موضوع معاني كلمة نبي، ننظر إليها بميزان العقل والمنطق، فنراها لاتتهافت بل تعظم في أعيننا، ونرى ضرورة اجتماعها في شخص من توسد إليه مهمة رسالة سماوية هامة تضطلع بدورٍ كبيرٍ جداً في تغيير مسار تاريخ الشعوب.

وبمنظار العقل والمنطق يرى المرء أنه لابد من اجتماع هذه الأمور الأربعة التي قررتها اللغة العربية لكلمة نبي في شخص من استحق مقام النبوة السامي، فلا يعقل أن تكون سيرته فاسدة ومن ثم يستحق نيل قرب الله القدوس، ولايعقل أن يكون في سيرته غير

متقيد بفلسفة محددة روحية ومنهجية واضحة توصله إلى لقاء الله وقربه، ولايعقل أن يحوز مقام القرب الإلهي ولايكلمه ربه ولايطلعه على مغيبات الأمور، كما لايعقل أن يكلمه ربه ويفوز بمقام قربه ولايمنحه لقب نبي في خطابه إياه.

وهذه الأمور الأربعة التي يقتضيها العقل تتفق والمنطق السليم أيضاً، فمن المنطق أن يثبت الله عز وجل وجوده بفضل أمثال هؤلاء الأنبياء، كما يثبت عظمة مايحمله من أسماء حسنى. فالمندوب والسفير والرسول يأتي على مستوى من انتدبه وجعله سفيراً ورسولاً.

التشريع من خصوصيات النبوة وليس من مستلزماتها

وبإمكاننا القول، بعد جميع ماعرفناه عن معاني كلمة نبي، إن التشريع لايدخل في هذه المعاني بحال من الأموال، فليس هو من مستلزمات النبوة ولكنه من خصوصياتها، بمعنى أن لله تعالى أن يَخُصّ أحد أنبيائه بتشريع معين ينسخ بواسطته تشريعاً سابقاً، وليس بضروري أن يكون كل نبي مخصوصاً بشرع سماوي.

إن النبوة بمفهومها المطلق، شبيهة بمفهوم المعلم خريج دار المعلمين والذي أصبح يحمل أهلية التعليم، فمن غير الضروري أن يكون هذا المعلم مختصاً بتدريس مادة معينة كالحساب مثلاً. وإن تخصص هذا المعلم يكون لاحقاً لأهلية التعليم وليس من صلبها.

وإن من زعم أن التشريع من مستلزمات النبوة، يتناسى أن أكثر أنبياء بني اسرائيل آتاهم الله النبوة دون تشريع. وكانت مهمتهم مقتصرة على تجديد شريعة موسى عليه السلام، نص على هذا الشيء قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا﴾، فهذه نصوص قرآنية تنقض زعم من قال بالتلازم مابين النبوة والتشريع.

فمن خلال هذه النصوص القرآنية ندرك الفرق مابين مستلزمات النبوة ومابين التشريع الذي لايعتبر من مستلزماتها بل من خصوصياتها. إن النبوة تعني هذا الإطار الذي يحتوي على أربعة أمور. بيّنها اللغويون،وأقرها القرآن الكريم، وماكان من بينها الإتيان بشريعة سماوية.

والنبوة لاتكتمل إلا بهده الأمور الأربعة، فإذا نقصت واحدة منها لاتكون هناك نبوية أما إن توفرت هذه الأمور الأربعة، ولم ينزل مع النبي تشريع، فلا تَنْتَقِصُ نبوة هذا النبي.

ثم إن الإنسان لايعثر على نبي واحد من خلال تاريخ الأنبياء لم يكن متوفراً في شخصه هذه الأمور الأربعة التي حددتها اللغة العربية لكلمة نبي، بينما يعثر على أسماء عشرات الأنبياء ممن لم تنزل عليهم شريعة سماوية، ولاكانوا مشرعين بل تابعين.

وبكلمة مختصرة فإن النبي هو إنسان قد بلغ ذروة الهرم الروحي في عصره، وعلّمه الله من علمه، وأظهره على كثير من أنباء غيبه، وشرفه بلقب نبي، فإذا شاء الله تعالى أنزل معه شريعة وجعله نبياً مشرعاً، وإن شاء أمره باتباع شرع نبي سابق.

على هذه الصورة ندرك الفرق مابين مستلزمات النبوة التي حددتها اللغة العربية، وأقرها القرآن الكريم. كما ندرك خصوصيات النبوة التي هي من قبيل اختصاص أي نبي، على شاكله معلم المدرسة فهو يُسمى مَعَلَّماً لحصوله على شهادة أهلية التعليم، وبعدها يختص إما بتعليم الحساب فيسمى معلم حساب، أو لغة فيسمى معلم لغة، وسوى ذلك من الاختصاصات.

كل نبي فهو رسول، وكل رسول فهو نبي

وهناك من يفرق بين النبي والرسول ودرجتهما ومهمتهما، وإن الذي فهمناه من كتاب الله القرآن الكريم يختلف عن ذلك، عرفنا أن النبي والرسول اسمان لشخصية روحية واحدة دون أي تفريق لا في الدرجة ولا في المهمة.

سُمّي النبي نبياً نظراً إلى توفر الأمور الأربعة التي أتينا على شرحها سابقاً، فهو نبي بالنسبة إلى ربه وصلته به، وسُمّي النبي نفسه رسولاً بالنظر إلى مهمته تجاه بني جنسه، فالتسمية نسبية ليس إلاّ.

وعليه كل نبي رسول، وكل رسول لايكون رسولاً إلا إذا كان نبياً، وإن نفس خصوصيات النبي هي نفس خصوصيات الرسول، لكونهما اسمان لشخصية واحدة يقيناً.

يؤكد مفهومنا هذا نصوص قرآنية واضحة الدلالة، فقد قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن وأصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده.. رسلاً مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيما﴾ ، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾.

في آية سورة الأنعام حدد مهمة الرسل أنهم مبشرون ومنذرون، وفي سورة البقرة حدد مهمة النبيين أنهم مبشرون ومنذرون أيضاً. ومادامت المهمة واحدة، فلا يعود هناك من فرق بين نبي ورسول، وإن الفرق في التسمية جاء كما قلت من حيث العلاقة والنسبة.

وضع اسم النبي من حيث علاقته بالله تعالى وسُمّي النبي رسولاً، من حيث علاقته بالناس وقيامه بتبليغهم ماأنزل عليه من ربه، لذلك فالنبي بوصفه مقرباً من الله هو مبشر ومنذر، والنبي هو رسول مبشر ونذير بحكم كونه مكلفاً بهذا التبشير والانذار.

وإن ماورد في آية سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ فَلأنَّ موضوع الآية جاء عاماً، ولينبه بأن انزال الكتاب من خصوصيات النبوة، وليس من مستلزماتها، فهي مهمةٌ مُضافة إلى مهمة التبشير والانذار.

والدليل على ماذكرت هو أن الكتب المعروفة أربعة، وهو تعالى قد قال في الآية [وأنزل معهم الكتاب] فهل أنزل الله مع لوط أو صالح أو شعيب أو سليمان على سبيل المثال كتاباً سماوياً مع كل واحد من هؤلاء الأنبياء؟ الجواب، كما هو مسلّم به، كلا. ومادام الجواب نفياً، وكان موضوع الآية عاماً، فلايكون المراد إلا التنبيه إلى خصويات النبوة ليس إلا. بمعني أن مقتضيات الزمان والمكان تقضي بإنزال شرائع بين الفترة والفترة مع أحد هؤلاء الأنبياء والمرسلين، إضافة لكونهم مبشرين ومنذرين.

والمعروف أن التبشير والانذار لايستلزم أن يحمل المبشر والمنذر كتاباً معيناً، بل يبشر وينذر الناس ليعملوا على كتاب سابق مُنزل.

أقسام النبوة

والأنبياء أصلاً لايستعمل لهم لفظ نبي مجرداً . بل نقول أن موسى ومحمد نبيان مشرّعان تنبيهاً إلى خصوصيتهما بحمل رسالة تشريعية. ونقول إن الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى في بني إسرائيل ما بين بعثتي موسى وعيسى كانوا أنبياء غير مشرعين بل تابعين لقوله تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾. المائدة ٤٤

من هذا يتبين أن النبوة أقسام. منها نبوة تشريع ومنها نبوة اتباع. ولقد كانت النبوة تتصف بالاستقلالية. بمعنى أنه لم يكن هناك شرط في التوراة مثلاً ينص على أن العمل على تعاليم موسى يوصل صاحبه إلى مقام النبوة.

وجاء الإسلام مضيفاً هذا الشرط من منطلق كمال التعاليم التي جاء بها الإسلام، وإلى هذا الشرط اشار دعاء الفاتحة [اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين انعمت عليهم] بمعنى خذ بايدينا لبلوغ المقامات التي حصل عليها الذين أنعمت عليهم، ولقد فسّر القرآن حقيقة الذين انعمت عليهم بقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً.﴾ النساء ٦٩ موضحاً أن المنعم عليهم هم أصحاب مقامات روحية أربعة هي النبوة والصديقية والشهادة والصلاح، فمن عمل على تعاليم الإسلام حق العمل ظاهراً وباطناً، فلابد أن يفوز بمقام روحي من هذه المقامات الأربعة المذكورة.

وإن اشتراط الإسلام هذا الشرط، هو من بين أدلة كماله كما قلت، ذلك أن نبوة محمد رسول الله امتازت بهذا العطاء الروحي، وكانت من العظمة بمكان لم يبلغه أي نبي من أنبياء الله الكرام.

الفصل الرابع

بُطلان مصطلح

"الذكّر"

الذي ورد في "القراءة المعاصرة"

بسم الله الرحمن الرحيم

بطلان مُصطلح "الذكر" الذي اصطلحته "القراءة المعاصرة"

وطلعت علينا "القراءة المعاصرة" للدكتور شحرور بمصطلح ومفهوم خاص لكلمة "الذكر". خالف فيها صاحبها مفهوم هذا اللفظ من حيث اللغة، ومن حيث النصوص القرآنية.

فما وصلنا بطريق التواتر واجتهادات جميع أئمة الدين الإسلامي، وجميع المسلمين. هو أن كلمة "الذكر" إنما هي إسم وصفي من أسماء المصحف الشريف. ذلك على اعتبار أن الله سبحانه وتعالى، سمّى كتابه العظيم، الذي أنزله على رسوله محمد خاتم النبيين، بعدّة أسماء وصفية. لاستحقاق كتابه الكريم لأن يُسمّى بهذه الأسماء التي يستحق أن يوصف بها. وهي الكتاب، القرآن، الفرقان، والذكر الحكيم.

وإن من حقّ كل كاتب أن يطلق على مؤلفه مايرى من الأسماء الوصفية التي يستحقها مُؤلّفة. وإن تقرير مدى صحتها، يعود إلى مايحتويه مؤلفه من علوم وحقائق تتناسب والأسماء الوصفية الموضوعة.

والذي يتدارس أبعاد معاني أسماء كتاب الله الوصفية، ومنها الذكر، على ضوء ماقدمه اللغويون، وعلى ضوء ماتضمنه نفس المصحف الشريف، يوقن، لامحالة، أن ربنا كان في منتهى الحكمة، حينما وضع لكتابه العظيم هذه الأسماء الوصفية، سواءً من حيث منطلقاتها اللغوية أم من حيث كنوز المعارف والعلوم التي تقابلها فيه. وهذا أمر يثبت عن طريق الاستدلال العلمي.

وظاهرة وضع أسماء وصفية، هي ظاهرة طبيعية جداً، وما أسماء الله الحسنى إلاّ من هذا القبيل. حتى إن الله عز وجل أطلق على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ أيضاً عدة أسماء وصفية، يعرفها كل مسلم يتلو ويتدبر كتاب الله، آناء الليل وآناء النهار. فكلّنا يعلم

أن مُحمداً سُمّي بنص القرآن الكريم، إلى جانب اسمه الحقيقي، محموداً وأحمد، وطه، وياسين.

ولما كان لكل لفظ في اللغة العربية أكثر من معنى واحد. وكان من واجب كل متدارس لكتاب الله أن يُلّم بتلك المعاني جميعها. حتى يمكنه ذلك من استيعاب معنى كل آية كريمة ورد فيها أحد أسماء الكتاب الوصفية على ضوء معنى يتناسب وسباقها وسياقها. فقد كان من أول واجبات صاحب "القراءة المعاصرة" أن يتقدم بدراسة لغوية متعلقة بكلمة "الذكر" مفصلاً فيها جميع معاني هذا اللفظ، ومن جميع المراجع اللغوية. لا أن يكتفي بمرجع واحد منها، وبمعنى وحيد لكلمة "الذكر"، وليعممه على جميع آيات الذكر الحكيم. ودونما مبرر أو مسوغ أو ليزعم بعد هذا التقصير أنه جاء بقراءة معاصرة للمصحف الشريف. وأنه يريد من ورائها وجه الله فقط.

أجل درج بعض أصحاب الغرض من المستشرقين، وسواهم، على الأسلوب الذي لاحظناه في "القراءة المعاصرة" للدكتور محمد شحرور. لكنهم كانوا رجالاً كانوا متعصبين أعماهم تعصبهم وحقدهم على الإسلام وكتابه، فأوقعهم هذا في الأخذ بأسلوب الدكتور شحرور. أما الدكتور المهندس فهو مسلم ومن عائلة مسلمة، لذلك استوقف اسلوبه نظرنا فكان استغرابنا، وحذرنا، وتألمنا من جرّاء ذلك. وهذا مادفعنا لنقض ما اصطلحه ظُلماً وعدواناً.

لم يقدّم الدكتور شحرور حول كلمة "ذكر" أي دراسة، فقد جاء كل ماكتبه في هذا المجال، ص ٦٢ (الذكر هو تحوّل القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي.) وقبل أن ينهي موضوع مصطلح الذكر كتب أيضاً ص ٦٤ (وعلينا أن ننوه أن فعل "ذكر" له معان أخرى منها التذكر، ضد النسيان كقوله [أفلا تذكرون] ومنه جاءت الذاكرة والمذاكرة).

وتلاحظون من خلال هذين النّصّين، أنّه أعطى لكلمة "الذكر" الواردة في كتاب الله معنى وحيداً، شاء أن يلزمنا به، من دون تقديم أي دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد قصر استعمال هذا اللفظ على المعنى الوحيد، في جميع آيات كتابه. ولاشك أن هذا الاتجاه في البحث، يعتبر دليلاً غير صحّي البتّة، ولايصدر إلا عن شخص يحمل أفكاراً "مسبقة الصنع" يريد تحريرها، وماهو إلا اسلوب تنجيم.

وإننا إذا رجعنا إلى معاجم اللغويين نلاحظ أنهم اعطوا الذكر معنى التفوه بالشيء، لكنهم اضافوا معاني كثيرة أخرى. فقد جاء أن الذكر معناه حفظ الشيء، والصيت،

والثناء، والشرف، والدعاء، والصلاه لله تعالى، والنصح والتذكير. وهل يُعقل أن تكون لكلمة "الذكر" هذه المعاني جميعها، ويهمل كتاب الله هذه المعاني جميعها، ويقتصر منها على معنى أو معنيين. وهو كتاب تحدى العرب في جميع الفنون اللغوية. وأن التفنن في استعمال اللفظ الواحد، بجميع معانيه هو أحد هذه التحديات؟

والذي يتابع نقضي هذا لمصطلح "الذكر" كما أورده الدكتور شحرور، ستتجلى له عظمة القرآن المجيد من خلال تفننه سبحانه وتعالى في الأخذ بجميع معاني كلمة "ذكر"، وفي مختلف المقامات، لذلك اترك أمر شرح ذلك على أوقاته. وأبدأ بالرد من حيث بدأ صاحب القراءة المعاصرة نفسه فأقول:

إن الدكتور شحرور ابتدأ مُصطلحه هذا بالتساؤل: ماهو الذكر؟ ص ٦١.

وبدلاً من أن يجيب بنفسه إجابة مباشرة. وبدلا من أن يلتزم بأمر الله عز وجل [وقولوا قولاً سديداً.]، حاول إيهام القارىء أن تقسيمه الذي سبق أن نقضناهفي الجزء الأول، وهو تقسيمه المصحف الشريف إلى كتاب وقرآن. أقول حاول إيهام القارىء أن كلمة "الذكر" ماهي إلا صفة خاصة بالقرآن، من دون الكتاب. قام بهذه المحاولة ليربط مابين مصطلحه السابق الذي ثبت فساده باللاّحق الذي سنثبت بطلانه أيضاً بعون الله تعالى.

وتتساءلون عن محاولته، وكيفيه طرحه اياّها. فاعلموا أنه كتب (لنرجع إلى قوله تعالى [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.] الحجر ٩، [وقالوا ياأيها الذي نُزّل عليه الذكّر إنك لمجنون.] الحجر ٦ ، [ص والقرآن ذي الذكر.] ص ١، فإذا أخذنا لفظة الذكر في الآيتين ٦-٩ في سورة الحجر، لوجدنا أنها جاءت مُعرّفة بـ "أل التعريف". وإذا نظرنا إلى لفظة الذكر في الآية (١) من سورة (ص) لوجدناها أيضاً مُعرّفة بأل التعريف. وإذا نظرنا إلى الربط بين القرآن والذكر في سورة (ص) لوجدناهما مربوطين بأداة "ذى" وهذه الأداة تستعمل للدلالة على صفة الشيء، لا على الشيء نفسه كقوله تعالى:

[وفرعون ذي الأوتاد] الفجر ١٠ - وقوله [ويسألونك عن ذي القرنين] الكهف ٨٣. ففرعون شيء والأوتاد شيء آخر. والآية تعني أن فرعون صاحب الأوتاد، وكقوله [أن كان ذا مالٍ وبنين] القلم ١٤- أي صاحب مال - فالقرآن هنا هو الموصوف. والذّكر هو الصفة [والقرآن ذي الذكر] أي القرآن صاحب الذكر، فما هي هذه الصفة الخاصة بالقرآن والتي تُسمى "الذكر"؟).

إن في هذا النص، الذي جاء على طريقة البحث العلمي. فيه محاولة إيهام بما ذكرته. وهو أن المصحف ينقسم إلى كتاب وقرآن. وأن "الذكر" صفة خاصة بالقرآن. لذلك تساءل هو في آخر ماكتب: (فماهي هذه الصفة الخاصة بالقرآن والتي تسمى "الذكر"؟).

والسؤال المطروح هو لماذا حاول هذه المحاولة؟ وهل قدم عليها دليلاً مُقنعاً؟

وإننا إذا تفحصنا هذا النص نراه لفت انظارنا إلى (أل التعريف) وإلى الأداة (ذى) وأنها تدل على صفة الشيء، لا على الشيء نفسه. وأن القرآن في قوله تعالى [ص والقرآن ذي الذكر] هو الموصوف، وأن الذكر هي الصفة للقرآن.

ونعلم أن أداة التعريف (أل) لها ثلاثة أنواع. فلم يبحث في هذه الأنواع، ولاعّين لنا النوع المستعمل في هذه الآيات الثلاث. وبأسلوب تقديم الدليل عليه. ومن جهة ثانية أراد أن يعممّ "صفة الذكر" التي استدل عليها بآية [ص والقرآن ذي الذكر] على بقية الآيات الوارد فيها كلمة الذكر غير مسبوقة بالأداة (ذي). وفَعَلَ مثل هذا أيضاً من دون البرهنة على صحة ماحاول إيهامنا بصحته. هذه النقائص تعني بالفاظ أخرى أن أسلوب الدكتور شحرور يرتكز إلى التنجيم، وليس هو بالأسلوب العلمي.

وإنني، سبق أن كنت قد أثبت أنّ (القرآن) هو إسم وصفي لكتاب الله عز وجل. كما كنت قد اثبت أن هذا الأسم الوصفي موضوع للمصحف الشريف بكامله، وليس لقسم منه، وتكون آية [ص والقرآن ذي الذكر] فيها الدلالة على جميع المصحف بكامله. ولاتكون بذلك الأداة (ذى) خاصة بالقرآن على أنه جزء منه. ويثبت من ذلك أن "الذكر" هو صفة أو اسم وصفي للمصحف الشريف بكامله لا لجزء منه، هذه النتيجة من باب اللازم والملزوم، المهم أن محاولة إيهامه إيّانا لم تكن ناجحة أو بارعة.

ولا اكتفي بهذا. بل سأثبت بأسلوب آخر أن محاولته المذكورة فاشلة وباطلة، لم تصدر عن علم راسخ وذلك بطرح معنى آية سورة (ص) على ضوء سباقها وسياقها. هذا الأسلوب الذي التزمت به في جميع ما أوردته من نقض لمصطلحات القراءة المعاصرة في الجزء الأول من الكتاب، والذي التزم به دوماً.

إن سورة (ص) نزلت في مكة. وعندما نقول انها سورة مكية النزول، ينبغي أن يذهب فكرنا فوراً إلى حالة الاضطهاد التي كان يُعاني منها محمد رسول الله وأصحابه المؤمنون، أولئك الذين كانوا يترقبون فرج ربهم ونصرته والفتح العظيم. الأمر الذي يلزمنا بالانتباه

إلى البشارات والنبوءات التي كانت تحتويها السور النازلة في مكة، ذلك على اعتبار أن ترتيب النزول، غير ترتيب التلاوة، وكان له هذه الحكمة العظيمة أيضاً.

وإننا نتناول الآية التي افتتح الله عز وجل بها سورة (ص) وهي قوله عز وجل ﴿ ص والقرآن ذي الذكر﴾، وهي الآية التي استدل منها الدكتور شحرور على مصطلح "الذكر" المزعوم، فإذا أمعنا نظرنا في صياغتها، أدركنا أنها احتوت على ادعاء ودليل صدق هذا الادعاء، وقد ورد الإدعاء مختزلاً، بينما ورد الدليل باسلوب انشائي، (ص) تعني صادق، فهي مختزلة من هذه الصفة الإلهية. فمن هو الصادق؟ هو الله الصادق. وماهو دليل هذا الإدعاء؟ الدليل جاء على صورة القسم [والقرآن ذي الذكر] ونعلم أن الواو هنا هي واو القسم. كما نعلم أن القسم يعني تقديم شهادة على موجبية أمر من الأمور. والنتيجة الحاصلة هي أن الله تعالى قدم كتابه العظيم كشهادة في مجال كونه صادقاً، هذا الكتاب الذي استحق أن يوصف باسمين وصفيين بارزين هما: القرآن والذكر. ولما لم يكن قد اكتمل نزول الكتاب بعد، فقد تضمن الاسم الوصفي الأول "القرآن" هنا بشارة على أن هذا الكتاب سيكتمل نزول جميع آياته وسوره، ويصبح قرآناً، أي مقروءاً من الناس على مستوى واسع، كما أن الاسم الوصفي الثاني [ذي الذكر] ينبغي أن يكون قد تضمن بشارة ثانية وهي أن هذا الكتاب سينال شهرة واسعة ويكون اساس عزة المؤمنين. فباكتمال تحقق هاتين البشارتين العظيمتين، يتحقق كون الله صادقاً. وهذا هو السر في ورود كلمتي القرآن، والذكر، معرفتين بالألف واللام، فالتعريف (بأل التعريف) هنا هو معهود ذهني، وهو الآيات التي توالى نزولها في مكة المكرمة لتؤلف كتاباً عظيماً هو هذا المعهود الذهني، فالآية تعني باختصار أنا الله الصادق، والذي ستستدلون به على كوني صادقاً بصورة يقينيه عند اكتمال هذا الكتاب ليصبح متداولاً ومقروءاً وأساس شهرتكم وعزتكم وعبادتكم، فهذه بشارة أزفها إليكم أيها المؤمنون الصابرون على اضطهاد مكذبيكم، فاحفظوا ماينزل إليكم لأنه سيصبح قرآنا وصاحب الذكر أيضاً.

لابد لاحظتم أني أخذت من معاني الذكر الصيت والثناء والشرف والدعاء. وحتى توقنوا أن المراد هو هذه المعاني بالذات لكلمة "الذكر" في هذه الآية الكريمة. هيا امعنوا النظر في سياقها. أي في الآيات التي بعدها، فهي تؤيد هذا الاتجاه، وتنفي أن يكون المراد "ذي الذكر" (الصيغة اللغوية الإنسانية المنطوقة بلسان عربي) كما ذهب إلى ذلك الدكتور

شحرور، فلا علاقة لهذا المعنى هنا بهذه الآية بشكل من الأشكال. فقد قال تعالى بعدها مباشرة ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ أي في استكبار وشقاق واختلاف بينهم، فما هو سر استكبارهم؟ وماهو سبب اختلافهم؟ بيّنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيءٌ عُجاب.﴾ فاستكبروا على محمد رسول الله وكفروا بما أنزل عليه. وراح سبحانه يصف ردة فعل استكبارهم ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يُراد. ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلاّ اختلاق﴾ فلم يستكبروا فقط، بل اختلفوا أيضاً [وشقاق]. ولفت سبحانه وتعالى انظارنا إلى سبب اختلافهم وهو قولهم ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي أيستحق محمد زعامتنا؟ أجاب سبحانه ﴿بل هم في شكّ من ذكري﴾ أي أن استكبارهم اعمى أبصارهم عن آيات الكتاب الذي نزل معه، فهم تعاموا عمّا في آياته من تعاليم وأحكام راقية جداً والتي إذا ماطُبقت كانت أساس عزتهم وشهرتهم وعبادتهم. وأضاف سبحانه وتعالى قوله ﴿بل لمّا يذوقوا عذابِ﴾ بمعنى أن ما أمدّ في استكبارهم وشقاقهم هو تأجيلي موضوع معاقبتهم لما بعد هجرة رسولي من بينهم. فلا يعقل أن أعذبهم وهو مايزال بينهم. وانتقل سبحانه وتعالى إلى ناحية أخرى في الدفاع عن كتابه واصطفائه لرسوله قائلاً ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ أي أن الله العزيز المنيع هو الوهاب، يهب فضله من يشاء، وهو أدرى أين يضع فضله ورسالته. والتفت سبحانه مهدداً إياهم بقوله ﴿أم لهم مُلك السماوات والأرض ومابينهما، فليرتقوا في الأسباب﴾ أي إن كانوا هم المالكين فيها فليأخذوا بما استطاعوا أخذه من الأسباب للقضاء على رسولنا، والوقوف في وجه تحقق بشاراتنا المتعلقة بكتابنا من أنه سيصبح مقروءاً وأساس عزة المؤمنين وشهرتهم وعبادتهم. وهددهم سبحانه وتعالى قائلاً ﴿جُندٌ مّا هُنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾ أي ليكن في علم هؤلاء المستكبرين، والمختلفين فيما بينهم، والذين تجمعوا بالرغم من اختلافاتهم للكيد لرسولنا وكتابنا.

ليكن في علم هذه الشراذم [ماهنالك] أنهم ستلحق بهم الهزيمة لامحالة [مهزومٌ من الأحزاب]. وتابع سبحانه وتعالى يذكرهم بحال من قبلهم ومن كان على شاكلتهم، والمصير الأسود الذي آلوا إليه/

هذا هو سياق آية (ص والقرآن ذي الذكر). فما هي علاقة (الصيغة اللغوية الإنسانية المنطوقة بلسان عربي) وما مناسبة هذا المعنى أيها الاستاذ المهندس؟

وإن سورة الصافات تؤلف سباق هذه الآية الكريمة، وقد ابتدأت بالقسم أيضاً، بتقديم صحابة رسول الله شهادة على أمرين هامين: أولهما [فالزاجرات زجراً] أي الصحابة الذين نهضوا في وجه الظلم الاجتماعي ومفاسده ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف، وثانيهما (فالتاليات ذكراً] أي الصحابة الذين يتداولون ويحفظون هذه الآيات التي تقدم الدواء الناجع للخلاص من الظلم الاجتماعي ومفاسده، هذا التعليم الدائر حول التوحيد ووحدانية الله ووحدة الوجود الطبيعي [إن الهكم لواحد، رب السموات والأرض ومابينهما ورب المشارق] وأنّه وراء تطور هذا الكون لأنه هو ربه.

وعليه يكون قد ورد لفظ "الذكر" في مستهل سورة الصافات إذن، بمعنى الصيت والشرف والنصح والتذكير أيضاً، فقوله [ص والقرآن ذي الذكر] وقوله [إنه لذكر لك ولقومك] من سورة الزخرف أي شرف لك ولقومك، وقد جاء في النهاية لابن الأثير: والذكر الشرف والفخر ومنه الحديث في صفة القرآن: وهو الذكر الحكيم أي الشرف الحكم العاري من الاختلاف. وعليه يكون قد ثبت بطلان المعنى الذي أخذ به الدكتور شحرور بصورة قاطعة. فلم يكن الكلام لا في سورة (ص) ولا في سورة الصافات عن (الصيغة اللغوية الإنسانية المنطوقة بلسان عربي). بل كان الكلام عن كتاب الله وآياته على أنه مستحق للأسم الوصفي "ذي الذكر" لأنه من حيث مضامينه هو أساس شرف وصيت وشهرة المؤمنين به، وتعبدهم به في صلواتهم.

وتأكيداً من الله عز وجل على أنه قصد هذه المعاني التي ذكرناها من صفة الذكر التي وصف بها كتابه العظيم. فهو سبحانه أنهى سورة (ص) بقوله ﴿ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين، ولتعلَمُنَّ نبأه بعد حين﴾ بمعنى أن كتابي العظيم هذا الذي تتنزل آياته في مكة. تحمل تعاليمه صفة العالمية فهو لم أنزله لإصلاح مجتمعكم وحدكم، بل أنزلته [ذكر للعالمين] لإصلاح جميع الناس أينما كانوا، وفي أي زمان تواجدوا فيه. كما أكدّ سبحانه مضمون البشارة والنبوءة بقوله ﴿ ولتعلَمُنَّ نبأه بعد حين﴾.

وهاهو الدكتور شحرور قد علم أيضاً بتحقق هذه البشارة وتلك النبوءة. لكنه بدلاً من أن يتدبر هذا الكتاب العظيم، ويعطي آياته معانيها الحقيقية. فقد صدف عن ذلك ليأتينا

بمعاني وأفكار "مسبقة الصنع"، وكأنه يلقي علينا درساً من منطلق كونه مهندساً مختصاً.

على هذه الصورة نكون قد نجونا بفضل الله من محاولة هذا إيهامنا بما أراد إيهامنا به، دونما مبرر أو مسوغ أو دليل. ولنتابع معاً خطوته الثانية فهو كتب ص ٦٣ (إن القرآن مجموعة القوانين الموضوعية، الناظمة للوجود، ولظواهر الطبيعة، والاحداث الإنسانية).

إنه بهذه الجملات يكرّر ماسلف أن نقضناه من تقسيم المصحف إلى كتاب قرآن، فهو يستعمل لفظ (قرآن) بمصطلحه الفاسد هنا. لذلك نحن بغنى عن سماع هذه النغمة الناشزة التي تصك الأذن، فلنتجاوزها إلى مابعدها.

فهو أضاف (وأساسه غير لغوي، ثم جُعل لغوياً، لقوله [إنا جعلناه قرآناً عربياً] الزخرف٣). وإنه، أي الدكتور شحرور، عاد ليوهمنا أن الكلام في آية سورة الزخرف التي أوردها، من أنها اختصت بالكلام عن القرآن كجزء من كتاب الله العظيم، وليس هذا فحسب، بل ليقول بصيغة الجزم والتقرير، ومن دون تقديم أي دليل، وعلى طريقته (وأساسه غير لغوي ثم جُعل لغوياً). وهو مخطىء في فهم آية الزخرف [إنا جعلناه قرآنا عربياً] حتى وأنه يقوم بمحاولة تحريفها أيضاً. وحتى لايتهمني أحد بالتجني على الدكتور المهندس، تعالوا معي نعوُد إلى الزخرف نفسها:

ابتدأ ربنا هذه السورة بقوله عز وجل ﴿ حم. والكتاب المبين. إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون.﴾ وعندما نتلو هذه الآيات مجتمعة يبدو لنا أن الكلام فيها يدور حول [الكتاب المبين] وليس حول القرآن. وأن الله سبحانه قد جعل هذا (الكتاب المبين) (قرآناً) أي مقروءاً بكثرة بدليل التنوين على آخر اللفظ، و (عربياً) أيضاً من حيث الإبانة والافصاح عما تضمنه من تعاليم. ويتساءل المرء: ولماذا جُعل (الكتاب المبين) قرآناً عربياً؟ ويأتي الجواب منه سبحانه [لعلكم تعقلون]. ولايُسمّى الرجل "عاقلاً" مالم يستعمل ملكة عقله، وأدوات محاكمتها للأمور المطروحة، بصورة علمية منطقية سليمة، ويلزم نفسه أيضاً بما أسفرت عنه هذه المحاكمات. وكأنه سبحانه قال بأنه أنزل آياته على شكل كتاب يحمل بيناته معه، وقدّر أن يطبع ويُستنسخ كتابه هذا، ويقرأ على نطاق واسع، وبلغة عربية سليمة الحسب، جعل كل هذا التيسير منه سبحانه رأفة بعباده، وليستعمل أصحاب الأدمغة عقولهم فيتدبروا هذه الآيات تدبراً علمياً ومنطقياً سليماً، وليلزموا أنفسهم بما أنزله ربهم في هذا الكتاب ليحققوا الغاية القصوى من إنزاله.

على هذا الأساس ندرك أن الضمير الوارد في كلمة (جعلناه) يعود إلى (الكتاب المبين) وليس إلى القرآن. ويعود القرآن في هذه الحالة إسماً وصفياً للكتاب المبين ليس إلاّ. هذا وعلى اعتبار أن الضمير يعود إلى الأسم الذي قبله، وليس إلى الأسم الذي يأتي بعده.

والآن نتوجه بالسؤال إلى الدكتور شحرور نفسه فنسأله: لماذا قطعت الآية عن سباقها أولاً. ولماذا خالفتَ أصول اللغة فأعدت الضمير إلى أسم ورد بعده ثانياً. ولماذا بل على أي أساس جئت لتزعم أن القرآن كان أساسه غير لغوي ثم جُعل لغوياً ثالثاً. ولماذا قمت بمحاولة مشككة لقارىء هذه المحاولة المضلّلة رابعاً وأخيراً، ألا إنها أشبه بأساليب المستشرقين وغير المستشرقين الذين يعتمدون على اهواءهم في تفسير كتاب الله العظيم.

وكيلا أُشعر قارئي الكريم أنني تناسيت أسلوبي الذي اختططته لنفسي، وهو وضع القارىء في إطار المعنى الصحيح لكل آية تُعرضُ لنا، مع بيان سباقها وسياقها، فإليكم مافهمته أنا من هذا الآيات الكريمات التي ابتدأ ربنا بها سورة الزخرف.

﴿حـم﴾ حرفا اختزال، واختُزلا من اسمين من أسماء الله الحسنى هما حميد مجيد. استهل ربنا سورة الزخرف بإسميه المذكورين ليؤلّفا في حدّ ذاتهما إدّعاء، ولايُفهم مضمون هذا الإدّعاء إلا بفهم معنى حميد مجيد. وخلاصة معنى (حميد) على وزن فعيل، اتصاف صاحبه باكمل الصفات الجميلة التي استحق من خلالها التعظيم فأضحى محموداً، وخلاصة معنى (مجيد) العظيم في ذاته وصفاته، كثير الخير والإحسان على عباده، وكأنه سبحانه وتعالى ينبه عباده إلى أنه من منطلق كونه حميداً مجيداً بحكم أنه كامل الصفات الجميلة، عظيم في ذاته وصفاته، ومن منطلق كونه كثير الخير والإحسان على عباده يُنزل هذه الآيات الكريمات على رسوله محمد ﷺ هذا هو الإدّعاء.

وعلى عادة الله وأسلوبه المتميز، فهو توجّه فوراً لتقديم الدليل على صحة إدعائه عز وجل فقال ﴿والكتاب المبين﴾، الواو واو القسم وتعني تقديم شهادة من قبله سبحانه وتعالى على صدق ادعائه. وهذه الشهادة هي [الكتاب المبين] أورد اللفظين معرفين بالألف واللام، ليفيدوا معهوداً ذهنياً يربط سورة الزخرف بسورة الشورى التي سبقتها وقد أنهاها ربنا بقوله ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الذي له مافي السموات ومافي الأرض، ألا إلى الله

تصيرُ الأمور﴾، فهو سبحانه بتعريفه للفظي [الكتاب المبين] ربط بين مضموني السورتين ربطاً محكماً.

و [المبين] يعني أن هذا الكتاب يحمل أدلته وبيناته معه، فإذا تحققتم ذلك تكون هذه شهادة على أني ربكم الحميد المجيد بأكمل الصفات الجميلة، والعظيم في ذاتي وصفاتي، وكثير الإحسان على عبادي فأنا المستحق من خلال هذا كله للحمد والتعظيم.

وأضاف سبحانه وتعالى قوله ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ موجها خطابه للإنسان العاقل الذي يستعمل ماأحسن عليه ربه من ملكات محاكمه وتفكير ليستنبط بها النتائج والأمور السليمة، ويلزم بها نفسه. خاطب هؤلاء العقلاء يذكرهم أنه سبحانه وتعالى لم يكتف بأن أنزل إليهم كتاباً يحمل معه دلائله وبيناته، بل وقدّر أن يصبح هذا الكتاب في متناول كل إنسان مقروءاً ومحفوظاً في الصدور، ومتلّواً في العبادات. وأنزله بلغة عربية مبّينه يفهمها كل عربي مهما اختلفت لهجته وأحواله.

وأضاف سبحانه وتعالى معلومة أخرى حينما قال ﴿ وإنّه في أمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم﴾ بمعنى أن اعلموا بأننا مُذْ خططّنا لإنزال الشرائع على عبادنا لإصلاح احوالهم وتطويرهم وتوجيههم نحو إلههم الحقيقي، فقد أخذنا في [أم الكتاب] أي في هذا المخطط، إنزال هذا الكتاب المبين الذي قدرنا أن يصبح مقروءاً بلغة عربية سليمة. يقول سبحانه لهذا السبب نفسه فإن هذا الكتاب المبيَن ﴿لدينا لعلي حكيم﴾ بمعنى أننا أعطيناه في أصل مُخططنا مكانة سامية على جميع ماأنزلناه من شرائع ووسمناه بالحكمة أي بتقديم تعاليمه جميعها على أساس فلسفي وعلمي مناسب لجميع الظروف والأحوال.

ولابّد أنكم لاحظتم أن جميع الضمائر، في هذه الآيات كافة إنّما عادت إلى [الكتاب المبين] وليس إلى [القرآن] كما ذهب الدكتور شحرور.

ونسأله: مادمت باحثاً ومجتهداً، فكيف غاب عنك هذا الأمر وقد اثبتناه؟ وقد جاء الأمر من صاحبنا محاولة لإفراغ الآية من محتواها والباسها أفكاراً مسبقة الإعداد.

على هذه الصورة اعتقد أننا نكون قد بددنا هذا الوهم الذي أريد لنا أن نقع فيه، وأبطلنا زعم كون القرآن هو المقصود في آية سورة الزخرف وماتبعه من أوهام.

ولنتابع معاً خطوته الثالثة فقد كتب ص ٦٢ (وانتقال القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية بلسان عربي، تمّ بصيغةٍ منطوقة. لذا فهو يُتلى بصيغة صوتية منطوقة مسموعة أو غير مسموعة،

وهذه هي الصيغة التي أشتهر بها القرآن، وبها يُذكر بين الناس، كما جاء في قوله تعالى [ورفعنا لك ذكرك] الانشراح ٤، وقوله [اذكرني عبد ربك] يوسف ٤٢﴾.

هذا النص، تكملة، لما كشفنا فساده وبطلانه،فهو تأكيد للإيهام بأن القرآن جزء الكتاب، وأن الذكر يقصد به الصيغة اللغوية العربية المنطوقة، وهذا كله بات منقوضاً باطلاً، فلاحاجة للخوض فيه.

ولّما كان قد استشهد فيه بآيتين لاعلاقة لهما بما ذهب إليه من قريب أو من بعيد. وكان معناهما على غير مافهمه هو منهما. لذلك أرى من واجبي شرح هاتين الآيتين وبيان موضعهما من سباقهما وسياقهما أيضاً.

إنه فهم من قوله تعالى [ورفعنا لك ذكرك] نشرنا ذكرك بين الناس فاصبحوا ينطقون باسمك بلغة إنسانية عربية، على حسب تعابيره، وهذا يعني اشهاره بين قومه.

كلا فما كان لهذه المنّة الإلهية أن تعني ماذكره صاحبنا، ذلك أن محمداً كان مشهوراً في قومه بالصادق الأمين، من قبل أن يُؤتى رساله ربه، حتى أضحى موضع ثقتهم، فكانوا يودعونه أماناتهم المالية تماماً كما كانوا يودعون أماناتهم لدى زعيم مكة آنذاك، فلايصح الاستدلال بهذه الآية على الإدعاء المشار إليه.

وإنكم إذا امعنتم النظر في الفاظ وتركيبة هذه الآية الكريمة تجلّت لكم الأمور التالية:

أولاً - لو كان سبحانه قال [نشرنا لك ذكرك) لكان المقصود الصيغة الصوتية اللغوية. لكنه قال [رفعنا]، والرفع يشير إلى المرتبة، فهو سبحانه يمّن عليه أن رفع منزلته من شهرة رجل عادي، إلى شهرة رسول من عند الله عز وجل عظيم.

ثانياً - لم يقل سبحانه (رفعنا ذكرك) بل قال [رفعنا لك ذكرك] أي كانت هذه المنّة لمصلحة الدعوة التي كُلّفت حمل رسالتها.

ثالثاً - ومن منطلق اعتبار اللام هنا قد وردت بمعنى التملك، فيها إشارة إلى منزلة هذه التعاليم التي أنزلها ربه عليه، فهي التي ملكته ناصية الصيت والشهرة بين الناس.

رابعاً - وإننا إذا أخذنا بعين الاعتبار سياق هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿ إن مع العسر يسراً﴾ تجلى لأعيننا مَعْلَمٌ بشارة ونبوءة، وهي أن الاضطهاد الذي تعانيه من طرف قومك لن يدوم. وإن النصر قريب فهاهي أيام اليُسر قادمة، وهي ستنسيك ماأنت فيه من متاعب وآلام، بدليل التنوين على كلمة [يُسراً] ففيها دلالة عظمة الأيام القادمة،

ذلك أن سورة الانشراح مكية النزول. ولم يكن محمد رسول الله قد بلغ المكانة التي أنبأت عنها هذه السورة الكريمة، ودارت بعدها الأيام وتحققت النبوءة المبشره، حتى إن أعداء الإسلام في عصرنا يصنفون محمداً مع أعاظم رجال التاريخ البشري. وهذه شهادة حسية تثبت أن البشارة قد تحققت على أوسع نطاق.

ألا إن جميع هذه الملاحظات التي استخلصناها لايدخل ضمنها معنى الصيغة الصوتية اللغوية التي حاول الدكتور شحرور إلصاقها بهذه الآية الكريمة.

هذا وهو عندما استدل بآية سورة يوسف ٤٢ ﴿اذكرني عبد ربك﴾ فقد استدل بها علي غير معناها الحقيقي أيضاً. فما كان مراد يوسف عليه السلام من قوله هذا مجّرد تذكير فرعون باسمه بصيغة صوتية مسموعة، إذ إن مجرد التذكير بخادم لايزيد ولاينقص من الأمر شيئاً، ويستحيل أن يُعد في نظر فرعون مبّرراً للإفراج عنه.

والذي اراده يوسف هو أن يشهره عند فرعون على أنه عليم بتأويل الأحلام، بدليل أن هذا الأمر هو الذي أدى إلى اطلاق سراحه فيما بعد، ولاريب أن الذكر يعني الشهرة والصيت كما بينت من قبل.

ولنتابع معاً خطوته الثالثة فقد كتب ص ٦٢ (فالذكر هو تحول القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي، وهذه هي الصيغة التي يُذكر بها القرآن).

إنه لخص بهذه الجمل جميع ماأورده حتى الآن مما أثبتنا بطلانه. فقد أثبتنا أنه ماكان (القرآن) هو المقصود من قوله تعالى [إنا جعلناه قرآناً عربياً]، بل كان الضمير يعود إلى (الكتاب المبين). ومادام الأمر كذلك، فما عاد يصح قوله من إن الذكر هو تحول القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي، وتكون خطوته الثالثة هذه باطلة مخفقة أيضاً.

إذ مضى الدكتور شحرور يقيم على رماله المتحركة هذه صرحاً، وهذا الصرح ينبىء بتمويه جديد فهو قد كتب (وبما أن هذه الصيغة عربية، فقد قال للعرب [لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، أفلا تعقلون] الأنبياء ١٠ أي صيغته اللغوية في اللسان العربي المبين. لذا قال [فيه ذكركم] وهنا جاء أكبر عزّ للعروبة والقومية العربية.) ص ٦٢.

هذه الخطوة الرابعة تحمل كما قلت رائحة التمويه، لذلك ماكانت صياغته الأدبية لأفكارها ناجحة، وعلى كل حال فإنها باطلة شكلاً ومضموناً، وهي على شاكلة بقية استدلالاته باطلة مسبقة الصنع.

فقد حاول في هذا النص جاهداً أن يعطي كلمة [الذكر] هنا [فيه ذكركم] معنى الصيغة اللغوية الصوتية في اللسان العربي، فالسؤال هنا هو هل يصحّ هذا المعنى لهذه الآية ولكلمة الذكر الوارد فيها؟ أم لايصح. أو أراد ربنا به معاني أخرى للذكر غير هذه؟

نعود إلى سورة الأنبياء لنلاحظ فيها سباق هذه الآية وسياقها، والتسلسل الموضوعي لها، فعلى ضوء هذا يتحدد المعنى المقصود في هذه الآية.

ابتدأ ربنا سورة الأنبياء بقوله ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة مُعرضون. مايأتيهم من ذكر من ربّهم مُحدث، إلا استمعوه وهم يلعبون.﴾ وهذا كلام واضح يقول تعالى [مايأتيهم من ذكر] أي مايأتيهم من وحي إلهي مُفعم بالنصح والتذكير [إلا استمعوه وهم يلعبون] أي لايُعطونه التأدب الضروري لمجرد كونه منسوباً إلى الله خالقهم. بل يُصغون إليه وقلوبهم لاهية باهوائهم وقضاء شهواتهم وميولهم.

بهذه الافتتاحية تحددت مضامين سورة الأنبياء واتجاهاتها. إنها تبحث موضوع محاسبة المكذبين بشكل خاص. لماذا؟ لأن الله عز وجل نبه إلى ذلك في آخر سورة طه بقوله عز وجل ﴿ قل كلٌّ مُتربّص، فتربصوا، فستعلمون من أصحاب الصراط السّويّ ومن اهتدى﴾. فمن خلال كلمة [فتربصوا] أشار إلى أنه آن أوان بحث موضوع انزال العقاب بكم بعد هذه السنوات الطويلة من الوعظ والتذكير. علماً بأن سورتي طه والأنبياء نزلتا في مكة المكرمة.

على أساس من موضوعية سورة الأنبياء هذه قال سبحانه وتعالى في الآية العاشرة منها ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً، فيه ذكركم، أفلا تعقلون؟﴾ فحدد سبحانه وتعالى معنى [فيه ذكركم] من خلال سؤاله إياهم [أفلا تعقلون؟] فالعقل كما عرفنا متعلق بالمحاكمات وليس بالعواطف، فلو كان المراد من قوله [فيه ذكركم] أي منطوق وجودكم بلغة صوتية عربية كما ذهب إليه الدكتور شحرور لكان خاطب الله عواطفهم وشعورهم القومي. الأمر الذي يثبت منه أن المراد من قوله هنا [فيه ذكركم] أي أسس شرفكم ورفعتكم وتقدمكم وشهرتكم. هذه الأمور ستثبت لكم صحتها إذا استقبلتم كتابنا المنزل بروح الجدية والتعقل.

إذن لامحل في الآية المذكورة لمعنى ذكركم بلغة صوتية عربية كما ذهب إلى ذلك الدكتور شحرور فلا سؤال مطروح فيها عن العروبة والقومية العربية. بل السؤال المطروح

فيها هو وصف المكذبين بمشابهة الأنعام من حيث اتباع الغرائز، وفقدان العقول. لذلك قلت أنا: المؤلف هنا:يحاول التموية فهو يُداجي العروبة ويرائي القومية سعياً وراء إثبات زعمه.

مايؤكد أنه قام بعملية تمويه. أننا لاحظناه عاد ليستدل بالآية الثانية من سورة الأنبياء، من بعد استدلاله بالآية العاشرة منها. بينما كات يترتب عليه الاستدلال بالآية الثانية أولاً. فلماذا قدّم وأخّر في الاستدلال إن لم يكن يهدف إلى إثبات دعواه بأي وسيلة؟

ألا إنه عندما عاد أدراجه واستدل بالآية الثانية وهي قوله عز وجل ﴿مايأتيهم من ذكر، من ربهم مُحدث، إلا استمعوه، وهم يلعبون﴾ أضاف قوله (لاحظ هنا دقة التعبير في الكتاب عندما قال عن الذكر إنه محدث ولم يقل القرآن، ولاننس أن الذكر ليس القرآن نفسه، بل هو أحد اسماء القرآن الوصفية [ص والقرآن ذي الذكر]).

وإنني اعتبرت هذا النص مكملاً لخطوته الرابعة التي عجّت برائحة التمويه. وكشفت لكم فيها مداجاته للعروبة والقومية. على هذا الأساس أقول:

أولاً - فأتساءل: لماذا يحشر الدكتور شحرور مصطلح (القرآن) الذي ابتدعه حشراً في جميع هذه الآيات التي يستدل بها؟ والضمير في [إنا جعلناه قرآناً عربياً] إنما يعود إلى الكتاب المبين؟ وليس إلى القرآن بمصطلحه؟ وقد اثبتنا له بطلان استدلاله أيضاً بآية [ص والقرآن ذي الذكر] من أنها متعلقة بالكتاب أيضاً وليس بالقرآن بمصطلحه.

ثانياً- إنه حسب أن كلمة "الذكر" في الآية الثانية من سورة الأنبياء وردت كصفة للقرآن بمصطلحه زاعماً (دقة التعبير) عن ذلك، وأنه [قرآنٍ مُحدثٌ] ونقول هذا تحريف واضح لكلام الله عز وجل. وقد تكلمنا عن هذه الآية في مستهل الرد على الخطوة الرابعة المذكورة. واثبتنا من خلال سباق هذه الآية وسياقها أن (الذكر) فيها يقصد به الوحي الإلهي المُفعم بالنصح والتذكير. الذكر الذي [استمعوه وهم يلعبون] بدل أن يقبلوا عليه إقبال المتأدب المتهيب لمجرد كونه منسوباً إلى خالقهم.

ثالثاً- وكلمة (مُحدث) الواردة في قوله تعالى [ذكرٌ محدث] وردت بمعنى وحي جديد أي وعظ ونصح جديد سماوي. هذا على اعتبار أن قولك حَدَث نقيض قَدُم، وحدث الأمر وقع، واحدثه الله أوجده، والحادث هو القائم بذاته، وإن مالايقوم بذاته نقول عنه مُحدث. ولما كان كلام الله ووعظه لايقوم بذاته فهو مُحدث لذلك جاء قوله عز وجل [ذكرٌ محدث] أي وعظ جديد ماكان ذاتياً بل من عند الله الذي أنزله

على رسوله. هذه هي [دقة التعبير، هذا مايخلُص إليه الاختصاص والفحص والمتابعة، فإذا لم تتوفر أدوات البحث هذه عسُر الوصول إلى اليقين، وهو ماحدث مع صاحبنا. فا الله سبحانه وتعالى ماقال (ذكر حديث) للسبب الذي بيناه، بل قال [ذكرٌ مُحدث] لينفي كون هذا الذكر من صياغة أحد سوى الله عز وجل.

نعود لنحاذي في ردّنا خطوات الدكتور شحرور الفاشلة ذلك أننا نلاحظ أنه خطا خطوة هامشية، ليست من صلب بحثه فقد كتب ص ٦٣ (وهذا الفهم يحل المعضلة الكبرى التي نشأت بين المعتزلة وخصومهم حول خلق القرآن. فإذا عرفنا الآن أن الذكر ليس القرآن نفسه، وإنما هو أحد خواصه، وهو صيغته اللسانية حصراً، يزول الالتباس).

وتعليقنا، هو أن من سوء حظ الدكتور شحرور، أو سوء حظ المعتزلة أنهم لم يخلقهم الله تعالى في زمان واحد، حسماً للصراع الذي أثاروه. ونضيف قولنا: إن من المؤسف حقاً أن مكننا الله عز وجل من إبطال استقراء الدكتور شحرور فليس صحيحاً قوله إن المعضلة الكبرى التي نشأت بين المعتزلة وخصومهم قد حلّت، فمن المؤسف بالنسبة للدكتور شحرور أن يوفقنا ربنا إلى هدم ماحاول الإساءة به إلى كتاب الله العزيز.

وكانت خطوة الدكتور الخامسة متجلية فيما كتب ص ٦٣ (لذا فقد وُضع الكتاب شرطاً لفهم آياته بقوله [ومارسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر، إن كنتم لاتعلمون] الأنبياء ٧ - هنا يجب أن نفهم أن "أهل الذكر" هم أهل اللسان العربي).

قرأت هذه الفقرات فأعجبني من هذا الأخ أن أورد الآية هنا بكاملها. فلم يقتطع على عادته لفظين أو أكثر تحكماً واستبداداً بالرأي، ويا للأسف عندما أورد الآية بكاملها، غلب عليه فكرة "مسبق الصنع" فشغل قلبه عن مناقشة أفكارها مناقشة سليمة هادئة.

قال (يجب أن نفهم أن "أهل الذكر" هم أهل اللسان العربي).

لنفرض أن "وجوبه" هذا صحيح جدلاً أي أن اللغويين العرب هم المشار إليهم في هذه الآية الكريمة. فالسؤال المطروح هو: هل يحق لنا اعتبارهم مرجعاً في غير اللغة العربية أيضاً؟ أم أنهم مرجع لغوي وحسب؟ المنطق يقول: لايُرجع إليهم إلا في اختصاصهم. نحن نقول هيا بنا نلاحظ الأمر المتعلق بسؤال هؤلاء اللغويين "أهل الذكر"، هل إنه سؤال لغوي؟ ذلك أن الله تعالى يأمرنا بسؤالهم [فاسألوا أهل الذكر].

وعن أي شيء نسأل "أهل الذكر" اللغويين على حد منطق الدكتور شحرور؟ قال تعالى ﴿ وما ارسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا..﴾ فيا أيها القُرّاء الكرام اناشدكم أن تجيبوني أين موضوع الاختصاص في هذه المعلومة الإلهية؟ وهل تشعرون فيها بإبهام لغوي؟ فكيف قرر الدكتور شحرور أن يكون أهل الذكر هم اللغويين العرب إذن؟ أوليس من السذاجة بمكان أن نربط بين هذا وذاك؟ فهل نحن بحاجة إلى اللغويين العرب، ليفيدونا أن ربنا ماأرسل قبل محمد رسول الله إلاّ رجالاً يوحي إليهم؟ أم نرجع في معرفة ذلك إلى الراسخين في العلم من أهل الديانات السابقة؟

لقد اتضح من هذا الزعم بجلاء تام أن الدكتور شحرور حين يناقش آيات الله، إنّما يفرغها من محتواها، ويحاول إلباسها ثوباً من عنده "مسبق الصنع" بأسلوب التنجيم، وعلى غير أسس وأصول.

ادعى أنه كتب "قراءة معاصرة" للمصحف الشريف. وإن مانفهمه من هذا العنوان، هو إعادة دراسة نص من النصوص أو الكتاب كله. فلعل الذين سبقوا في دراسة هذا النص أو الكتاب قد غاب عن ذهنهم أصل وأساس من الأصول والأسس التي يُفهم على ضوئها النص أو الكتاب.

ومادام الدكتور شحرور قد استعمل عنوان "قراءة معاصرة" فمن أبسط البديهيات أن يتقيد نفسه بهذه الأسس والأصول، لا أن يتجاوزها إلى حد التنجيم والتأويل. كما أن من أبسط البديهيات ضرورة مناقشة صاحبنا للنصوص مناقشة علمية وعقلانية، لا أن يقتطع من النص ماشاء، فينتزعه من محتواه،ويلبسه لباساً "مسبق الصنع" كما فعل ويفعل صاحبنا الدكتور.

إن مناقشتنا لأفكار هذه الآية الكريمة، أدت بنا لإدراك فساد الزعم بأن "أهل الذكر" هم اللغويون العرب، وهيا بنا نتدبر سباق هذه الآية وسياقها وموضعها من تسلسل السورة الموضوعي. لنوقن ببطلان هذا الزعم وهذا الإدعاء.

قال تعالى ﴿ بل قالوا اضغاث احلام، بل افتراه، بل هو شاعر، فيأتنا بآية كما أرسل الأولون، ماآمنت قبلهم من قرية أهلكناها، أفهُمْ يؤمنون، وماأرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون، وماجعلناهم جسداً لايأكلون الطعام، وماكانوا خالدين. ثم صدقناهم الوعد، فانجيناهم ومن

نشاء وأهلكنا المسرفين. لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، أفلا تعقلون؟﴾.

عدّد الله ربنا في الآية الأولى تقوّلات المكذبين، الذين أرادوا تعجيز محمد رسوله الأمين. ونبه سبحانه إلى تركيز المكذبين على مطالبة رسوله بآية على شاكلة ماأرسل الأولون. وعلى الصورة التي وصلتهم أخبارها. وردّ عليهم ربنا في الآية الثانية موضحاً لهم أن الصورة التي وصلتهم أخبارها كانت مُضخمة مُبالغاً فيها. فلو كانت على تلك الصورة لآمن أهل القرى التي ظهرت فيها تلك المُعجزات. ومادامنا لم يؤمنوا [أفهُمْ يؤمنون]؟ وصحح ربنا في الآية الثالثة أفكار المكذبين المتعلقة بالمعجزات بقوله ﴿وماأرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنم لاتعلمون﴾ أي اسألوا أصحاب الديانات التي امتلأت تعاليمها بالنصح والتذكير على شاكلة الذكر الذي ننزله على رسولنا، فسيعلمون من المخلصين منهم سوء فهمكم لحقيقة المعجزات. فما كُنا نرسل إلا رجالاً بشراً مثلكم إنما الفارق كان فارق الوحي النازل عليهم بالنصح والإرشاد. الوحي المعمور بالأنباء الغيبية والبشارات. فتلك هي حقيقة المعجزات. نبوءات وبشارات ووعود تحققت على أوقاتها فكانت معجزات وفرقاناً، فرق بين الحق الذي جاء به المرسلون، وبين الباطل الذي كان يدين به المكذبون.

وراح سبحانه وتعالى بعدها يبين أن جميع رسله كانوا رجالاً عاديين، لايختلفون عمن سواهم من الأشخاص إلا فيما كانوا يتلقونه من وحي فما كانوا أناساً لايأكلون الطعام، ولاكانوا ذوي أعمار طويلة فوق المعدل المعروف في زمانهم. وكانوا أوّل المسلمين بما يتلقونه من وحي حافل بالنصح والتذكير، بالنبوءات الغيبية والبشارات السماوية، وبالوعود من رب العالمين. وكانت نتيجة إيمانهم وصبرهم على اضطهاد مكذبيهم أن [صدقناهم الوعد، فأنجيناهم ومن نشاء، وأهلكنا المسرفين] في معاجزة رسلنا ومشاقتهم إياهم، الذين كانوا لايستعملون ملكاتهم العقلية ومواهبهم لفهم ماجاء به رسلنا. وها نحن [أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم] أي فيه نُصحكم وتذكيركم وشهرتكم وعزتكم [أفلا تعقلون؟] أي فهل تمضون على آثار من سبقكم من المكذبين الذين اهلكناهم. أم تؤمنون على شاكلة من استعمل ملكاته العقلية الذين بشرناهم بعاقبتهم وصدقناهم الوعد وكانوا من الناجين؟

وكأنه سبحانه وتعالى يقول للمكذبين: إن القضية هي قضية مبادىء وتعاليم في دائرة عمل العقول. وماهي بقضية إظهار معجزات، فلِمَ لاتفكرون فيما أنزلناه من نصح وتذكير،

بدل أن تطالبوا رسولنا باراءة المعجزات التي ضخّم حقائقها أصحاب الرسالات السابقة.

ومن خلال هذا السباق والسياق والتسلسل الموضوعي لآيات سورة الأنبياء يتبين زيف المعنى الذي ذهب إليه الدكتور شحرور من أن "أهل الذكر" هم اللغويون العرب.

وإننا نراك أيها الأخ العربي ركضت لاهثاً وراء أحد هؤلاء اللغويين وأعرضت عن تراث بقيتهم، فلماذا الزمت نفسك بواحد من اللغويين إن كان المراد من **"أهل الذكر"** جميع اللغويين؟ هل بإمكانك تفسير هذا التناقض الذي أوقعت نفسك فيه.

ولنلاحظ هذا الأخ المسلم، وبعد أن قال (يجب أن نفهم أن أهل الذكر هم أهل اللسان العربي) هذا الزعم الذي بينا زيفه وفساده وبصورة قاطعة. لنلاحظه في خطوة سادسة من خطواته الفاشلة يفاجئنا بشيء جديد وببدعة تتنافى وتعاليم القرآن الكريم نفسه. فهو كتب على صفحة ٦٣: (هذه الصيغة الحدثة هي التي أخذت الصيغة التعبدية.... فإذا وقف في الصلاة مسلمان: عربي وغير عربي، وكلاهما تلا الذكر، بغض النظر عن فهم المضمون، فصلاتهما مقبولة، لذا قال:[أقم الصلاة لذكري] طه ١٤. وعندما قال الفقهاء: إن الصلاة لاتجوز إلاّ باللسان العربي فهذا صحيح، لأن المطلوب في أثناء الصلاة هو التلاوة الصوتية للكتاب، "لافهم الكتاب"، لذا قيل عن القرآن إنه المُتعَبد بتلاوته، فالقرآن يُتلى [وأن أتلُوا القرآن] النمل ٩٢).

إن مخالفة تعاليم القرآن الكريم، تبدو في هذا النص، من خلال قوله (وكلاهما تلا الذكر، بغض النظر عن فهم المضمون، فصلاتهما مقبولة)، وقوله (المطلوب في أثناء الصلاة هو التلاوة للكتاب، لافهم الكتاب).

إن هذه الفتوى التي ابتدعها، تشجيعاً منه للمصلين على عدم تدبّر مايتلونه في صلواتهم من أدعية وآيات، تتنافى صراحة مع قول الله عز وجل في سورة النساء ٤٣ ﴿لاتقربوا الصلاة وأنتم سُكارى، حتى تعلموا ماتقولون...﴾ ففي هذه الآية الكريمة يشترط سبحانه على المصلين أن يدخلوا الصلاة مالكين زمام عقلهم وفكرهم ليفقهوا مايقولون بدليل قوله تعالى [حتى تعلموا ماتقولون...].

كما يتنافى مع قوله تعالى ﴿ويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ ومعلوم أن معنى سها عن الشيء أي غفل عنه. ومادام قد اطلق سبحانه الخطاب للمصلين وليس للمقصرين في اداء صلواتهم، ينتقل السهو والغفلة إلى مضمون الصلاة نفسها من أدعية

وقراءات، ويكون في هذه الآية تحذير لمن يواظبون على صواتهم دون تدبر مايتلون فيها من أدعية وآيات. إشارة إلى أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في حال كون المصلي يعلم مايقرأ في ركعاتها من أدعية وآيات، وهذا العلم يفيده في توليد الخشوع والخشية من الله في نفسه، الأمر الذي ينهاه عن ارتكات الفحشاء والمنكرات، لذلك قال سبحانه بعد هذه الآية عن أمثال هؤلاء المواظبين على صلواتهم من دون أن يعلموا مايقولون، قال ﴿الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون﴾.

فالدكتور شحرور أفتى في خطوته السادسة فتوى تخالف النصوص القرآنية التي ذكرناها مخالفة صريحة، هذه النصوص التي وضعت شرطاً أساسياً لصحة صلاة المرء، وهي أن يتلو آيات الذكر في صلاته محاولاً فهم مضامينها، وإلا اعتبرت صلاته مراءاة ونَصَباً.

وهذه في الأصل آيات مُحكمات ماسبق أن ورد مثل تعليمها في كتب وتعاليم الأديان السابقة. فكيف أجاز هذا الأخ المسلم أن يفتي بأمر مخالف ومضاد لتعليمها، وهو يزعم أنه يريد وجه الله خالصاً؟

من هذا ندرك بأن خطوة هذا الأخ المسلم السادسة جاءت مخفقة مشككّة لايقوم بمثلها باحث، وإنه في حين استدل لتدعيم قوله: (لذا قيل عن القرآن أنّه المتعبّدُ بتلاوته، فالقرآن يتلى..) استدل ببعض ألفاظ آية من سورة النمل. وهي[وأن أتلوَ القرآن] وأراد من وراء استدلاله هذا تثبيت أركان فتواه السالفة المشككة في نفوس قُرآئه.

وتعالوا بنا إلى الآية بكامل ألفاظها مع سياقها لتشاهدوا حلقة جديدة من حلقات سوء التأويل. قال تعالى آمراً رسوله ليبلغ قومه ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التي حرّمها، وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل، فقل إنما أنا من المنذرين، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها، ومار بك بغافل عما تعملون﴾.

وسؤالنا: لماذ عمد صاحبنا إلى اقتطاع[وأن أتلو القرآن] واغفل قوله[فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين]؟ فكأنه يحاول إيهام القارىء أن الفاظ[وأن أتلو القرآن] تصرح بمجرد التلاوة، ولو أورد الآية بكاملها، يتغير المعنى الذي يريد الباسه هذه الألفاظ. فالمراد أساساً من[وأن أتلو القرآن] التبليغ وليس مجرد التلاوة، فأنتم تقولون تلا القاضي الحكم على المحكومين، ويكون مرادكم أنه بلغهم قرار

محكمته. وبهذا المعنى ورد فعل [أتلو القرآن] لذلك أكمل سبحانه هذا بالقول ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين﴾، فهذا تبليغ رسالة الله من دون اكراه على عمل معين، وهو بمثابة إنذار للمنحرفين، لذلك قال [فقل إنما أنا من المنذرين] بل ودعّم سبحانه وتعالى هذا المعنى أيضاً حينما قال: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته، فترفونها، ومااربك بغافل عما تعملون﴾.

ونتوجه بالسؤال ثانية إلى الدكتور شحرور، فنسألة كيف يجوز أن تتعبد بتلاوة الكتاب، كالببغاء،دون تدبّر وعلم. وما الذي يمكن أن تجنيه من هذه العبادة؟

والخطوة السابعة من خطواته كتب فيها ص ٦٢ : (ومنه يظهر أن التحويل للقرآن "الجعل" إلى صيغة صوتية لغوية عربية، قد أخذ الطابع التعبدي، لذا قال عنه [ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مُدكر؟] القمر ١٧).

ونقول إننا سبق أن أبطلنا كون "الجعل" متعلقاً بالقرآن، وأثبتنا هناك أنه متعلق بالكتاب المبين. كما سبق أن اثبتنا أن "الجعل" غير متعلق بتحويل القرآن إلى صيغة صوتية لغوية.

ثم إننا أثبتنا آنفاً أن تلاوة آيات الله واذكاره في صلواتنا دون فهم مضامينها، لايمثل الطابع التعبدي، بل هو حالة تبطل الصلاة نفسها، ذلك أن ربنا يطلب منّا أن نعلم مانقول في صلاتنا لقوله تعالى: ﴿ لاتقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ماتقولون﴾. ولايغرّنكم لفظ (سُكارى) فتظنون أنه يعني شارب الخمر حتماً، كلا إن السّكران في اللغة العربية هو فاقد الوعي أيضاً والمعروف أن الآية نزلت قبل تحريم الخمر. وأن فقدان الوعي يتأتي عن أسباب عديدة كحالات المرض وحالات الإجهاد العضلي، وحالات شرب مايُخل بوعي الإنسان.

المهم هو أن مانقلناه من كلام الدكتور شحرور في خطوته السابعة إنما هو عدة جمل مفعمة بالأباطيل، التي سبق أن كشفنا بطلانها. وماقام على باطل فهو باطل حُكماً، ولكني لاأرغب بالمرور على الآية الكريمة التي استدل منها، على آخر مزاعمه، مرور الكرام. بل أتناولها هي أيضاً لمجرد إثبات أن هذا الأخ المسلم يستدل بالآيات الكريمة على طريقة التخمين المجرد وليس عن طريق البحث العلمي والتدبّر السليم.

أنهى ربنا آية سورة القمر ١٧ المشار إليها بقوله [**فهل من مدكر**] فما معنى ادّكر؟ قال اللغويون: إن ادكر جاءت لغة من إذكر. فهل افتَعِل من الذكر. حيث أبدلت تاء الافتعال في الأصل ذالاً، ثم بدلت الذال دالاً أيضاً، للمشاكله، وأدغمت، وقد أورد وزن افتُعل المذكور قول ربنا في سورة القمر ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر، فهل من مُدكر؟**﴾ الأمر الذي يعني أن صيغة [**فهل من مدّكر**] أصلها [**هل من متذكّر**]. أي هل من منتصح بهذا الكتاب الذّكر المليء بالنصح والوعظ؟

وهذا المعنى الذي توصلنا إليه يحدّد معني الشطر الأول للآية الكريمة [ولقد يسّرنا القرآن للذّكر] فهو سبحانه وتعالى ينبه عباده فيه إلى أنه اتخذ جميع وسائل تيسير كتابه القرآن الكريم ليكون أداة سهلة في متناول كل عبد من عباده، يريد أن يقرأ هذا الكتاب، وينتصح بما جاء فيه من نصائح ومواعظ. فهل هناك من يسارع للاستفادة من هذه التيسيرات الإلهية التي تجسّم رحمة الله ورأفته بعباده؟

وانتقلوا الآن معي إلى سباق الآية، فهناك قال تعالى: ﴿**ولقد تركناها آية فهل من مدكر، فكيف كان عذابي ونذر**﴾ وترون كيف أن هذا السباق دائر أيضاً حول موضوع النصح والتذكير، وهو غير دائر حول التلاوة التعبدية، وهو سبحانه قال هذا بعدما استعرض قصة نوح عليه السلام ونجاته من الطوفان، وغرق مكذبيه، المكذبون الذين لم يستفيدوا مما أنزل الله ربنا على نوح من نصح وتذكير.

وانتقلوا الآ معي إلى سياق الآية أي إلى مابعدها من آيات، حيث قال تعالى ﴿**كذبت عاد، فكيف كان عذابي ونذر، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً، في يوم نحسٍ مستمر**﴾، وهذا ضرب مثل جديد على نصح ربنا لعباده وتذكيرهم عبر القرون، فالسباق والسياق يدوران حول النصح والتذكير، وليس حول "الصيغة الصوتية اللغوية" لكلمة ذكر، كما يقول هذا الآخ المسلم ويزعم.

كان الدكتور شحرور حتى الآن يستدل بآيات الله عز وجل ليثبت بها أن "الذكر" هو صفة "للقرآن" بمصطلحه، وإذا به يواجهه سؤال ملح يطرح نفسه وهو: فأين بقي "كتاب الرسالة" و "تفصيل الذي بين يديه" ومإليه من تقسيمات جئت بها ياصاحبنا الدكتور، فأنت قلت بصراحة تامة أن الكتاب شيء وأن القرآن شيء آخر. وأنت غطيت صفة "الذكر" بالقرآن وحده، فأين بقيت بقية المصحف الشريف، أفلا تتصف هذه "بالذكر" بمعنى [الصيغة

اللغوية اللسانية المنطوقة بلسان عربي مبين]؟؟؟ أولا يتعبدّ بآياتها المسلم في صلواته؟؟؟ هذا سؤال كبير طرح نفسه وأوقع الدكتور شحرور في حرج من أمره فبماذا يجيب؟

كشف عن هذا الصراع النفسي الذي واجهه هذا الأخ المسلم **خطوته الثامنة** التي نحن بصدد الكلام عنها.

وبإسلوب التنجيم المجرد من أسس وأصول، كتب ص ٦٣ يجيب على هذه المعضلة، قال: [إذاً فصيغة القرآن اللغوية هي الصيغة التعبدية، وكذلك قال تعالى عن صيغة أم الكتاب [إن الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة.. الآية] فاطر ٢٩، فيصبح الذكر بذلك هو الصيغة اللغوية الصوتية للكتاب كله، وهي الصيغة التعبدية، ويغدو من الصحيح أن نقول عندما تُتلى آيات الكتاب "تُتلى آيات الذكر الحكيم").

لابد لاحظتم معالم المشكلة التي واجهت الدكتور شحرور، من خلال هذا النص بالذات، ولابد لاحظتم كيف راح يبحث بإسلوب التنجيم المجرد عن آية كريمة ليستدل بها، مواجهة لمعضلته، ولاأدري كيف دلّه تنجيمه على هذا الجزء من آية سورة فاطر ٢٩، وبكل بساطة حسم المشكلة، وكأن آيات الله طوع يديه يفسّرها كيف يشاء.

إن أول مباينة يلجأ إليها هي بتر بعض ألفاظ من الآية ٢٩ من سورة فاطر. فلماذا لم يدرج الآية بكاملها؟ ألأنها إذا قرنت بكاملها لاتفيده فيما يريده أن يصل إليه، لذلك فمن الواجب علينا الرجوع إليها كاملة. قال تعالى: ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة، وانفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية، يرجون تجارة لاتبور﴾. عدّد ربنا في هذه الآية الكريمة مقومات النجاح على طريق تحقيق الغاية من خلق الإنسان، مؤكداً أهمية هذه العناصر (بإنّ) ومشبها إياها برأسمال تجارة رابحة ربحاً يقينياً. وعبّر عن العنصر الأول بقوله [إن الذين يتلون كتاب الله] ومعلوم أن مجرد التلاوة باللسان، قد يكون بينه وبين الناس وقد يكون بينه وبين نفسه، ومدام سبحانه يعدد عناصر ذات أهمية، ولم يخصص التلاوة أمام الناس، ولااشترط أن تكون التلاوة مقرونة بفهم، فإن هذه النقائص بمجموعها تشكل قرائن تمنعنا من الأخذ بمعنى التلاوة اللسانية، خصوصاً وإنه سبحانه يوجهنا إلى عناصر اجتماعية الصبغة وليس فردية الصبغة، فقد قال [يقيمون الصلاة] وإقامة الصلاة لاتتم إلا جماعة. وهو قال [وماأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية] والعلانية اجتماعية الصبغة. لهذا علينا أن نأخذ بمعنى اجتماعي الصبغة حتى يتكامل معنى هذه الآية الكريمة.

وأنت تقول: وقف القاضي على منصة المحكمة يتلو قراره. وتقصد أصلاً تبليغ المحكومين القرار. وعلى هذه الشاكله ورد قوله تعالى ﴿ يتلون كتاب الله﴾ أي يقفون وقفة الشجاع المقدام، وبجرأة إيمانية منقطعة النظير يبلغون الناس ما أنزل الله من تعاليم وأحكام، وبألفاظ أخرى يكونون من الداعين إلى الله عز وجل كما قال ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني..﴾ بمعنى أن كل مُتّبع لمحمد رسول الله يكون داعياً إلى الله متأسياً برسول الله. أمّا الذين يكتمون ما أنزل الله، ولايتلون كتاب الله ويبلغونه إلى عباده فقد لعنهم الله.

هذا هو المعنى الذي يستقيم هنا لقوله عز وجل ﴿ يتلون كتاب الله﴾ ولم نتوصل إلى هذا المعنى العظيم إلا بعدما نظرنا إلى الآية الكريمة بكامل الفاظها ومجموعها. وإلى هذا السّر بالذات توجهت إلى الدكتور شحرور، أول ماتوجهت، بسؤاله: لماذا لم يدرج الآية بكاملها؟

على أساس من المعنى الذي أوصلتكم إليه، يكون الدكتور شحرور قد أخفق في خطوته الثامنة، ولم يستطع حلّ المعضلة التي واجهته والتي ذكرناها.

فلنتابع **خطوته التاسعة**، كتب ص ٦٣ (وبما أن النبي (ص) عربي، والذكر هو الصيغة اللغوية لكتاب الله، فقد قال ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزّل إليهم﴾ النحل٤٤. في هذه الآية يوجد إنزال وتنزيل له، والإنزال هو بيان التنزيل، وهذا البيان "الإنزال" هو الصيغة اللغوية بلسان عربي مبين" ، وعليه فإن إنزال الذكر هو إنزال الكتاب كله [الكم والقرآن] بصيغة لغوية عربية [وكذلك أنزلناه حكماً عربياً] الرعد ٣٧ [إنا أنزلناه قرآناً عربياً] يوسف ٢، مجتمعين مع آيات تفصيل الكتاب والتي هي بالضرورة عربية، لأنها تشرح مفردات الكتاب من قرآن وأم الكتاب وتشرح الإنزال والتنزيل (انظر فصل الإنزال والتنزيل).

إنه حاول في هذا النص محاولة ثانية ليُشمل "الذكر" كصفة للقرآن، في مُصطلحه، وليُعمّمه على أم الكتاب" و"تفصيل الكتاب" بقية تقسيماته لكنه جاء في محاولته الثانية كمن يترنّح.

فكما يقولون (الطبع غلب التطبع) فمن طبعه القطع والاجتزاء. وهو قد اجتزأ بعض ألفاظ آية من سورة النحل، ليلبسها المعنى الذي يريد وهي ضمن الآية بكاملها. ومادام

طبعه التنجيم، وليس الانطلاق من أسس وأصول وطريقة علمية في البحث والاستقصاء، فقد غلب عليه طبعه واجتزأ تلك الألفاظ ليقول : (في هذه الآية يوجد إنزال وتنزيل)، ونسي أنه لايقدم لنا آية، بل يقدم لنا "جزء من آية". ونقول على رِسْلك يادكتور شحرور، سنسرد نحن على مسامعك الآية بكاملها، ومن ثم نبدأ بمناقشتك.

قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون. بالبينات والزبر، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزّل إليهم، ولعلهم يتفكرون. أفأمِنَ الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون؟ ﴾.

ونستميحك عُذراً هنا إذ سردنا لك كامل الآية مع سباقها وسياقها ذلك أننا آثرنا ذلك دوماً لنتبين الحقيقة ونكشف عنها بجلاء، فلا نستطيع أخذ معنى من آية دون أن نلاحظ سباقها وسياقها وموقعها من التسلسل الموضوعي للسورة التي هي جزء منها.

لاحظ الآن أن المعنى قد انقلب إلى عكس ماأردت أنت للاستدلال به.

إن كلمة الذكر هنا جاءت بدل "البينات والزبر". أي كما كنا نرسل من قبلك رجالاً يكون وحيًنا إليهم مليئاً بالبينات - أي التعاليم الواضحة - والزُبُر - أي التعاليم العظيمة المشابهة لقطع الحديد في قوة مضامينها، فكذلك أنزلنا إليك "الذكر" - أي هذا الكتاب العظيم المليء بالبينات والزبّر. وعلى أرفع المستويات من حيث قوة الدلائل وموافقة المكان والزمان، لذلك استحق هذا الكتاب أن يوصف بالذكر على أنه النصح والتذكير المُجسّمَين.

وأكدّ سبحانه وتعالى هذا المعنى الذي شرحته وذلك بقوله ﴿ لتُبين للناس مانُزل إليهم ﴾. أي أن هذه البينات والزبر الكاملة الجوانب تحتاج إلى من يشرحها للناس، لذلك ادخلنا هذا الأمر في دائرة رسالتك إلى الناس.

وأكدّ سبحانه وتعالى نفس المعنى الذي شرحته أيضاً ثانية حينما قال: [ولعلهم يتفكرون] أي أننا لانقصد من صفة الذكر في هذه الآية الكريمة (الصيغة اللغوية لكتاب الله) بل نقصد من صفة الذكر هذه الزبر والبينات التي اشتمل عليها هذا الكتاب والمتعلقة بفكر الإنسان وأدوات تفكيره. بمعنى أن كلمة "ذكر" هنا جاءت في مقابلة "فكر" بينما تكون الصيغة الصوتية في مقابل الأذن والسمع.

وفي الآية الثالثة التي تؤلف سياق الآية موضوع بحثنا. هدّد ربنا الذين يستخفون بهذه الزبر والبينات، ولايستعملون فكرهم للإستفادة منها، هددهم ليؤكد ثالثةً المعنى الذي شرحته. فقال: ﴿أفأمِنَ الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون؟﴾.

أرأيت يادكتور شحرور أننا إذا أخذنا الآية بكاملها مع سباقها وسياقها، يكون المعنى قد انقلب على عكس ماجاء به تصورك؟ وهل ظننت أنك تشغلنا عن هذه الحقيقة بتأويل (الإنزال والتنزيل) و (أن الإنزال يبين التنزيل). على كل حال سنتناول تأويلك هذا في حينه.

وقلت أنت إن "ايات تفصيل الكتاب" على مُصطلحك هي بالضرورة عربية، لأنها تشرح مفردات الكتاب من قرآن وأم الكتاب وتشرح الإنزال والتنزيل. ومادمت قد اعتبرت هذه (بديهية)، فلا نرى هناك من حاجة أيضاً، لمناقشة (بديهيتك المذكورة) ونذكرك بما قلناه من أنك كنت في محاولتك الثانية لإثبات الصيغة الصوتية للذكر ليشمل (كتاب الرسالة أيضاً).

ولانقنط، فهيا نتابع **خطوته العاشرة** على الصفحة ٦٤، إنه كتب: (وفي سورة يس الآية ٦٩ قال [وماعلّمناه الشعر، وماينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين] هنا نلاحظ كيف عطف القرآن على لفظ "الذكر". أي ذكر عبادة. قرآن. علم "استقراء ومقارنة").

يبدو أن الدكتور شحرور اعتقد أنه بلغ غايته وحقق مطمحه على مايشاء مُعلنا أنه حسم الموضوع لصالحه. وأنه أتى لكلمة "الذكر" بما لم يأت به الأولون، وبما لن يأتي به الآخرون، هذا خصوصاً وأني لاحظت خلال اجتماعي به شخصياً، إنه يعتز بماجاء به حول كلمة "الذكر" في كتابه "القراءة المعاصرة".

وأحب أن أشير هنا إلى أنه بالرغم من أن لكلمة الذكر أكثر من عشرة معاني، فهو لم يتناول لجميع آيات كتاب الله إلا معنى واحداً لكلمة الذكر، ألا وهو الصيغة الصوتية. هذا في وقت كان يعلم فيه أن لكلمة الذكر هذه المعاني جميعها بدليل أنه استدرك في آخر بحثه ص ٦٤ وكتب (وعلينا أن ننوه أن فعل (ذكر) له معان أخرى، منها التذكير ضد النسيان كقوله [أفلا تذكرون] ومنه جاءت الذاكرة والمذاكرة).

ويتساءل المرء لماذا أهمل هذه المعاني الأخرى ولم يأخذها بالحسبان ولم يبن ذلك على أي دليل أو برهان؟ هذا التكتم منه على تلك المعاني التي أثبت نزول كثير من آيات كتاب

الله بعدد من تلك المعاني، يثير إشارة استفهام. ونترك الأمر هنا لربنا الذي أنزل "الذكر" ووعد بالمحافظة عليه.

والآن أتناول ماكتبه في خطوته العاشرة والأخيرة، فهو استدل بآية من سورة يس ٦٩ [وماعلمناه الشعر، وماينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين] ليقرر: ذكر = عبادة. قرآن = علم "استقراء ومقارنة".

وسأتناول هذه الآية الكريمة وماتوصل إليه من قرار من زوايا النقاط الخمس التالية:

أولاً - علينا أن نقرّر الجهة التي تعود إليها ضمائر هذه الآية الكريمة.

ثانياً- علينا أن نحلل مضمون الآية وبيان ضعف أو قوة ماتوصل هو إليه، وعلى ضوء مُصطلحاته وتقسيماته نفسها.

ثالثاً - إلقاء نظرة عامة على موضوع سورة يس وتسلسلها الموضوعي ومحل الآية منه.

رابعاً - شرح هذه الآية الكريمة بمنطق اللغة وأصول التفسير.

خامساً - ربط هذا الشرح بسباق آية سورة يس وسياقها، توضيحاً لسلامة المعنى الذي توصلنا إليه.

أما من حيث الضمائر، فهي تعود إلى ذات محمد ﷺ والدليل هو مخاطبة ربنا إياه بـ (يس) المختزلة من ياسيِّد، كما سلف أن بينت، فالخطاب موجه إلى رسول الله لذلك جاء [لتنذر قوماً...] [إنما تنذر...] واضرب لهم مثلاً....] [وماعلمناه الشعر، وماينبغي له...]. وقد اصبح مرجع الضمائر واضحاً.

وأما من حيث ضرورة تحليلنا مضمون الآية على ضوء مصطلحات وتقسيمات هذا الآخر نفسه، بفرض صحتها جدلاً مع بيان ضعف وقوة ماتوصلنا إليه.

إننا ننطلق من تقريره نفسه، فهو قال (ذكر = عباده. قرآن = علم (استقراء ومقارنة). وعلى ضوء ماقرره يكون ربنا قد خاطب رسوله بمامعناه أن الكتاب الذي أنزلناه عليك، مؤلف من صيغة لغوية منطوقة وعلومٍ سميناها (قرآناً). وهو كتاب الغيب أيضاً. أما "كتاب السلوك" و "تفصيل الذي بين يديه" فلا شأن لهما، لذلك لم نأت على ذكرها في آيتنا هذه، وبسبب خُلوّهما من العلوم الاستقرائية والمقارنة. هذا مافهمته أنا من هذه الآية على ضوء تقسيماته ومصطلحاته. فإن كنت مخطئاً فليشرح لنا هو معناها من هذه المنطلقات.

وأما مايتعلق بموضوع سورة يس نفسها، فأقول بإيجاز شديد أنها تناولت شخصية محمد رسول الله بالذات. بدليل أنه سبحانه وتعالى ابتدأها واستهلها بمخاطبة رسوله بياسيد، فالياء في (يس) مختزلة من ياء النداء. والسين مختزلة من كلمة سيّد. وهذا الخطاب جاء ليشكل إدعاء بأن رسول الله كان على منصب السيادة بالنسبة لجميع من بعثهم الله قبله من الأنبياء والمرسلين. ولذلك سمّاه سبحانه في مقام آخر بخاتم النبيين.

وإن إعلان هذا الإدعاء هو بحاجة للبرهنة عليه. وقدم لنا ربُنا دليله القاطع مباشرة، وعلى اسلوبه فقال: ﴿والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾.

وأصبحنا جميعنا على علم ويقين بأن القسم يعني دوماً تقديم شهادة لإثبات صحة إدعاء ما معين، وعليه فإن الواو في قوله تعالى: [والقرآن الحكيم] تفيد تقديم شهادة من جانب الله عز وجل على كون محمد رسوله بعثه ربه على منصب السيادة. وهذه الشهادة عبّر عنها سبحانه بقوله[القرآن الحكيم]. فإذا أخذنا بعين الاعتبار ماعرفناه من معنى [القرآن] من أنه يعني سيكون مقروءاً جداً. وماعرفناه من معنى تعاليم متوازنة مع جميع الأمكنة والعصور، وتضع الأمور في نصابها وتحمل معها فلسفاتها. إذا أخذنا بهذه المعاني التي تفيدها كلمتا [القرآن الحكيم]. يسهل علينا القول إن تعريف هاتين الكلمتين بالألف واللام جاء للدلالة على معهود ذهني وهو كامل المصحف الشريف الذي أنزله الله على رسوله الكريم. وكأنه سبحانه وتعالى قد قال بالفاظ أخرى:

إن هذا الكتاب العظيم المعجز الذي هو بهذه العظمة يشكل الدليل القاطع على كون رسولنا قد بعثناه على منصب السيادة نسبة لجميع المرسلين. فالملك عندما يبعث بسفيره إلى جهة ما. ينتخبه ليكون على مستوى المهمة الموكلة إليه. وهذا الكتاب بهذه العظمة هو دليل بحدّ ذاته على منصب هذا الرسول. ولذلك أتبع سبحانه وتعالى دليله القاطع هذا بقوله [إنك لمن المرسلين] مؤكداً بإنّ ومعرّفاً كلمة (المرسلين) بالألف واللام لتشمل جميع الأنبياء والمرسلين.

والآن تمثل في أذهاننا من خلال الآيات الثلاث الأولى لسورة (يس) دعوى ودليل. وهذا الإدعاء وذاك الدليل يدوران حول شخصية محمد سيّد المرسلين ﷺ.

وبرز بنتيجة هذا الإدعاء ودليله سؤال طرح نفسه وهو: لماذا أرسل الله محمداً وماهي مهمة كتابه الذي أنزله عليه؟ ولقد استدعت منطقية هذا التساؤل الإجابة عليه على محورين

يتخللهما حواشي لابد منها تشرح كُلاً من هذين المحورين: أما الإجابة بطريق المحور الأول فقد خصه بموضوع "الصراط المستقيم" الذي ضلّت عنه البشرية وبروز الحاجة إلى إعادتها إليه. وأما الإجابة بطريق المحور الثاني. فهو الكلام عن الكتاب الذي نزل لتأدية هذه المهمة، وقد وصفه بالأوصاف التي يستحقها، موضحاً أن هذه المهمة لاتحتاج في القيام بها إلى شاعر، بل تحتاج إلى كتاب ميّسر حفظه لكل إنسان لذلك ترونه قد نزل مابين الشعر والنثر، موافقاً لكل منطق سليم. وقد صيغت الآية الكريمة التي نحن بصددها على وجه التقابل الكلامي، فقوله [وماعلمناه الشعر وماينبغي له] جاء في مقابلة [إن هو إلاّ ذكرٌ وقرآنٌ مبين]، فحيث نفى ضرورة أن يكون رسول الله القائم بهذه المهمة شاعراً. وضح لنا في مقابله أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد إليكم بعيد في مضامينه وأساليب إنشائه عما يتصف به شعر الشعراء، فهو كتاب سهل القراءة، مُفعم بالمواعظ والحكم البعيدة عن كل نقص وشطط وخيال خصب وذمّ ومدح على طريقة الشعراء. وإن هذا الاتزان الذي نزل به كتابنا يبرّىء رسولنا من أن يكون شاعراً.

إلى هنا أكون قد وضحّت تسلسل السورة الموضوعي. إلى جانب توضيح ماورد في هذه الآية الكريمة التي استدل بها الدكتور شحرور بمنطق اللغة والعقل والمنطق وأصول التفسير رابطاً إياها بتسلسل السورة الموضوعي.

والتفت الآن إلى موضوع ربط معنى الآية المذكورة بسباقها وسياقها. وإليكم الآية مع ماقبلها ومابعدها.

قال تعالى: ﴿ولو نشاُ لمسخناهم على مكانتهم، فما استطاعوا مُضياً ولايرجعون. ومن نُعمرّه نُنكّسه في الخلق، أفلا تعقلون. وما علّمناه الشعر، وماينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حيّاً ويحقَّ القولُ على الكافرين﴾. فإذا تابعنا محور الإجابة الأول، الذي تكلمت عنه آنفاً. نلاحظه سبحانه وتعالى قد تعرض من خلاله إلى وضع الأمتين اليهودية والمسيحية. فوضح أنهم انحطوا إلى أدنى دركات الانحطاط، وبعُدوا بُعداً كبيراً عن تعاليم رسلهم. فشابهوا الأنعام، ولولا رحمة الله بهم، لكان قد قضى عليهم خصوصياً وأنه سبحانه قد سنّ قانوناً أبدياً وهو ﴿من نعمرّه ننكسه في الخلق﴾ بمعنى أن عامل الزمن مُتلف لكل شيء. وحرّك عقول المخاطبين بقوله عز وجل [أفلا تعقلون]. هذا عن سباق الآية موضوع بحثنا.

وبعدما دافع سبحانه عن شخصية رسوله من خلال ماجاءهم به من كتاب، هذا الكتاب الذي يؤكد سعة رحمتي بهذه الأمم، قال: ﴿ ليُنذر مَنْ كان حياً، ويحقَّ القول على الكافرين﴾ أي ليستفيد من تعاليم كتابنا هذا، من كان قلبه لازال ينبض بالحياة من أفراد هذه الأمم التي أهملت العمل بتعاليم رسلها، وبعيداً عن التعصب الأعمى والتقليد المقوت، فقد أنزلنا هذا الكتاب رحمة منّا بالذين يطلبون الحكمة أنىّ وجدت، ومن حيث جاءت.

وللقارىء الكريم أن يرجع إلى هذه السورة بكاملها. هذه السورة التي يتبرّك المسلمون بقراءتها في شتى المناسبات بسبب كونها قد أعطت رسول الإسلام المكانة اللائقة به وبرسالته بين جميع الأنبياء والمرسلين. للقارىء الكريم أن يرجع بنفسه إلى آياتها من خلال المنظار الذي وضعته بين يديه. وإني لعلى يقين تام، أنه مُدركٌ إدراكاً حقيقياً بُطلان ماجاء به الدكتور شحرور من مصطلح ومعنى لكلمة "الذكر" في "قراءته المعاصرة".

وإليكم أخيراً بعض اللاحظات التي تساعدكم على التبرؤ من مصطلح "ذكره" بصورة قاطعة ونهائية:

أولاً - لقد فرّق ربّنا بين تلاوة آيات كتابه ومابين الذكر بالواو العاطفة التي تعطف المتغايرات أو تعطف الخاص على العام. وذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران الآية ٥٨ ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ فالآيات المتلوة المنطوقة بلسان عربي مبين هي شيء. والذكر الحكيم بمعنى كتاب مُتصف بالحكم والمواعظ شيء آخر.

ثانياً - وخاطب ربّنا في سورة الأنبياء الآية (١٠٥) الأمم السابقة بقوله: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور، من بعد الذكر، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ أي أنه بالرغم من أننا وعدنا بني اسرائيل فما أنزل عليهم من كتاب حافل بالحكم والنصائح وعدناهم أن تكون الأرض لهم، لكنّا كتبنا في الزبور أيضاً [أن الأرض يرثها عبادي الصالحون] أي يرثها عبادي الصالحون لوراثتها، فلِمَ تغضون الطرف عن هذا وتتشبثون بذاك الوعد، وأنتم ماعدتم لوراثتها بصالحين؟.

ثالثاً - وتوجه الله عز وجل بقوله تعالى في سورة الفرقان ١٨ ﴿ولكن متّعتهم وآباءهم، حتى نسوا الذكر، وكانوا قوماً بوراً﴾، وتلاحظون كيف وصف سبحانه وتعالى ماأنزله إليهم من قبل "بالذكر" فهل يحق للاسرائيليين التفاخر بما

أُنزل إليهم لوصفه بصفة "الذكر". وأن عليهم الرجوع لفهم ماأنزل إليهم، إلى "أهل الذكر" أي اللغويين العرب بمصطلح الدكتور شحرور؟

إلى هنا أكون قد اجتثيت مصطلح "الذكر" كما جاءت به "القراءة المعاصرة" من جذوره، فالحمد لله ربه العالمين.

الفصل الخامس

بُطلان مصطلح

"الفرقان"

الذي ورد في "القراءة المعاصرة"

بسم الله الرحمن الرحيم

بُطلان

مصطلح "الفرقان"

الذي اصطلحته "القراءة المعاصرة"

وطلعت علينا "القراءة المعاصرة" بمصطلح ومفهوم خاص لكلمة "الفرقان" في كتاب الله. خالف فيها صاحبها الدكتور شحرور، مفهوم هذه الكلمة سواءً من حيث اللغة وسواء من حيث النصوص القرآنية.

فما وصلنا بطريق التواتر واجتهادات جميع أئمة الدين الإسلامي، بل وجميع المسلمين هو أن كلمة "الفرقان" إنما هي إسم وصفي من أسماء المصحف الشريف، وعلى شاكلة "الذكر" و"القرآن" و "الكتاب".

والذي يؤسف له أسفاً شديداً هو أن يّدعى الدكتور شحرور أنه باحث يقدم "قراءة معاصرة" لكتاب الله، ويُغفل الرجوع إلى كتب اللغويين، إغفالاً تاماً فيما يتعلق بمفهوم كلمة "فرقان" فلا يقدم ولو سطراً واحداً حول معاني هذا اللفظ. في وقت كان قد زعم فيه تحت عنوان "الذكر" الذي نقضناه، أن "أهل الذكر" الذين ذكرهم كتاب الله ، هُمُ اللغويون العرب. وهم الذين يُرجع إليهم في فهم الكتاب. فلماذا لم يرجع إلى اللغويين لتعريفنا على معنى كلمة "فرقان"؟ وعلى أي أساس أقام مصطلحه؟ هذا أمرٌ نترك الإجابة عليه للدكتور شحرور نفسه. على اعتبار أنها خطوة لاتتفق وتقديم نفسه كباحث في كتاب الله العظيم.

وإننا لنعتبر بحث "الفرقان" ومصطلحه، كما ود في "القراءة المعاصرة" مثالاً بارزاً يثبت صحّة تسميتي لها "مجرد تنجيم" للأسباب البارزة التالية:

أولاً - إنه ادرج في مقدمة بحثه ست آيات، جاء فيها لفظ الفرقان مُعَرفاً بالألف واللام، فذهب إلى أن الفرقان شيء والكتاب شيء دونما أي تعليل لذلك ولادليل. ولمجرد أن ساقه تنجيمه إلى النتيجة المذكورة.

ثانياً - وانتقل فجأة إلى الآيات ١٥١/١٥٢/١٥٣ من سورة الأنعام ليزعم أن الوصايا الواردة فيها إنما هي الوصايا العشر الموسوية، فلم يعد إلى التوراة ليقارن بين هذا وذاك، بل فرض زعمه هذا لمجرد أن ساقه تنجيمه إليه. حتى وأنه جنح ليزعم أن الكتاب، نسبة إلى موسى وعيسى هو التشريع فقط، وليس التوراة والإنجيل. وأن الوصايا العشر هي غير الكتاب أيضاً.

ثالثاً - وأوصله تنجيمه المجرد عن الأدلة والأصول، إلى أن "الوصايا العشر" لم تنزل على موسى وحده، بل ونزلت على عيسى ومحمد صلوات الله عليهما أيضاً. معتبراً "الوصايا العشر" القاسم المشترك بين الديانات الثلاث، وتحمل الطابع الإنساني العام، وتمثل التقوى الاجتماعية الأخلاقية من دون العبادات، ووصف "الوصايا العشر" على أنها السّنام للأديان المذكورة.

رابعاً - ودفعه تنجيمه المجرد ليزعم بأن دُعاء سورة الفاتحة [اهدنا الصراط المستقيم] أريد به طلب الالتزام "بالوصايا العشر"، على اعتبار أنها النعماء التي فضل الله ربنا بسببها بني اسرائيل على العالمين. وقد سُميت هذه النعماء بالصراط المستقيم، وأن هذه الوصايا لاتتغير أبداً، وهي من ثوابت الدين الإسلامي، وهي "الفرقان" باصطلاح القرآن. هذه المزاعم لم يقدّم عليها أي دليل. وكأنه قد نصبّ نفسه محامياً عن اليهود وعن وصاياهم العشر، وهو بلباس مسلم يريد وجه الله تعالى كما يزعم ويقول.

خامساً - حتى وامدّه تنجيمه بمعلومات جديدة، زاعماً أن الكتاب نسبة إلى موسى هو الرسالة. وأن الحكمة هي الوصايا نسبة إلى عيسى، وأن التوراة هي النبوة نسبة إلى موسى كما أن الإنجيل هو نبوة عيسى، وأن مجموع هذا وذاك جميعه يشكل الكتاب المقدس.

سادساً - كما دلّه تنجيمه على أن الفرقان هو فرقانان: فرقان عام وفرقان خاص. العام نزل على جميع الأنبياء، بينما اختص الله سبحانه نبيه محمداً بالفرقانين معاً. ولم يقدم على تقسيمه المذكور أي دليل يُذكر.

وقبل أن أبدأ بتفنيد مزاعم الدكتور شحرور بما يتعلق ببحث "الفرقان". أضع بين يدي قارئي الكريم ماقدمه لنا اللغويون حول معاني كلمة فرقان. وزبدة ماقالوه هو: فَرَقَ امروٌ بين شيئين، فرقاً وفرقاناً: فصل أبعاضهما بعضها عن بعض. بهذا المعنى جاء في سورة الدخان [وفيها يُفرق كلُّ أمر حكيم] أي يُقضي في الأُمور. وفي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿وقرآنا فرقناه﴾ أي فصلناه وأحكمناه، وفي سورة البقرة قال ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي فلقناه وفصلناه بعضه عن بعض. فإذا قيل: فرق لفلان أمرٌ من الأمور، يعني تبين واتضح. فإذا اشتق فعل فرّقة من مصدر التفرقة، يكون معناه بدّده ووزعه أي عكس جمعه. ثم إن الفاروق هو الشخص الذي يفرق بين الأمور ويفصلها بعضها عن بعض، على وزن فاعول على سبيل المبالغة. ثم إن كلمة الفُرقان كمصدر تفيد أي شيء يفرق بين الحق والباطل، ومابين النصر والبرهان. ومابين الصبح والسّحر، أو ماشاكل كانفراق البحر. وبهذا المعنى ورد قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وآتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ أي انفراق البحر وسواه من معجزات.

ومن خلال ماأورده اللغويون يتبين جلياً لنا بأن كلمة (فرقان) تدور معانيها واشتقاقاتها حول موضوع امتياز أمر عن أمر، وترجيح كفة على كفة، وجانب عن جانب آخر، وتمييز بعضهم عن بعض.

والذي يستخلص من هذا المعنى لاعلاقة له بالوصايا السلوكية ولا بالصراط المستقيم ولابتقوى اجتماعية كما ذهب إلى ذلك الدكتور شحرور.

ومادام الأمر كذلك. حق لنا اتهام هذا الأخ المسلم أنه يأتينا بأفكارٍ "مسبقة الصنع"، لاأساس لها من كتاب الله القرآن العظيم. ولانتساءل عن أهدافه البعيدة، ونكل أمره إلى الله عز وجل.

وحتى توقنوا بما جاء به اللغويون العرب من معنى للفرقان. تعالوا إلى الآية ٢٩ من سورة الأنفال، وانصتوا إلى قوله عز وجل وهو يوجه خطابه إلى المؤمنين بقوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا، إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾ ويبدو واضحاً من خطابه سبحانه أنه يطلب من عباده المؤمنين ليعاهدوه على انتهاج نهج التقوى، عهداً لارجوع عنه. لماذا؟ حتى يجعل للمتقين منهم "فرقاناً" يتميزون بواسطته عن الكافرين.

وقد سبق أن شرحت نهج التقوى الذي جاء به الإسلام عند بحث قوله عز وجل ﴿يؤمنون بالغيب﴾ من ثاني آيات سورة البقرة. وقد كانت خلاصة هذا النهج التقووي أنه دعوة عامة لانتهاج سلوكية متيمزة عن سلوكيات الأفراد الماديين، وقائمة على أسس اخلاقية ذات منطلق روحي مستند إلى الفطرة البشرية كحقيقة ثابتة.

ومعلوم أن صحابة رسول الله ضربوا المثل الأروع في انتهاجهم لنهج التقوى الذي جاء به الإسلام، الأمر الذي يعني أن الله عز وجل صدقهم وعده، وجعل لهم فرقاناً، ميزهم به عن الكافرين، فما هي معالم الفرقان المذكور؟ تجلّت معالم هذا الفرقان في نصرة الله إياهم وتأييده لهم بشكل معجز في جميع الحروب التي خاضوها ضد اعداء الله، الأمر الذي ميّزهم عن اعداء الله بصورة لازالت تتحدث عنها الأجيال والتواريخ. وإن الله عز وجل ذكّرهم بهذه النصرة وذاك التأييد، ليعلموا أنه صدقهم وعده وجعل لهم فرقاناً بقوله عزّ وجلّ: ﴿وماأنزلنا علي عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان﴾ الأنفال ٤١، فهو سبحانه وتعالى أطلق على يوم بدر، إسم يوم الفرقان. بسبب أن فئة بدر المؤمنة جميعهم رأوا بأم أعينهم كيف أن ربهم صدقهم وعده،وجعل لكل واحد منهم فرقاناً،أي امتيازاً خاصاً. حتى ظلّوا طوال بقية حياتهم يشار إليهم بالبنان ويُقال عن الواحد منهم أنه بدري أي من فئة من خاضوا معركة بدر الشهيرة.

ولقد ميّز الله المؤمنين المتقين على جميع الصُّعُد: على صعيد التضحيات بالنفس، والنّفيس وفعل الخيرات والطاعة لله ولرسوله ولخلفائه.

المهم في الأمر أننا بين أمرين لاثالث لهما: إما أن الله تعالى وفى بوعده الذي وعده عباده المؤمنين المتقين. وإما أنه أخلف وعده (والعياذ بالله). ومادام قد وفى الله بوعده، فليس بإمكاننا تبيّن معالم هذا الفرقان الذي جعله لأولئك المؤمنين إلا فيما ذكرناه.

أما الدكتور شحرور فيزعم أن الفرقان هو الوصايا العشر الموسوية، ولايُعطي "الفرقان" أي معنى آخر سواه. يزعم هذا بدون تقديم أي دليل مُقنع. وكل ماهنالك أنه توصل إلي هذا الفهم عن طريق "التنجيم" المجرد من كل أسس وأصول، ولاأذكر أني قرأت ليهودي أنه نسب الفرقان إلى وصايا نبيه العشر كما يدعي هذا المسلم.

وزبدة الكلام تتلخص في أن كلمة "الفرقان" استعملت في كتاب الله تعالى، بما قاله اللغويون وهو التمييز بين الحق والباطل أو تمييز جهة عن جهة بدعم خاص من رب العالمين.

وبالرغم من وضوح هذا الأمر فها أني اتدرج مع هذا الأخ المسلم خطوة خطوة مع كل خطوة خطاها تحت عنوان "الفرقان" وإني سأناقش كلّ ماكتبه بروح التسامح وبطريقة علمية وبسلاح الحجة والبرهان.

وكانت خطوته الأولى أن استهل بحثه ومصطلحه بسرد ست آيات هي:

﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ البقرة ٥٣.

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾ البقرة ١٨٥.

﴿وأنزل التوراة والإنجيل، من قبلُ هدى للناس، وأنزل الفرقان﴾ آل عمران٣-٤.

﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان، وضياءً، وذكراً للمتقين﴾ الأنبياء ٤٨

﴿تبارك الذي نزّل الفرقن على عبده، ليكون للعالمين نذيراً﴾ الفرقان ١

﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان﴾ الأنفال ٤١.

وأضاف تحتها: (جاء لفظ الفرقان في ستة مواضع في الكتاب. وفي هذه المواضع الستة جاء مُعرّفا، فأول ماجاء لفظ "الفرقان" لموسى عليه السلام، وجاء معه الكتاب. أي أن الفرقان جاء إلى موسى على حدة، وجاء الكتاب على حدة، ففُرّقا عن بعضهما. وهذا الفرقان قال عنه في سورة آل عمران: إن الفرقان والتوراة والإنجيل أُنزلت قبل أن يأتي الكتاب إلى النبي ﷺ، ثم إن الفرقان الذي أنزل على موسى، هو نفسه الذي أُنزل على النبي ﷺ في رمضان [شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان] البقرة ١٨٥. وبما أن الفرقان جاء معطوفاً على القرآن، يُستنتج أن الفرقان غير القرآن. وهو جزء من أم الكتاب "الرسالة". وأُنزل ونُزّل في رمضان. وهذا الجزء أول ماأنزل إلى موسى عليه السلام، فما هو الفرقان الذي جاء إلى موسى على حدة مفروقاً عن الكتاب؟).

أثار الدكتور شحرور في خطوته الأولى التي نقلناها النقاط التالية:

١- أن لفظ الفرقان ورد في الآيات الستة التي ذكرها مُعرفاً بالألف واللام، وبلا استثناء. وتساءل: لماذا؟ فلم يُجب هو نفسه على السؤال الذي طرحه، ولا علل هذا لأمر بشكل من الأشكال. أثار هذا وكأنه مُسلّمة وبديهية يعرفها أهل الديانات.

٢- زعم أن الفرقان غير الكتاب عند اليهود. وأنه أنزل قبل الكتاب. لذلك فرّقا عن بعضهما بعضا في الآية الكريمة. واستدل بالآية الثالثة والرابعة من سورة آل عمران على أن الفرقان قد نزل على موسى وعيسى قبل أن يتلقى محمد رسول الله كتاب الله العظيم.

٣- ثم زعم، ومن غير تقديم أي دليل مُقنع، أن الفرقان الذي أُنزل على موسى. هو نفسه الذي أُنزل على محمد رسول الله في شهر رمضان. معتبراً القرآن غير الفُرقان، بسبب وجود أداة العطف بينهما، ومعتبراً الفرقان جزء من "أم الكتاب" الرسالة بمصطلحه أي الآيات المحكمات. هذا المصطلح الذي سبق أن نقضناه.

٤- كما زعم أن الفرقان أُنزل على موسى قبل التوراة، ودونما تقديم أي دليل تاريخي يدعم زعمه المذكور.

والآن فلنفنّد هذه النقاط ونبين نواحي زيفها وبُطلانها:

أما مايتعلق بالنقطة الأولى فهو لفت نظرنا إلى إن كلمة "الفرقان" وردت مُعرفة بالألف واللام في الآيات الستة.لكنه لم يعلّل لنا سبب هذا التعريف ولا دلالته اللغوية. وكأنه مُسلّمة وبديهية. وبدلاً من أن يقوم بهذه المهمة أنهى النص بسؤال طرحه (فما هو الفرقان الذي جاء إلى موسى على حدة مفروقاً عن الكتاب؟). وإنه مُطالب بشرح دلالة التعريف هذه.

وأما مايتعلق بالنقطة الثانية التي زعم فيها أن الفرقان غير الكتاب عند اليهود، فهذا إدعاء كان بحاجة لتقديم دليل تاريخي يثبته. فإذا فسرنا القرآن الكريم بما يخالف النصوص التاريخية، يتوجب علينا إثبات صحة ماأخذناه من القرآن ليكون أداة إقناع في مواجهة أصحاب الديانات السابقة، وإنه لايوجد لدى اليهود ولا النصارى فكرة عن هذا الإدعاء الذي إدعاه الدكتور شحرور على حسب علمي. فهل يجوز لباحث أن يُغفل تقديم الدليل التاريخي؟

أما استدلاله بسورة آل عمران من أن الفرقان والتوراة والإنجيل أنزلت قبل أن يأتي الكتاب إلى النبي ﷺ على حد قوله، فبإمكان القارىء الكريم العودة إلى فصل الآيات المحكمات والمتشابهات ليجد هناك الدليل المقنع على بُطلان هذا الاستدلال. ذلك أني اثبت هناك من أن الفرقان المذكور يُقصد به القرآن نفسه وليس شيئاً آخر. وبالإمكان الرجوع إليه.

أما مايتعلق بالنقطة الثالثة من أن الفرقان الذي أنزل على موسي هو نفسه الفرقان الذي أنزل على محمد ﷺ في شهر رمضان فهو إدعاء جديد مُطالب عليه بالبرهان القاطع.

ونقول إن الفرقان على ضوء التحليل اللغوي الذي سبق أن قدمته لكم. يعني ظاهرة التمييز بين الحق والباطل ليس إلا. ولايُستفاد منه معنى التعاليم السلوكية، وعندما يُعطف الفرقان على الكتاب بواو المتغايرات،فهذه حقيقة عبّرت عنها واو العطف، ولايُستفاد منها أن الفرقان هو تعاليم سلوكية.

لنأخذ قوله عز وجل في سورة البقرة ٥٣. هذه الآية الأولى من ضمن الآيات الستة التي استعرضها هذا الأخ المسلم، قال تعالى: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ وإن في قوله تعالى [لعلكم تهتدون] توضيح حقيقة ماآتى الله بني اسرائيل. وبالرجوع إلى تاريخهم يتبين أنهم مرّوا بمرحلتين زمنيتين بارزتين. المرحلة الأولى منهما ماقبل مغادرتهم القطر العربي المصري. والمرحلة الثانية منهما مرحلة التيه في سيناء ووفاة موسى عليه اسلام هناك قبل قيامهم بغزو فلسطين العزيزة.

ففي المرحلة الأولى لم تتنزل على موسى أية شريعة أو ماسوى ذلك. بل كل ماجرى هو أن اليهود كانوا مقهورين إلى أبعد الحدود على أيدي فرعون وجنوده لأسباب جوهرية لامجال للتطرق إليها هنا. وقد كلّف الله عز وجل نبيه موسى من بعد أن ربّاه على عصبية قومية متميزة تمكنه من تأدية مهمته. أقول كلّفه بإيقاظ هذه العصبية في قومه وتحريضهم على التجمع لمغادرة مصر،بأمر من الله عز وجل.

ولم يؤمر موسى بهذه المهمة على أن يقوم بها على طريقة التجّمع الحزبي. بل على طريقة التجمّع الديني، قام بمهمته في مواجهة فرعون، وجعل الله تعالى المواجهة بينه وبين فرعون "فرقاناً" فرقّ بواسطته مابين باطل فرعون والحق الذي بُعث به موسى. وكُلّنا يعلم تلك المعجزات التي ظهرت على ايدي موسى في مواجهة فرعون. تلك المعجزات التي وحّدت صفوف الاسرائيليين وراء موسى عليه السلام. وبسبب أن آتى الله موسى وقومه هذا "الفرقان" أي هذه الأسباب التي ميزت حقهم عن باطل فرعون. تمكن موسى من تجميع قومه ومغادرة مصر إلى سيناء. وهذا لايعني أن جميع الاسرائيليين قد هاجروا معه، والتاريخ يُخبرنا بأن الاسرائيليين كانوا دخلاء أصلاً على المصريين وأرض النيل، ذلك أن قصة يوسف معروفة.

على ضوء هذا التحليل التاريخي ورد قول الله عز وجل ﴿وإذا آتينا موسى الكتاب والفرقان، لعلكم تهتدون﴾ بمعنى أن هدايتكم أيها الاسرائيليون تمت علي مرحلتين: مرحلة تجميعكم حيث آتيناكم "فرقاناً" هداكم إلى أن موسى لايكذب عليكم بل هو مُرسل من ربكم. ومرحلة عبوركم البحر الأحمر إلى سيناء فقد آتيناكم الكتاب أي مجموعة التعاليم التي لقناها هذا الرسول، لتكون هذه التعاليم التي يمكن التعبير عنها بكلمة كتاب، لُغةً، سبباً جديداً في هدايتكم وتطويركم على طريق خلاصكم من عبودية فرعون.

بهذا الفهم، وعلى ضوء المعطيات اللغوية والتاريخية، نكون قد أدركنا بطلان مازعمه الدكتور شحرور من أن الفرقان الذي أنزل على موسى هو الفرقان الذي أنزل على محمد رسول الله. فما الفرقان بتعاليم سلوكية حتى نسمح لأنفسنا بمجرد المقارنة بين الفرقانين.

وأما مايتعلق بالنقطة الرابعة من أن الفرقان أنزل على موسى قبل التوراة، فهو لم يقدم أي دليل تاريخي يدعم رأيه. وإن الذي بيّناه في الجواب على النقطة الثالثة، يفيد في هذا المجال، فصحيح أن المرحلة الأولى من حياة الاسرائيليين اقتضت أن يؤتيهم ربهم "فرقاناً" من قبل أن ينزل التوراة.

إلى هنا نكون قد اثبتنا زيف ماورد في خَطوة الدكتور شحرور التي خطاها على طريق مصطلح "الفرقان" في قراءته المعاصرة.

ولما كان قد استدل بآية سورة البقرة ١٨٥، في هذه الخطوة ليزعم أن القرآن شيء وأن الفرقان شيء آخر من خلالها، بسبب أن الفرقان جاء معطوفاً على القرآن. فهذا استدلال باطل على شاكلة جميع استدلالاته. ولايجوز لي المرور على هذا مرور الكرام. وهذا الاستدلال إن دلّ على شيء، فهو قد دلّ على جهل هذا الأخ المسلم بكتاب الله وآياته جهلاً مُطبقاً.

إن الآية ١٨٥ من سورة البقرة المذكورة.

أولاً- ألغتْ الأسم الذي اشتهر بشهر (ناتق)، واستبدلته باسم شهر رمضان، المشتق من الرمضاء أي الحر الشديد، إشارة إلى أن الله سبحانه قد قرّر أن يكون هذا الشهر أداة تطهير لعباده المؤمنين، ولدفعهم على طريق العروج الروحي. ذلك أن تطهير الاشياء يتم عن طريق الماء الساخن إلى درجة عالية. وإلى هذا اشار إسم رمضان.

ثانياً - وحددت لنا هذه الآية الكريمة تاريخ البدء بنزول الوحي القرآني حيث اثبتت الروايات الموثوق بها أن بدء الوحي تم في غار حراء في الأسبوع الأخير من شهر رمضان. وحكمة هذا أن يوقن المؤمن الصائم بثمار هذا الصيام التي لابد أن يقطفها في آخر أسبوع من هذا الشهر، إذا صام صياماً حقيقياً. وماقوله عز وجل ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ إلا من قبيل اطلاق الجزء على الكل، وكان هذا تجوزاً لغوياً.

ثالثاً - فلو كان الفرقان شيء والقرآن شيء آخر وإنه من "أم الكتاب"، لتوجب أن تكون ألفاظ الآية الكريمة على شكل آخر وهو (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن والفُرقان هدى للناس..) وتكون الواو العاطفة حينئذ قد عطفت شيئين متغايرين.

رابعاً - وكلمة (هُدى) في الآية مصدر بمعنى فاعل أي أن القرآن أنزله الله ليهدي به عباده. كما أن كلمة (بينات) مفردها بيّنه، ومعناها الدلالة الواضحة، عقلية كانت أو محسوسة. كما بيّن ذلك صاحب المفردات. وكلمة (فرقان) تعني التفريق بين الحق والباطل كما سبق أن بيّناه، وإن الواو العاطفة في كلمة (والفرقان) عطفته على [بينات من الهدى] ولم تعطفه على القرآن.

ولنستعرض الآن الآية بكاملها. قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هُدى للناس وبينات من الهدى، والفرقان، فمن شهد الشّهر فليصمه، ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدّةٌ من أيّامٍ أُخر، يُريد الله بكم اليُسر، ولايريد بكم العُسر، ولتُكملوا العدّة، ولتكبّروا الله على ماهداكم، ولعلكم تشكرون﴾.

ونقول باختصار إن هذه الآية الكريمة نموذج من نماذج المراسيم الإلهية، التي أصدرها سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لصالح بني نوع الإنسان. والدليل الأول على أنها مرسومٌ إلهي يتعلق بفريضة الصيام ماقبلها ومابعدها من آيات.

فقد قال عز وجل قبلها ﴿ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام، كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ وهذا تمهيد لإصدار المرسوم الإلهي بما تعلّق بفريضة الصيام، وقد قال عز وجل بعدها ﴿وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب، أجيب دعوة اداع إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلّهم يرشُدون﴾، وهذا بيان للغاية من الصيام شهراً كاملاً، وهو التوجه إلى الله والتضرع بين يديه والتوبة

والغفران. مع بيان شروط استجابة الدعاء، الأول منها [فليستجيبوا لي] أي ليصوموا ويتبّلوا وفقاً لما اصدرته من مرسوم بدقة تامة، وثانيها [وليؤمنوا بي] أي أن يندفعوا على هذا الطريق وحين التطبيق بيقين لايتزعزع من أنني مُتقبّل تضرعاتهم يقيناً، فالإيمان هنا لايقصد به الإيمان العام، بل يقصد به الإيمان الخاص بأن الله جدّ قريب ويجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وحينما أنهى سبحانه الآية بقوله [لعلّهم يرشدون] وضّح من خلاله ماذكرت وهو أن الصائم إذا تقيد بهذه الشروط لابد بالغ رشده.

ولنعد أدراجنا بالكلام عن هذا المرسوم الإلهي الذي تضمنته الآية التي استدل بها الدكتور شحرور عن جهالة بمضمونها. فنلاحظ أنه مرسوم إلهي جاء على أرفع المستويات من حيث الصياغة، ومن حيث أنه جاء مؤيداً بحيثّياته وموجباته، مع بيان أحكام ثلاثة مرفقة بفلسفاتها.

والذي يعلمه أصحاب الحلّ والربّط أن إصدار المراسيم لايقوم به إلا مختصون وحقوقيون. وإن الله عز وجل تحدى في صياغة مرسومه المذكور أعاظم المختصين في حقل اصدار المراسيم.

وإنه سبحانه وتعالى عندما مهّد لإصدار مرسومه بقوله ﴿ياأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام، كما كُتب على الذين من قبلكم، لعلكم تتقون﴾ قام بهذا التمهيد ليحرك في أذهان المؤمنين سؤالاً يطرح نفسه وهو : كيف نصوم، وفي أي شهر نصوم، وكم عدّة أيام الصيام، وماهي الغاية من هذا الصيام؟ وأصدر سبحانه وتعالى مرسومه مستوفياً الإجابة على جميع فروع هذا السؤال المطروح.

أولاً - تضمن المرسوم استبدال الأسم الجاهلي لشهر الصيام (ناتق) بإسم جديد ألا وهو (رمضان)، وقد سبق أن شرحت الحكمة من ذلك التبديل، وحتى يؤكد سبحانه وتعالى استبدال شهر (ناتق) بالذات، قال ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ ملفتاً النظر إلى الشهر الذي ابتدأ فيه نزول القرآن. حدث هذا في الأسبوع الأخير منه. ولقد أورد سبحانه الأسم الوصفي لكتابه (القرآن) في صياغة مرسومه هذا تذكيراً للمؤمنين بأنه حقق لهم وعوده. وبما أن الآيات اتخذت شكل كتاب مقروء بكثرة فلم يكن المقصود إنزال الكتاب كله بل ابتداء نزوله وقد علّلت لكم هذا سابقاً.

ثانياً - وعندما قال [هدى للناس] وضح سبحانه بواسطة هذين اللفظين الصفة العالمية لمرسومه. كيلا يظن ظان أن الصيام قد فُرض على العرب وحدهم. وانتخب لفظ الناس خاصة لاليشير به إلى جميع بني نوع الإنسان. بل ليشير إلى الذين يأنسون صدق الإسلام منهم خاصة. مُعلناً بأن هذا الكتاب، دعوة عامة إلى جميع الناس من حيث أنه لايسرد مجرد مراسيم وأحكام، بل ويحمل معه اسلحة بيّناته وبراهينه التي تفرق الحق من الباطل. وإلى هذه النقاط بالذات قال سبحانه في صيغة مرسومه [وبينات من الهدى والفرقان] وإنه سبحانه بهذه الإضافة اشار إلى ماسيواجهه كتابه من نظريات وفلسفات، وضرورة تفنيد مُعطياتها وركائزها بسلاح البيّنات والدلالات الفرقانية.

إلى هنا يكون المرسوم الإلهي قد استوفى ذكر موجباته وحيثياته، لذلك نلاحظ انبراء المرسوم لتعداد ماجاء يحمله من أحكام. وكانت أولاها [فمن شهد منكم الشهر فليصمه]، وأراد من تعريف (الشهر) بالألف واللام الإشارة إلى شهر (ناتق) الذي استبدله المرسوم الإلهي بإسم شهر رمضان. تنبيهاً إلى أن صيام هذا الشهر يساعد على تطهير المؤمنين من أمراضهم الروحية، فهو ضرورة مُلّحة وعلى اعتبار أنه شهر غذاء روحي.

وكان الحكم الثاني الذي جاء به هذا المرسوم الإلهي، الترخيص للمريض والمسافر بالإفطار شريطة أن يصوم أياماً بديلةً عن أيامِ افطاره. عبّر عن هذا بقوله ﴿ومن كان مريضاً، أو على سفرٍ، فعدةٌ من آيّام أُخر﴾.

إلى هنا يكون هذا المرسوم قد تضمن أحكاماً ثلاثة كان أولهما استبدال شهر ناتق باسم رمضان. توجه سبحانه وتعالى بعدها إلى بيان حكمة وفلسفة هذه الأحكام. من منطلق أن كتاب الله يحمل معه أدلته وفلسفة تعاليمه.

أولاً - وضّح حكمة وفلسفة استبدال اسم ناتق باسم رمضان الدّال على الرّمضاء والشدة والحرّ، فقال ﴿يريد الله بكم اليُسر، ولايريد بكم العُسر﴾ مُنوّهاً بأن صومكم وامتناعكم عن تناول الطعام والماء، ماهو إلا لصالحكم، فلا يريد الله من ذلك عُسركُم بل يُسركُم. أي أن هذا الصيام سييسر لكم التقدم الروحي الضروري لتحقيق الغاية من خلقكم، فهو شهر غذاء روحي لاتقوم حياتكم الروحية بدونه.

ثانياً - ووضح ضرورة صيام شهر كامل غير منقوص بقوله ﴿ولتكملوا العدة﴾بمعنى أن غذاء الروح يحتاج إلى صيام شهر كامل من أشهر السنة غير منقوص.

ثالثاً - ووضّح ثمرات صيام شهر رمضان بقوله ﴿ولتكبروا الله على ماهداكم، ولعلكم تشكرون﴾ أي أن لصيام هذا الشهر ثمرات روحية أبرزها أن تستذكروا سنوات غار حراء التي قضاها محمد رسول الله متبتلاً متفكراً متضرعاً، وكيف أن أيّام التبتل والتفكر والتضرع ضرورية للعبد، كغذاء روحي، يصل به من حيث النهاية إلى الاتصال بربه وتلقي كلامه المقدس، فبصيامكم لشهر رمضان ستتذوقون شيئاً مما تذوّقه رسولنا في غار حراء.

كما أن من أبرز ثمار شهر الصوم هذا [لعلكم تشكرون] أي أن صيامكم هذا سيدفعكم على طريق تقدير أفضال الله عليكم وشكره على نعمائه. الأمر الذي سيزيدكم انجذاباً نحو بارئكم.

إلى هنا يكون المرسوم الإلهي قد استوفى موجباته وحيثياته وأحكامه الثلاثة وفلسفاتها، وتكون هذه الأمور كلها قد صيغت صياغة بلاغية معجزة وبأسلوب تميّز به كتاب الله عزّ وجلّ عمّا دونه من كتب سماوية سابقة، وكتب وضعيه.

وإنه سبحانه وتعالى، بعد إصداره لمرسومه المذكور، توجه بالقول ﴿وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعاني، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون﴾ وقد شرحناها.

على هذه الصورة، يظهر مما أسلفناه، بُطلان وزيف ماجاء في الخطوة الأولى التي خطاها الدكتور شحرور، ولننتقل إلى خطوته الثانية.

فالدكتور شحرور في خطوته الثانية كشف عن وجهه جلياً من أنه لايتدبر سباق آيات الله ولاسياقها، بل يعمد إلى التنجيم والتخمين والحرز في فهمه للآيات.

تصوروا أنه افتتح خطوته الثانية بقوله ص ٦٥ (لو تأملنا الآيات (١٥١، ١٥٢، ١٥٣) من سورة الأنعام، وهي:

[قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم

١- ألا تشركوا به شيئاً.

٢- وبالوالدين إحساناً.

٣- ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم.

٤- ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن.

٥- ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق

ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون] الأنعام ١٥١

٦- ولاتقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلُغ أشُدّه.

٧- وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لانُكلف نفساً إلاّ وسعها.

٨- وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قُربى.

٩- وبعهد الله أوفوا.

ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون] الأنعام ١٥٢

١٠- وأنّ هذا صراطي فاتبعوه، ولاتتبعوا السُّبُل فتفرق بكم عن سبيله

ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون] الأنعام ١٥٣

أقول - والكلام لازال للدكتور شحرور - لو تأملنا هذه الآيات لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنّها هي الوصايا العشر، ولنلاحظ الآية التي تلت هذه الآيات الثلاث، وهي الآية ١٥٤ الأنعام: [ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن، تفصيلاً لكل شيء وهُدىً ورحمةً لعلّهم بلقاء ربهم يؤمنون].

هنا نلاحظ بشكل جلي كيف أنّ هذه الوصايا جاءت لموسى مفصولة عن الكتاب، وأنّ الكتاب لموسى وعيسى هو التشريع فقط، وليس التوراة والإنجيل، وذلك واضح تماماً في قوله تعالى عن عيسى: ﴿ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ آل عمران ٤٨) ص٦٥-٦٦.)

وأقول: إن هذه الخطوة تعتبر مثالاً واضحاً على أسلوب الدكتور شحرور في التنجيم والتخمين والحزر، وعدم مراعاة السّباق والسّياق لكلام الله عزّ وجلّ. إنه يتناول آيات الله وكأن كلام الله لايتصف بالتسلسل الموضوعي والعياذ بالله.

إن صاحبنا عندما قال (لو تأملنا هذه الآيات) ويقصد بها الآيات الثلاث (١٥١-١٥٢-١٥٣) من سورة الأنعام التي قسمها على مزاجه من الواحد إلى العشرة مع أنها ثلاثة آيات فقط قال (لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنّها هي الوصايا العشر) أقول لو أن صاحبنا راجع الآيتين السابقتين لهذه الآيات لأدرك خطأ استنتاجه وتخمينه، ذلك أن الكلام في هذه

الآيات الثلاث متعلق بالمشركين وليس باليهود أو بموسى وبما أنزل عليه. وهاكم هاتين الآيتين، علماً بأن سورة الأنعام أنزلها ربّنا في مكة، حيث قال: ﴿سيقول الذين أشركوا، لوشاء الله ماأشركنا ولاآباؤنا، ولاحرّمنا من شيء، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتُخرجوه لنا، إن تتبعون إلاّ الظن، وإن أنتم إلاّ تخرُصون، قل فللّه الحُجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين. قل هَلُمَّ شهداءكُم الذين يشهدون أنّ الله حرَّمَ هذا، فإن شهدُوا، فلا تشهد معهم، ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدِلُون﴾.

ندرك من خلال هاتين الآيتين الكريمتين الأمورالتالية:

١ - الخطاب موجه إلى المشركين، وإلى مشركي مكة بالذات، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين ابراهيم الخليل.

٢ - يعرض سبحانه وتعالى حجة هؤلاء المشركين التي يحتجون بها لرفض ماجاءهم به محمد رسول الله، وهو زعمهم أنهم لوكانوا مشركين حقاً، فلما كان قد تركهم ربهم يشركون، وكانوا لايحرّمون ماكان حلالاً لهم.

٣ - يطالبهم الله ربّنا بالدليل والبرهان على مايزعمونه. ويتهمهم في الوقت نفسه بإقامة عقائدهم على أساس من الظن وليس على أساس من دليل. وينبّههم في الوقت نفسه أيضاً إلى أنه لم يأتهم محمد رسوله بالظّنون، بل بالحجّة البالغة.

٤ - ويطالبهم في حال فُقدان "البينة المادية" لديهم بتقديم "الشهادة" أي تقديم شهود أحياء يشهدون على صحة عقائدهم. ويستدرك سبحانه وتعالى منبهاً رسوله إلى أن شهادات الشهود غير مقبولة في هذه القضية التي مرّ عليها ألوف السنوات والتي تعود لزمن بعثة ابراهيم عليه السلام.

وبعد أن أثار ربنا هذه النقاط الأربع. كان لزاماً أن يدلي بالحقيقة التي غابت معالمها خلال ألوف من السنوات مضت. فتوجه سبحانه وتعالى لبيان ماأنزله على نبيه ابراهيم من تعاليم، متحدياً الإتيان بما يخالفها. فقال عز وجل موجهاً خطابه إلى هؤلاء المشركين ﴿قل تعالوا أتلُ ماحرم ربكم عليكم...﴾.

وإنه سبحانه وتعالى، بتقديمه لهذا الحوار وماتضمنه من تعاليم. يكون وبأسلوب الحاذق قد اعطانا فكرة واضحة عن الفترة الزمنية المتعلقة ببعثة ابراهيم، والمستوى الذي بلغته البشرية في منطقتنا حين بعثته من وعي، وماتخللها من مفاسد اقتضت إنزال تلك التعاليم.

على هذه الصورة تتبين لنا معالم فساد وزيف وخطأ قول صاحبنا الدكتور شحرور (لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنّها هي الوصايا العشر). إن صاحبنا حين أجهد فكره هنا وحاول الاستنتاج والتخمين. ماكان ليفعل هذا لو أنه أزعج نفسه وطالع الآيتين السالفتي الذّكر واللّتين تشكّلان سباق هذه الآيات الثلاث. فهو أخطأ حين أهمل التسلسل الموضوعي، واعتمد اسلوب التنجيم والتخمين. وقد ثبت من خلال هذا التسلسل الموضوعي أن لاعلاقة لتعاليم هذه الآيات ووصاياها، بتعاليم الوصايا العشر التي اشتهر أنها أنزلت على موسى عليه السلام.

وإن مايؤكد عدم علاقة تعاليم هذه الآيات بالوصايا العشر، قول الله سبحانه وتعالى بعدها مباشرة: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكل شيء، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾.

أولاً - استعمل سبحانه وتعالى الحرف (ثمّ) الذي يعني الترتيب الزماني والمكاني، وهو نبهنا بواسطة الحرف (ثم) إلى أنه انتقل من الكلام عن المشركين وماأنزل على جدّهم ابراهيم عليه السلام من تعاليم للكلام عن بعثة موسى عليه السلام، وماأنزل عليه من تعاليم أوسع دائرة وتفاصيل أدق مما أنزله على ابراهيم، يثبت من خلال ذلك تدخّل ربوبيّته في أمر تطوير شعوب هذه المنطقة من العالم، وليُشعر المشركين مدى بُعدهم عن الاستفادة من ثمرات ماأنزله رب العالمين، ليستيقن العاقل منهم ضرورة الاهتمام والإيمان بما ينزله ربهم على محمد رسول الله، فإلى هذه الحكمة اشار سبحانه وتعالى بقوله في آخر الاية [... لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون].

ثانياً - وعندما قال سبحانه وتعالى: ﴿آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء﴾ فمناسبة ذلك الإشارة إلى أن التعاليم التي أنزلت على ابراهيم كانت مجملة ومحدودة دوائرها. بسبب أن إنسان ذاك الزمان ماكان مؤهّلاً لتلقي تعاليم مفصلّه وكاملة. خصوصاً وأن نقائص بيئة ابراهيم ماكانت بهذه السعة والشمولية أيضاً. وأن حكمة الله اقتضت ألاّ يُنزل على نبيه ابراهيم من تعاليم غير ضرورية لزمانه.

وإنه سبحانه وتعالى وضحّ لنا من خلال الفاظ الآية المذكورين أنه أنزل على موسى تعاليم تامة في مضامينها وأحكامها، وعلى صورة أحسن مما أنزله على ابراهيم. كما امتازت تعاليم موسى بتفصيلها لكل شيء من الأشياء والأمور التي تلقى تعاليمها.

ثالثاً - وهو سبحانه وتعالى بهذه الألفاظ ينفي نفياً قاطعاً، نزول الوصايا العشر على موسى عليه السلام، على اعتبار أن نبيه موسى تلقى شريعة كاملة الابحاث والمضامين. وإن تكن تلك الشريعة محدودة ببني اسرائيل، وذات طابع قومي. وكأنه سبحانه وتعالى أشار بذلك أيضاً إلى الضرورة التي استلزمت نزول الشريعة الإسلامية تداركاً لتلك النقائص التي تجلت في شريعة الموسويين.

ولنتناول مصطلح (الوصايا العشر) الذي طلع به علينا هذا الآخ المسلم، فالسؤال المطروح: من أين استقى صاحبنا هذا الاصطلاح؟ وماهي الوصايا العشر الذي يعنيها؟

وأقول إنه لاأساس لهذا الاصطلاح إلا في تصورات بعض من لم يتدارسوا كتابهم، ولم يفهموا ماجاء به نبيهم من اسرائيليين ونصارى.

والذي يرجع إلى التوراة المحرّفة التي هي بين أيدينا لايلاحظ فيها مصطلح الوصايا العشر. وإليكم ماورد فيها من نصوص. ورد في سفر الخروج الاصحاح ١٢/٢٤-١٣ (وقال الرب لموسى اصعد إليّ إلى الجبل وكُن هناك. فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم) كما ورد في سفر الخروج أيضاً الاصحاح ٢٨/٣٤ (فكتب على اللوحين كلمات العهد والكلمات العشر).

ومن مطالعتنا لهذه التوراة المحرفة يتبين لنا أنها خالية من ذكر هذه الكلمات العشر، كلمات العهد التي صرح بها هذان النصان التوراتيان.

ولما كان كتاب الله القرآن قد أنزله الله سبحانه وتعالى فرقاناً. ومهيمناً على الكتب السماوية السابقة، ومصححاً لتعاليمها المحرفة، وناسخاً إياها. فقد عدنا إلى كتاب الله العظيم، لنجد أنّه عزّ وجلّ أعطانا الصورة الحقيقية لما تضمنته نصوص التوراة المحرفة المذكورة، وبشكل منطقي ومعقول.

قال تعالى في سورة الأعراف ١٤٥-١٤٦ ﴿قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين. وكتبنا له في الألواح من كل شيء، موعظة وتفصيلاً لكل شيء، فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا

بأحسنها، سأوريكم دار الفاسقين﴾ وفي الآية ١٥٠ من نفس السورة قال تعالى ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، قال بئسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه...﴾ وفي الآية ١٥٤ من نفس السورة قال تعالى ﴿ولما سكت عن موسى الغضب، أخذ الألواح، وفي نُسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾.

هذه النصوص القرآنية تنفي وجود (وصايا عشر) نفياً قاطعاً، وتصرح بأن ماجاء في الألواح كان أكثر من عشر وصايا بكثير. ورد فيها موعظة وتفصيلاً لكل شيء. وهذا الأمر يتفق وقوله عز وجل في سورة الأنعام ١٥٤ ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً، على الذي أحسن. وتفصيلاً لكل شيء، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾.

ولابد أن القارىء أدرك بُطلان مصطلح الوصايا العشر الذي راج استعماله بين اليهود والنصارى خطأً. ذلك أن ماورد في النّص التّوراتي (فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية) هو كلام مشوّش ومتناقض، يفرق بين كلمات العهد في الحجارة، عن الشريعة، وعن الوصية. وهذا التفريق يقوم به كاتب غير مثقّف. أما العالم فلا يمكنه الأخذ بهذا التمييز. خصوصاً وإننا إذا عُدنا إلى الوصايا العشر المزعومة، نجد أنها أحكام شريعة ليس إلا، فهي أوامر منهيات (لاتقتل، لاتزن، لاتسرق...) فمن السخف اعطاءها كيانا مستقلاً عن الشريعة، ثم إن (الوصية) لاتعني شيئاً سوى ماأنزل الله من أحكام وتعاليم، فلا يُعقل أن تكون هناك وصية خارج ذلك.

فمن منطلق كوننا مسلمين، لايجوز لأحدنا أن يأخذ بمصطلح اليهود والنصارى، مهما كان شأنه، مالم يجد له مؤيداً من كتاب الله القرآن العظيم. ومادمت قد أثبت لكم بطلان مصطلح (الوصايا العشر) من النصوص التوراتية، ومن النصوص القرآنية، فإنكم ستعجبون من أخ مسلم كالدكتور شحرور، لايقوم بمثل هذا البحث، وينساق مع تيار السطحيين من أهل الأديان، ويأخذ بمصطلحهم، مصطلح (الوصايا العشر) وكأنه إحدى مسلّمات ديننا الإسلام. فكيف يُجيز لنفسه كتابة "قراءة معاصرة" وهو تقليدي في هذا الأمر، أكثر من التقليديين.

ومادام صاحبنا لم يدرك حقيقة "الوصايا العشر" فلا حاجةبنا للرد على قوله ص ٦٥ [ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة، لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون]. هنا نلاحظ بشكل جلّي كيف أن هذه الوصايا جاءت لموسى مفصولة عن

الكتاب - وأن الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط - وليس التوراة والإنجيل، وذلك واضح تماماً في قوله تعالى عن عيسى: [ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل]).

أقول إنه يَهْرِفُ هنا بما لايعرف. وقد سبق أن نقضت كون الوصايا التي تضمنتها آيات سورة الأنعام (١٥١-١٥٢-١٥٣) وصايا الوصايا العشر المزعومة، وكنت أثبت أنها أي وصايا هذه الآيات هي التعاليم التي أنزلها الله ربنا على ابراهيم عليه السلام، فالخطاب موجه للمشركين ومُذكّر اياهم بتعاليم جدّهم ابراهيم، وأثبت أيضاً أن (ثم) جاء حرف يفيد الترتيب. وأن الله سبحانه يبين للمشركين ماأنزل على موسى من بعد بعثة ابراهيم.

وهكذا فلا سؤال أَنَزَلَتِ (الوصايا العشر) المزعومة قبل الكتاب أو بعده أو أنها نزلت مفصولة عن الكتاب. فهذا طرح باطل، لأنه قد قام على أمر باطل. ولامجال حينئذ للاستشهاد بآية سورة آل عمران ٤٨.

إلى هنا أكون قد بينت لقارئي الكريم زيف وبطلان الخطوة الثانية التي خطاها الدكتور شحرور، وقبل أن ننظر في خطوته الثالثة، أجد لزاماً علي تنبيهكم إلى أمر هام. وهو إننا كمسلمين نأخذ بما جاء به القرآن المجيد، لكنا في الوقت نفسه لانرفض أمراً ولانخالفه دونما تقديم دليل وبرهان.

فأنا عندما قلت أن النص التوراتي هو كلام مشوش ومتناقض، حين فرّق بين كلمات العهد في الحجارة عن الشريعة، وعن الوصية، وحين ناقشت هذا النص من الوجهة المنطقية والعقلية، وحين وضعت أمام أعينكم النصّ القرآني كحد فاصل لإدراك هذا التشويش والتناقض الواقع في النص التوراتي.

إنني حينما فعلت هذا كله. أكون قد جئتكم باستدلالات من خارج التوراة، وهذا الأمر يظل دون مرتبة الكمال في البحث إن قصرت عن الإتيان باستدلال من ضمن التوراة نفسها. واستكمالاً لهذا الأمر، ألفت نظركم إلى ماتضمنته التوراة نفسها، إذ كان من المفترض أن ينزل موسى من الجبل ومعه الألواح ويتلوها على قومه، وقد فعل هذا موسى عليه السلام. وإليكم مقتطفات مما أوردته التوراة بهذا الخصوص، مقتطفات ستدركون من خلال نصوصها أن ماذكره القرآن هو الحق، وأن ماكتبه التوراتيون في التوراة المعاصرة مشوّش ومتناقض:

خروج ٣٤-٣٥ (وكان لما نزل موسى من جبل شيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل... فأوصاهم بكل ماتكلم به الرب معه في جبل سيناء... وجمع موسى كل

جماعة بني اسرائيل، وقال لهم، هذه هي الكلمات التي أمر الرب أن تُصنع. ستة أيام يُعمل عمل، وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبْتُ عطلة مقدسٌ للرب... وكلّم موسى كل جماعة بني اسرائيل قائلاً: هذا هو الشيء الذي أمر به الرب قائلاً: خذوا من عندكم تقدمة للرب...).

هذه الأقوال جميعها لاتشير إلى وصايا عشر من قريب ولامن بعيد. كما أنها تثبت أن النص التوراتي الذي ذكرته لكم من قبل هو نَصّ مشوّش حقاً ومتناقض. إن القضية برمتها انحصرت في تنسّك موسى أربعين يوماً فوق جبل الطور، تلقى خلالها موسى [كتاباً على الذي أحسن] - ممّا تلقاه ابراهيم من قبله - [وتفصيلاً لكل شيء] - أنزله ربّه عليه وعلى ابراهيم، وكان هذا الكتاب الذي أنزله الله على موسى يهدف إلى [وهدى ورحمة] لهداية بني اسرائيل ورحمة بهم لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون]. وهذا الأمر بجميع أجزائه، يفسّر لنا قوله عز وجل [وكتبنا له في الألواح من كل شيء] فلا يعني قوله (وكتبنا) أن الله عزّ وجل كتب شيئاً ما في ألواحٍ معيّنة، بل كل مايعنيه أننا فرضنا لصالح بعثة موسى في الألواح التي دوّن عليها موسى مافرضناه عليه [من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء] ونلاحظ أن القرآن جاء بصيغة الجمع [ألواح] بينما جاءت التوراة بصيغة التّثنية (لوحا الشهادة)، وإن صيغة الجمع تعني أن موسى تلقى شيئاً كثيراً استكتبه إياه ربه. وإن الاقتباسات التي أوردتها لكم ومابعدها من نصوص بإمكان القارىء الرجوع إليها في التّوراة المحرفة، سيتأكد من أن موسى لم يأت بأشياء منفصلة بعضها عن بعض كالوصايا العشر المزعومة والشريعة والوصية. بل تلقى شيئاً واحداً وهو شريعة جديدة أوسع مما نزل على ابراهيم عليه السلام من تشريع، فلا معنى أن يقول كاتب التوراة بأن الله عزّ وجلّ خاطب موسى قائلاً: اصعد إليّ إلى الجبل، وكن هناك فاعطيك لوحي الحجارة والشريعة، والوصية التي كتبتها لتعليمهم] فكل ماهنالك هو أن الله أمر موسى أن يهيّء الواحاً حجرية تصلح لكتابه مايتلقاه من تعاليم وأحكام بسبب أنه لايملك أقلاماً ولاأوراقاً وهو في منطقةِ هجرةٍ هي صحراء سيناء.

لاحظوا التناقض في أقوال كتبه التوراة المعاصرة، فمرة كتبوا أن الله سبحانه قال [فأعطيك لوحي الحجارة...) ومرة كتبوا [قال الرب لموسى إنْحتْ لك لوحين من حجر مثل الأولين فاكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما

وكن مستعداً للصباح... فنحت لوحين من حجر كالأولين، وبكر موسى في الصباح وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب، وأخذ في يده لوحي الحجر) خروج ٣٤/١-٢. إن كتبة التوراة يوحون للقارىء أولاً أن اللوحين سماويين ومقدسين، بينما في النص الآخر يعترفان بأن اللوحين حجريين منحوتين. ولا يُقدِرّان الله حق قدره، فيجعلونه نحات ألواح حجرية.

المهم أن متابعة النصوص التوراتية المحرفة والمعاصرة تفيد في تدعيم مصداقية ماجاء به القرآن الكريم حكاية عن موسى وبني اسرائيل. كما تفيد في وضع مستمسكات ضدهم بين أيدينا تدينهم من أفواههم ومما كتبته أيديهم، وتثبت عدم صلاحيّة التوراة الحالية لتُقدّمَ إلى الناس ككتاب سماوي.

على ضوء ماذكرناه يتضح لأعيُننا الفرق الشاسع مابين شريعة موسى وشريعة محمد رسول الله، فيما تعلق بشريعة موسى أورد كتاب الله عز وجل: ﴿وكتبنا له في الألواح..﴾، بينما أورد كتاب الله فيما تعلق بشريعة محمد رسول الله: ﴿بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ﴾ البروج ٢٢ . فهناك استعمل كلمة الواح مجردة عن الحفظ، لأنه كان مقدراً لشريعة موسى أن تحرّف وتُنسَخ، بينما استعمل للقرآن جملة [في لوح محفوظ] إشارة إلى أنه كان مقدراً لشريعة محمد رسول الله التي احتواها القرآن أن تظل مقروءة بكثرة علناً، ومحفوظة من كل تحريف إلى يوم الدين. اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

ولا أجد مندوحة من التنويه هنا إلى أن الدكتور شحرور لم يخبرنا أولاً ماهي الوصايا العشر، ولم يدرجها لنا في كتابه، وكأنها مسلّمات لدى جميع المتدينين من أصحاب الديانات السماوية. وأنتم قد لاحظتم يقيناً ومن خلال النصوص المقتبسة من التوراة، بأن أهم وصية فاتح موسى قومه بها من بعد نزوله عن جبل سيناء، كانت وصّية اعتماد يوم السبت يومَ راحة. والآن عودوا إلى "الوصايا العشر" التي استنبطها الدكتور شحرور من آيات سورة الأنعام (١٥١-١٥٢-١٥٣) فلا تلاحظون فيها هذه الوصية فكيف يجيز صاحبنا الدكتور لنفسه، والحال هذه، أن يزعم فيقول (لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنها هي الوصايا العشر؟ إلا أن يكون قد استنتج هذه النتيجة عن طريق التنجيم متناسياً قول رسول الله ﷺ: (كذب المنجمون ولو صدقوا) ؟

إني بينت للقارىء حتى الآن من سباق آيات سورة الأنعام التي استدل بها الدكتور شحرور بُطلان وزيف استدلالاته جميعها. حيث بينت لكم من خلال التسلسل الموضوعي للآيات هذا البطلان. والآن أوجهكم إلى سياق الآيات أي إلى مابعدها من كلام إلهي مقدس لتدركوا من خلاله هذا الزيف والبطلان أيضاً.

فلقد قال الله ربنا بعد تلك الآيات مباشرة ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه، واتقوا لعلكم تُرحمون. أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كُنّا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكُنّا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها، وسنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾.

فمن خلال هذه الآيات تلاحظون أنه لم يكن الكلام في الآيات التي استدل بها صاحبنا منحصراً في موسى ورسالته، بل كان منحصراً في طائفتين هما طائفة ابراهيم وطائفة موسى، هذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا...﴾ فلايوجد في سباق الكلام إلاّ ذكر طائفتي ابراهيم وموسى عليهما السلام.

إلى هنا نكون قد نقضنا ماجاء في الخطوة الثانية للدكتور شحرور، واثبتنا زيفها وبُطلانها، ولننتقل الآن خطوة ثالثة مع خطواته.

كتب على الصفحة ٦٦ مايلي: (لنقارن هذه الوصايا العشر، والتي أتى بعدها [ثم آتينا موسى الكتاب] الأنعام ١٥٤، وقوله تعالى ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ البقرة٥٣، بقوله ﴿من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان﴾ آل عمران ٤. أي أنها أنزلت قبل محمد ﷺ. بقوله ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده.. الآية﴾ الفرقان ٢. أي أنها أنزلت على محمد ﷺ أيضاً... يستنتج أنّ الفرقان هو الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى. ونُبّتت إلى عيسى عليهما السلام. ثم جاءت إلى محمد ﷺ، وهي رأس الأديان السماوية الثلاثة وسنامها، لأنها القاسم المشترك بين الأديان الثلاثة، وفيها التقوى الاجتماعية، وهي مايُسمى بالأخلاق، وليست العبادات، وهي تحمل الطابع الإنساني العام. ولقد أنزلت هذه الآيات على النبي ﷺ في رمضان، وبما أنّها من أمّ الكتاب، فإنها أُنزلت ونُزّلت معاً. ولذا قال ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده﴾ الفرقان ١، ونحن نعلم

أن معركة بدر حصلت في رمضان. وأن آيات الفرقان في سورة الأنعام ليست مكية. فهنا أخبرنا أنّ الفرقان أنزل على رسول الله ﷺ في معركة بدر "في رمضان" لذا سُمّي بيوم الفرقان، بقوله: ﴿وماأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان﴾ الأنفال٤١).

تلاحظون أنني نقضت مصطلح الوصايا العشر، كما نقضت أن تكون وصايا الآيات الثلاث من سورة الأنعام متعلقة بموسى، وأثبت من خلال سباق هذه الآيات وسياقها أنها تمثل الوصايا التي تلقاها ابراهيم عليه السلام، ومادام صاحبنا قد ابتدأ مقارنته في خطوته الثالثة، معتمداً فهمه الباطل لمصطلح الوصايا العشر، يكون صاحبنا قد دخل خطوته الثالثة مدخلاً خاطئاً وقائماً على أساس من الزيف والبطلان. وتكون مقارنته قد جاءت مختلّة الأطراف وباطلة من بدايتها، ولامعنى للقيام بمقارنة مابين الآيات التي استدل بها في مقارنته.

وإنه بعد قيامه بمقارنته الباطلة والمختلّة الأطراف هذه،انتهى إلى الاستنتاج بقوله (نستنتج أن الفرقان هو الوصايا العشر) وبديهي جداً القول بأن هذا استنتاج تنجيم وتخمين وحرز، وليس هو بالاستنتاج العلمي. ذلك لأنه لم يلتزم بالأصول العلمية في عملية الاستنتاجات، فهو لم يقم بشرح الفاظ كل آية، ولم يقارن بين معانيها، ولا أخذ بعين الحسبان ترتيب الفاظها وصياغتها اللغوية، ولا أعطى كل أية مكانتها وصحة دلالته منها على ضوء التسلسل الموضوعي لسورتها.

وبالرغم من غوغائية هذه الخطوة وهشاشتها في مقارناتها وفي استنتاجاتها. فإنها تدور على كل حال حول ثلاثة نقاط هي:

١ - أن (الفرقان) هو اصطلاح قرآني (للوصايا العشر) الموسوية والتي أنزلت على حدّ زعم صاحبنا على عيسى ومحمد عليهما السلام أيضاً.

٢ - وأن آيات الفرقان أو آيات الوصايا العشر المذكورة تمثل "الاخلاق أو التقوى الاجتماعية، وتحمل الطابع الإنساني العام، والقاسم المشترك بين الأديان".

٣ - وأن آيات الفرقان أو آيات الوصايا العشر قد أنزلها الله تعالى على محمد رسول الله في رمضان، وفي معركة بدر بالذات، لذلك سُمّي شهر رمضان على حدّ زعم صاحبنا، بيوم الفرقان.

وسأتناول فيما يلي هذه النقاط الثلاثة واحدة تلو أخرى.

وأقول بالنسبة للنقطة الأولى: إن من الجهالة بمكان اعتبار (الفرقان) مصطلحاً للوصايا العشر. بسبب أن معاني كلمة (فرقان) تدور حول تمييز الأشياء وتفضيلها بعضها عن بعض، ولاتدور حول الوصايا والتعاليم. فالفرقان صفة وليست هي باسم شيء من الأشياء. لذلك لاعلاقة لهذه الكلمة من حيث المعنى بالأمور السلوكية أو الاخلاق الاجتماعية. ولابأس أن أعيد على مسامعكم مابيّنه اللغويون لمعنى الفرقان. خصوصاً وأن صاحبنا أغفل العودة إلى معاني كلمة فرقان إغفالاً تاماً، مما لايليق به ككاتب لقراءة معاصرة، وردت على السنة مختلف اللغويين أنّك إذا قلت: فرّق فلان بين شيئين فرقاً وفرقاناً، معناه فصل أبْعاضهما، كما في سورة الدخان ﴿وفيها يُفرق كلَّ أمرٍ حكيم﴾ أي يُقضى في الأمور. وكما ورد في سورة الإسراء ﴿وقرآناً فرقناه﴾ أي فصلناه وأحكمناه. كما في سورة البقرة ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي فلقناه. وإذا قلت: فرق الأمر في نظر فلان، فمعناه تبين واتضح، وإذا اشتق مصدر فرّقه من التّفرقة يعني عكس جمعه أي بدّده ووزعه. الفاروق هو الشخص الذي يفرق بين الأمور ويفصلها فهو على وزن فاعول على سبيل المبالغة. وإذا تناولنا لفظ الفرقان كمصدر، معناه مايفرق به بين الحق والباطل، ومابين النصر والبرهان، ومابين الصبح والسحر أو ماشاكل. من هذا ندرك بأن قوله عز وجل [وآتينا موسي الكتاب والفرقان] يعني آتيناه الكتاب وانفراق البحر لأجل نجاته وقومه، وسوى ذلك من معجزات.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا لم يرجع الدكتور شحرور إلى أقوال اللغويين، لم يقُم من نفسه ببحث لغوي متعلق بكلمة فرقان؟؟

فلماذا لم يسأل هؤلاء اللغويين، خصوصاً وقد اصطلح هو نفسه أنهم هم (أهل الذكر) الذي ورد ذكرهم في قوله عز وجل ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾ أم أنه كان يعلم معنى الفرقان بطريق التنجيم والتخمين والحرز، لذلك لم يجد ضرورة ليسأل أهل الذكر، متجاهلاً هذا الأمر الإلهي؟؟؟

ثم هل يحق لنا القول هنا بأن صاحبنا هذا يتّهم ربّه من أنه استعمل لفظ (الفرقان) خطأ وخلافاً للمعاني التي بيّنها اللغويون، وبمصطلح لم يعط مفتاح فهمه إلا لشخص واحد في تاريخ الإسلام كله هو الدكتور شحرور؟

ألا إنني اتحدى هذا الأخ المسلم أن يثبت بأي شكل من الأشكال علاقة كلمة (فرقان) باصطلاحه، من خلال ماتركه لنا اللغويون من تراث.

لذلك قلت إن من الجهالة بمكان اعتبار (الفرقان) مصطلحاً يدل على الوصايا العشر المزعومة من أنها نزلت على موسى، ومن ثم على عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وبكلمة مختصرة، إننا نستطيع أن ندرك دلالة [الفرقان] على ضوء قوله عزّ وجلّ في سورة الأنفال ٢٩، من خلال الوعد الذي قطعه ربنا للمؤمنين المتقين حينما قال: ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً، ويكفّر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾ وقد شرحت لكم معنى هذه الآية الكريمة من قبل وماتضمنته من وعدٍ إلهي. فليرجع الدكتور شحرور إلى نفسه وينظر لماذا لم يجعل له ربه فُرقاناً وهو قد كتب قراءة معاصرة؟؟؟

من هنا ندرك بصورة قاطعة ويقينية بُطلان ماتضمنته النقطة الأولى من خطوة صاحبنا، فلا (الفرقان) هو الوصايا العشر. ولايصح من جهة أخرى لغوياً اصطلاح لفظ (الفرقان) للوصايا العشر المزعومة.

وأما مايتعلق بالنقطة الثانية من خطوة صاحبنا الثالثة، وهو الزعم بأن (الفرقان) أو الوصايا العشر المزعومة تمثل في حقيقتها على حدّ زعمه (الأخلاق، أو التقوى الاجتماعية، وتحمل الطابع الإنساني العام، والقاسم المشترك بين الأديان). فقد تداعى هذا الزعم لسببين رئيسيّين:

أولهما: ماأثبتّه من خلال ماأسلفته بُطلان وجود وصايا عشر مزعومة.

وثانيهما: كون الشريعة التي أنزلت على موسى تتعدى حدود وصايا عشر، وتتناول جميع نواحي الحياة. ذلك أن الشريعة الموسوية جاءت في شموليتها وتعدّد جوانب الحياة التي عالجتها، بداية وصورة مصغّرة للشريعة الإسلامية التي أنزلها ربنا كاملة الجوانب والتعاليم ولكل زمان ومكان.

أضف إلى ذلك بأنه لايجوز لصاحبنا استعمال كلمتي (أخلاق) أو (تقوى اجتماعية). فما هذان التعبيران بدقيقين من حيث اللغة، على اعتبار أن الأخلاق جمع خلُق. والخُلُق في اللغة يعني التركيب الباطني للإنسان. هذا بضم اللام. أما بفتح الخاء وتسكين اللام أي (الخَلْق) فتعني كلمة خَلْق هذه الخلقة الظاهرة لجسم الإنسان. ولقد راعى كتاب الله القرآن هذا

التفريق في تهجية هذا اللفظ، وفي دلالاته. لذلك لم يستعمل سبحانه وتعالى لفظ (خُلُقْ) مجرداً في كتابه، بل قرنه دوماً بصفة معينة، لذلك نلاحظه سبحانه وقد وصف التركيب الباطني لرسوله محمد خاتم النبيين ﷺ بقوله [وإنك لَعَلى خُلُق عظيم].

فليتفضل صاحبنا وليثبت لنا من حيث اللغة جواز استعماله لكلمة (أخلاق)، هذا إن كان لهذا اللفظ من الدارسين والباحثين.

ويتبع هذا عدم جواز استعمال اصطلاح (تقوى اجتماعية) لغوياً. فالتقوى منهاج، وليس بتعاليم سلوكية، وإن تَعَلّقَ هذا المنهاج بكيفية استعمال التعاليم السلوكية. وبإمكان القارىء مراجعة ماشرحته عند قوله تعالى ﴿هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب﴾ البقرة ٣ في الفصل الثالث من الجزء الأول من هذا الكتاب.

وإن صاحبنا، عندما استعمل مُصطلح (تقوى اجتماعية) لم يكن دقيق الدلالة لغوياً، ودلّل على أنه يحاول أحياناً أن يلتزم بدقة التعبير كما فعل عند شرحه لكلمة (كتاب)، كما يطلق لقلمه العنان حيناً آخر فينسى أو يتناسى ضرورة الالتزام بدقة التعبير،كما فعل في هذا المقام. فلا معنى حقيقي مدروس لكلمتي (تقوى اجتماعية). على اعتبار أن لفظ التقوى فيه دلالة منهاج معين للتفكير والبحث والسلوك. وإن كلمة (الاجتماعية) هي كلمة عامة الدلالة، لذلك فهي ناقصة الدلالة، فلا يدل على شيء معلوم.

أضف إلى ذلك أنه لا أصحاب الديانات، ولاهيئة الأمم ومحكمتها الدولية أخذت بمصطلح (الوصايا العشر) المزعومة كأخلاق أو كتقوى اجتماعية. فليتفضل صاحبنا وليفرض فهمه المزعوم الباطل على هؤلاء وهؤلاء. إنّما ليتذكر الآن أن الأحصائيين من هؤلاء جميعهم سيطالبونه بدقة التعبير، كما أشرت إلى ذلك، كما سيطالبونه بوصايا عشر مدعومة بفلسفة علمية حَقيقية لكل وصية من وصاياها إلى جانب ذكر العقوبة الضرورية الرادعة لكل وصية من وصاياها، لتبلغ هذه الوصايا حدّ الكمال، ولتصلح لمجتمع عالمي متقدّم ومتحضّر.

وإن صاحبنا سيُصاب بصدمة عظيمة حينما يطالبه هؤلاء وهؤلاء بجميع هذه المطالبات، متهمين إياه بضيق الأفق العلمي واللغوي، مستهينين بمطالبته على أنها مجرد نَزْوة من النزوات.

هذا سيحدث، على اعتبار أن صاحبنا لايفرق مابين التشريع، ومابين موضوع علم الأخلاق، فمن أبسط المسّلمات ألاّ نخلط مابين التشريع ومابين علم الفلسفة والأخلاق.

وأما مايتعلق بالنقطة الثالثة التي أثارها في خطوته الثالثة وهي زعم صاحبنا بأنّ الفرقان، بمصطلح الوصايا العشر المزعوم، قد أنزله الله عز وجل على محمّد رسول الله في شهر رمضان، وفي معركة بدر بالذات. لذلك سُمّي شهر رمضان على حدّ زعم صاحبنا بيوم الفرقان.

وأقول مذّكراً صاحبنا بأن البيّنه على من أدعّى، وأن اليمين على من أنكر. فصاحبنا مطالب بإثبات أن (الفرقان) بمصطلح ومفهوم (الوصايا العشر) قد أنزله الله عز وجل في شهر رمضان، وفي معركة بدر بالذات. فإن عجز عن إثبات زعمه المذكور، يكون قد أثبت بُطلانه،وإني لعلى يقين تام بأنه أي صاحبنا الدكتور شحرور يستحيل عليه إثبات زعمه ومدّعاه من خلال أوراق تاريخ هذه الأمة.

ومساعدةً مني لقارئي العزيز على كشف زيف زعم هذا الأخ المسلم، الذي أدعى أن الآيات الثلاث من سورة الأنعام (١٥١-١٥٢-١٥٣) قد نزلت في معركة بدر، ولم تنزل في مكة المكرمة. فبإمكان كل قارىء مراجعة تفسير ابن كثير وملاحظة قوله بإجماع الروّاة على نزول سورة الأنعام بكاملها في مكة المكرمة، حيث رُوي أنه نزل للمحافظة عليها سبعون ألف ملك. علماً بأن ذكر هذا العدد من الملائكة يشير عموماً إلى أهمية السورة وأهمية مضامينها، والوعد بالمحافظة عليها بهذا العدد من الملائكة وحتى قيام الساعة ومجيء يوم الدينونة.

وإضافة إلى ذلك فإن مضمون الآيات، كما اتضح لنا، فهو موجّه إلى المشركين في مكة، يوم كانوا يضطهدون محمداً وأصحابه. وأكدّ هذه الحقيقة قوله عزّ وجلّ في آخر هذه الآيات ﴿لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾.

وإن صاحبنا عندما استدل بآية سورة الفرقان، نلاحظ كيف استدل ببعض ألفاظ الآية وليس بكامل ألفاظها. قام بهذا بما عُرف عن أسلوبه في البتر والقطع لآيات الله على أسلوب المستشرقين من اعداء الله، مُعرضاً عن أسلوب المؤمنين من عباد الله، فلم عمد صاحبنا هنا إلى بتر بعض الفاظ هذه الآية الكريمة؟ قام بذلك إيهاماً للقارىء بأن المراد من الفرقان هنا الوصايا العشر المزعومة يقيناً، وإلاّ فلا وجه آخر محتمل في هذا المقام.

لنستمع خاشعين للآية الكريمة بكامل ألفاظها. قال تعالى:

﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيراً.﴾ وإن صاحبنا حذف ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ بسبب أن هذه الألفاظ، إذا أخذها القارىء بعين الاعتبار، يتبدّل المعنى الذي ذهب صاحبنا إليه.

فمن خلال هذه الألفاظ ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ يتجلى أن المراد من (الفرقان) هنا هو القرآن الكريم نفسه، ولم يكن المراد جزءً من تعاليمه هي الوصايا العشر المزعومة. ذلك أن الوصايا العشر ماهي إلا مجرد وصايا نهي، وماهي بتعاليم ولاحدود شرعية ولافلسفة حتى يصح القول [ليكون للعالمين نذيراً].

وقد ذكرت لكم في بداية هذا الفصل إجماع أمتنا على اعتبار (الفرقان) إسماً وصفياً لكتاب الله، وهو اسم وصفي استحقه كتاب الله، بسبب ماجاء به من تعاليم وأحكام وفلسفات، وتصحيح للمحرّف من تعاليم الأديان السابقة، فهو كتاب جاء يفرق ويفصل مابين الحق والباطل في جميع الأحوال والمستويات والزمان والمكان.

وتأكيداً للقارىء الكريم من أن المراد من هذه الآية الكريمة من كلمة (الفرقان) كامل القرآن، وليس بعضاً من وصاياه. فليتابع هذا القارىء معي تلاوة مابعد هذه الآية من آيات، فمن خلال هذا السياق سيتولد دليل قاطع وجديد يؤكّد ماذهبت الأمّة جميعها إليه من معنى.

فهو سبحانه وتعالى، بعدما قال: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيراً﴾ أضاف قوله: ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ افك افتراه، واعانه عليه قوم آخرون... وقالوا اساطير الأولين اكتتبها، وهي تُملى عليه بُكرة وأصيلا. قل أنزله الذي يعلم السّر في السماوات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً﴾. وهذا السّياق لم يحدد كلمة (الفرقان) ولم يحصرها في وصايا عشر مزعومة البته. بل أكدّ ماذهب علماء الأمة إليه، من أنه أريد بالفرقان في هذه الآية كامل كتاب الله، خصوصاً وأن كلام المكذبين جاء مطلقاً غير مقيد. من جهة، وإنه قال تعالى من جهة أخرى ردّاً على الذين كفروا ﴿قل أنزله الذي يعلم السّر في السماوات والأرض﴾ فالضمير يعود إلى كامل الكتاب أي إلى الكتاب بوصفه قد نزل فرقاناً ليكون للعالمين نذيراً.

كذلك اقتطع صاحبنا بعض الفاظ آية سورة الأنفال ٤١. فهو نقل للقارىء من الآية ﴿وماأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان..﴾ بينما الآية الكريمة أضاف

هذه الألفاظ، فقد قال تعالى فيها: ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيء، فإن لله خُمُسَهُ، وللرسول، ولذي القُربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، ومأأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير﴾.

وعلينا أن نتساءل عمّا أنزله ربنا على عبده محمد رسول الله يومَ الفرقان، يوم التقى الجمعان في معركة بدر المشهورة، وقد أجاب صاحبنا الدكتور محمد شحرور أن الله أنزل على عبده في المعركة: الوصايا العشر المزعومة. وأنه سبحانه أطلق على يوم المعركة (يوم الفرقان) لهذا السبب بالذات.

وقد تناسى الدكتور شحرور الوعود الإلهية التي تضمنتها آيات سورة الأنفال. تناسى وعده عزّ وجلّ في الآية التاسعة ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾ تناسى هذا الوعد الذي وعد المؤمنين بالنصر المؤزر على المشركين، ولم يعدهم بالوصايا العشر المزعومة، تناسى صاحبنا أن هذا الوعد الإلهي قد وعده الله لرسوله وللمؤمنين، بعد أن سمع تضرعاتهم [إذ تستغيثون ربكم، فاستجاب لكم، أنّي مِمدُكم بألفٍ من الملائكة مُردفين] الآية ١٠.

ولو أن صاحبنا تدارس وتقصى ماحدث يوم معركة بدر. يوم أن قيض الله لرسوله وللمؤمنين أن ينزلوا يوم المعركة في مركز ستراتيجي قريب من نبع بدر، بينما حرم المشركين من هذا الموقع الستراتيجي، وأنزلهم في مكان رملي لاتصلح أرضه لعملية الكرّ والفرّ التي تقتضيها كل معركة من المعارك في ذاك التاريخ، بسبب أن المواجهة كانت تحدث على صهوات الجياد. الآية (٤٣).

ويوم أن شدّد الله عز وجل على قلوب المؤمنين، فرفع قواهم المعنوية بوعوده وببشاراته إلى الأوج. بينما أثار الله سبحانه الرّياح تضرب وجوه أعدائه وتعمي رؤياهم بسبب ماكانت تحمله من الرمال التي كانت تعمي أبصارهم الآية (٤٥).

وتناسى صاحبنا الرؤيا المبّشرة التي أراها الله لرسوله، والتي بشّره فيها بالنصر المؤزّر الأكيد. الآية (٤٤).

- فلماذا تناسى وأهمل الدكتور شحرور جميع هذه الأمور التي شكلت بمجملها (فرقاناً) فرّق مابين حق المؤمنين وباطل الكافرين؟؟؟ لماذا تناسى هذه الفروق التي ساعدت على تحقيق النصر المؤزر لجانب المؤمنين؟؟؟

وهل شغل أذهان المؤرخين إلاّ هذه الأحداث التي قلبت وجه المعركة لصالح المؤمنين. بالرغم من قلّة عددهم، وكثرة عدد الكافرين؟؟؟

فمن أين استقى صاحبنا معلومته من أن الوصايا العشر المزعومة قد نزلت يوم معركة بدر؟ إلا أن يكون قد استقى هذه المعلومة المزيفة بطريق التنجيم والتخمين فلماذا لم يدلّنا صاحبنا على المصدر الذي استقى منه معلومته المزيفة إن كان في إدعائه من الصادقين؟؟؟

يدور محور سورة الأنفال حول التحريض على الاستشهاد في سبيل الله عز وجل. تبيّن لنا ذلك من خلال قوله فيها ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً، لعلكم تفلحون، واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحُكم، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط﴾ وأكمل سبحانه وتعالى موضوع الحث والتحريض على الاستشهاد في سبيل الله بضرب الأمثلة مما حدث زمن فرعون ومن قبله، وأكد سبحانه وتعالى تحريضه هذا بوعد الحوافز حينما قال: ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ وماتَسْميةُ سورة الأنفال بهذا الإسم إلا عنواناً على هذا الطريق. وماكان ابتداء السورة بموضوع الأنفال وتقسيمها مقصوداً بالذات، بل ليقول سبحانه وتعالى بألفاظ أخرى إن الأنفال آتية لامحالة، إذا أنتم تركتم التفكير بها، والتفتُّم إلى اعتناق روح التضحية في سبيل الله فهو طريق الخيرات وهو سبيل الغنى والمغفرة والفلاح. ومن خلال هذا كله ندرك إدراكاً واضحاً من أنه لاسبيل إلى ذكر ونزول الوصايا العشر المزعومة في معركة بدر، بحال من الأحوال. إن الذي كان يُفترض نزوله وقتها نزول بشارات، وتأييد ملائكة، وتحقيق وعود.

والخلاصة هي أن الدكتور شحرور لم يقم بدراسة لغوية لكلمة (فرقان) واشتقاقاتها. ولم يقم بتحقيق تاريخي حول موضوع الوصايا العشر المزعومة. وكان ذهنه مُشوّشاً يخلط مابين الأخلاق والتشريع. كما كان يجهل موضوع سورة الأنفال نفسها، وجاء بإدعاء متعلق بإحدى آياتها خلافاً لما اتّفق عليه المؤرخون. وأتى بجديد عن طريق التنجيم والتخمين والحزر، وليس عن طريق بحث علمي قائم على أسس وأصول. هذه السّقطات جميعها انتهت بصاحبنا ليزعم أن الوصايا العشر المزعومة أنزلها الله تعالى على نبيه محمد رسول الله في رمضان، وفي معركة بدر بالذات. وأن شهر رمضان سمي لهذا الوجه بيوم الفرقان. وقد أثبتنا زيف جميع

هذه الأباطيل وانتهينا من كل ماتعلق بخطوة صاحبنا الثالثة. لذلك نلتفت إلى خطوته الرابعة، وماجاء فيها.

كتب صاحبنا الدكتور شحرور على الصفحة (٦٦) : (لقد ورد في سورة فاتحة الكتاب الآية [أهدنا الصراط المستقيم] الفاتحة ٤. وحدّد هذا الصراط في قوله [صراط الذين أنعمت عليهم] فمن هؤلاء الذين أنعَمَ عليهم وجاءهم الصراط المستقيم لأوّل مرّة).

إنه لسؤال كبير طرحه صاحبنا، وإنه لانحراف خطير كاد أن يدفعنا إليه. يتضح هذا من خلال تساؤله (فمن هؤلاء الذين أنعم عليهم وجاءهم الصراط المستقيم لأول مرة؟ فهو بهذه الألفاظ كاد أن يوحي بمعنى مادّي للصراط، وأن هذا الصّراط بُخِلَ الله تعالى بالإنعام به علينا، حتى وجد من يستحق الإنعام به عليه.

والحقيقة هي أن كلمة صراط تعني الطريق، والصراط المستقيم يعني الطريق المختصر الواصل مابين نقطتين بحيث لايوجد طريق أقصر منه.

والحقيقة الناصعة أيضاً هي أن الله عزّ وجلّ لم يبخل على أحدٍ من رسله وأنبيائه من وجهة هدايتهم إلى الصراط المستقيم. فلم يختص سبحانه بالصراط المستقيم قوماً دون قوم، ولا أمة دون أمة، ولارسولاً من دون رسول. فتعاليم جميع الأنبياء هي صراط الله المستقيم ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾ الأنعام ١٥٣ هذه الوصية جاء بها كل من آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسول الله وبقية رسل الله تعالى، جميع هؤلاء كانوا على صراط مستقيم، فلم يختص احدهم به دون سواه، فما معنى أن يتساءل صاحبنا، والحال هذه، عمن تلقى الصراط المستقيم لأول مرة في تاريخ الرسالات؟؟؟

ولنتابع على كل حال جواب صاحبنا الذي أجاب به على هذا السؤال الكبير الذي طرحه. إنما من واجبنا الحذر كل الحذر من انحرافٍ خطيرٍ يدفعنا إليه.

أجاب صاحبنا على الصفحة ٦٦ بقوله: (إن الناس الذين أنعم الله عليهم بالصراط المستقيم لأول مرة، هم بنو اسرائيل الذين عاصروا موسى. وقد فضّلهم الله على العالمين به وذلك في قوله ﴿يابني اسرائيل اذكروا نعمتي عليكم، وأني فضلتكم على العالمين﴾ البقرة ٤٧. هنا يذكر بني اسرائيل بنعمته التي أنعم عليهم بها، والتي فضلهم بها على العالمين، وهذه النعمة، وهذا التفضيل هما الصراط المستقيم الذي أنزل لأوّل مرة في تاريخ

الرسالات إلى موسى عليه السلام، وذلك في قوله ﴿ولقد مننا على موسى وهارون، ونجيّناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المُستبين. وهديناهما الصراط المستقيم﴾ الصافات (١١٤-١١٨) وقد سُمّيت الوصايا، الصراط المستقيم، لأنها لاتتغير أبداً).

وقد أثار في إجابته النقاط التالية:

١- تلقى بنو اسرائيل الصراط المستقيم زمن موسى لأول مرة في تاريخ الرسالات.

٢- وفضل الله بني اسرائيل على العالمين بسبب ذلك.

٣- وجاء ببدعة واهية وهو زعمه إن الوصايا العشر المزعومة هي الصراط المستقيم، على اعتبار أنها لاتتبدل أبداً مع تجدّد الرسالات.

وأتناول من جانبي هذه النقاط المثارة بالترتيب فأقول:

أما بالنسبة إلى النقطة الأولى وهو زعمه تلقي بنو اسرائيل "الصراط المستقيم" زمن موسى لأول مرة في تاريخ الرسالات. أقول بأن هذا الزعم هو مجرد إدعاء غير مسند بدليل. والباحث العالم يترفع عن الإدعاء الذي لايجد له دليل يدعمه علمياً.

أما صاحبنا، وهو يكتب "قراءة معاصرة" فقد دأب فيها علي تكرار الإدعاءات من دون برهنتها وتقديم مايُدّعِمُها من أدلة وبراهين.

وهو حين استدل بقوله تعالى: ﴿ولقد مننّا على موسى وهارون، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم،ونصرناهم فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم﴾ الصافات. فلا يُستفاد من ألفاظ هذه الآية الكريمة ماذهب إليه صاحبنا، فليتدبّر القارىء الكريم هذه الآية جيداً، هل يجد أنها أخبرت بأن الصراط المستقيم قد نزل لأول مرة في تاريخ الرسالات على بني اسرائيل؟ وحتى يكون هذا الصراط المستقيم سبباً مباشراً لتفضيلهم على العالمين؟

فلو كان الصراط المستقيم شيئاً جديداً لكان قال سبحانه [وأهديناهما الصراط المستقيم] وبديهي أن مابين الهداية والإهداء بون واسع وفرق كبير من حيث المعنى، هذا إذا كان الصراط المستقيم شيئاً مستقلاً في ذاته.

إنّ الإهداء يعني العطاء، أما الهداية فهي تعني الأخذ بيد الضال وايصاله إلى هدفه المنشود، ولم يرد في الآية لفظ (أهديناهما) بل ورد لفظ (هديناهما) أي دللناهما على

الصراط المستقيم أي على أقرب مسافة لتلقّي نعماء ربّهما. أي لم نتركهما لنفسيهما وأهوائهما على هذا الطريق.

والمؤسف أن صاحبنا لايتدبر كتاب الله العظيم، فهو ينقّب عن آيات يستطيع افراغها من محتواها ليُلبسها أفكاره "مسبقة الصنع". ولايفعل أكثر من ذلك اطلاقاً. وهو لو كان يتدبّر كتاب الله، مخلصاً له الدين، فَلَما مرّ على ناظريه، قول ربه عز وجل، في سورة النحل ١٢٢ ﴿إن ابراهيم كان أمّة قانتاً للّه حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكرً لأنعُمِه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾، مرور الكرام. فهل من فرق بين الصيغتين اللّهم إلا فرق (أل) التعريف؟ وإن تعريف (الصراط المستقيم) في الآية التي استدل بها صاحبنا. معهود ذهني يعود إلى الصراط المستقيم الذي هدى الله عز وجل نبيه ابراهيم إليه. فهذا التعريف بـ (أل) إدانة ثانية لهذا الأخ المسلم.

وحتى رسولنا محمد ﷺ هداه الله إلى صراط ابراهيم أيضاً، وليس إلى صراط موسى عليه السلام، وذلك وفقاً لما ورد في سورة الأنعام قوله عز وجل ١٦٢: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملة ابراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين﴾.

وإن موضوع هداية الله أنبياءه والمخلصين من اتباعهم، إلى صراط مستقيم بدأ منذ عهد آدم عليه السلام، ولم يبدأ منذ عهد موسى عليه السلام، حتى يحق للدكتور شحرور تخصيص هذه الأفضلية ببني اسرائيل قتلة أنبياء الله عزّ وجلّ، فَهلّا قرأ صاحبنا قول ابليس اللّعين في سورة الأعراف ١٦. ﴿قال فبما أغويتني لأقعُدنّ لهم صراطك المستقيم﴾ فهل حدد ابليس عمله بزمن معين هو زمن موسى عليه السلام حتى يحق للدكتور شحرور تخصيص هذه الأفضلية ببني اسرائيل الذين لعنهم الله في كتابه العزيز؟؟؟ وهل تناسى صاحبنا إغواء ابليس زمن آدم أيضاً؟

ألا إنّ موضوع هداية الله لأنبيائه وعباده الصالحين إلى صراط مستقيم هو أمر عام، وليس بالأمر الخاص حتى يختص به موسى وقومه، تدلنا على هذه المعلومة آية سورة آل عمران ١٠١ في قوله عز وجل ﴿ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم﴾. وهل يتجرأ صاحبنا على اتهام جميع أنبياء الله الذين بَعَثَهُمُ الله قبل موسى على أنهم ماكانوا معتصمين باله ربّهم والعياذ بالله، لذلك ماهُدُوا إلى صراط مستقيم؟؟؟

ولنسلّم مع صاحبنا جدلاً من أن (الصراط المستقيم) الذي هُدي إليه موسى يعني الوصايا

العشر المزعومة، وهذا التسليم بهذا الزعم يعني بألفاظ أخرى أن الأمم والأنبياء قبل زمن موسى كانوا محرومين من نعماء الوصايا العشر المزعومة. هذا في وقت زعم فيه صاحبنا، أن هذه الوصايا هي في حقيقتها سنام الأديان السماوية وقاسمها المشترك، وهي التقوى الاجتماعية وهي مايسمى بالأخلاق، وهي تحمل الطابع الإنساني العام.

فهذه الكلمات هي أوصاف الوصايا العشر المزعومة كما وصفها الدكتور شحرور نفسه. ومادام الأمر كذلك فهل يحق لأحد أن يزعم بأن الأمم والأنبياء قبل زمن موسى كانوا محرومين من هذه الأمور جميعها. فلم تكن لهم أديان ، ولم تشترك أديانهم في هذا القاسم المشترك إن وجدت، ولا يعد الصراط المستقيم سنام تلك الديانات السماوية، ولا كانت في تلك الديانات تقوى اجتماعية ولاأخلاق، وماكنت أديانهم تحمل الطابع الإنساني العام؟؟؟ عجباً لصاحبنا أنه لم يفكر في النتائج المترتبة على بدعته المزعومة هذه.

وهكذا لاأراني بحاجة لتقديم مزيد من الإيضاح حول النقطة الأولى التي أثارها صاحبنا، فقد باتت واضحة البُطلان يقيناً.

أما مايتعلق بالنقطة الثانية، وهي زعمه أن الله عزّ وجلّ فضّل بني اسرائيل على العالمين بسبب أن آتاهم الصراط المستقيم أو الوصايا العشر المزعومة. مستنبطاً زعمه هذا من قول الله تعالى [وأني فضلتكم على العالمين] فلنرجع إلى الآية التي استدل منها على زعمه، نتفهم معاني الفاظها لنصل إلى استيعاب معناها العام لنرى مدى صحة زعمه.

قال تعالى في سورة البقرة ٤٧ ﴿يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأني فضلتكم على العالمين﴾، فما هي معاني النعمة والتفضيل والعالمين؟

جاء في كتب اللغويين: (النعمة) هي الصفة والمنّه، وماأنعم عليك من رزق ومال وغيره. وورد في الكليات: النّعمة في أصل وضعها الحالة التي يستلذّها الإنسان، ونعمة الله، وماأعطاه الله للعبد ممّا لايتمنى غيره أن يعطيه إيّاه. كما ورد في التعريفات: النعمة هي ماقُصد به الإحسان والنفع، ولالغرض ولالعوض. (والتفضيل) فَضِلَ يفضُل بمعنى الفضيلة والغلبة على شاكلة سخُن، بمعنى الفضل والزيادة، تقول: فضّله على غيره جعل له مزيّة عليه وحَكَمَ له بالفضل وصيّره أفضل منه.

(العالمين) الخلق كله، أو ماحواه الفلك، وكل صنف من أصناف الخلق، وقيل مختصٌ بمن يعقل. يُجْمع على عالمون وعلالم وعوالم، وقال الرازي أن العالمين يتناول الملائكة أيضاً والجن والانس.

وندخل في معنى الآية الكريمة على ضوء ماأسلفناه من معان لألفاظها، نلاحظ أن الله سبحانه يذكّر فيها بني اسرائيل بما رزقهم مما لم يكن اعداؤهم يتمنّون لهم هذا العطاء. ولم يحدد سبحانه نوعية هذه النعمة والعطاء، بل نبههم إلى أن عطاءه ذاك أعطاهم مزية على الناس من معاصريهم، ويقصد بذلك آل فرعون بالذات. هذا المعنى ذهب إليه جميع المفسرين.

ونعود إلى سباق الآية، فنجد أنه سبحانه قد ذكّر بني اسرائيل بنعمته أيضاً، مجردّة غير مخصّصة حيث قال [يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم، وإياي فارهبون].٤٠.

وننتقل إلى مابعد الآية، إلى سياقها. نلاحظ أنه سبحانه وتعالى وضّح موضوع نعمته على بني اسرائيل وما اكسبهم بها فضلاً ومزية على أهل زمانهم وعلى آل فرعون بالذات، فقد قال عزّ وجلّ ﴿وإذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبّحون أبناءكم، ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ ٤٩. إنه سبحانه وتعالى جاء بالحرف (إذ) كظرف زمان ماضي حتى دلّنا عمّا أراده من النعمة والتفضيل المتعلقين بالوضع الاجتماعي الذي كان يعاني منه الاسرائيليون في ظل حكم آل فرعون. يذكّرهم سبحانه أنه أنقذهم من هذا الكرب العظيم الذي كانوا يُعانون منه. فأنجاهم من عذاب آل فرعون وأعطاهم فوق ذلك مزية فضيلة عليهم. وزاد سبحانه توضيحاً لما قصده من نعمته عليهم وتفضيلهم على أهل زمانهم، فقال ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم، واغرقنا آل فرعون، وأنتم تنظرون﴾. ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ ٥١ ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾. مُجملاً سبحانه وتعالى مِنَحَهُ وأعطياته، مما لم يكن آل فرعون يتمنّونها لبني اسرائيل. فالمقصود إذن من [العالمين] آل فرعون بالذات وصحّ بذلك ماأجمع عليه المفسرون.

وكل مادل عليه قوله تعالى ﴿ ... وأني فضلتكم على العالمين﴾ هو تخصيص فضله سبحانه بالاسرائيليين من دون سواهم في مقابلة مظالم آل فرعون. وهذا التفضيل مختص بزمانهم. ولايشابه ما اختصه الله بأمة محمد ﷺ حينما خاطبهم بقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس...﴾ أي أفضل من جميع من فضل الله عليهم بنعمائه. وعلى ضوء هذا التفصيل الكلّي الشامل لأمة محمد رسول الله، جاء خطاب الله عز وجل في سورة المائدة ١٦، موجهاً إلى بني اسرائيل بالذات: ﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً ممّا كنتم تُخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النورَ بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

لاحظوا كيف استعمل سبحانه للقرآن اسم [الكتاب المبين]، في وقت لم يستعمل فيه للتوراة إلا لفظ (كتاب) مجرداً. وهذا ينبهنا أيضاً إلى أن المقصود من الكتاب "كامل التوراة"، ولايقصد منه التشريع وحده. الأمر الذي يكشف زيف رأي الدكتور شحرور حينما قال على الصفحة ٦٥ (وأن الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط، وليس التوراة والإنجيل.). وإنه عندما استدل على زعمه بآية آل عمران ٤٨ [ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل] قام بمحاولة إيهام للقارىء أن الخطاب موجه إلى عيسى بينما الخطاب في هذه الآية موجهاً إلى مريم والدته. فالله عز وجل بشّرها بعيسي وقال ﴿كذلك يخلُق الله مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ويعلمُهُ الكتاب... الآية﴾ فهذه كلمات بشارة إلى مريم من أنه سبحانه سيرزقها إبناً يجعله نبياً ويعلمه الكتاب أي الأمر المفوض إليه القيام به أي ماكتبه عليه، موضحاً الحكمة من هذا التكليف بتلك المهمة، فلا يدعه في غمّةٍ من أمره. وأنه بشرها بأنه سيعلمه التوراة ومأأنزل فيها من تعاليم وأحكام، ويؤدي مهمة (الإنجيل) أي البشارة التي كان وعد الله بها بنو اسرائيل. وهي بعثة المسيح وإعادة وجه التعاليم الموسوية الحقيقي بواسطته. فالإنجيل يعني البشارة لُغةً ويعلمه [الكتاب] قصد به ماكتبه الله عليه للقيام به في عالم غيبه.

نخلص من جميع ماذكرناه، أن صاحبنا الدكتور اخطأ في نقطة خطوته الثانية التي زعم فيها تفضيل الله لبني اسرائيل على العالمين بسبب أنه آتاهم الصراط المستقيم. فما كان المراد من التفضيل في الآية إلا معنى الاصطفاء، والانقاذ من عبودية آل فرعون، ومنح الاسرائيليين

مزيّةً لم يكن يرغب آل فرعون أن تكون للاسرائيليين مثل هذه المزية، وهي تحريرهم من العبودية واعطائهم كياناً حُرّاً مستقلاً عنهم بفضل خاص من ربهم.

وإن صاحبنا، عندما استدل بآيات سورة الصافات ١١٤-١١٨ تدعيماً لرأيه، لم يغيّر استدلاله المذكور من الأمر شيئاً. فقد قال تعالى في الآيات المشار اليها: ﴿ولقد مننّا على موسى وهارون، ونجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين، وآتيناهما الكتاب المبين. وهديناهما الصراط المستقيم﴾ فهو سبحانه أورد واواً عطفت الصراط المستقيم على الكتاب المبين، ليشعرنا بتغايرهما. فالكتاب المستبين هو غير الصراط المستقيم. ثم إنه لايوجد أي ذكر "للنعمة" في هذه الآيات، ثم إنه سبحانه وتعالى قال (هديناهما) ولم يقل (أهديناهما) وقد سبق أن بينت الفرق مابين الإهداء والهداية، ثم إنه سبحانه، وقد أورد (الصراط المستقيم) مُعرّفا بالألف واللام. فقد عرفه على أن تعاليم ابراهيم هي المعهود الذهني في هذا المقام. ذلك لأن سباق الآيات كان يدور محوره حول ابراهيم وتعاليمه. ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم.. وبشّرناه باسحاق نبياً من الصالحين. وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين. ،لقد مننّا على موسى وهارون، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم.. الآيات﴾. وانكم لتلاحظون أنه سبحانه قال بعد هذه الآيات نسبة إلى موسى وهارون نفس الألفاظ التي استعملها لابراهيم حيث قال ﴿وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾.

على هذه الصورة، نكون قد أثبتنا بُطلان وزيف مافهمه الدكتور شحرور من هذه الآيات جميعها. فلم تكن مابين النعمة والتفضيل ومابين الصراط المستقيم أية رابطة من حيث معانيها. ذلك أن النعمة تعني عطاء الله للعبد ممّا لايتمنى عدّوه أن يصله الله به من إحسان ونفع دون عوض. ثم إن فرعون مارأيناه قد سعى لحرمان موسى وهارون من نعمة الصراط المستقيم. ثم إن الصراط المستقيم ماهو إلا عبارة عن اصطلاح قرآني للهداية التي تلقاها جميع أنبياء الله ورسله منذ عهد آدم وحتى محمد رسول الله صلوات الله عليهما. ولم يكن للصراط المستقيم غير هذا المعنى في كتاب الله بأي شكل من الأشكال إلا أن تكون هناك قرينة تمنع معناه الاصطلاحي، وهكذا تبطل النقطة الثانية من خطوة صاحبنا الرابعة، ويبدو زيفها جلياً كضوء الشمس في رابعة النهار.

أما مايتعلق بالنقطة الثالثة، وهي مازعمه الدكتور شحرور من أن الصراط المستقيم يعني الوصايا العشر المزعومة بألفاظ أخرى، وعلى اعتبار أنها لاتتبدل أبداً مع تجدد الرسالات.

فقد ولدت هذه النقطة الثالثة ميتة من يوم ذكرها. وذلك لأن اللغة العربية، ومعاني "الصراط المستقيم" لاتستسيغ هذا المعنى بصورة من الصور. اللهم إلا أن يكون صاحبنا قد توصل إلى معناه عن طريق التخمين والحزر والتنجيم. وهذا شيء غير مستبعد هنا لأنه بات ظاهرة هذه "القراءة المعاصرة" خصوصاً وقد أثبتنا بطلان كون وصايا الآيات الثلاث (١٥١-١٥٢-١٥٣) من سورة الأنعام تمثل الوصايا العشر الموسوية المزعومة. فقد أثبتنا أن هذه كانت وصايا تعاليم ابراهيم عليه السلام، فالخطاب فيها كان موجهاً لمشركي مكة خاصة.

ثم إن صاحبنا زعم (أن الوصايا التي هي الصراط المستقيم لاتتغير أبداً) آخر سطر على الصفحة ٦٦. وكأنه لم يقرأ ماأورده الله عز وجل على لسان عيسى عليه السلام في سورة آل عمران ٥٢: ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحلّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعوني﴾ فها أن عيسى قد بَدّل في الوصايا، فأحلّ وحرم، فكيف تزعم بعد هذا أن الوصايا لاتتغير أبداً؟

وقد جاء التشريع الإسلامي ووصاياه مختلفاً كثيراً عن تشريع موسى ووصاياه.فالتغيير قد حدث ثانية بظهور الإسلام، وهذه حقيقة،بإمكان صاحبنا التحقق منها عن طريق علماء الأديان المختصين.

وماقولك على رأس الصفحة (٦٧): (حيث أن الأخلاق مبادىء إنسانية عامة. وهي من ثوابت الدين الإسلامي، ولاتحمل طابع التغير مع الزمن والتطور والمرونة "الحنيفية" مثلها في ذلك مثل العبادات. وفي الدين الإسلامي الوصايا والحدود والعبادات هي الصراط المستقيم، أي التقوى الاجتماعية في الوصايا، والتقوى الفردية في العبادات) إلا افتراض أمور على أنها مسلّمات، مع أنها لم ترد في أي كتاب ديني على هذه الصورة وعلى اعتبارها مسلّمات. ولما كان لايجوز افتراض مثل هذه الأمور بدون أدلّة ومقدمات. فإننا لانأخذ هذه الأقوال على محمل الجدّ، ولايستحق منّا المناقشة. وإن صاحبنا هو المطالب بتقديم البيّنة على مازعم وخمنّ وافترض.

ولابدّ لي هنا من التنويه إلى الاختلاف في أقوال صاحبنا. فهو قال من جهة أخرى ص٦٦ (وقد سُميت الوصايا الصراط المستقيم لأنها لاتتغير أبداً) بينما قال بعدها على رأس ص ٦٧ (وفي الدين الإسلامي، الوصايا والحدود والعبادات هي الصراط المستقيم..) فشتان مابين النصين، الأول يحدد الصراط المستقيم بأنه هو الوصايا، والثاني يحدد الصراط المستقيم بأنه الوصايا إلى جانب الحدود والعبادات، فبين هذا وذاك فرق واضح. وهل يعني ذلك أن الصراط المستقيم في دين موسى لم يكن يشمل الحدود والعبادات؟ إن صاحبنا مطالب برفع هذا التناقض الذي لايصدر عن باحث ملتزم بأصول وأسس واضحة المعالم، بل يسير في بحثه واستنتاجاته بأسلوب التنجيم والتخمين.

وهكذا بدت خطوة الدكتور شحرور الرابعة واضحة الزيف والبطلان، فلنتقدم معه في خطوته الخامسة، وننظر هل أفادنا من خلالها بشيء مقبول؟

ابتدأ صاحبنا الدكتور خطوته الخامسة بطلبه على الصفحة ٦٧:

(لنلاحظ التسلسل التالي: [وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون] البقرة ٥٣. بعد الوصايا العشر في سورة الأنعام. قال [ثم آتينا موسى الكتاب] وأن الوصية العاشرة هي اتباع الصراط المستقيم [وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه... الآية] الأنعام ١٥٢).

واستجبت أنا لطلب صاحبنا وحاولت أن الاحظ التسلسل الذي أراد لفت نظرنا اليه، على أنني فهمت من كلمة (تسلسل) أي تدرج وتتابع. فلم ألاحظ بين الآيات التي استدل بها أي تسلسل أي لم ألاحظ أي تدرّج وتتابع. فالآية الأولى من سورة البقرة. والآية الثانية من سورة الأنعام. والأية الثالثة هي من سورة الأنعام أيضاً، ولكنها لم تأت بعد الثانية بل قبلها. فأي تسلسل وتدرج وتتابع يقصد في قوله (لنلاحظ التسلسل التالي) ؟؟؟

أضف إلى ذلك أنه عاد فاستعمل اصطلاح الوصايا العشر الذي نقضناه. فقد سبق أن أثبتُنا أن الوصايا التي سبقت قوله تعالى: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ لاعلاقة لها بموسى وماآتاه ربه من كتاب وسواه. بل هي تعاليم ابراهيم عليه السلام. ومعلوم أنّ ماقام على باطل فهو باطل.

وتساءلت: ماذا يريد صاحبنا منّا إن نحن لاحظنا معه تسلسله المزعوم؟ فشاهدته يكتب آيات في مقابل آيات تفصل بينها أسهم وعلى الشكل التالي:

((صراط الذين أنعمت عليهم ⟵ يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم)).

((ولقد مننّا على موسى وهارون ⟵ وآتيناهما الكتاب المبين، وهديناهما الصراط المستقيم)). [ولقد آتينا موسى وهارون الفُرقان] الأنبياء ٤٨

ولاحظته كتب تحت هذه الآيات وأسهمها مايلي ((وهكذا نرى أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم)).

لاحظت اشتراك آيتي السهم الأول في كلمة النعمة. فقد ورد لفظ النعمة في كليهما. ولم ألاحظ نقاط لقاءٍ مابين طرفي السهم الثاني في أي لفظ من الألفاظ. فانتبهت إلى أنه أراد أن المراد من منّة الله على موسى وهارون انحصرت في الكتاب المبين والهداية إلى الصراط المستقيم، ولم أنتبه إلى مراد صاحبنا عندما أورد جزءً من آية سورة الأنبياء [ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان] إلاّ بعد أن قرأت ماكتبه تحتها جميعها من أنه استخلص منها (أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم).

وعُدت هنا إلى الصفحة (٦٦) حيث كتب صاحبنا فيها (لقد ورد في سورة فاتحة الكتاب الآية [اهدنا الصراط المستقيم] الفاتحة ٤، وحدّد هذا الصراط في قوله [صراط الذين أنعمت عليهم]. فمن هؤلاء الذين أنعم عليهم وجاءهم الصراط المستقيم لأوّل مرّة؟) وربطت بين هذه الأقوال جميعها فاتّضحت لعينيّ حقيقة محاولة صاحبنا عند مقارنته بسهم مابين صراط الذين أنعمت عليهم ومابين يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم. فإن صاحبنا أراد أن يوهمنا بأن دعاء سورة الفاتحة ماهو إلا طلب للنعّمة التي أنعمها الله على بني اسرائيل، وفضلهم بها على العالمين، وأنها الوصايا العشر المزعومة والفرقان. فارتعدت فرائصي مما أراد أن يوهمنا به. لأنه أمر خطير جداً، وتحريف لكتاب الله، مابعده من تحريف، وإنه لأمر ماكان ليخطر ببال اليهود أنفسهم في يوم من الأيام.

إن تذكير الله رسله وأنبياءه وعباده بنعمائه التي أنعمها وينعمها عليهم هو أمر نقلته إلينا عشرات الآيات في كتاب الله تعالى، وقد سبق أن وضّحت لكم معاني النعمة من أنها الصفة والمنّة، وما أنعم الله عليك من رزق ومال وغيره. وأن أصل معنى النعمة الحالة التي يستلذها الإنسان. ومايعطيه الله لعبد ما مما لايتمناه له سواه. والنعمة هي ماقصد بها إيصال الإحسان والنفع من دون غرض أو عوض.

فالسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو لماذا أعرض صاحبنا عن عشرات الآيات التي ذكّر فيها ربنا عباده الصالحين من أنبياء وغيرهم بما أنعم عليهم، وجاء صاحبنا ينتخب من بين هذه الآيات جميعها مانطلق بالنعمة التي أنعمها الله على بني اسرائيل خاصة؟ وإنه لتساؤل جدير بالاهتمام حقاً لقوم يغارون عى دينهم الإسلام، وعلى كتاب الله أن يمسّه أي تحريف كان.

زعم صاحبنا أن نعمة الوصايا العشر المزعومة قد نزلت على بني اسرائيل لأول مرة في تاريخ الرسالات. فقد أثبتّ بطلان زعمه المذكور على حينه. وأقول هنا أن الله عزّ وجلّ يكذّب زعم صاحبنا بصريح الألفاظ في سورة مريم الآية ٥٨ حينما قال سبحانه وتعالى بعدما تعرّض لذكر ادريس واسماعيل وموسى وهارون وابراهيم واسحاق ويعقوب، قال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، وممّن حملنا مع نوح، ومن ذرية ابراهيم، واسرائيل، وممّن هدينا واجتبينا، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجداً وبكيّاً، فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾.

فقد صرح سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بكل جلاء أنه سبق أن أنعم من قبل انعامه على بني اسرائيل، أنعم على النبيين من ذرية آدم ونوح وابراهيم واسرائيل، وجميع هؤلاء بعثهم الله عز وجل من قبل أن يبعث موسى وهارون. فكيف أغفل صاحبنا هذه الآية الصريحة كل الصراحة. وتمسك بآية [يابني اسرائيل اذكروا نعمتي..] فهل جاء هذا الإغفال سهواً؟.

ثم إنّ الله عز وجل نبّه المسلمين بقوله في سورة النساء ٦٩: ﴿ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا﴾. نبّه الله المسلمين إلى هذا تفسيراً منه سبحانه لدعاء سورة الفاتحة الذي أمرهم ليدعوا به في كل صلاة وهو [اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين] وكل مسلم يعلم أن المراد من (المغضوب عليهم) بني اسرائيل خاصة.

وان صيغة[صراط الذين أنعمت عليهم] تتوافق وصيغة آية سورة مريم ٥٨ التي أوردتها لكم والتي قال تعالى فيها[أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين.... الآية].

فألفاظ الآيتين واحدة تقريباً وهذا التوافق كان يستدعي من صاحبنا الاستدلال بآية سورة مريم هذه، وليس بآية سورة البقرة ٤٧.

كما أن نفس التوافق نلاحظ توفّره بين آية سورة الفاتحة وآية سورة النساء ٦٩. فألفاظ الآيتين واحدة تقريباً أيضاً. وكان جدير بصاحبنا، وهو مسلم، أن يستدل ويقارن آية الفاتحة بآية سورة النساء ٦٩ خاصة، لإجماع الأمة الإسلامية على أنها المقصودة من نعمة دعاء الفاتحة.

وقلت سابقاً ولاحقاً إن الدكتور شحرور يكتب في قراءته المعاصرة بإسلوب التنجيم والتخمين والحزر، وليس بأسلوب الباحث الملتزم بأسس وقواعد وأصول، فما كان أسلوبه بأسلوب علمي حتى الآن، وإلاّ فلو كان غير ذلك، فما كانت لتبرز هذه الأخطاء من تحت يديه.

إنّه نسب تعاليم ابراهيم إلى موسى، واطلق عليها مصطلح الوصايا العشر من دون مراعاة السباق والسياق، وانتهى ليزعم أن هذه الوصايا هي النعمة التي اختص الله بها بني اسرائيل لأول مرة في تاريخ الرسالات. خلافاً لجميع نصوص الآيات التي سردتها لكم من قبله. ولم يقف عند هذا الحد من مزاعمه المتهافتة. بل زعم أخيراً أن الوصايا والصراط المستقيم والفرقان شيء واحد، مع أنني أثبت بالأدلة اللغوية، والنصوص القرآنية، أنه لاتوجد هناك أيّة رابطة معنوية إطلاقاً مابين الوصايا العشر، والصراط المستقيم، والفرقان.

إن صاحبنا أفرد في مقدمة تمهيده لاصطلاحاته وتقسيماته ومنطلقاته صفحتين ونصف لبحث كلمة (كتاب) فقط، وشجعنا في حينه على متابعة ماكتب. لكنه صدمنا بعد ذلك، لأنه أخذ يتناول ألفاظاً من كتاب الله كالذكر والفرقان والصراط المستقيم وغيرها من الألفاظ، يتناولها من غير اجراء بحث لغوي حول كل كلمة من هذه الكلمات. وحتى يتناول هذه الألفاظ بمعاني ماقال بها اللغويون، ولاكان لها أي أصل في كتبهم، وعلى صورة ضرب بواسطتها آيات كتاب الله بعضها ببعض مُسقطاً من حسابه وعد الله عز وجل: ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون** ﴾ الأمر الذي دفعني لتفنيد أباطيل صاحبنا بسلاح الحجة والدليل.

وقد رأيتم تشجيع ربّنا لكل مسلم يطيع الله ويطيع رسوله في آية سورة النساء ٦٩ على أن مثل هذا المسلم المطيع لله ولرسوله، سينال حظا مما أنعم الله به، ليس على بني اسرائيل

وحدهم، كلا، بل مّما أنعمه سبحانه على جميع من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فما معنى، والحال هذه أن يخص الدكتور شحرور طلب النعمة في دعاء سورة الفاتحة بالنعمة التي حظي بها بنو اسرائيل؟؟؟

ندرك مما أسلفنا زيف مقارنة صاحبنا دعاء فاتحة الكتاب، بآية سورة البقرة ٤٧. وننتقل لتدقيق مقارنته الثانية مابين:

ولقد مننّا على موسى وهارون ←——— وآتيناهما الكتاب المبين، وهديناهم الصراط المستقيم. هاتان آيتان من آيات سورة الصافات الأربع التي سبق أن استدل بها صاحبنا، وقمنا حينذاك بنقض مااستدل منها وهو أن الصراط المستقيم في هذه الآيات لايعني الوصايا العشر المزعومة بدليل الواو العاطفة، ودليل لفظ (هديناهما) فلا أرى من ضرورة لإعادة ذكر وشرح مانقضناه فليرجع إليه.

لكني تعجبت من استدلال صاحبنا بألفاظ من الآية ٤٨ من سورة الأنبياء، وهي [ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان] استدل بهذه الألفاظ المجتزأة من الآية على أنها تقابل [ولقد مننا على موسى وهارون] علماً بأن ظاهر الآيتين لايدل على أية رابطة بينهما. وهو بعد أن استدلّ بألفاظ مجتزأة من الآية قال: (وهكذا نري أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم).

ولنعد إلى الآية بكاملها، فقد قال تعالى فيها: ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفُرقان وضياءً وذِكراً للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذكرٌ مبارك أنزلناه، أفأنتم له مُنكرون. ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكُنّا به عالمين**﴾.

إن صاحبنا أغفل (ضياءً وذكراً) فلماذا هذا الإغفال؟ وإنه وازن مابين هذه الآية، ومابين آية سورة الصافات. مع اختلاف ترتيب ماورد فيهما. هناك قدم [الكتاب المبين] على [الصراط المستقيم]. بينما قدم سبحانه هنا (الفرقان) على (ضياءً وذكراً) فلا توازن بين ترتيب معلومات الآيتين، ولا ذكر (للفرقان) في آيات سورة الصافات. فما معنى أن يجتزىء هذه الألفاظ ليخرج بنتيجة مزعومة وهي أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم؟ إلا أن تكون هذه النتيجة المستخلصة من هذا كله تنجيم بتنجيم وتخمين بتخمين؟؟؟ وقد سبق أن

تعرّضت لمعنى لفظ (فرقان) وأثبت حينها أن لاعلاقة بمعاني هذا اللفظ بالأمور السلوكية بشكل من الأشكال. وهل يستسيغ عالم أن يقبل بما أقدم عليه الدكتور شحرور من مخالفات لغوية ونصوصية؟

وقد جاء صاحبنا يزعم، بعد هذه المقارنات المفصولة بأسهم. وبعد النتيجة المزعومة التي نقضناها، قوله على ص ٦٧: (فالكتاب هو الرسالة، والحكمة هي الوصايا، والتوراة هي نبوة موسى، والإنجيل هو نبوة عيسى، ومجموعهم هو الكتاب المقدس. وللدلالة على أن الوصايا هي الحكمة، ذكر تسعاً من هذه الوصايا في سورة الإسراء من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٩، والتي تقول [ذلك ممّا أوحى إليك ربّك من الحكمة... الآية]. فالوصايا العشر بالنسبة لعيسى وللنبي محمد ﷺ هي جزء من الحكمة، حيث ذكر وصايا غيرها في سورة الإسراء، كقوله [ولاتمش في لاأرض مَرَحاً] الإسراء ٣٧. ودمجها تحت عنوان الحكمة. وكذلك في سورة لقمان بقوله [ولقد آتينا لُقمان الحكمة.. الآية] لقمان ١٢. وبما أن لقمان ليس نبياً ولارسولاً. فقد ذكر أن الحكمة "الأخلاق" يمكن أن تأتي لأي شخص في كل زمان ومكان، وذلك في قوله [ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً] البقرة ٢٦٩.

أما بالنسبة لموسى فقد جاءته الوصايا العشر "الفرقان" وسميت بإسمها. ولم يقل عن موسى إنه أوتي الحكمة. أما عن عيسى ومحمد فكلاهما أوتي الحكمة التي تعتبر الوصايا العشر الجزء الأساسي منها، وهي من الصراط المستقيم الذي يجب على كل إنسان ومجتمع إنساني أن يتبعها.). وظاهر أن جميع ماأورده في هذا النص إنما هو تقولات بتقولات، لم يناقش هو نفسه ولا واحدة منها. بل يفترضها مُسلّمات، وإن النفس التي اعتادت البحث والأسلوب العلمي لتَمجّ أسلوب صاحبنا هذا وتقوّلاته. ولتَعافُ نفسي بحث هذه التقولات المؤسفة التي نقضنا حتى الآن معظمها نقضاً قاطعاً. والجديد فيما ذكره صاحبنا ماذكره عن مفهومه للحكمة ومالحقها من مزاعم وإدعاءات. والظاهر أنه لم يراجع معاني كلمة حكمة إطلاقاً. فلنستمع إلى ماذكره اللغويون حول معني (حكمة). قالوا إن من معاني الحكمة: العدل، العلم، الحلم، النبوة، القرآن، وكل كلام موافق للحق، ووضع الشيء في مواضعه، واتقان القول والفعل وإحكامهما. والرجل الحكيم هو من كانت حجته قطعيّة الدّلالة ترقى إلى مرتبة البرهان. وعلى اساس من هذا المعنى ورد اسم الجلالة (الله الحكيم). والحكمة تعني الفلسفة. فإذا قيل فلان هو من أهل الحكمة فيعني أنه فيلسوف.

فهل يلاحظ القارىء الكريم نسبة مابين معاني (الحكمة)، ومابين الوصايا العشر المزعومة؟
ولقد استعمل الله عز وجل كلمة حكمة في كتابه العزيز بالمعاني التالية:

أولاً - استعملها بمعنى فلسفة الأحكام، وذلك في سورة الجمعة حينما قال ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا لفي ضلال مبين﴾. أي يعلّمهم فلسفة أحكام الكتاب.

ثانياً - استعملها بمعنى وضع الشيء في مواضعه. وذلك في قوله تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ البقرة ٢٦٩.

ثالثاً - استعملها بمعنى الدلالة القاطعة والبرهان وذلك في قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..﴾ النحل ١٢٥.

رابعاً - استعملها بمعنى المؤشر والدليل العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿حكمةٌ بالغة فما تُغنِ النذر﴾ القمر ٥. أي أن جميع ماأنزلناه من تعاليم، كان كلاماً مؤثراً عظيم التأثير من حيث حجمه وبراهينه واتّزانها، وبالرغم من هذا يصمّ الكافرون آذانهم عن سماعها.

على ضوء هذا تدركون معني الحكمة في قوله تعالى نسبة إلى عيسى عليه السلام: ﴿ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ آل عمران ٤٨، أي أن الله تعالى بشّر مريم قبل حملها به بأنه سيؤتيه ماآتي موسى، ويعلمه فلسفة تعاليمه. فأين هذا المعنى وماذهب إليه صاحبنا الدكتور، وهو قوله ص ٦٧ (فالوصايا العشر بالنسبة لعيسى وللنبي محمد ﷺ هي جزء من الحكمة، حيث ذكر وصايا غيرها في سورة الإسراء كقوله [ولاتمش في الأرض مرحاً] الإسراء ٣٧، ودمجها تحت عنوان (الحكمة). هذا الإدعاء الذي لايسنده من اللغة دليل كما رأيتم فيما تعلق بمعاني (كلمة) حكمة لغة.

إن خطوة صاحبنا الخامسة المذكورة كانت أكثر خطواته تشويشاً وهلهلة وبُطلاناً. فلننظر في خطوته السادسة والأخيرة. فقد قال على الصفحة (٦٨): (وبما أن الوصية الأولى في الفرقان هي التوحيد، وقد بعث الله الرسل والأنبياء من أجل التوحيد، فعندما ذكر الأنبياء والرسل في سورة الأنعام قال: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكمة والنبوة... الآية﴾ الأنعام ٨٩، وقوله ﴿ومن آبائهم وذرياتهم وأخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ الأنعام ٨٧ وهنا ذكر عبارة "صراط مستقيم" غير

معّرفة، لأنّ الصراط لم يأت بكامله إليهم جميعاً، بل أتى جزء منه إليهم كلهم، وهو التوحيد على الأقل أي [ألاّ تشركوا به شيئاً] الأنعام ١٥١، وإلى شعيب جاء التوحيد "الوصية الأولى" والوفاء بالكيل والميزان "الوصية السابعة").

خلاصة خطوة صاحبنا الأخيرة تحت عنوان مصطلح "الفرقان" هي أن كلمتي (صراط مستقيم) إذا وردتا مُعرّفتين بالألف واللام أي (الصراط المستقيم) يكون المراد منهما الوصايا العشر الموسوية التي يزعمها. وفي حال ورودهما غير معرفتين بالألف واللام أي (صراط مستقيم) فتدلّان على جزء من الوصايا المذكورة.

والقارىء الكريم أضحى عالماً ومُلماً بمعنى (الصراط المستقيم) كمصطلح قرآني، لايمت إلى الوصايا العشر بصلة من الصلات، من خلال ماسبق أن قدمت للقارىء من شرح لهذا الأمر على ضوء المعاني اللغوية لكلمتي (صراط مستقيم).

واطرح على صاحبنا الدكتور سؤالاً أرجو الإجابة عليه بصراحة تامة: هل تعتقد حضرتك أن محمداً رسول الله لم يؤت ماأوتي موسى، أم أنه أوتي الوصايا العشر؟

فإن قلت أوتي الوصايا العشر وأكثر منها، نسألك أن تفسر لنا، وعلى ضوء مصطلحك لمعنى (صراط مستقيم)، معنى [قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملّة ابراهيم حنيفاً، وماكان من المشركين] الأنعام ١٦١، فها أن محمداً يقول [هداني ربي إلى "صراط مستقيم"] وليس إلى [الصراط المستقيم].

فياصاحبنا الدكتور شحرور، إذا كنت أنت معتقداً بكمال الوصايا العشر الموسوية المزعومة، وبنقص الوصايا الإسلامية، فإن من المنطق أن تعتنق اليهودية ديناً، أو تفصح عن حقيقة معتقدك.

وهاأني أدرج لصاحبنا آيات وآيات، جميعها تدور حول (صراط مستقيم) وليس حول (الصراط المستقيم).

﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ البقرة ١٤٢ فهل يبخل الله على عباده، على اعتبار أنه لايهديهم إلى (الصراط المستقيم)؟؟؟

﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ الحج ٥٤، فهل أن الإنسان إذا اصبح مؤمناً يظل بحاجة ليهتدي إلى الوصايا العشر ناقصة؟

﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ المؤمنون ٧٣، فهل أن محمداً يدعو إلى وصايا ناقصة؟

﴿إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾ يس ٤، فهل أن محمداً لم يكتمل فهمه للوصايا العشر؟

﴿ويتم نعمته عليك، ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ الفتح ٢، فهل بخل الله على رسوله محمد بالوصايا العشر.

واسألك أخيراً مامعنى ﴿ ومامن دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها، إن ربي على "صراط مستقيم"﴾ هود ٥٦، فهل إن ربّك، دون الوصايا العشر المزعومة والعياذ بالله، فما إنه يقول ﴿ إن ربي على "صراط مستقيم"﴾ وليس على "الصراط المستقيم".

حياءً أيها الأخ المسلم، فقد أثبتنا بطلان مصطلحك "الفرقان".

مراجعنا المعتمدة:

في اللغة:

لسان العرب لابن منظور

المفردات للاصفهاني

تاج العروس للحسيني

محيط المحيط للبستاني

الموجز في تاريخ البلاغة

المفصل في علم اللغة العربية

دلائل الإعجاز

الخصائص

الجمل للجرجاني

في التفسير:

التفسير الكبير للرازي

تفسير الكشاف للزمخشري

تفسير روح البيان للبروسوي

تفسير ابن جرير للطبري

تفسير ابن كثير بأجزائه

في السيرة:

سيرة ابن هشام

السيرة الحلبية

تاريخ الخميس

في الحديث:

جامع صحيح البخاري للبخاري

صحيح مسلم للقشيري

جامع الترمذي للترمذي

سنن أبي داوود للسجستاني
سنن النسائي للنسائي
موطأ الإمام مالك لمالك
الزرقاني للزرقاني
مسند أحمد بن حنبل لابن حنبل
المرقاة للقاري
كنز العمال للهندي
السنن الكبرى للبيهقي
سنن الدارقطني للدارقطني

في الفقه:

كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري.